مايكل وولف

الكاتب الأكثر مبيعاً عن كتابه «نار وغضب» بحسب صحيفة النيويورك تايمز



الحصار

ترامب تحت القصف

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

مايكل وولف

الحصار
ترامب تحت القصف





شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

الجناح، شارع زاهية سلمان
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ١١-٨٣٧٥ بيروت، لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+
email: publishing@all-prints.com
tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٩

ISBN: 978-6144-58-513-9 النسخة الورقية

ISBN: 978-6144-58-399-9 النسخة الإلكترونية

Originally published as: **SIEGE: Trump Under Fire.**

صورة الغلاف: © Drew Angerer / Getty Images

صورة الكاتب على الغلاف: © Jen Harris

تصميم الغلاف: Rick Pracher

الإخراج الفني: بسمة تقي

لذكرى والدي لويس أ. وولف

المحتويات

تنويه

بعد وقت قصير من تنصيب دونالد ترامب الرئيس الخامس والأربعين للولايات المتحدة، سُمح لي بدخول الجناح الغربي من البيت الأبيض بصفة مراقب ثانويّ. وقد جاء كتابي «نار وغضب»[1] نتيجة لاستمرار الفوضى والدراما التي اتسمت بكونها دراما نفسية أكثر من كونها سياسية. وهذا ما وسم الأشهر السبعة الأولى من ولاية ترامب. خلال تلك الفترة، كان يسكن البيت الأبيض رئيس حائر متردد، ومتقلّب المزاج، يصبُّ يوميًّا جامّ غضبه المستغرب على العالم، وعلى فريقه الشخصي، في آن. انتهت في شهر آب/أغسطس من العام 2017، المرحلة الأكثر شذوذًا وانحرافًا في التاريخ الأميركي، برحيل كبير المستشارين الاستراتيجيين ستيفن ك. بانون، وتعيين الجنرال المتقاعد جون كيلي في منصب كبير الموظفين.

بدأت أحداث هذا الكتاب الجديد في شهر شباط/فبراير، مطلع السنة الثانية من الولاية، مع وضع شهد تغيُّرًا عميقًا. فقد قوبلت نوبات غضب الرئيس النزويّة برد فعل مؤسساتي ممنهج ومنظم. كانت عجلة العدالة تدور ضدّه بلا هوادة. فقد بدأت الحكومة التي اختارها، وحتى موظفو البيت الأبيض، بالانقلاب عليه بطرائق متعددة. من الناحية العملية، كانت كل قوة سياسية تتموضع على يسار الجناح اليميني المتطرف، تعتبره غير مناسب للمنصب. حتى أن بعض الأشخاص الذين ينتمون إلى قاعدته الشخصية كانوا يجدونه غير جدير بالثقة، ومشتَّت الذهن على نحو ميؤوس منه، وعاجزًا تمامًا. ولم يحدث أن واجه رئيسٌ مثل هذا الهجوم المنسّق، بمثل هذه القدرة المحدودة على الدفاع عن نفسه.

كان أعداؤه يحاصرونه، وكانوا مصمّمين على إسقاطه.

* * *

معظم الذين قابلوا ترامب بعد أن انتُخب رئيسًا كانوا مثلي مأخوذين بكمّ الفوضى التي يحدثها حوله. وكان بعضهم يعرف أنه سيدمر نفسه بنفسه في نهاية المطاف. وقد عنى العمل في الأماكن القريبة منه تعرُّضًا لتصرُّفات مفعمة بالقساوة والتطرّف. وهذه ليست مبالغة بأي حال من الأحوال. لم يكن ترامب مختلفًا عن الرؤساء الآخرين فحسب، بل كان مختلفًا عن أي شخص سبق لأي منا أن عرفه في وقت من الأوقات. وبالتالي، فإن أي شخص قريب منه، كان يشعر أنه مجبر على أن يحلّل شخصيته ويروي غرائبها. هذا معوّق يُضاف إلى معوّقاته: كل الذين يحيطون به، مهما تكن الوعود التي قطعوها له بحفظ الأسرار والتكتم عليها وعدم كشفها، أو بالحفاظ على عرى الصداقة، لا يستطيعون منع أنفسهم عن سرد تجربتهم معه. بناء على ذلك، كان ترامب الأكثر انكشافًا من كل الرؤساء في التاريخ الأميركي.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر IKitab

عدد كبير من الأشخاص الذين ساعدوني أثناء كتابة «نار وغضب»، هم الآن خارج الإدارة، لكنهم لا يزالون مرتبطين بقصة ترامب الملحمية. أشعر بالامتنان لأنني جزء من هذه الشبكة الكبيرة. ولا يزال كثير من رجال ترامب ما قبل البيت الأبيض يستمعون إليه ويدعمونه؛ وفي الوقت نفسه، وتعبيرًا عن قلقهم وارتيابهم على حدٍّ سواء، يتناقلون في ما بينهم، ومع الآخرين أيضًا، أخبار طباعه ومزاجه ونزواته. وقد لاحظت بشكل عام أن أقرب الأشخاص إليه هم الأكثر قلقاً على حالته العقلية. وجميعهم يتساءلون عن مصيره، علماً أن معظمهم يجمع على أن نهايته ستكون سَيئة جدًّا. في الحقيقة، يُحتمل أن يكون ترامب موضوعًا يهمُّ الكتّاب المعنيين بالقدرات البشرية وإخفاقاتها، أكثر مما يهم المراسلين والكتّاب الذين يغطّون أخبار واشنطن بانتظام، والذين ينحصر اهتمامهم، في المقام الأول، بالسعي خلف الشهرة والسلطة.

إن هدفي الرئيسي من كتابة «الحصار»، هو سرد رواية سهلة القراءة وبديهية؛ وهذا ما يميّز الكتاب. وثمة هدف آخر، وهو كتابة ما قد يُشكّل تاريخًا موازيًا للحظات الاستثنائية فور حدوثها، كي تُفهَم جيدًا قبل فوات الأوان. أما الهدف الأخير، فهو تصوير دونالد ترامب، كشخصية أميركية متطرفة، شبه هذيانية، وتحذيرية بالتأكيد. لإنجاز ذلك، واكتساب الرؤية، وإيجاد الأصوات الضرورية لرواية أصدق

قصة وأدقّها، منحتُ السرية التامة لكل مَن طلبها من مصادري. في الحالات التي رُوي لي فيها، حدثٌ غير موثّق، أو غير مسجّل، أو محادثة خاصة أو ملاحظة، وطُلب مني التعهّد بعدم ذكر المصدر، بذلتُ أقصى جهدي للتحقُّق من صحة المعلومة وتأكيدها عبر مصادر أخرى، أو بالاستناد إلى الوثائق. وفي بعض الحالات، كنتُ شاهدًا على الأحداث والمحادثات الواردة في هذا الكتاب. أما تحقيق مولر، فالرواية التي أقدّمها عنه ترتكز على وثائق داخلية، حصلتُ عليها من مصادر مقرّبة من مكتب المحقّق الخاص.

ظلّ التعامل مع مصادر البيت الأبيض ينتج إشكالاته الخاصة. فالشرط الأساسي للعمل في البيت الأبيض، هو بالتأكيد، الاستعداد لتبرير الواقع، أو نزع الشرعية عن الحقيقة بشكل نهائي؛ واللجوء، عند الضرورة، إلى الكذب الخالص. في الواقع، أعتقد أن هذا ما دفع بعض الأشخاص الذين قوّضوا الثقة العامة أن يصبحوا، هم أنفسهم، رواة مأجورين. هذه صفقتهم مع الشيطان. ولكن استجواب مصادر كهذه، بوجهين متناقضين، يخلق بحد ذاته معضلة للكاتب، إذ يتطلّب الاعتماد على أشخاص يكذبون لإيصال الحقيقة، علماً أنهم قد ينكرون لاحقًا الحقيقة التي رووها. في الواقع، وفي كثير من الأحيان، ينكر المتحدثون الرسميون والرئيس نفسه، الطبيعة الاستثنائية التي تميّز معظم ما حدث في البيت الأبيض الذي يسكنه ترامب. مع ذلك، وفي كل من الروايات المتعاقبة عن هذه الإدارة، جرى تأكيد مستوى عبثيتها، على الرغم من الرفع المستمر لعتبة هذا المستوى.

في جوّ يروّج الغلو والمبالغة ويتطلّبهما في أغلب الأحيان، تصبح النبرة نفسها جزءًا أساسيًّا من الصحة والحقيقة. على سبيل المثال، غالبًا ما تصف مجموعة كبيرة من الأشخاص المقرّبين، عدم استقرار الرئيس العقلي، بأشد العبارات حسمًا. «لم ألتقِ في حياتي كلها شخصًا أكثر جنونًا من دونالد ترامب». تلك هي كلمات أحد أعضاء الفريق الذي قضى مع الرئيس عددًا لا يُحصى من الساعات. وقد روى لي أشياء كهذه، ما يزيد على عشرة أشخاص من ذوي التجربة، الذين يعملون في الصف الأول. كيف تترجم ذلك إلى تقييم مسؤول لهذا البيت الأبيض الفريد؟ إن استراتيجيتي هي الإظهار وليس الإخبار، لوصف السياق الأوسع، وإيصال التجربة، ولجعلها حقيقية، بما يكفي لكي يعرف القارئ الدرك الذي سقط إليه ترامب على سلّم السلوك الإنساني. إن وصف هذا الوضع، الذي يمثّل حالة عاطفية أكثر من كونها سياسية، هو

جوهر هذا الكتاب.

الفصل الأول
المستهدف

بدت على وجه الرئيس أمارات الامتعاض المألوفة، قبل أن يشيح بيده وكأنه يطرد حشرة عنه. وقال:

- لا تخبرني بهذا. لمَ تخبرني به؟

كان جون داود، محامي ترامب الشخصي، يجتمع به في أواخر شباط/فبراير 20، أي بعد مرور أكثر من عام على تولّي الرئيس الأميركي منصبه، محاولًا إعلامه باحتمال أن يصدر المدعون العامون مذكّرة طلب إحضار لبعض سجلات الأعمال الخاصة بمؤسسة ترامب.

وبدا أن انزعاج ترامب من سماع محاميه يسرد عليه تلك التفاصيل يفوق انزعاجه من تبعات مثل هذا التدقيق والتمحيص في شؤونه الخاصة. وتحوّل الضيق إلى شيء من الغضب. لم يكن غضبه من الذين يتعقبونه أو يجرون خلف الثغرات، بل لأن أحدًا لم يكن ليدافع عنه. إذ كانت مشكلته تكمن في رجاله، وعلى نحو خاص في محاميه.

يريد ترامب من محاميه «إصلاح» الأمور. «لا تأتوني بمشكلات، بل اعرضوا عليّ الحلول»، تلك هي العبارة التي لم يكن يملّ من ترديدها. ومعياره في الحكم على محاميه هو مدى قدرتهم وبراعتهم في لَيّ عنق القانون تحقيقًا لمصلحته وحمايته. حتى أنه لم يكن ليتورّع عن توجيه أصابع الاتهام إليهم في حال عجزهم عن التعامل مع مشكلاته. أي إنهم باتوا يلامون على مشكلاته هو. بينما كانت

تعليماته الدائمة لهم تقول: «خلّصوني من هذه الورطة». وكثيرًا ما كان يكرّرها متتالية: «خلّصوني من هذه الورطة.. خلّصوني من هذه الورطة.. خلّصوني من هذه الورطة».

لم يكن دون مكغان يتميّز بقدرة على حلّ المشكلات وجعلها تختفي، وبالتالي كان عليه أن يتحمّل باستمرار وطأة لسان ترامب الفظ وفورات غضبه، إذ لم يكن ترامب ليقتنع بأن من يكون محامياً للبيت الأبيض لا يكون بالضرورة محامياً للرئيس نفسه، كما أن تأويل دون مكغان القانوني للدور الأمثل الذي ينبغي أن يؤديه الفرع التنفيذي كثيرًا ما يحبط آمال رئيسه.

وعلى جانب آخر، أصبح فريق المحامين، المكوَّن من داود وزميليه تاي كوب وجاي سيكولو والموكلة إليه مهمة إنقاذ الرئيس من مشكلاته القانونية الشخصية، بارعًا في تحاشي سماجة موكّله، والتي تكون في العادة مصحوبة بتهديد ووعيد واتهامات شخصية يصوّبها إلى كل اتجاه. وأيقن الثلاثة أن محامي دونالد ترامب الناجح هو الذي يخبره بما يرغب في سماعه فحسب.

كانت لدى ترامب قناعة بشأن المحامي المثالي من وجهة نظره، وهي قناعة لم تكن لها أدنى علاقة بممارسة مهنة المحاماة. يستحضر دومًا نموذجين هما: روي كون، المحامي وصديقه القديم منذ أيام نيويورك، فضلًا عن كونه ناصحًا مخلصًا وقوي الشكيمة، وروبرت كينيدي، شقيق الرئيس الراحل جون كينيدي. يقول ستيف بانون، كبير استراتيجيي البيت الأبيض السابق، والذي ينسب إليه الفضل الأكبر في اقتناص ترامب لمقعد الرئاسة: «كثيرًا ما كان يتحدث معي عن روي كون وبوبي كينيدي.. لا ينفك يثرثر عنهما.. روي كون وبوبي كينيدي.. أين أجد من حولي أمثال روي كون وبوبي كينيدي؟». لقد نجح كون في بناء أسطورته التي خلبت لب ترامب حتى اليوم، والتي تمثّلت في حقيقة أن المنظومة القانونية ألعوبة بيدَيْ مَن يتحلّى بالقدر الكافي من الصبر والجلد والقوة والعزيمة. وكان بوبي كينيدي المدّعي العام في إدارة أخيه جون كينيدي وكذلك حامي حماه؛ فكان غطاءه، مستغلًا مراكز القوى لمصلحة العائلة.

وضع ترامب نصب عينيه فكرة رئيسية، هي: التغلب على النظام. كان يتفاخر أمام أصدقائه في نيويورك قائلًا: «أنا من ينجو دومًا بفعلته».

وفي الوقت نفسه، لم يكن راغبًا في معرفة تفاصيل قضاياه. لا يريد سوى أن يطمئنه محاموه بأنه في الكفة الراجحة. صاح ذات ظهيرة في وجوه أعضاء فريقه القانوني الخاص، قائلًا: «نحن الرابحون، أليس كذلك؟ هذا ما أريد سماعه. هذا ما أريد أن أعرفه. لكن إذا لم نكن الرابحين، فإن هذا يعني أنكم فاشلون».

وتمثَّل التحدي منذ البداية في العثور على نخبة من المحامين القادرين على تولّي مهمة قانونية كانت في الماضي القريب تمثّل الفرصة الذهبية لأي محام، وهي تمثيل رئيس الولايات المتحدة الأميركية. وذات مرة، أعطى أحد المدّعين المتخصصين في جرائم ذوي الياقات البيضاء ترامب قائمة بعشرين مسألة، عليه أن يتعامل معها إذا كان سيمثّله. ولكن ترامب رفض النظر في أي من تلك المسائل. بينما رفضت العديد من المؤسسات القانونية الكبرى فكرة تمثيله قانونيًّا. ولم يجد ترامب في نهاية المطاف بُدًّا من الاستعانة بمجموعة ضعيفة من المحامين الأفراد الذين ليست لديهم ما لدى، المؤسسات القانونية الوازنة، من مقدرة وموارد. واليوم، وبعد مرور ثلاثة عشر شهرًا على تنصيبه رئيسًا، يجد نفسه أمام مشكلات قانونية شخصية ليست أخف وطأة بأي حال من تلك التي وصمت سيرة سلفيه ريتشارد نيكسون وبيل كلينتون، وليس حوله سوى حفنة من المستشارين القانونيين المحدودي الكفاءة. على أن نقطة الضعف هذه تبقى فيما يبدو غائبة عن ترامب. وقد بلغ إنكاره لفداحة التهديدات القانونية المحدقة به مبلغًا دفعه إلى القول إن اعتماده على محامين جيدين لا بدّ أن يظهره بمظهر المذنب.

صنع داود، الذي يبلغ من العمر سبعة وسبعين عامًا، مسيرة قانونية ناجحة وحافلة، سواءً على الصعيد الحكومي أو مع شركات المحاماة في واشنطن. ويبدو أنه الآن حريص على تأجيل تقاعده قدر الإمكان. وقد أدرك أهمية فهم احتياجات موكله وانعكاس هذا الفهم على موقعه ضمن الحلقة القانونية المقرّبة من ترامب. فكان مجبرًا أن يوافق على تقييم الرئيس لمجريات التحقيق بشأن ارتباط حملته الانتخابية بالمصالح الرسمية الروسية؛ وهو تقييم يفيد بأن أي اتهام لن يطاله. وتحقيقًا لهذه الغاية، أوصى داود، والأعضاء الآخرون في الفريق القانوني لترامب، الرئيس، بالتعاون مع تحقيق مولر. وكان ترامب يود أن يستمع منهم إلى ما يطمئنه:

«أنا لست مستهدفًا، أليس كذلك؟».

ولم يكن ليقنع بالسؤال فحسب، بل أصرّ أن يسمع ردًّا، وردًّا إيجابيًّا:

«سيدي الرئيس، أنت لست مستهدفًا».

في بداية رئاسته، دفع ترامب مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي جيمس كومي إلى تقديم هذا الاطمئنان على وجه التحديد. وفي واحد من تحرُّكاته الرئاسية التي صارت علامة تميزه، أقال كومي في أيار/مايو 2017 لأسباب منها أنه غير راض عن حماسة التأكيد الذي قدّمه، وبالتالي افترض أن كومي كان يتآمر ضده.

بدا أن ترامب معنيٌّ فقط بالاطمئنان إلى أنه ليس مستهدفاً، بغضّ النظر عن حقيقة كونه مستهدفاً أم لا، إذ كان من الواضح أنه يحتلّ موقعاً مركزياً في تحقيق مولر.

يقول تاي كوب لستيف بانون: «تعلّمت من ترامب أن أي أمر وإن كان سيئًا، فإنه عظيم».

تخيَّل ترامب، وبثقة خارقة، أن لا شيءَ سيطاله، وأنه سوف يتلقّى في المستقبل القريب جدًا، خطاب تبرئة شاملًا من المستشار الخاص لوزارة العدل. ولم ييأس من ذلك إذ قال:

«أين هو ذاك الخطاب اللعين؟».

* * *

كانت هيئة المحلفين الكبرى التي يرأسها المستشار الخاص روبرت مولر تجتمع يومَي الخميس والجمعة في المحكمة الفيدرالية بواشنطن. وباشرت أعمالها في الطابق الخامس من مبنى عادي رقمه 333 في كونستتيوشن أفنيو. وتجمّع المحلّفون الكبار في مساحة أقرب إلى قاعة دراسة منها إلى قاعة محكمة، حيث كان المدّعون في المنصة والشهود يجلسون إلى مكتب في صدر القاعة. وكان غالبية محلّفي مولر من السيدات، وأكثرهم من البيض وكبار السن. وما كان يميز بينهم هو درجة التركيز وشدّته. قال أحد الشهود إنهم استمعوا إلى مجريات الجلسة «بدرجة غريبة من الاهتمام، كما لو أنهم يعرفون كل شيء بالفعل».

في أي جلسة لهيئة المحلفين الكبرى، يندرج الأعضاء تحت واحدة من ثلاث فئات. إما أن تكون «شاهد حال»، بمعنى أن المدعي يعتقد أن لديك معلومات حول التحقيق؛ أو أنك «موضوع الدعوى»، وهذا يعني أنك متورّط شخصيًّا في الجريمة قيد التحقيق؛ أو أن تكون «الهدف»، وهذه هي الوضعية الأكثر إثارة للقلق، بمعنى أن المدعي العام يسعى إلى أن تدينك هيئة المحلفين الكبرى. وغالبًا ما يكون الشهود هم موضوعات الدعوى، وكثيرًا ما يتحوّلون إلى أهداف.

وفي أوائل العام 2018، وحيث كانت تحقيقات مولر وهيئة محلّفيه الكبرى تتوخّى مستوىً تاريخيًّا من السرّية، لم يكن أحد في البيت الأبيض متيقّنًا من أي شيء، أو يعرف مصدر أي معلومة. وكان بإمكان أي شخص، يعمل لمصلحة الرئيس أو أحد كبار مساعديه، التحدث إلى المستشار الخاص. وشملت قواعد الصمت والسرية الجناح الغربي من البيت الأبيض. ولم يكن أحد يعلم، ولا أحد يُخبر عن مصدر تسريب أي معلومة.

ثمة محامٍ لكلّ من الموظفين الكبار في البيت الأبيض، أي مجموعة المستشارين الذين يتعاملون بشكل مباشر مع الرئيس. في الواقع، ومنذ الأيام الأولى للرئيس في البيت الأبيض، كان ماضيه القانوني المتشابك، والافتقار الواضح إلى العناية القانونية يلقيان بظلالهما على أولئك الذين عملوا معه. كان الكبار يبحثون عن محامين، رغم أنهم ما زالوا يعملون في جنبات الجناح الغربي.

وفي شباط/فبراير 2017، أي بعد أسابيع فقط من تنصيب ترامب، ولم يكن قد مضى وقت طويل على قيام مكتب التحقيقات الفيدرالي بطرح أسئلته حول مستشار الأمن القومي مايكل فلين، دلف رئيس موظفي البيت الأبيض راينس بريبوس إلى مكتب ستيف بانون، وقال له: «سأسدي إليك خدمة كبيرة. أعطني بطاقة الائتمان الخاصة بك ولا تسألني عن السبب، ناولني إياها فحسب. ولسوف تشكرني بقية حياتك».

فتح بانون محفظته وناول بريبوس بطاقة أميركان إكسبرس. عاد إليه بريبوس بعد قليل، وأعاد إليه البطاقة وهو يقول: «أصبح لديك الآن ضمانة قانونية».

خلال العام التالي، قضى بانون، شاهد الحال، مئات الساعات مع محاميه يستعدون لشهادته أمام المستشار الخاص وأمام الكونغرس. وقضى محاموه بدورهم ساعات متواصلة في التحدث مع فريق مولر ومع محامي لجنة الكونغرس. حتى أن التكاليف القانونية التي تكبّدها بانون في نهاية العام بلغت مليوني دولار.

كانت النصيحة الأولى التي قدّمها كل محام إلى موكّله واضحة وصريحة: لا تتحدث إلى أحد، لئلا يتحتّم عليك الإدلاء بشهادتك بشأن ما قلته. وقبل مضي وقت طويل، كان الشغل الشاغل لكبار موظفي ترامب في البيت الأبيض هو الابتعاد عن مصادر المعلومات قدر الإمكان. وانقلبت الحال؛ وبعد أن كان الجميع ينشدون المشاركة في الاجتماعات، أصبحوا يهدفون إلى الابتعاد عنها. الكل يتجنب أن يكون شاهدًا على حوارات أو محادثات؛ الكل يريد ألا يراه أحد وهو شاهد على أي شيء، إن استطاع ذلك بالطبع. ولم تعد هناك صداقات بالمعنى الحقيقي. ومن المستحيل أن تعرف موقف زميل في التحقيقات؛ وبالتالي، لم يكن لديك أي طريقة لمعرفة مدى احتمال احتياجهم إلى تقديم شهادة عن شخص آخر؛ قد يكون أنت، لتكون ورقة مساومة ينقذون بها أنفسهم، بإظهار التعاون مع المستشار الخاص.

وسرعان ما بات البيت الأبيض لعنة على كل من يعمل فيه تقريبًا، بعد أن تحوَّل إلى مسرح دائم للتحقيقات الجنائية، من النوع الذي يمكن أن يطال كلّ من حوله.

* * *

كانت هوب هيكس بمثابة مستودع أسرار ترامب طوال حملته الانتخابية، وخلال الفترة الانتقالية، ثم أصبحت مديرة الاتصالات في البيت الأبيض خلال العام الأول من إدارته. وهي شاهدة على كل شيء. رأت ما رآه الرئيس، وعرفت ما عرفه الرجل الذي يعجز عن السيطرة على لسانه.

وفي 27 شباط/فبراير 2018، وخلال إدلائها بشهادتها أمام لجنة الاستخبارات بمجلس النواب، وكانت قد مثلت بالفعل أمام المستشار الخاص، واجهت أسئلة حول ما إذا كانت قد كذبت لحماية الرئيس. ربما أمكن لخبير اتصالات متمرس أن ينجو بنفسه من هذا المأزق، ولكن هيكس كانت ذات خبرة قليلة تنحصر في كونها

المتحدثة باسم دونالد ترامب، وهو دور يستدعي بالأساس أن تتعامل مع رجل لا يلقي بالًا على الحقائق المبنية على التجربة، وبالتالي وجدت نفسها في موقف أخلاقي مفاجئ وغير متوقع، وهي تحاول أن تنفي أي أهمية لأكاذيب رئيسها. وأقرت أنها لجأت إلى «أكاذيب صغيرة بيضاء». وكان هذا إقرارًا مسبقًا كافيًا ليستدعي اجتماعًا مع محاميها على مدار عشرين دقيقة. وقد كانوا مستائين مما قد تكون اعترفت به، ومن تبعات موقف ترامب من كل هذا.

ولم يمر وقت طويل على إدلائها بشهادتها، حتى سُئل شاهد آخر، أمام هيئة محلفي مولر الكبرى، عن الحد الذي قد تصل هيكس إليه في الكذب لحماية الرئيس. وأجاب الشاهد: «أعتقد أنها لن ترفض له أي طلب، ولكنها لا يمكن أن تضحّي بنفسها لأجله». ويمكننا النظر إلى هذه العبارة على أنها مديح مبطّن بالهجاء؛ وكذلك إبداء رأي في درجة الولاء لترامب في البيت الأبيض؛ والواضح أنه ليس ذاك الحد من الولاء.

يمكن القول إن أيًّا من أفراد إدارة ترامب لم يكن مناسبًا لوظيفته على النحو المتعارف عليه. لكن، إذا استثنينا الرئيس نفسه، تكون هيكس أفضل تجسيد لكل ما تفتقر إليه هذه الفترة الرئاسية من استعداد وتأهيل ودراية. فخبراتها الإعلامية أو السياسية ضئيلة، ولم تتمرس على الضغوط، وهي سمة لا يمكن امتلاكها إلا بعد سنوات طويلة من العمل العام. كانت على الدوام ترتدي التنانير القصيرة التي يفضّلها ترامب. وكان إعجابه بها ليس لما تتمتّع به من مهارات سياسية تمكّنها من حمايته، بل لأنها طوع يديه فحسب. كانت مهمتها أن تكرّس نفسها لرعايته.

تقول هيكس: «عندما تتحدث إليه، عليك أن تبدأ بما هو إيجابي». بهذا تنصح وهي تتفهّم حاجة ترامب إلى الطمأنينة المستمرة وعجزه شبه التام عن التحدث إلا عن نفسه. وكان اهتمامها بترامب، وطبيعتها التي جعلتها لا ترفض له طلبًا، سببًا في أن تصل وهي بعدُ في سن التاسعة والعشرين إلى منصب مديرة الاتصالات في البيت الأبيض. وكانت من الناحية العملية كبيرة الموظفين فعليًّا. وبحكم الأمر الواقع، لم يرغب ترامب في أن تكون إدارته مؤلفة من محترفين؛ بل أراد من كل من هم حوله أن يكونوا فقط في خدمته.

كانت هيكس، أو «هوبي» كما تعوّد ترامب أن يناديها، المدخل إلى الرئيس،

والغطاء الذي يحميه في الآن نفسه. كما كان ترامب يهتم بها اهتمامًا من نوع آخر، حيث كان يفضّل أن يضفي الصبغة الشخصية على العمل، حتى وإن كان الأمر يتعلق بالبيت الأبيض. وأصر ليعرف إن كانت هوب على علاقة غرامية بشخص ما. وهو موضوع أثار اهتمام ابنه دونالد جونيور، الذي صرح كثيرًا أنه يتمنّى «مضاجعة هوب». وأظهرت ابنة الرئيس إيفانكا وزوجها جاريد كوشنر، وكلاهما من كبار مستشاري البيت الأبيض، اهتمامًا بهيكس؛ وفي بعض الأحيان كانا يقترحان عليها رجالًا مؤهّلين للارتباط بها.

ولأن هيكس تتفهم الطبيعة الانعزالية لعالم ترامب، فقد قررت ألّا تكون علاقاتها الغرامية بعيدة عن ذلك المحور، فاختارت من عشاقها الاثنين الأكثر وقاحة، وهما: مدير الحملة الانتخابية كوري ليفاندوفسكي، خلال الحملة؛ والمساعد الرئاسي روب بورتر بعد دخول البيت الأبيض. ولما تكشفت العلاقة بين هيكس وبورتر في خريف العام 2017، صار ذلك شعاراً لترامب العليم ببواطن الأمور. ومع الحرص على إخفاء هذا الأمر عن الرئيس، هناك من رأى عدم حجب أي شيء من هذه العلاقة عن الرئيس، ظنًا منه أنه لن يرضى بعلاقة تجمع بين بورتر وهيكس.

* * *

بالنظر إلى الأجواء العدائية للغاية التي كانت تعصف بالبيت الأبيض في عهد ترامب، ربّما حاز روب بورتر كراهية الجميع باستثناء الرئيس. كان الرجل الوسيم، الذي يذكّرك بنجوم هوليوود في خمسينات القرن الماضي، والذي من السهل جدًا أن يكون نجمًا لإعلانات مستحضرات العناية بالشعر، مثار سخرية ومضرب مثل للخيانة والغدر: فهو إذا لم يطعنك في الظهر، فسوف تجد نفسك مجبرًا على الاعتراف بأنه يستهين بشأنك إلى أبعد مدى. ولقد شبهه بانون بـ «إدي هاسكل»، أحد نجوم مسلسلات السيتكوم الهزلية، والذي تحوّل إلى أيقونة تلفزيونية لبراعته في أداء أدوار الخائن الكذاب في مسلسل Leave It to Beaver. فقد تقرّب من كبير الموظفين جون كيلي، في الوقت نفسه الذي كان يبخ فيه سمومه عليه لدى الرئيس. ويبدو أن تقدير بورتر لمسؤولياته الكبيرة في البيت الأبيض، إلى جانب المناصب العليا التي كان الرئيس يعده بها، جعله يحمل الإدارة والأمة على عاتقه.

مر بورتر قبل بلوغ ربيعه الأربعين بتجربتَيْ زواج فاشلتين. فقد اعتدى

بالضرب على إحدى زوجتَيه، كما خان الاثنتين في فضائح تحدثت عنها المدينة. وأثناء عمله في الطاقم الإداري للكونغرس، تورّط بورتر المتزوّج في علاقة مع إحدى المتدربات، الأمر الذي كلّفه وظيفته. وانتقلت رفيقته سامانثا درافيس للعيش معه في صيف 2017، ولكنه، على غفلة منها، بدأ يلتقي هيكس، وصرّح لها ذات يوم: «لقد خنتك لأنك لست جذابة بما يكفي».

وفيما يُعدّ انتهاكًا جنائيًّا للبروتوكول، تمكّن بورتر من الوصول إلى التقارير المتعلقة به لدى مكتب التحقيقات الفيدرالي، واطلع على أقوال زوجتيه السابقتين. كما كتبت زوجته السابقة الثانية عبر مدونة إلكترونية عما تعرّضت له من إساءة معاملة. ورغم أنها لم تذكره بالاسم، إلا أن التلميحات كانت واضحة للغاية. وبسبب قلقه من التأثير السلبي لأقوال زوجتيه السابقتين على تقريره الأمني، استعان بدرافيس لمساعدته على تحسين علاقته بهما.

علم ليفاندوفسكي، بأمر علاقة صديقته السابقة هيكس وبورتر؛ وبدأ يعمل على فضحها؛ وتمكّن ببعض التقارير، من تشجيع الباباراتزي على تعقُّبها. وبرغم أن سابقة الاعتداء التي ارتكبها بورتر، عادت لتطفو على السطح نتيجةً لتحقيقات المكتب الفيدرالي، فإن حملة ليفاندوفسكي ضد هيكس أسهمت، وبطريقة غير مباشرة، في إعادة تسليط الضوء على انتهاكات بورتر.

في خريف العام 2017، وصلت إلى مسامع درافيس تلك الشائعات التي روّجها ليفاندوفسكي حول علاقة هيكس وبورتر. وبعد أن عثرت على رقم هاتف هيكس مدرجًا في هاتف بورتر باسم رجل، قررت درافيس أن تواجهه. فطردها من منزله. وعقب عودتها للعيش مع أبويها، بدأت تخطّط للانتقام. وتحدثت صراحةً عن اطلاع بورتر على تقاريره الأمنية. وكان ممّن تحدثت إليهم موظفون في مكتب مستشار البيت الأبيض. وقالت إنه يتمتع بالحماية على أعلى المستويات في البيت الأبيض. وبالإضافة إلى جهود ليفاندوفسكي، أسهمت درافيس في تسريب تفاصيل علاقة هيكس وبورتر الغرامية إلى الديلي ميل، التي نشرت القصة في الأول من شباط/فبراير.

لكن درافيس، برفقة زوجتَيْ بورتر السابقتين، لاحظت أن صورته ظلت ثابتة ولم تهتزّ بعد ما نشرته الديلي ميل؛ واتصل بورتر بدرافيس ليسخر منها، قائلاً:

«ظننتِ أن بوسعك النيل مني!». وقررت درافيس وزوجتاه فضح اعتدائه عليهن. وذكرت زوجته الأولى أنه ركلها ولكمها؛ حتى أنها قدمت إلى الصحافة صورة لعينها المصابة. وصرّحت زوجته الثانية للإعلام بأنها تقدمت بطلب لإصدار أمر حماية وقائي.

كان البيت الأبيض، أو كيلي على الأقل وربما هيكس، على علم بتلك الاتهامات والادعاءات. وسعى إلى التعتيم عليها تعتيماً واسع النطاق. (يقول أحد معارف بورتر من الجمهوريين: «يكون لديك في العادة عددٌ كافٍ من الأشخاص المؤهلين لشغل مناصب في البيت الأبيض، بما يسمح لك صرف النظر عن أشخاص اعتدوا بالضرب على زوجاتهم. ولكن هذا الخيار غير متاح في بيت ترامب الأبيض»). ولم يقتصر تأثير فضائح بورتر على شعور ترامب بالضيق منه فحسب: «إنه يفوح بنتن رائحة الصحافة السيئة»، بل أسهم في إضعاف موقف كيلي. وفي 7 شباط/فبراير، بعد أن التقت شبكة السي. إن. إن زوجتيه السابقتين، استقال بورتر من منصبه.

يثني دونالد ترامب على مساعديه الذين لا يسرقون منه اهتمام الصحافة ووسائل الإعلام. ولكن هيكس، التي ظلّت بعيدة عن دائرة الضوء الإعلامية، وجدت حياتها الشخصية بغتةً في أتون الملاحقة الإعلامية العالمية. وكان لعلاقتها ببورتر دور في تسليط الضوء على علاقتها المستغربة بالرئيس وعائلته، فضلاً عن أسلوب إدارتها الاعتباطي، وصعوبة تواصلها مع الآخرين، وافتقارها إلى الدهاء السياسي.

* * *

كان مستغربًا أن تكون هذه العلاقة من بين أقلّ مشكلات هيكس. فقد ارتأت أن فضيحة بورتر ربما أصبحت ذريعة مثالية لترك الإدارة، بدلاً من الاعتراف بالسبب الحقيقي الذي افترضه جميع من يعملون في الجناح الغربي.

ففي 27 شباط/فبراير، ذكر جوناثان سوان، الصحفي في أكسيوس التي تصدر في واشنطن، وأحد أقوى مصادر تسريبات البيت الأبيض، أن جوش رافيل سيغادر البيت الأبيض. وكان رافيل قد التحق بالبيت البيض في نيسان/إبريل 2017 ليكون المتحدّث الحصري باسم جاريد كوشنر، صهر الرئيس، وزوجته إيفانكا، بعيدًا

عن ترتيبات فريق الاتصالات في البيت الأبيض. وكان رافيل، الديمقراطي مثل كوشنر، قد عمل في السابق لدى شركة هيلتزيك للعلاقات العامة والاستشارات الاستراتيجية، والتي تمثّل دار أزياء إيفانكا.

كانت هوب هيكس قد عملت من قبل في شركة هيلتزيك، وهي الشركة المعروفة بتمثيلها المُنتج السينمائي هارفي واينستين، الذي قُبض عليه في خريف العام 2017 بعد فضيحة تحرُّش وسوء معاملة وتستّر. وكانت هيكس تقوم بدور رافيل نفسه، ولكن على مستوى أعلى: كانت المتحدث الرسمي باسم الرئيس. وفي أيلول/سبتمبر، ارتقت هيكس إلى منصب مديرة الاتصالات في البيت الأبيض، وصار رافيل نائبها.

كانت الأزمة قد اندلعت في الصيف السابق. حيث كان كل من هيكس ورافيل على متن الطائرة الرئاسية في تموز/يوليو 2017، عندما أذيع خبر اجتماع دونالد ترامب الابن في برج ترامب أثناء الحملة الانتخابية لوالده مع وسطاء للحكومة الروسية، يعرضون عليه المساعدة في تشويه سمعة هيلاري كلينتون. وأثناء رحلة العودة إلى الولايات المتحدة بعد قمة مجموعة العشرين في ألمانيا، ساعد رافيل وهيكس الرئيس في جهوده على تكذيب قصة الاجتماع في برج ترامب، وبالتالي باتا جزءًا من خطة التستّر.

وعلى الرغم من أن رافيل كان في البيت الأبيض منذ تسعة أشهر لا أكثر، فإن تقرير صحيفة أكسيوس ذكر أن رحيله كان موضع نقاش منذ عدة أشهر. وكانت المعلومة غير صحيحة. فقد غادر البيت الأبيض من دون سابق إنذار.

وفي اليوم التالي، وبشكل مفاجئ أيضًا، تقدَّمت هوب هيكس، أقرب شخص في البيت الأبيض إلى الرئيس، باستقالتها.

هكذا، ابتعد الشخص الوحيد الأكثر دراية بأسرار حملة ترامب الانتخابية ومنظومة البيت الأبيض في عهد ترامب. وعمّ القلق أرجاء البيت الأبيض بسبب افتراض منطقي، وهو أن هيكس ورافيل، الشاهدَين والمشاركَين في تستر الرئيس على تفاصيل اجتماع ابنه وصهره مع الروس، سوف يصبحان هدفًا لتحقيق مولر؛ والأسوأ من كل ذلك، احتمال أن يكونا قد أبرما معه صفقة بالفعل.

لم يحاول الرئيس، الذي كان مسرفاً في مدحه العلني لهيكس في السابق، أن يثنيها عن قرارها. وبرغم ذلك، كان يشتكي في الأسابيع اللاحقة من تأثير غيابها، ويصيح كثيرًا: «أين هوبي؟». ولكنه ما إنْ توجّس من أنها قد تكشف عن أسرار حتى أراد إبعادها كلياً، وراح يخفض من قدرها ودورها ويقلّل من شأنها في الحملة الرئاسية وداخل البيت الأبيض.

وقد تنبّه ترامب لأمر مطمئن في نظره؛ فبالرغم من كونها أساسية في رئاسته، فإن واجباتها الأساسية تمثّلت حقيقة في إرضائه فقط. ومن المستبعد جدًّا أن تكون طرفًا في استراتيجية كبرى أو مؤامرة عظمى ضده. والحق أن فريق ترامب في جوهره كان مجموعة من الكومبارس.

* * *

ربما كان جون داود متردّدًا في نقل أخبار سيئة إلى موكّله، لكنّه فهم الخطر المتمثل في مدَّعٍ عام يتسلح بموارد غير محدودة. وكلما زاد تصميم هذا المدّعي العام وفريقه على البحث والتفتيش زادت فرص الكشف عن جرائم ممنهجة وغير ممنهجة. وكلما كان البحث أكثر شمولًا، كانت النتيجة حتمية. ويبدو أن قضية دونالد ترامب، في ظل تاريخه مع قضايا الإفلاس، وحيَله المالية، والعلاقات المثيرة للشبهات، والشعور العام بقدرته على الإفلات من العقاب، كانت بالتأكيد تمنح المدّعين مادة خصبة لملاحقته.

ومن ناحيته، بدا دونالد ترامب مؤمنًا بأن مهاراته ومواهبه الفطرية تجعله ندًّا لوزارة العدل الأميركية قاطبةً. حتى أنه اعتقد أن النهج الشامل الذي تتبعه وزارة العدل إنمّا يصبّ في مصلحته. «مملة ومربكة للجميع»، هكذا قال وهو يرفض تقارير التحقيق التي قدّمها داود وآخرون. «لا يمكنك تتبع أي خيط في كل هذا. لا شيء يشدّك للمتابعة».

وقد يكون من أغرب جوانب رئاسة ترامب أنه لا يرى في كونه رئيسًا، سواءً من حيث المسؤوليات أو نزاهة السمعة، اختلافًا عن حياته السابقة للرئاسة. فقد عرفت مسيرته تحقيقات لا تعد ولا تحصى. وكان طرفًا في شتى الدعاوى القضائية على مدار خمس وأربعين سنة. وكان مقاتلًا عنيدًا، جريئًا وعدوانيًا، استطاع أن

يخرج من معارك كانت كفيلة بتدميره لو كان أضعف شكيمة وأقل دهاء. كانت تلك استراتيجيته الأساسية في العمل: ما لا يقتلني يقوّيني. وبرغم أنه جُرح مرارًا وتكرارًا، فإنه لم ينزف قط.

«المهم هو أن نلعب اللعبة»، هكذا يوضح ضمن أحد مونولوجاته المتكررة عن تفوُّقه وغباء الآخرين. «أنا متمرس في اللعبة. ربما كنت الأفضل. حقًا، يمكن أن أكون الأفضل. أعتقد أنني الأفضل. أنا جيّد جدًا. رائع جدًا. معظم الناس يخشون الأسوأ. لكن الأسوأ لا يقع إلا إذا كنت غبيًا. وأنا لست غبيًا».

في الأسابيع الأولى من عامه الثاني في الرئاسة، ومع دخول تحقيقات مولر شهرها الثامن، لا يزال ترامب ينظر إلى تحقيق المستشار الخاص على أنه صراع بين إرادتين. لم يره حرب استنزاف، تؤدي إلى النيل التدريجي من قوته وصدقيته عبر التدقيق وزيادة الضغط المستمر؛ بل اعتبره موقفًا يجب مواجهته، ومسعى حكوميًا مزيفًا ينبغي أن يكون عرضة لهجماته. كان واثقًا أنه قادر على تقويض «مطاردة الساحرات» هذه؛ كما كان يسمّيها في تغريداته بالأحرف الكبيرة، وحصرها في صورة مناطحة حزبية على الأقل.

ولكنه ظل يشعر بالضيق من الجهود المبذولة لإقناعه بلعب اللعبة على طريقة واشنطن المعتادة، أي الرد بدفاع قانوني منضبط، والتفاوض، ومحاولة خفض حجم خسائره، بدلًا من طريقته. كان هذا الأمر مثيرًا لقلق كثير من الأشخاص المقربين إليه. لكن ما أثار جزعهم بحق هو تنامي استياء ترامب وإحساسه بالإهانة الشخصية، بقدر تنامي إيمانه ببراءته.

* * *

بحلول نهاية شباط/فبراير، وبالإضافة إلى إعلان هيئة المحلّفين الكبرى لمولر عن قائمة بأسماء مجموعة من الرعايا الروس المتهمين بممارسة أنشطة غير مشروعة ضمن جهود الحكومة الروسية للتأثير في نتائج الانتخابات الأميركية، كان مولر قد وصل إلى عدة مستويات في دائرة ترامب. وكان من الذين وُجّهت إليهم تهم، أو اعترفوا بارتكاب جنايات مدير حملة ترامب السابق بول مانافورت، ومستشاره السابق للأمن الوطني مايكل فلين، ومستشاره الشاب الطموح جورج بابادوبولوس،

وريك غيتس، شريك أعمال مانافورت، والمسؤول في الحملة. ويمكن النظر إلى هذه السلسلة من التحركات القانونية من منظور كلاسيكي، على أنها آلية تهدف إلى الوصول، خطوةً وراء خطوةً، إلى مكتب الرئيس. كما يمكن تفسيرها من وجهة نظر معسكر ترامب، على أنها تلخيص لشتى جهود الانتهازيين الذين يحلمون دائمًا بالنيل من ترامب.

كانت الشكوك الحائمة حول جدوى المتطفّلين على السياسة في عصبة ترامب جزءًا من فائدتهم في الحقيقة. وهم من الذين يمكن التخلُّص منهم والتخلي عنهم في أي وقت، وهو ما يحدث عند أقل إشارة إلى وجود مشكلة. أما الأشخاص التابعون لمجموعة ترامب، الذين جرى التخلُّص منهم على يد مولر، فقد، وُصموا على الفور بأنهم مهمَّشون وبلا دور حقيقي. لم يلتقهم الرئيس قط، ولم يتذكَّرهم، أو أن معرفته لهم بدت محدودة. «أعرف السيد مانافورت، لم أتحدث إليه منذ فترة طويلة، لكنني أعرفه»، هكذا قال ترامب منكرًا، وهو يستعين بصفحة من صفحات فصل الإنكار في دليله التوجيهي الخاص.

تكمن صعوبة إثبات وجود مؤامرة في الكشف عن النيات. حيث يعتقد كثيرون من الدائرة الداخلية للرئيس أن ترامب، ومؤسسة ترامب، وبالتالي حملة ترامب، هي جميعها كيان يعمل بطريقة اعتباطية عشوائية يصعب معها التيقن من المقاصد والنيات. والأكثر من ذلك، أن المحيطين بترامب كانوا دون المستوى، إلى حد يمكن معه التعلّل بالغباء دفاعًا منطقيًّا أمام أي تهمة تتعلّق بالنية.

اتفق كثيرون في دائرة ترامب مع رئيسهم، معتقدين بالأمر الآتي: مهما تكن الهفوات الغبية التي ارتكبها ترامب، فإن التحقيق حول التدخل الروسي شديد الغموض، ولا خشية منه في نهاية المطاف، لأنه لا يمثّل أهمية خاصة. وفي الوقت نفسه، كان كثيرون، وربما كان الجميع، مقتنعين بأن الغوص العميق، أو حتى التفتيش السريع، في ماضي ترامب المالي سيؤدي إلى العثور على مجموعة كبيرة من المخالفات. ومن المحتمل الكشف عن وجود نمط فساد ثابت في مسيرته.

لذا، لم يكن مفاجئًا أن يحاول ترامب، ومنذ بداية تحقيق المستشار الخاص، الفصل بين تحقيقات مولر والشؤون المالية لعائلة ترامب. وهو لم يمتنع عن التهديد الصريح لمولر متى فكّر الذهاب في ذاك الاتجاه. وافترض ترامب أن المستشار

الخاص خائف منه، وأنه يأخذ في الحسبان أن ثمة حدوداً لتسامحه ولصبره. وكان ترامب واثقًا بقدرته على إلزام فريق مولر بالوقوف عند حدود معيّنة، إما تصريحًا وإما تلميحًا.

قال لأحد أعضاء دائرته التي تعوّد الاتصال بها بعد العشاء: «يعلمون أنهم لا يستطيعون النيل مني، لأنني لم أتورّط مطلقًا. أنا لست هدفًا. لا شيء ضدي. أنا لست هدفًا. قالوا لي إنني لست هدفًا. وهم يعرفون ما سوف يحدث إن جعلوني هدفًا. الكل يفهم الكل».

* * *

كانت الكتب والتحقيقات الصحفية التي تتناول حياة رجل الأعمال ترامب، على مدى خمسة وأربعين عامًا، ممتلئة بأمثلة على معاملاته المشبوهة، وقد أسهم وصوله إلى البيت الأبيض في تسليط الضوء عليها، وعلى الجوانب الأكثر إثارة فيها. كانت العقارات الأداة المفضّلة لغسل الأموال. وكان نشاط ترامب في قطاع العقارات جاذباً مدروساً ومقصوداً لدى كل من ينشد غسل أمواله. زد على ذلك أن مشكلات ترامب المالية الخاصة، وحرصه الشديد على استمرار أسلوب حياته كملياردير له اسمه في السوق، أجبراه على تبنّي خطط ساذجة بشكلٍ ثابت. ومن المفارقات أن جاريد كوشنر، وخلال دراسته في كلية الحقوق، وقبل أن يلتقي إيفانكا، حدّد في بحث كتبه دعاوى محتملة يمكن رفعها على مؤسسة ترامب لاحتيالها في صفقة عقارية بعينها كان يدرس تفاصيلها؛ وهي حكاية يتندّر بها من كانوا يعرفونه في ذلك الوقت. ومن الناحية العملية، بدا أن ترامب مختبئ، ولكن تحت أنظار الجميع، كما وجد المدّعون العامون.

نجد مثلًا في تشرين الثاني/نوفمبر 2004 أن المتموّل جيفري إبشتاين، الذي تورّط لاحقًا في فضيحة تتعلق باستغلال عاهرات دون السن القانونية، وافق على شراء منزل في بالم بيتش بولاية فلوريدا مقابل 36 مليون دولار، وهو عقار ظل مطروحًا في السوق للبيع مدّة عامين. كان إبشتاين وترامب صديقين حميمين لأكثر من عقد، وكان ترامب في كثير من الأحيان يطلب مساعدة إبشتاين في ترتيب شؤونه المالية الفوضوية. وبعد وقت قصير من التفاوض على صفقة منزل بالم بيتش، اصطحب إبشتاين ترامب لرؤية هذا المنزل، وطلب نصيحته بشأن مشكلة بناء ستنجم

عن تغيير مكان حمام السباحة. بينما كان إبشتاين يستعد لإتمام شراء المنزل، اكتشف أن ترامب، الذي كان يعاني من مأزق سيولة كبير في ذلك الوقت، عرض 41 مليون دولار لشراء المنزل، واقتنصه من إبشتاين عبر شركة اسمها ترامب بروبيرتيز المحدودة، وبتمويل من دويتشه بنك، الذي كان يتحمّل بالفعل عددًا كبيرًا من قروض مؤسسة ترامب المتعثرة، فضلاً عن قروض ترامب الشخصية.

عرف إبشتاين أن ترامب كان يمنح اسمه لصفقات عقارية مقابل عمولة كبيرة؛ أي إن ترامب كان يتقاضى أموالًا ليكون واجهة تختفي وراءها الملكية الفعلية للصفقات العقارية. (كان ذلك، إلى حد ما، قريبًا من قيام ترامب بالسماح لاستعمال اسمه في ممتلكات تجارية لشخص آخر). وهدّد إبشتاين الغاضب، وهو متيقّن من أن ترامب مجرد واجهة للمالكين الحقيقيين، بفضح أسرار الصفقة، التي كانت محل تغطية صحفية محلية كبيرة في فلوريدا. واحتدمت المعركة أكثر عندما أقدم ترامب، بعد فترة قصيرة من الشراء، على طرح المنزل للبيع في السوق مقابل 125 مليون دولار.

وإذا كان إبشتاين يعرف بعض أسرار ترامب، فإن ترامب بدوره كان يعرف بعض أسرار إبشتاين. وكثيرًا ما كان ترامب يلتقي رجل المال في منزله الحالي في بالم بيتش، وكان يعلم أن إبشتاين يستقبل كل يوم تقريبًا وعلى مدار سنوات فتيات يستأجرهن لجلسات تدليك تنتهي في الأغلب بممارسة جنسية؛ وهنّ فتيات من مطاعم ونوادي تعرٍّ، ومن كازينو ترامب مار آلاغو أيضاً. وما إن اشتد العداء بين الصديقين بسبب صفقة المنزل، حتى وجد إبشتاين نفسه قيد التحقيق لدى شرطة بالم بيتش. ومع تصاعد مشكلات إبشتاين القانونية، اشترى ديمتري ريبولوفليف، أحد رجال الصناعة الروس المقربين من دائرة بوتين، المنزل، بعد تحسينات طفيفة فقط، مقابل 96 مليون دولار، على أنه لم ينتقل للعيش فيه. وهكذا، وبطريقة عجيبة، ربح ترامب 55 مليون دولار من دون أن يتكبّد أي سنت. ويُرجّح أن يكون ترامب قد حصل على عمولة لإخفاء هوية المالك الحقيقي، الذي ربما كان مالكًا خفيًّا حوّل ريبولوفليف إليه الأموال لأسباب أخرى تتجاوز قيمة المنزل. وهناك احتمال آخر، وهو أن المالك الحقيقي والمشتري الحقيقي هما الشخص نفسه. وربما كان ريبولوفليف قد دفع لنفسه ثمن المنزل، وبالتالي غسل مبلغ الخمسة وخمسين مليون دولار الإضافي عند صفقة الشراء الثانية للمنزل.

هكذا كان نشاط ترامب العقاري الفعلي.

* * *

أصبح جاريد كوشنر ماهرًا جدًّا في احتواء الإحباط العميق الذي يشعر به تجاه حميّه، وكأنه يستخدم خدع السيطرة على العقل. فقد كان يحرص ألّا يبدي أي تعبير. حتى أنه كان يبدو جامدًا من دون أن تصدر عنه أي حركة تقريبًا، في الوقت الذي يكون فيه ترامب في حالة من حالات الجنون القصوى، وتنتابه نوبات الغضب، أو في الوقت الذي يقترح فيه تحرّكات سياسية أو سياسات بلهاء. كان كوشنر، أحد رجال الحاشية في بلاط مجنون، يمتلك هدوءًا وتماسكًا مخيفًا. كذلك كان شديد القلق. وكم بدا مدهشًا وسخيفًا حين كان يعمد إلى جملته الفنية، والتي هي بمثابة ورقة التوت: «أنت لست مستهدفًا يا سيادة الرئيس»، وهي الوصفة السحرية التي تحمل الراحة إلى حميّه الرئيس.

فهم كوشنر أن ترامب تحاصره مجموعة من السهام المميتة المصوّبة إليه، يمكن لأي منها أن يقتله: قضية عرقلة العدالة؛ قضية التواطؤ؛ أي تدقيق عن كثب في تاريخه المالي الطويل والمريب؛ المشكلات المخبأة دائمًا مع النساء؛ توقُّعات الهزيمة المنكرة في انتخابات منتصف المدة والتهديد ببدء إجراءات عزله إذا جاءت نتائج الانتخابات النصفية ضده؛ تقلُّب الجمهوريين، الذين قد ينقلبون عليه في أي لحظة؛ الموظفون الكبار الذين لفظتهم الإدارة (حثّ كوشنر على إبعاد العديد منهم)، والذين قد يشهد أي منهم ضده. فخلال شهر آذار/مارس فقط، لفظت الإدارة غاري كوهن، كبير المستشارين الاقتصاديين للرئيس، وريكس تيليرسون، وزير الخارجية، وأندرو ماكيب، نائب مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي، وكلٌّ منهم يضمر احتقارًا عميقًا للرئيس.

لكن الرئيس لم يكن في حالة مزاجية تتيح له الاستماع إلى مشورة كوشنر، وهو الذي لم يكن محل ثقة حميه قط. والحقيقة أن ترامب، على الأرجح، لم يكن يثق بغير ابنته إيفانكا، زوجة كوشنر. لقد وجد كوشنر نفسه الآن بالتأكيد على الجانب الخاطئ لخط الولاء الأحمر لترامب.

بدا كوشنر واحداً من أفراد العائلة العارفين خبايا الأمور، منتصرًا على منافسيه الأوائل في البيت الأبيض في لعبة بلاط السلطة السياسية الشريرة، تلك اللعبة التي لو كانت في زمن آخر مؤاتٍ لأدّت إلى حياكة مؤامرات القتل. لكن ترامب كان دائمًا غاضبًا على من يعملون لديه، ولم يكونوا هم أقل غضبًا، لأنه لطالما اعتقد بأن موظفيه يكسبون على حسابه، ويستثمرون قربهم منه. كان مقتنعًا بأن الجميع طمّاعون، وأنهم عاجلًا أم آجلًا سيحاولون وبشكل شرعي أخذ ما يعود إليه. وعلى نحو متزايد، بدا أن كوشنر أيضًا قد يكون مجرد موظف آخر يحاول استغلال دونالد ترامب.

علم ترامب مؤخرًا أن صندوق استثمار بارزاً في نيويورك، هو أبولو غلوبال للإدارة، الذي يترأّسه الخبير المالي ليون بلاك، قد أعطى تمويلاً مقداره 184 مليون دولار لشركات كوشنر، الممثّلة بالمجموعة العقارية العائلية التي كان كوشنر يديرها بنفسه أثناء وجود أبيه تشارلي في السجن الفيدرالي.

كان هذا الأمر مزعجًا على مستويات كثيرة، وعرّض كوشنر لمزيد من الأسئلة حول التضارب القائم بين أعماله التجارية، وموقعه في البيت الأبيض. وكان كوشنر أثناء الصفقة قد عرض على الشريك المؤسّس في أبولو، مارك روان، وظيفة مدير مكتب الإدارة والميزانية، وهو ما قبله روان مبدئيًا، ورفضه لاحقًا، بعد أن اعترض رئيس أبولو، ليون بلاك، على ما ينبغي كشفه بشأن استثمارات روان واستثمارات الشركة.

لكن مخاوف الرئيس المنتخب كانت في مكان آخر؛ فقد كان مركّزًا بصورة أعمق وأكثر شراسة في حقيقة أن أبولو لم يسبق لها قط أن مدّت يد العون لمؤسسة ترامب في ظل قيام شركات العقارات المتوسطة الحجم، كشركات ترامب، بالبحث المستمر عن التمويل. أما الآن، فقد بدا ظاهرًا بوضوح، أن أبولو لا تساند آل كوشنر إلا لارتباط العائلة بالإدارة. وكان مما أرّق ترامب وحرمه النوم ليلاً الحسابات المستمرة في رأسه بشأن من يستفيد منه، وإحساسه بأن المقرّبين منه مدينون له لوجودهم في حلقته التي تتيح الربح للجميع.

«أتظنينني لا أعرف ماذا يجري؟» قالها ترامب لابنته ساخرًا، وهي من القلّة الذين كان ترامب يحرص على علاقته بهم. «أتظنينني لا أعرف ما يجري؟»

لقد ربح آل كوشنر على حسابه.

دافعت ابنة الرئيس عن زوجها. تكلّمت على التضحية الهائلة التي قدّمها الزوجان بمجيئهما إلى واشنطن. ولأي غرض؟ «لقد دُمّرت حياتنا»، قالتها بشكل ميلودرامي، ولكن بدرجة كبيرة من الصدق. لقد تحوّل نجما مجتمع نيويورك السابقان إلى مجرمَيْن محتملَيْن، وإلى أضحوكة إعلامية.

بعد عام من همس الأصدقاء والمستشارين أن ابنته وزوجها هما أساس الفوضى العارمة في البيت الأبيض، بدأ ترامب مرة أخرى يفكر في أنه ما كان ينبغي لهما الحضور. وفي استعادة للتاريخ، أخبر كثيرًا من المتصلين به آخر الليل أنه اعتقد دائمًا أنه ما كان ينبغي لهما الحضور. وعلى الرغم من احتجاجات ابنته المريرة، رفض التدخل في المشكلات الخاصة بالتصريح الأمني لزوجها. لقد واصل مكتب التحقيقات الفيدرالي عرقلة ترخيص كوشنر، الذي كان بإمكان الرئيس، بحسب رغبته، أن يصادق عليه، عندما ذكّرته ابنته. لكن ترامب لم يفعل شيئًا، وترك زوجها معلقًا في مهب الرياح.

انتظر كوشنر فرصته بصبر وعزيمة تفوقان طاقة البشر. كانت حيلة الهامسين في أذن ترامب، هي كيفية تركيز انتباه ترامب، حيث لم يكن من الممكن إطلاقًا الاستناد إلى قدرته على المشاركة في أي محادثة طبيعية يتبادل خلالها المشاركون حديثًا منطقيًا. كانت الرياضة والنساء موضوعيْن مضمونين لجذب انتباهه ومشاركته في أي حوار. كذلك جذبت الخيانة انتباه ترامب، ومثلها المؤامرات. وكما جذبه المال.. دائمًا.

* * *

كان محامي كوشنر الخاص آبي لويل، وكان محامياً معروفاً جيّدًا، ويحاول جذب الانتباه دائمًا. وكان من أعضاء نقابة محامي واشنطن العاصمة، ويفتخر بنفسه، ويلبّي توقعات موكّليه ويجذب انتباههم، لوقوفه على أحدث قائمة بالشائعات والرؤى الخاصة بالمناورات أو الاستراتيجيات التي يوشك المدّعون اتباعها. فلم تكن المهارة في قاعة المحكمة هي الميزة الحقيقية التي يأتي بها محام ذائع الصيت، بل معرفة ما يحاك في الغرف الخلفية.

إضافة إلى التقارير التي تلقّاها داود، أخبر لويل كوشنر أن المدّعين على وشك أن يزيدوا إلى حد بعيد وتيرة الخطر الواقع على الرئيس وعائلة ترامب. لقد تابع داود محاولة تهدئة الرئيس. لكن كوشنر، في ظلّ الاستخبارات التي قدّمها لويل، ذهب إلى حميه بتقارير عن هذه الجبهة الجديدة في الحرب القانونية التي تُشن ضده. وكما هو متوقع، في 15 آذار/مارس، تسرّبت أنباء فحواها أن المستشار الخاص قد أصدر مذكّرة إحضار لسجلات مؤسسة ترامب: كان طلبًا عميقًا وشاملًا، يعود إلى سنوات بعيدة.

كذلك حذّر كوشنر حماه من أن التحقيق على وشك الانتقال من فريق مولر، وتركيزه الدقيق في التواطؤ مع روسيا، إلى المنطقة الجنوبية لنيويورك، أي إلى مكتب المدعي الفيدرالي في مانهاتن، الذي لن يقتصر على التحقيق الخاص بروسيا. كان ذلك بمثابة التفاف قُصد منه التحايل على تقييد المستشار الخاص بالأمور الخاصة بروسيا. لكنه كان في الوقت ذاته جهدًا من جانب فريق مولر لإفساد أي محاولة يقوم بها الرئيس لإيقاف التحقيق أو عرقلته. فعندما تُنقل أجزاء من التحقيق إلى المنطقة الجنوبية، فإن مولر، كما أوضح كوشنر لترامب، يضمن متابعة ملاحقة الرئيس، حتى في غياب المستشار الخاص. كان مولر يقوم بحركة ماكرة، سعيًا إلى حماية نفسه، بينما يتابع في الوقت ذاته الإجراءات الدقيقة أيضًا: حتى وهو يركّز في الدائرة المحدودة لتحقيقه، كان يجمع أدلة جرائم محتملة ويرسلها إلى السلطات القضائية الأخرى، التي كانت متلهّفة للمشاركة في عملية الصيد.

أخبر كوشنر ترامب أن الأمور تزداد سوءًا.

كان صديق ترامب، رودي جولياني، عمدة نيويورك السابق، يدير المنطقة الجنوبية في وقت ما. في الثمانينات، عندما كان جولياني المدّعي الفيدرالي، وعندما كان، ويا للعجب، جيمس كومي يعمل لديه، أصبحت المنطقة الجنوبية المدّعي الأساسي في قضايا المافيا وشركات وول ستريت. وكانت لجولياني الريادة في استخدام تفسير متشدد، عدّه الكثيرون غير دستوري، للقانون الخاص بمنظمات الفساد المتأثرة بالابتزاز (ريكو)[2] الذي صدر ضد المافيا. لقد استُخدم التفسير نفسه ضد الكيانات المالية الكبيرة. وفي العام 1990، أسفر التهديد الناجم عن الاتهام بموجب هذا القانون، الذي يمكّن الحكومة عشوائيًّا من الحجز على الأصول، عن انهيار بنك

دركسيل بيرنهام لامبيرت.

مثّلت المنطقة الجنوبية، منذ فترة طويلة مصدر قلق لترامب. فبعد انتخابه، عقد اجتماعًا غير موفقٍ مع بريت بارارا، المدّعي الفيدرالي هناك. أقلق هذا الاجتماع تحرُّك كل مستشاريه، بمن فيهم دون ماكين والمدّعي العام القادم، جيف سيشون. غطّى ذلك الاجتماع على الاجتماع الذي عقده ترامب بعد فترة وجيزة مع كومي، والذي أراد خلاله الحصول على وعد بالولاء مقابل تأمين البقاء في المنصب. لم يكن اجتماعه مرضياً ببارارا. الذي كان غير راغب في مسايرته بل في الرد على مكالماته الهاتفية، ببساطة. وفي آذار/مارس 2017، أقاله ترامب من منصبه.

قال كوشنر إن دون بارارا، والمنطقة الجنوبية، كانا يسعيان إلى معاملة مؤسسة ترامب كمنظمة تابعة للمافيا؛ وإن محاميها سوف يستخدمون قوانين (ريكو) ضدها، ويطاردون الرئيس كما لو كان أحد أباطرة المخدرات، أو أحد زعماء المافيا. أشار كوشنر إلى أن الشركات لا يحق لها الامتناع عن الإدلاء بأي معلومات يمكن أن تدينها، كما تكفل المادة الخامسة من قانون تعديل الدستور؛ وأن من غير الممكن العفو عن شركة. كما أن الحكومة يحق لها الاستيلاء على الأصول المستخدمة في ارتكاب جريمة أو الناتجة منه.

بتعبير آخر، فإن ما يزيد على خمسمئة شركة وكيان منفصل ظل دونالد ترامب مسؤولًا فيها، إلى أن أصبح رئيسًا، قد يخضع كثير منها للمصادرة. كان العقار المميز للرئيس، والذي يمكن للحكومة الحجز عليه، هو برج ترامب الذي كان عرضة للخسارة أمام طلب قضائي ناجح ينتهي بالمصادرة.

* * *

في منتصف شهر آذار/مارس، ركب شاهد ممّن لديهم معرفة كبيرة بعمليات مؤسسة ترامب، القطار إلى واشنطن، ليمثل أمام هيئة المحلفين الكبرى لمولر. كان أفراد مكتب التحقيقات الفيدرالي ينتظرونه في محطة القطارات الرئيسية، يونيان ستيشن، حيث اصطحبوه إلى المحكمة المحلية الفيدرالية. ومن الساعة العاشرة صباحًا إلى الخامسة مساءً، راجع معه مدّعيان من فريق مولر، هما هارون زيلينسكي وجيني ريهي، هيكل مؤسسة ترامب، من جُملة موضوعات أخرى.

سأل المدعيان الشاهد عن الأشخاص الذين يتحدثون إلى ترامب بانتظام، وعن وتيرة اجتماعهم به، وأغراض تلك الاجتماعات. كما سألاه أيضًا عن طريقة الترتيب لاجتماعات ترامب، وأماكن انعقادها. وقد جاءت شهادة الشاهد، من بين المعلومات المفيدة الأخرى، بحقيقة ناصعة فحواها أن كل الشيكات التي تصدرها مؤسسة ترامب وقّعها دونالد ترامب شخصيًّا.

كانت نشاطات مؤسسة ترامب في أتلانتك سيتي موضع اهتمام خاص في ذلك اليوم. فقد سُئل الشاهد عن علاقة ترامب بأعضاء المافيا المعروفين لم يسألاه عن وجود مثل تلك العلاقات، بل عن طبيعة تلك العلاقات التي كان المدعيان على علم بوجودها. أراد المدعيان أيضًا معرفة ما يخص برج ترامب موسكو، وهو مشروع سعى ترامب سنوات كثيرة إلى تنفيذه، وواصل سعيه حتى فترة متقدمة من حملته الرئاسية سنة 2016؛ وإن لم يثمر ذلك السعي عن شيء.

كان مايكل كوهن، محامي ترامب الشخصي والمسؤول في مؤسسة ترامب، موضوعًا مهمًّا آخر. فقد طرح المدعيان عليه أسئلة عن مدى شعوره بخيبة الأمل لعدم ضمّه إلى فريق الرئيس في البيت الأبيض. وبدا أنهما يحاولان قياس مدى الاستياء الذي يشعر به كوهن؛ الأمر الذي جعل الشاهد يستنتج أنهما يريدان تقدير مدى التأثير الذي يمتلكانه إن حاولا تقليب مايكل كوهن ضد الرئيس.

أراد زيلينسكي وريهي أن يعرفا عن جاريد كوشنر، وأرادا أن يعرفا عن هوب هيكس.

كذلك تطرّق المدّعيان أيضًا إلى حياة الرئيس الخاصة. كم مرة خان زوجته؟ مع من؟ كيف كانت المواعيد تُرتّب؟ ماذا كانت الاهتمامات الجنسية للرئيس؟ لقد كانت جلسة تحقيق مولر وهيئة المحلفين الكبرى الخاصة به تتحوّل إلى مركز لتوفير المعلومات الخاصة بتفاصيل تاريخ ترامب الطويل في الغدر والخيانة المهنية والشخصية، وتبادل تلك المعلومات.

عندما انتهى اليوم الطويل أخيرًا، غادر الشاهد غرفة هيئة المحلفين الكبرى وهو في حالة صدمة، ليس لقدر المعلومات التي أراد المدعيان معرفتها، بل لما كانا يعلمانه بالفعل.

* * *

بحلول الأسبوع الثالث من آذار/مارس، حظي صهر ترامب بالانتباه الكامل للرئيس. كانت رسالة كوشنر: «إنهم لا يستطيعون اتهامك فحسب، بل بمقدورهم أن يفلسوك أيضًا».

ضغط ترامب على داود، وهو منفعل وغاضب، من أجل الحصول على مزيد من الضمانات. وحمّله مسؤولية الضمانات السابقة التي لطالما طلب الحصول عليها. لكن داود صمد: إنه لا يزال يعتقد، رغم ذلك، أن المعركة لا تزال في مراحلها المبكرة، وأن مولر لا يزال ينقّب عن معلومات.

لكن صبر ترامب نفد أخيرًا، فقرر أن داود شخص أبله، وأن عليه أن يعيده إلى التقاعد الذي أنقذه منه، وهذا ما كان يكرّر قوله. وبالتأكيد، وفي محاولة لتجنُّب ذلك التقاعد، دافع داود عن موقفه، مؤكّدًا للرئيس أن بمقدوره أن يواصل تقديم العون إليه. لكّن بلا جدوى: ففي 22 آذار/مارس، استقال داود على مضض، ليخرج إلى العالم نصير آخر من أنصار ترامب، وهو يشعر بالمرارة.

الفصل الثاني
فرصة جديدة

حين أُقيل جون داود، كان ستيف بانون جالسًا إلى المائدة يفكّر في طريقة لإزالة تهديدٍ آخر يواجه رئاسة ترامب. غير أن التهديد هذه المرة لم يكن متعلقًا بمدعٍ عام عنيد، بل كان، بالأحرى، تهديداً بشأن مسألة أساسية جرت خيانتها... إنه تهديد الجدار.

شكلت منازل تاون هاوس الكابيتول هيل، آخر الأدلّة على الطبقة الوسطى في القرن التاسع عشر. وهي عبارة عن طوابق متواضعة وغرف جلوس منعزلة وغرف نوم صغيرة. تحوّل كثير منها إلى مقارّ للشركات والمؤسسات التي لا تستطيع تحمّل الكلفة الباهظة لعقارات أحياء واشنطن المتميزة. وقد سكن بعضها رؤساء تلك الشركات والمؤسسات. وكثيرٌ من تلك الشركات بذلت جهوداً ليست على قدر عالٍ من الاحترافية، وسعت إلى أهداف خارجة عن المألوف، مثّلت أحلاماً وآمالاً وثورات لم يكتب لها أن تتحقق. ظلّ مبنى «السفارة»، وهو المبنى الذي شُيّد عام 1890 وكان مقرًّا سابقًا لشبكة بريتبارت الإخبارية، محل سكن بانون وعمله منذ عزله من البيت الأبيض في آب/أغسطس 2017. كان هذا المسكن خليطًا من بيوت الأخوية والمغارات والحصون شبه العسكرية، فانتشرت الشائعات حياله. إذ كثر فيه المتسكّعون والشباب المغامرون وأشباه العاطلين عن العمل، والمأهلون للانضمام إلى العصابات.

كانت أجواء «السفارة» الكئيبة الموحشة متناقضة تمامًا مع طبيعة بانون الراضية المرتاحة. فإن كان بانون قد نُفي من بيت ترامب الأبيض، فذلك لا يعني أن

طرده لم يكن عملًا طائشًا، بل كان متهورًا بأي حال.

عمل بانون في الأسابيع القليلة الماضية على تثبيت أقدام موالين له. ووضع خيارات العمل الأولى خلال الفترة الانتقالية للرئيس، في المناصب الحيوية داخل إدارة ترامب. وهكذا اختير مايك بومبيو مؤخرًا وزيرًا للخارجية، وتولّى جون بولتون بعد مدّة قصيرة منصب مستشار الرئيس للأمن القومي. كذلك عُيّن لاري كودلو مديرًا للمجلس الاقتصادي الوطني. كان كوري ليفاندوفسكي ودافيد بويس، مساعدا الرئيس السياسيان البارزان، حليفَيْ بانون إن لم يكونا مساعدَيْه، وعمل كلاهما خارج البيت الأبيض وكانا يتردّدان على «السفارة». وكان العديد ممن يدافعون عن سمعة البيت الأبيض يوميًّا عبر القنوات التلفزيونية، مفوضين من قبل بانون، ينقلون رسائله ورسائل الرئيس على حد سواء. الأدهى من ذلك أن أعداءه داخل البيت الأبيض كانوا يغادرون، واحدًا تلو الآخر، مثل هوب هيكس وهربرت ماكماستر، مستشار الرئيس للأمن القومي السابق، ودائرة الحلفاء الداعمة لصهر الرئيس وابنته، والآخذة في التقلّص.

كان بانون في حالة ترحال دائم. ففي أوروبا كان يلتقي جماعات اليمين المتطرف التي بدأ نجمها يبزغ؛ ثم يعود إلى الولايات المتحدة ليجتمع بالمستثمرين أصحاب الصناديق المالية الحذرين والراغبين بشدة في فهم سياسات ترامب المتقلبة. كما كان يسعى خلف كل فرصة لمحاولة إقناع الليبراليين بأن يتّبعوا المنهج الشعبوي. وتوجّه بانون في وقتٍ مبكرٍ من هذا العام إلى كامبريدج لمقابلة لاري سامرز، وزير خزانة بيل كلينتون، ومدير المجلس الاقتصادي الوطني إبّان عهد باراك أوباما، ورئيس جامعة هارفارد لبعض الوقت. رفضت زوجة سامرز استقبال بانون في منزلهما. لذا انعقد الاجتماع في هارفارد بدلًا من ذلك. كان سامرز مهملًا لحلاقة لحيته، يرتدي قميصًا ينقصه زر أو اثنان، بينما كان بانون يرتدي تي-شيرت مزدوجاً مع بنطلون كاكي واسع، وصديرية صيد. قال أحد الحاضرين في الاجتماع: «بدا لنا أنهما ينتميان إلى عالمين لا نعرف عنهما شيئًا». بادره سامرز ساخطًا على ترامب وإدارته:

- هل تدرك ما يفعله صاحبك المأفون؟ إنكم تغرقون البلد!

- أنتم نخبة الديمُقراطيين لا تأبهون إلا لطرفي النقيض.. إما الأغنياء وإما

الفقراء.

- سياساتكم التجارية المتخبّطة ستودي بالعالم إلى غياهب الركود.

- تقولون هذا الآن بعد أن جعلتم الصينيين يقومون بدور الأميركيين!

هكذا يستمتع بانون دومًا بكل فرصة للنيل من أي عضو في المنظومة السابقة.

كان بانون، أو هذا ما كان يقدّم نفسه به على الأقل، مصلحًا ووسيطًا لدى ذوي النفوذ، بل كان صانع قادة من وراء الستار. فهو أقرب ما يكون إلى كلارك كليفورد، أشهر شخصيات كواليس السياسة والنفوذ الأميركيين في ستينات القرن الماضي وسبعيناته، أو أنه صاحب رأي حكيم يعدّ مرجعاً لكثير ممن هم خارجون عن المسار السياسي المعتاد، إن لم يكن في هذا الوصف تناقض شديد مع الوصف السابق؛ أو يمكن اعتباره رئيس حكومة ظل. كان يرى أنه شخص لا نظير له؛ فلم يسبق لأي شخص أن أدّى دورًا محوريًّا في الحياة السياسية الأميركية، أو بقي شوكة في ظهرها، مثل بانون. وجد ترامب نفسه مجبرًا على صداقة بانون، وكانت صداقةً ألد من أي عداوة.

ربما احتاج كلا الرجلين إلى الآخر، ولكنّ كلًّا منهما نال من الآخر وقلّل من شأنه. كانت تصريحات بانون العلنية حول طبع ترامب المتقلب، بما فيه من تداعيات مضحكة وبائسة، وتصرُّفات تذكرك بـ «الخال المجنون»؛ ناهيك بقدحه لتفاهات آل ترامب. وهذا ما أدى في نهاية المطاف إلى خروجه من دائرة الرئيس. على الرغم من القطيعة بين الرجلين، فإن كلًّا منهما ظل متربصًا بالآخر وراصدًا لتصريحاته وحريصًا ألا تفوته شاردة أو واردة مما قد يقوله.

أيًا تكن مشاعر بانون اليوم تجاه ترامب، خصوصاً وأنها تتقلّب بين سخط وغضب وامتعاض وتشكيك، فإنها لم تنل من إيمانه بأن شخصاً في ساحة السياسة الأميركية يستطيع الوقوف ندًّا لترامب وطبيعته الاستعراضية التي لا تقبل أيًّا من المقرّبين منه تحت دائرة الضوء. وهذا صحيح؛ فترامب أعاد نموذج الرئيس البارع الأداء المحب الظهور إلى السياسة الأميركية، وبكل إتقان. والحق أن الرجل قد عرف ما يريده جمهوره. وأما قدماه فلم تعرفا طريقًا مستقيمًا ثابتًا. كل خطوة إلى الأمام تنذر

بترنّح وشيك. وكما هي حال الممثلين الكبار، تبقى الأنا الأمّارة بالسوء في صراع مع رغبة فطرية صادقة في النجاة. ويراهن الرجال المحيطون بترامب أن تنتصر تلك الرغبة على تلك الأنا. في حين فطن آخرون، بعد كدٍّ وعناء، أن الرجل بحاجة إلى من يوجّهه، ولكن من دون أن يشعر بتلك اليد المرشدة المنجدة؛ فأهم شيء هو ألّا ينتبه لوجود من يسوقه من وراء الستار.

وفي حين لم يطلب أحد من بانون عكس ذلك، فقد استمر يمارس دور رجل الرئيس.. جالسًا إلى مائدة الطعام، داخل منزل في حي واشنطن القديم.

* * *

في تلك الظهيرة، مرَّر الكونغرس، وبسهولة مفاجئة، مشروع قانون الموازنة للعام 2018 بقيمة 1,3 تريليون دولار. يقول بانون عن قيادات الكونغرس الديمقراطية والجمهورية: «نجح ماكونيل، ورايان، وشومر، وبيلوسي، في لحظة من لحظات الشهامة التي جمعت الحزبين، في خداع ترامب».

كان ذلك المنجز التشريعي نتاج ابتعاد ترامب، ونتاج جهود مخلصة لكل الأشخاص الآخرين، ما عدا ترامب ذاته. فمن عادة أغلب الرؤساء الانخراط في أدق تفاصيل وضع الموازنة. أما ترامب فاهتمامه لا يكاد يذكر. وقد تمكن الجمهوريون والديمقراطيون، بدعم قدّمته فرق تشريعات الموازنة في البيت الأبيض، من تمرير موازنة إنفاق هائلة دون أن تلحظ هذه الموازنة تمويل حلم ترامب الأثير، وهو ذلك الجدار الذي يُراد له أن يمتد مسافة ألفي ميل على الحدود الممتدة بين الولايات المتحدة والمكسيك. وبدلًا من ذلك، أقرّت الموازنة 1,6 مليار فقط لتأمين الحدود. ومشروع الموازنة الحالي هو في حقيقته المشروع نفسه الذي جرى تقديمه في أيلول/ سبتمبر المنصرم، حين لم يُوافَق على تمويل الجدار مرة أخرى. وفي الخريف، وافق ترامب أن يصوّت الكونغرس، الذي يخضع لسيطرة الجمهوريين، على تمديد مشروع قانون موازنة أيلول/سبتمبر، مهدّدًا بأنه عندما يطرح مشروع الموازنة مجددًا، فيجب أن يتضمن تمويل مشروع الجدار، وإلا فإنه سيلجأ إلى تعطيل الحكومة.

بدا أن أكثر مناصري ترامب تشددًا في الكونغرس راضون لابتعادهم عن

ساحة معركة تمويل الجدار، لأن ذلك يعني تبنّي الإغلاق الذي ينطوي دومًا على مخاطر سياسية لا يُستهان بها، أو على الأقل تحمّل تبعاته إن لم نقل تبنّيه. وبدا ترامب، أيضًا، وعلى طريقته، متفهمًا لحقيقة أن الجدار هو فكرة خيالية قد لا تتحوّل إلى واقع ملموس، وهو شعار وليس خطة فعلية. وسيبقى حلم الجدار مؤجّلًا إلى حين.

وفي المقابل، كانت ثمة تساؤلات حول ما فهمه الرئيس. فقد أخبر صهره في نهاية مفاوضات الموازنة في آذار/مارس، وفي حديث على انفراد: «ربحنا الموازنة.. وربحنا الجدار.. تمامًا».

* * *

يوم الأربعاء، 21 آذار/مارس، أي قبل يوم من التصويت النهائي، حضر رئيس المجلس بول رايان إلى البيت الأبيض، ليحظى بموافقة الرئيس على مشروع الموازنة.

وبُعيد اللقاء، غرّد ترامب قائلاً: «حصلت على 1,6 مليار دولار لبدء بناء الجدار الجنوبي، والبقية ستأتي».

طلب البيت الأبيض في الأصل 25 مليار دولارٍ للجدار، علماً أن أعلى التقديرات لتكلفة الجدار النهائية بلغت 70 مليار دولار. وبرغم ذلك، لم يكن مبلغ 1,6 مليار دولار في الموازنة مخصّصًا للجدار، بل من أجل تدابير أمنية أفضل.

اقترب موعد التصويت النهائي، وظهر أن هناك «اتفاق جنتلمان» بين الحزبين، وهو اتفاق شمل كل مكوّنات الحكومة؛ في ظل مساندة ضمنية من ترامب، أو إبعاد مهذَّب له على الأقل. كانت التفاهمات واضحة وصريحة. وبغض النظر عن الانتماءات الحزبية، فلن يقدم أعضاء الكونغرس على إفساد الموازنة بسبب الجدار.

كان هناك جمهوريون أمثال رايان يحظون بمساندة مانحين جمهوريين مثل بول سينجر وتشارلز كوخ، حريصين على العودة قدر الإمكان عن سياسات ترامب المتشددة وخطابه عن الهجرة والمهاجرين. وضع رايان، ومن معه، طريقة بسيطة ومبتكرة لتحقيق هذا الغرض، هي أن توافق الرئيس الرأي، ثم تتجاهله. عليك أن تضمن رضاه من خلال الكلام المعسول، ولكن روتين الخطوات العملية سوف يصيبه

بالملل.

يوم الأربعاء، أجرى ترامب سلسلة من المكالمات ليثني على جهود الجميع في مشروع القانون. وفي صباح اليوم التالي، قال رايان خلال مؤتمر صحفي بثّه التلفزيون عن اتفاق الموازنة: «الرئيس يدعم مشروع القانون، الرأي واحد حول هذا المشروع».

نحن هنا أمام واقعين متوازيين. كان الجدار نموذجًا صرفًا لسياسات ترامب ومواقفه وأفكاره وشخصيته. وفي الوقت نفسه، أجبر الجدار كل سياسي جمهوري على الرجوع إلى عقله وإلى المنطق السليم، أو توخّي الحكمة المالية والمرونة السياسية.

لم يكن الأمر ينحصر في تكاليف الجدار وافتقاره إلى الجدوى العملية، بل الأهم هو أن تضطر إلى الدخول في معركة من أجله. وتعطيل الحكومة يعني مواجهة كبيرة بين عالم مع ترامب وعالم ضد ترامب. وإذا تحقّق ذلك، فستكون هي اللحظة الأشد إثارة منذ انتخابات العام 2016.

إذا كان الديمقراطيون يسعون إلى ترسيخ الانقسام الحزبي ويحرصون على امتلاك دليل قاطع على جموح ترامب، فلن يجدوا فرصة سانحة كمثل إقدامه على تعطيل الحكومة من أجل الجدار. وإذا أراد الجمهوريون إبعاد دائرة الضوء عن نموذج ترامب الهمجي، وتسليطها، مثلاً، على مشروع قانون الضرائب الذي أقرّه الكونغرس مؤخرًا، فإن تعطيل الحكومة خطوة تطيح هذا النهج تمامًا.

ومن خلف ظهر ترامب، كان البيت الأبيض يسعى بكل جهده إلى تمرير مشروع قانون الاعتمادات المالية وتفادي تعطيل الحكومة. وطمأن نائب الرئيس ترامب، تمامًا كما فعل من قبل، عندما أُقرّت الموازنة من دون التمويل الكامل للجدار: أخبره بينس أن الموازنة أقرَّت «دفعة مقدمة» من تكاليف الجدار، وهي صيغة داعبت حسّه المالي، وبدت مرضية للرئيس حتى أنه كرّرها بحماسة كبيرة. ونجح كل من مارك شورت، مدير الشؤون التشريعية في البيت الأبيض، وميك مولفاني، رئيس مكتب الإدارة والموازنة، عندما ظهرا معاً في قاعة الصحافة بالبيت الأبيض يوم الخميس، في تحويل مسار النقاش من الحديث عن الجدار إلى الحديث

عن النفقات العسكرية. فقال مولفاني: «يقدّم مشروع الموازنة هذا أكبر زيادة سنوية في نفقات الدفاع العسكرية منذ الحرب العالمية الثانية. وسوف تكون أكبر زيادة في رواتب جنودنا خلال الأعوام العشرة الأخيرة».

* * *

أخفقت محاولة تشتيت معسكر ترامب بتلك الكليشيهات. وأصرّ كادر ترامب المتشدد على فرض بحث المسألة، ولم يتوانَ بانون أن يكون قائدهم في ذلك المسعى.

وما هي إلا دقائق بعد تمرير مشروع قانون الموازنة في 22 آذار/مارس، حتى بدأ بانون، من داخل «السفارة»، بإجراء اتصالاته. وكان هدفه تنبيه أنصار ترامب الأشد حماسة كي ينبّهوه. وكان أثر ذلك آنيًّا، حيث بدأ هؤلاء، وقد استبدّ بهم الغضب، بالتواصل مع ترامب الذي لم يكن يشكّ في شيء.

عرف بانون الأشياء التي تحفّز ترامب؛ فسماع التفاصيل ليس من ضمنها، ولا حتى سماع الحقائق. ما يحفّزه هو شعوره أن هناك شيئًا قيّماً قد يُسلب منه. إذا واجهته باحتمالات الخسارة، فسوف يحوّل مساره. وهو بارع في تحويل مساره. يقول بانون: «لا ينحصر الأمر في أنه يحتاج إلى الشعور بالانتصار كل أسبوع، أو كل يوم، أو حتى كل ساعة، بل كل ثانية. وبعد ذلك، يجد نفسه في موقف لم يخطّط له».

رأى أنصار ترامب المتشدّدون أن هذا من أسس النهج «الترامبوي»: عليك أن تنبّه ترامب باستمرار للطرف الذي ينتمي إليه. وبينما انخرط بانون في تنظيم الصفوف المناصرة والداعمة للرئيس، تأمل واقعًا فرضه ترامب: «ببساطة، لن يُبنى الجدار ما لم يدرك الرجُل الثمن السياسي الذي سيدفعه إذا لم يشرع في بنائه».

وإذا لم يشرع ترامب في تشييد الجدار بحلول انتخابات التجديد النصفي في تشرين الثاني/نوفمبر، فسوف يظهر في ثوب الكاذب المدّعي والضعيف. يلزم أن يصير الجدار حقيقة ملموسة. وغياب بند الجدار في مشروع الإنفاق يعني أمراً واحداً هو أن ترامب مغيَّب عما يجري من حوله، وأن رسالة ترامب الأشد فاعلية، التي تتصدر خطابه، والتي تعني نهجه العدائي ضد المهاجرين غير الشرعيين، قد خفّت حدتها. حدث هذا من دون أن يعرف ترامب أنه حدث فعلًا.

* * *

في مساء الثاني والعشرين من آذار/مارس، شنَّت قناة فوكس الإخبارية، من خلال تكر كارلسون ولاورا إنغرام وشون هانيتي، هجومًا لاذعًا تحدثت فيه عن تعرُّض الرئيس للخيانة.

احتدمت المعركة. واتخذت القيادات الجمهورية في الكونغرس، إلى جانب المانحين، موقفًا واقعيًّا وعمليًّا في مواجهة الحقائق السياسية واحتمالات تخصيص مليارات لا حصر لها من الإنفاق الحكومي؛ مع التأكيد أن المكسيك ستدفع نصيبها في تشييد الجدار. ووقف في وجه هؤلاء جماعات الجمهوريين الأشد تطرفًا من قناة فوكس؛ أولئك الموالون بكل يقين وثبات لنهج ترامب وفكره.

كانت تحوُّلات مزاج ترامب خلال فترة المساء تغدو أكثر حدّة. فقد تبارى مراقبو فوكس الثلاثة في إحداث صدمات كهربائية، كل منها أقوى من الأخرى. هي رسائل مفادها أن ترامب تخلّى عن الحركة والنهج. أو ما هو أسوأ من ذلك، أنهم هزموا ترامب وخدعوه. وتوالت الاتصالات التي كان طرفها ترامب، مزمجرًا بمزيج من الألم والغضب. شعر أنه هو الضحية. لم يجد في صفّه أحدًا. ليس في وسعه أن يثق بأي شخص من حوله. ذلك أن قيادات الكونغرس ضده. والبيت الأبيض ضده. أهي خيانة؟ يكاد يكون جميع من في البيت الأبيض ضده.

وزاد الطين بلّة في الصباح التالي. بدا بيت هيغيث، وهو من أشد مناصري ترامب حماسة في قناة فوكس، متأثرًا للغاية خلال برنامجه «فوكس آند فريندز» للخيانة التي تعرَّض لها ترامب.

بعد ذلك، وفي وقت متزامن تقريبًا مع بكائية هيغيث، غيّر ترامب موقفه بغتة، وبالطريقة المربكة نفسها، وغرّد أنه يفكر في استخدام حق الفيتو ضد مشروع الاعتمادات المالية. وهو المشروع نفسه الذي كان راضيًا عنه تمامًا قبل أربع وعشرين ساعة فقط.

وفي صباح يوم الجمعة، نزل من مقر إقامته إلى المكتب البيضاوي، وقد تملّكه الغضب الشديد، مكفهر الوجه ومن دون العناية بشعره. وصُدم كثيرون من أفراد طاقمه الرئيسي وهم يرونه واقفًا أمامهم برأس يكاد يكون أصلع تمامًا، ولو كان

ذلك للحظات قليلة.

وأثار تغيير الرئيس المفاجئ لموقفه الفزع في الحزب الجمهوري بأكمله. فإذا نفَّذ ترامب تهديده بعدم التوقيع على مشروع القانون، فإن هذا يعني تنفيذ ما يخشاه معظمهم: تعطيل الحكومة. وقد يلقي الرجل بلائمة هذا الإغلاق على حزبه.

اتصل مارك ميدوز، رئيس مجموعة الحرية «فريدوم كوكوس» وحليف ترامب القوي في الكونغرس، بالرئيس من أوروبا، ليخبره بالآتي: بعد التصويت الذي جرى ظهر الخميس، غادر معظم الأعضاء المدينة لقضاء عطلة الكونغرس. وبالتالي لن يتسنى للكونغرس التراجع عن التصويت، وكان من المقرر أن يبدأ تعطيل الحكومة في غضون ساعات.

وحثّ ميتش ماكونيل وزير الدفاع جيم ماتيس على إعلام الرئيس بأن الجنود الأميركيين لن يتقاضوا رواتبهم ما لم يعتمد مشروع الموازنة. وكانت حركة مكررة؛ فقد حذّر ماتيس من ذلك من قبل خلال أزمة التعطيل السابقة في كانون الثاني/يناير.

«كلا.. كلا.. كلا.. لن يحدث ذلك مجددًا». وهكذا أرغى ترامب وأزبد، وهو يضرب المنضدة أمامه بقبضته القوية.

وهكذا، تراجع ووقّع على مشروع القانون. ولكنه أقسم أن يتضمّن هذا المشروع في المرة القادمة مليارات عديدة للجدار، وإلا فإنه لن يتورع أبدًا عن تنفيذ تعطيل الحكومة حقًّا.. حقًّا.

* * *

خبر بانون هذا الموقف من قبل مرّات عدة.

«يا صاح.. هذا دونالد ترامب الذي أعرفه»، هكذا حدَّث بانون نفسه، وهو يكاد يعتصر رأسه بيديه، جالسًا إلى تلك المائدة في «السفارة»، في اليوم التالي لتوقيع الرئيس على مشروع القانون.

لم يكن بانون مرتبكًا، فهو يدرك تمامًا مدى تأثير مساندته لترامب في رؤيته ومسيرته برمَّتها. وبرغم ما قد يجده من ردود أفعال الذين حوله، فإن بانون مؤمن

بأنه أشد قومية من دونالد ترامب نفسه.

رأى بانون ضرورةً للتحرّك بسرعة. فهو يعتقد أنه ممثل الطبقة العاملة أمام آلة تكنوقراطية حكومية تجارية تتجسّد في أصحاب الشهادات الرفيعة. في ذهن بانون صورة رومانسية للعامل الأميركي؛ إنه رجل صلد، مدخّن شره، وعنيد مثل حائط فولاذي. وربما كانت هذه صورة من الماضي (إن كانت موجودة أصلاً)، زمن المساواة، ويوم كان العامل يقف متباهيًا بعمله وشخصيته وهويته. لكن بانون يجد فيها ما يوقد جذوة الغضب العارم. إنها ثورة ضد كل هذا الارتباك والقلق والخوف الذي يجتاح العالم بسبب آراء وتطبيقات ليبرالية. ولا بد لهذه الثورة من قائد، ومن يكون غيره. يكاد يرى القائد العالمي يتجسد أمامه. وهو الرجل الماثل خلف الستار، وليس هناك ما يمنعه في أن يكون أمام ذاك الستار، في محاولة منه لإنقاذ العالم من مهازل ما بعد الحداثة، واسترجاع شيء من حالة التجانس والاحتضان السياسي التي كانت سائدة في العام 1962.

والصين! ونذير المعركة النهائية الكبرى! يؤمن بانون بأن التاريخ يكرّر نفسه، وأن الصين تؤدّي الدور الذي أدّته روسيا سنة 1962، ولكنها أذكى وأشد خبثًا وخطورة. ورجال الأعمال الأميركيون، في دعمهم للصين خفيةً ضد مصالح الطبقة الأميركية الوسطى، إنّما هم طابور خامس جديد.

إلى أي حدٍّ يفهم ترامب هذا؟ وإلى أي حدٍّ يلتزم ترامب الأفكار التي تحرّك بانون، وقد تحرّك القاعدة الجماهيرية من خلال التنافذ الاجتماعي؟ مرّ أكثر من عام على حكم ترامب. وبرغم ذلك لم يبدأ تنفيذ مشروع الجدار؛ وحتى الآن لم تُخصّص له أي ميزانية. الجدار، وكل ركيزة سواه من ركائز ثورة بانون القومية، التي خطّ تفاصيلها ذات يوم على لوح في مكتبه بالبيت الأبيض، آملاً أن ينجز كل عنصر منها بالتتابع، أضحت أسيرة تقلّبات مزاج ترامب وطيشه. لقد تعلم بانون منذ زمن أن ترامب «لا يلقي بالًا على الأجندة.. بل إنه لا يعرف، أساسًا، ما تعنيه الأجندة».

* * *

في أواخر آذار/مارس، وبعد أن مرّت سحابة أزمة مشروع الموازنة، خيّمت أجواء تفاؤل عابرة على الدائرة المقرّبة من الرئيس.

بدا أن جون كيلي، كبير موظفي البيت الأبيض، في طريقه إلى ترك منصبه، بعد أن طفح كيله من ترامب. كذلك نفد صبر ترامب منه. وكان كيلي قد حل محل راينس بريبوس في آب/أغسطس 2017، بهدف إعادة الانضباط الإداري إلى الجناح الغربي الذي عصفت به الفوضى. ولكن ما إن انتصف الخريف، حتى بدأ ترامب يتحايل على إجراءات كيلي الجديدة. وصادف الرجل مشكلات جمّة مع جاريد وإيفانكا، اللذين رفضا قواعده الجديدة للتعامل مع الرئيس. ومع نهاية العام، صار ترامب يهمز ويلمز من وراء رئيس موظفيه، ويسخر من صرامته في تنفيذ الإجراءات، واتّباع القواعد. والحقيقة أن الرجلين قد تصادما صراحة، وفي غير موقف. ولم يكترثا لردود الأفعال من حولهما. رأى ترامب أن كيلي رجل مأفون يبالغ في تشدّده، وأن صرامته تلك سوف تنال منه في نهاية المطاف. بينما وصفه كيلي بأنه مشوش العقل ومعتوه.

نحن أمام دراما تزداد غرابة أطوارها يومًا بعد يوم.

في شباط/فبراير، جمع موقف متوتر بين كيلي، وهو الجنرال العسكري المتقاعد، وكوري ليفاندوفسكي، مستشار ترامب، خارج المكتب البيضاوي، حتى أن كيلي دفع كوري نحو الحائط. ولما علم ترامب بما جرى، همس قائلًا: «من الأفضل أن تتحاشاه»، وهو يحرّك إصبعه قرب رأسه بحركة دائرية في إشارة إلى أن الرجل مجنون. اندهش الجميع من ذلك الموقف، وطلب ترامب من ليفاندوفسكي ألا يخبر به أحدًا، ولكن ليفاندوفسكي حكى ما حدث، ووصف للجميع كيف أنه كان خائفًا للغاية.

زادت حدة القطيعة بين ترامب وكيلي في آذار/مارس. كان ترامب يتجاهل كيلي، وكيلي يظل عابساً في وجهه. وبينما يلمح ترامب إلى ضرورة استقالة كيلي، كان كيلي يتجاهل تلميحاته كأنها لم تكن. ولكن الجميع أدركوا أن العد العكسي لموعد رحيله قد بدأ.

شرع العديد من الجمهوريين، بدايةً من رايان وصولًا إلى ماكونيل وخصمهم اليميني مارك ميدوز، بالإضافة إلى بانون، في تنفيذ خطة لدفع زعيم الأغلبية في مجلس النواب كيفن مكارثي نحو شغل منصب كبير الموظفين. حتى أن ميدوز، الذي يكره مكارثي، كان مؤيدًا له. وكانت الاستراتيجية هي أن مكارثي، الخبير التكتيكي الكبير، قادر على ضبط البيت الأبيض وتركيز جهوده في مهمة وحيدة، هي انتخابات

التجديد النصفي. سوف تكون كل تغريدة وكل خطاب مكرّسين لأجل إنقاذ الأغلبية الجمهورية.

لم يكن ترامب يرغب في تعيين رئيس موظفين ليكون شوكة في حلقه. وكان واضحًا أن ترامب لا يريد من رئيس موظفيه أن يخبره بأي شيء. كما أنه لا يرغب في أن يدار البيت الأبيض بطريقة لا ترضي رغباته. وقال بعضهم إن جون كينيدي لم يكن لديه رئيس موظفين، ما حفّز ترامب على ترداد تلك البدعة الرئاسية.

* * *

استمر فريق التحقيقات التابع لمولر، في إطار متابعة تحقيقاته حول التورُّط الروسي، في سبر أغوار تاريخ ترامب المالي المشبوه؛ أي إن الفريق دخل غرفة الأسرار التي حذَّره ترامب بوضوح من دخولها. وحرص مولر، حمايةً منه لفريقه، على طمأنة محامي الرئيس أنه لا يسعى وراء مصالح الرئيس التجارية؛ ولكنه كان في الوقت نفسه يمرر الأدلة التي جمعتها تحقيقاته حول أعمال ترامب وشؤونه الشخصية إلى مدّعين عامين فيدراليين غيره.

وفي التاسع من نيسان/إبريل، قام مكتب التحقيقات الفيدرالي، بناءً على تعليمات من مدعين عامين فيدراليين في نيويورك، بمداهمة منزل مايكل كوهن ومكتبه، بالإضافة إلى غرفة كان يستخدمها في فندق ريجنسي بارك أفنيو. وبقي كوهن، الذي قدّم نفسه بأنه محامي ترامب الشخصي، قيد الاحتجاز لساعات داخل مطبخه، بينما جهد أفراد الإف بي آي في البحث والفرز وتفكيك كل جهاز إلكتروني يعثرون عليه.

وبالمصادفة، كان بانون ينزل في فندق ريجنسي خلال زياراته المتكررة إلى نيويورك، وأحيانًا كان يلتقي كوهن في بهو الفندق. تعرف بانون إلى كوهن خلال حملة الانتخابات، وكان قلقًا من علاقة المحامي الغامضة بحملة الانتخابات الرئاسية. ولكن بانون أدرك، وهو يشاهد الخبر عن كوهن في واشنطن، أنه شاهد سقوط حجر آخر من أحجار الدومينو حول ترامب.

«صحيح أن التكهّن بما ستكون عليه النهاية أمر صعب؛ لكن بوسعنا تخمين بداية النهاية.. البداية مع الأخ كوهن».

* * *

فـ ي 11 نيسان/إبريل، عقب ثلاثة أسابيع من اعتماد الرئيس مشروع الموازنة، أعلن بول رايان، أحد أقوى الرموز الجمهورية في واشنطن، عزمه على ترك منصبه كرئيس للكونغرس، ومغادرة المجلس.

قال بانون، وهو جالس إلى طاولته في «السفارة» صباح ذلك اليوم: «استمعوا إلى ما يقوله بول رايان، لقد انقضى الأمر. بول رايان يريد القفز من قطار ترامب اليوم».

كان رايان يصارح كل من يتحدث إليه أن الحزب سوف يخسر ما بين خمسين مقعداً وستين في المجلس، وذلك قبل سبعة أشهر من موعد انتخابات التجديد النصفي. في حين كان ستيف ستايفرز، مساعد رايان ورئيس لجنة الجمهوريين في الكونغرس، يقدّر حجم الخسارة بتسعين مقعدًا إلى مئة. وفي ذلك الوقت المتأزم، بدا منطقيًّا أن ينجح الديمقراطيون في سدّ فجوة المقاعد الثلاثة وعشرين وتعويضها، وصولًا إلى أغلبية أكبر مما يمتلكها الجمهوريون الآن. الفارق هنا، على النقيض من الجمهوريين، هو أن ترامب سيكون في مواجهة حزب توحّدت صفوفه ضده.

لم يكن رايان، ومعه ستايفرز، الوحيدين اللذين يتوقعان تلك النتيجة. فقد أخبر ميتش ماكونيل المانحين بألا ينشغلوا كثيرًا بمسألة تمويل سباق الكونغرس. كان من الأفضل أن يتوجّهوا بأموالهم إلى حملات مجلس النواب، حيث تتزايد حظوظ الأغلبية الجمهورية.

وجد بانون أن هذه اللحظة هي أشد اللحظات يأسًا في تاريخ ترامب السياسي، بل هي أسوأ من واقعة تسريب فيديو تلميحات ترامب الجنسية المهينة للمرأة خلال برنامج «أكسس هوليوود» (Access Hollywood). إنه ملاحق قانونيًا بالفعل، يلاحقه مولر والفيدراليون؛ وتنتظره الآن خسارة ماحقة في انتخابات التجديد النصفي، في تهديد عارم لمصيره السياسي.

لكن حماسة بانون المألوفة عادت بسرعة. عندما خرج من حالة الاكتئاب، أصبح بهيجًا تقريبًا. ولو أن الإدارة، متضمنة الديمقراطيين، والجمهوريين، وأصحاب الفكر المعتدل من كل طيف، اعتقدت أن هناك حاجة إلى إخراج دونالد ترامب من

البلدة، فإن خيار الدفاع عنه بدا متعة لبانون. لقد كان هذا الأمر بمثابة مهمة له، لكنه كان أيضًا رياضة. كان بانون يتألّق في ظل احتمال الاضطرابات. أليس هو مَن قفز إلى المسرح العالمي لأن حملة ترامب الانتخابية كانت في قمة اليأس، حتى أنه سُمح له بتوليها؟ ثم، في 9 تشرين الثاني/نوفمبر 2016، وعلى عكس كل الاحتمالات والتوقعات، جاء ترامب، على ظهر حملة بانون ليربح الرئاسة. لتصبح عما قريب سيادة بانون أمرٌ ما بات على ترامب ابتلاعه. الآن، يبدو كل مؤشر من مؤشرات انتخابات تشرين الثاني/نوفمبر كئيبًا. فقد ظن بانون أنه لا يزال قادراً أن يُبقي خسائر الجمهوريين المقاعد دون الثلاثة وعشرين مقعداً المطلوبة للحفاظ على الأغلبية في الكونغرس. مع ذلك، سيكون الأمر معركة طاحنة.

«عندما يتصل ترامب بأصدقائه في نيويورك بعد العشاء، للتذمُّر من عدم وجود صديق واحد لديه في العالم، فهو محق إلى حدّ ما»، يقول بانون ذلك ساخرًا.

كان بانون يعتبر القضية المرفوعة ضد دونالد ترامب سياسية بالأساس، حيث يرغب أعداؤه في تدميره مهما كلف الأمر. ولكنها حقيقة وواقع من حيث الجوهر. لقد كان لديه القليل من الشك في أن ترامب مذنب في أغلب ما اتُّهم به. «كيف حصل على المال لخوض الأدوار التمهيدية للانتخابات، ثم بعد ذلك خاض الانتخابات العامة في ظل «مشكلات السيولة» التي كانت تواجهه؟»، تساءل بانون في حيرة، وتابع قائلاً: «فلنكفَّ عن التفكير مليًّا في هذا».

كان هناك جانبان للسياسة الأميركية في نظر بانون ليس هما اليمين واليسار، بقدر ما هما فكر يميني وفكر يساري. الفكر اليساري يمثّله النظام القانوني، الذي كان عمليًّا واستدلاليًّا ومنهجيًّا؛ وفي حال منحه الفرصة، فسوف يدين دونالد ترامب حتمًا وبكل حق. أما الفكر اليميني فقد كان ممثلًا في السياسة، وبالتالي في الناخبين الذين كانوا عاطفيين ومتحمسين ومحمومين ومتلهفين دائمًا ليجرّبوا حظوظهم مع هذا الرجل. «أشعلوا حماسة البائسين[3]»، هكذا صاح وهو يصفق بيديه بكل قوة: «وسوف ننقذ رجلنا».

بعد مرور حوالى عام ونصف العام، ظلت كل قضايا العام 2016 حاضرة بقوة ومن دون حل. وظلّت الهجرة على حالها. واستمرّ رفض الرجل الأبيض، والاحتقار الليبرالي للرجل الأبيض، سواءً كان عاملًا أو عاطلًا من العمل. فبات العام

؛ في نظر بانون، تكرارًا دقيقًا ودونما تغيير لما كان عليه الوضع عام 2016: القاعدة التي يُرثى لها أصبحت أمّةً يُرثى لها. «إنها حرب أهلية»، وهو وصف لطالما كرّره بانون عن اقتناع.

أما أشد القضايا إلحاحًا فكانت قضية دونالد ترامب نفسه. فقد احتشد من انتخبوه في وجه الجهد المبذول لإبعاده عنهم وعن المشهد. وخشي بانون من جهود التيار الرئيسي للجمهوريين الهادفة إلى إدارة الانتخابات القادمة بالاعتماد على قوة دفع الاستقطاع الضريبي الأخير. «هل تمزحون؟ يا إلهي، هل تمزحون؟» هذه الانتخابات تحدّد مصير دونالد ترامب.

«دعونا نجرِ انتخابات البداية الجديدة. هذا ما يريده الليبراليون. ولنفعلها، بفوز أو هزيمة، مع ترامب أو من دون ترامب».

لم يكن هناك خوف من احتمالات عزل الرئيس. فهي احتمالات لا بد من احتوائها. «حقيقة الانتخابات هذه هي إما تثبيت التهمة على دونالد ترامب، وإما إنقاذه من براثنها».

إلا أن التهديد القانوني ربما كان يتحرك أسرع من الانتخابات. أما بانون، الذي كان على علم أكثر من أي شخص آخر برغبات الرئيس، وترجُّح مزاجه، ومشكلات السيطرة على اندفاعاته، فإنه بات أمام متهم بائس بحاجة ماسة إلى من يأخذ بيده.

* * *

وفريق الرئيس القانوني المؤلف من داود وكوب وسيكولو، يحرص منذ تشكيله في صيف 2017، على ترسيخ رسالة يصرّ موكّلهم على سماعها، بأنه ليس هو المستهدف، وأن ساحته ستبرّأ عما قريب. لكن المحامين شطحوا بعيدًا باستراتيجية الطمأنينة تلك.

عندما يواجه الرؤساء تحقيقات عدائية تجريها فروع أخرى مساوية لهم في النفوذ، مثل الحكومة والكونجرس والسلطة القضائية، يلجأون إلى سلطاتهم التنفيذية كمبدأ قانوني وتكتيك مناورة. إنها ميزة مساومة في الواقع. ولكن محامي ترامب،

وبعد أن بالغوا في طمأنته إلى عدم وجود شيء يخشاه، دعموا تقييمهم الواثق باستبعاد احتمالات اللجوء إلى تلك الصلاحيات التنفيذية، الأمر الذي أثار غبطتهُ. وقاموا طواعية بتلبية كل طلبات المستشار الخاص. وهكذا أصبح ترامب، رغم كل مراوغاته، كتابًا مفتوحًا. والأكثر من هذا، كان ترامب نفسه، مع إيمانه الدائم بقوة شخصيته الخاصة وسحرها، وبمباركة محاميه، متلهفًا إلى المثول للشهادة.

أدرك بانون أن الأمر لن يلبث أن يزداد سوءًا. فقد أرسل محامو الرئيس أكثر من 1,1 مليون وثيقة إلى المستشار الخاص، بمساعدة فريق محدود جدًّا لإعداد الوثائق، يتكوّن من داود وكوب ومساعدين عديمي الخبرة. وفي القضايا الكبيرة، يُفترض تسجيل الوثائق بدقة، وإعداد إحالات مرجعية دقيقة لها في أنظمة قواعد بيانات مفصلة وعالية الدقة. ولكنهم في هذه الحالة، أرسلوا معظم المواد كملحقات فقط، واحتفظوا بحد أدنى من السجلات، أو لم يسجلوا كل ما أرسلوه بالضبط. قليلون في البيت الأبيض عرفوا ما سلّموه؛ وبالتالي، عرفوا أنّ ما سلّموه أصبح لدى المستشار الخاص في نهاية الأمر. ولم يقف النهج العشوائي عند هذا الحدّ. لم يستعن داود وكوب بالكثير من الشهود الذين عملوا في البيت الأبيض قبل إدلائهم بشهاداتهم أمام فريق مولر، ولم يستخلصوا منهم المعلومات عما حدث بعد أن أدلوا بشهاداتهم.

ذهل بانون من عبثية هذا النهج المطمئن البال وغبائه، مع مدعين فيدراليين تتوقّف سمعتهم على نجاحهم في إثبات إدانة الرئيس. وكان ترامب بحاجة إلى خطة؛ وهي لدى بانون بالطبع.

أقسم بانون بأنه لا يريد العودة إلى البيت الأبيض. قال إنه لن يعود أبدًا. لقد كادت مذلة العمل لدى إدارة ترامب تمحو ثقة بانون بنفسه، بل تلغي ثقته بقدرته الإعجازية التي أتاحت وصوله إلى القمة.

لكن كان هناك أشخاص لم يقتنعوا بتأكيداته. كانوا يعتقدون أن بانون تخيَّل نفسه البطل المنقذ الذي يعود إلى الجناح الغربي لإنقاذ مصير ترامب؛ وأن في ذلك انتقامًا تامًا من ترامب نفسه. ولا شك أن بانون اعتقد أنه الوحيد الذي يستطيع القيام بعملية الإنقاذ الصعبة هذه، في تجسيد لإيمانه بأنه الخبير الاستراتيجي السياسي الأعظم في عصره، ولرأيه في أن ترامب محاط بأشخاص يماثلونه غباءً.

اعتقد بانون أن ترامب يحتاج إلى مستشار أزمة. وفكّر، لو تسنّى إبعاد جاريد وإيفانكا.. ولكن لا.. بكلّ تأكيد... ولا حتى حينها.

فضلاً عن ذلك، لن يكون ترامب قادرًا على تحمُّل ذلك. فهم بانون أن ترامب وحده يستطيع إنقاذ الموقف، أو على الأقل يعتقد ذلك. ليس هناك من سيناريو آخر ممكن. إنه يفضّل أن يخسر، يفضّل حتى أن يذهب إلى السجن على أن يضطر إلى مشاركة انتصاره مع شخص آخر. إنه مريض نفسيًّا برغبة عارمة في أن يكون محط كل الانتباه.

في النهاية، كان الأسهل والأكثر فائدة لبانون أن يزوّد ترامب بالنصح عن بعد. كان من الأسلم له أن ينجز المطلوب من دون تدخل من ترامب نفسه، أو حتى معرفته ما يجري.

وصباح اليوم الذي أعلن فيه رايان تقاعده عن مسيرته في الكونغرس، كان بانون متلهّفًا جدًّا لإرسال نصيحة إلى ترامب. وفي حركة حاذقة، دعا روبرت كوستا، مراسل الواشنطن بوست، لزيارته في «السفارة».

قضى بانون الشطر الأكبر من أيامه يتحدث إلى الصحفيين. وفي بعض الأيام، بل في معظم الأيام، غلبت آراؤه، التي كان يحرص على تعميتها بزعم أنها مستقاة من «حوارات مع مسؤولين حاليين وسابقين»، على الآراء الأخرى بشأن أي أزمة جديدة تجتاح إدارة ترامب. وبدت تلك المقولات بمثابة عبارات تلقين على خشبة مسرح يقف عليها ترامب، ولكنه يتظاهر بعدم سماعها. والواقع أن ترامب كان دائمًا يسعى إلى طلب نصائح بانون، وإن كان ذلك مشروطاً بألا يعرف أنها تأتيه من بانون مباشرة. وبالتأكيد كان ترامب راغبًا جدًّا في سماع رأي بانون، لينسب الرأي من ثم إلى نفسه، مدّعيًا أنه فكره الأصيل.

جلس كوستا إلى مائدة بانون لساعتين، يدوّن وصفة بانون التي سوف ينقذ بها ترامب من نفسه.

يرى بانون أن من الممكن استغلال غباء ترامب. هذه فكرة بانون: يجب أن يبادر الرئيس إلى استغلال صلاحياته التنفيذية بأثر رجعي. والحجة هي أنه لم يكن يعرف ولم يخبره أحد أن بوسعه فعل ذلك. ويمكنك أن تتخيل مدى سعادة بانون وهو

يتأمل ترامب خانعًا، يقر بسذاجته.

يدرك بانون أن هذه خطوة لن يُكتب لها النجاح، ولا ينبغي أن تنجح. ولكن جرأتها المطلقة توفر لهم مهلة قانونية ما بين أربعة أشهر وخمسة. الوقت صديقهم، وربما حليفهم الوحيد. ويمكنهم الإصرار على استغلال الميزات التنفيذية، مهما يكن في ذلك من عبث، حتى بمفعول رجعي إلى المحكمة العليا.

ويعتمد نجاح هذه الخطة على تخلّص الرئيس من محاميه الحمقى، وطرد رود روزنشتاين، نائب المدعي العام الذي كان يشرف على تحقيق مولر. وكان بانون ضد فصل كومي، وفي الشهور التي أعقبت تعيين المستشار الخاص، قاوم نزوة الرئيس اليومية تجاه فصل مولر وروزنشتاين، باعتبار أن هذه الفعلة خطوة أكيدة على الطريق إلى عزل الرئيس. (وكان يقول لكل من هم حول الرئيس «عليكم فقط ألا تولوا ما يقوله اهتمامًا») لكنهم الآن استنفدوا كل الخيارات.

أخبر بانون كوستا أن «فصل روزنشتاين هو مخرجنا الوحيد هنا. لم أصل إلى هذا الرأي بسهولة، بمجرد ذهابهم إلى كوهن، وهذا ما يفعلونه في المحاكمات لاستنطاق المستهدف الحقيقي. وهكذا، فإمّا أن تجلس هناك وتُستنزف وتتهم وتُحال إلى هيئات المحلفين الكبرى، وإما أن تقاوم سياسيًّا. عليكم إبعاد القضية عن منظومة القانون، وإلا باتت الخسارة حتمية. سوف يراجع مدعٍ عامٌّ جديد موقفنا من هذا الأمر، وهو ما يمكن أن يمنحنا مهلة شهرين. الحل في التأخير، ثم التأخير، ثم التأخير، وبعد ذلك التحرك سياسيًّا. هل يمكننا أن ننتصر؟ ليست لدي أدنى فكرة. لكنني أعرف أنني سوف أخسر إذا سلكت ذلك المسار الآخر. إنها ليست خطة مثالية... لكننا نعيش في عالم غير مثالي».

* * *

وفي تحقيقه الصحفي، الذي نشره على الإنترنت في وقت لاحق من ذلك اليوم، قال كوستا إن بانون «يعرض على مساعدي الرئيس والحلفاء في الكونجرس خطة لتقييد التحقيق الفيدرالي في التدخل الروسي خلال انتخابات العام 2016، طبقًا لأربعة أشخاص على دراية بالمناقشات». ولكن أيًّا يكن عدد من تحدث إليهم كوستا عن المكائد التي يدبرها ستيف بانون من وراء الستار، فإن ما يهمه هو أنه تحدّث

مباشرة وبالتفصيل إلى بانون نفسه، والذي كان يستغل الواشنطن بوست في توصيل مفردات الخطة إلى الرئيس.

وجدت خطة بانون لإنقاذ ترامب على ثلاث مراحل طريقها إلى المكتب البيضاوي. ففي الصباح التالي، عرض الرئيس على كوشنر رأيه في أن يُقيل روزنشتاين، وفي أن يطالب بتنفيذ صلاحياته الرئاسية، وفي الاستعانة بمحامٍ قوي.

وحث كوشنر، بأسلوبه الاستراتيجي المعتاد، حماه على توخّي الحذر تجاه روزنشتاين.

«جاريد خائف»، قال ترامب في وقت لاحق من ذلك اليوم هذا الكلام بسخرية، خلال التحدّث إلى صديق حميم على الهاتف... «يا له من جبان!».

الفصل الثالث
محامون

جرت العادة في بيت ترامب الأبيض أن يجري استطلاع لتحديد هوية الشخص الأتعس فيه. وقد تبوّأ كثيرون المنصب، لكن أحد الذين كانوا يفوزون باللقب بشكلٍ متكرّر هو دون مكغان، مستشار البيت الأبيض. فالرجل كان هدفًا دائمًا لرئيسه الذي تعوّد استصغاره والسخرية منه، وكذلك تقليد صوته بصورة مبالغٍ فيها. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تعدّاه إلى الانتقاص من جدوى وجوده في البيت الأبيض وفائدته.

قال مكغان هامسًا بقلقٍ شديد: «هكذا نُحرم من أجمل الأشياء»، وكان بذلك يقتبس من كلمات أغنية تايلور سويفت. كان الرجل يعلّق على الإجراء الفاضح الذي أقدم عليه ترامب لتوّه. أما المقطع التالي من الأغنية فقد كان على الشكل الآتي: «... لأنك تحطّمها».

عُرف مكغان بأنه محامٍ مختصٌّ بشؤون الانتخابات الفيدرالية. وكان يميل إلى اتخاذ إجراءات أقلّ شفافية، تتيح له الكسب الأكثر من المال. أي إنه لم يكن يسعى إلى التطبيق الصارم لقوانين الانتخابات. وقد عمل كمستشار لحملة ترامب الانتخابية التي شهدت أعلى مستوى من الاستهتار بتطبيق قوانين الانتخابات في التاريخ الحديث. على أنه لم يشغل أي منصب في البيت الأبيض، أو في الحكومة، قبل انضمامه إلى إدارة ترامب. كذلك لم يسبق له أن عملَ في وزارة العدل، أو في أي وزارة أخرى في البلاد. لكنه كان وكيلًا لمؤسسة لا تستهدف الربح تابعة لشركات الأخوان كوك، وكان حزبيًا متشدّدًا. وهذا ما يفسّر عدم ردّه على رسالة التهنئة التي أرسلتها إليه كاتي

روملر بالبريد الإلكتروني، وهي التي كانت المستشارة السابقة للبيت الأبيض في عهد أوباما، وعرضت فيها المساعدة في ما يخصّ السياسات السابقة.

اشتملت إحدى مهمات مكغان على استكشاف إحدى العلاقات الأكثر تعقيدًا التي تواجه الإدارة الجديدة، أي أن يكون صلة وصلٍ فعّالة بين البيت الأبيض ووزارة العدل. واشتملت مهماته أيضاً على تحمّل نوبات غضب الرئيس المستمرة وتساؤلاته عن سبب كونه هدفًا شخصيًّا لملاحقة وزارة العدل، وعجزه عن فهم سبب إخفاقه في مواجهة هذه الملاحقة.

تعوّد ترامب إبلاغ مكغان بالآتي: «إنها وزارة العدل، وزارتي أنا»، وكان يؤكّد تصريحه المريب هذا في توقيعه الثلاثي.

يُضاف إلى كل ذلك أن أحدًا لم يكن يعرف كم من مرةٍ اضطرّ فيها مكغان إلى التهديد، سواء عن رغبةٍ حقيقية أو عن تظاهر، بالاستقالة إذا ما نفّذ ترامب تهديداته بإقالة المدعي العام، أو مساعد المدعي العام، أو المستشار القانوني الخاص في وزارة العدل. لكن ما يثير الدهشة بالفعل، وما يدحض فرضية محاولة الرئيس إقالة مولر في شهر حزيران/يونيو من العام 2017، وذلك بهدف إنهاء التحقيق الذي فتحه المستشار القانوني الخاص، وهو الأمر الذي زعمته صحيفة نيويورك تايمز بتاريخ كانون الثاني/يناير من العام 2018، هو أن ترامب كان، وباستمرارٍ، يحاول إقالة مولر، أو شخصياتٍ بارزة أخرى في وزارة العدل، وهو أمر كان يفعله مراتٍ عديدة في اليوم.

ساعد مكغان، وحتى في هذا الوقت، على تجنّب مواجهة أزمةٍ كارثية. لكنه تجاهل عمداً أو سهواً، عددًا من الإجراءات المتشددة التي اتخذها الرئيس والتي اعتبرها غير حكيمة، وهي التي خشي مكغان أن تشكّل أساسًا للاتهام بعرقلة التحقيقات. إلّا أن مكغان، الذي كان يحتفظ بعلاقات وطيدة مع منظمة «فيدراليست مو سايتي» المحافظة، ويتعاطف مع حملته من أجل تعيين قضاة «ملتزمين النصوص»، حلُم بأن يصبح قاضيًا اتحاديًّا. لكن المنصب الذي شغله كرابطٍ بين ترامب ووزارة العدل جعله يدرك أن مستقبله كرجل قانون قد انتهى، ولا سيما في ظلّ هجمات ترامب التي كادت تكون يومية على استقلالية وزارة العدل، وهو الأمر الذي اضطر مكغان إلى تقبّله، أو التغاضي عنه.

* * *

انفجرت التوترات أخيرًا بين الإدارة ووزارة الدفاع، وتحوّلت إلى مواجهةٍ مفتوحة بعد مرور خمسة عشر شهرًا على تسلّم ترامب منصبه. لكن هذه المواجهة تحوّلت بعد ذلك إلى حربٍ بين البيت الأبيض ووزارة الدفاع التابعة له.

تكمن هنا مفارقة حديثة في فترة ما بعد ووترغيت، وهي استقلالية وزارة العدل. ومن وجهة نظرٍ تنظيمية وقانونية، يُمكن أن تكون وزارة العدل أداةً بيد البيت الأبيض، وهو الأمر الذي ينطبق على أي جهازٍ آخر، حيث يُمكن أن تكون مهمات الوزارة خاضعة لتوجيهات أي شخصٍ يتولّى منصب الرئاسة. لكن ذلك كان من الناحية النظرية فقط، إذ إن العكس كان صحيحاً أيضاً، من الناحية العملية. فقد ظهرت طبقة حكومية دائمة داخل وزارة العدل، آمنت بأن الانتخابات يجب ألا تؤثر في شؤون وزارة العدل. كان ذلك يعني أن وزارة العدل تقع خارج دائرة السياسة، أي إنها يجب أن تتمتع بالحيادية ذاتها التي تميّز المحاكم. وفي هذا السياق فإن وزارة العدل، وبوصفها أبرز جهة تحقيقٍ وادّعاء في البلاد، يجب أن تُعتبر سلطة كابحة للبيت الأبيض، ويجب أن تكون مستقلة عنه، وعن فروع الإدارة الأخرى (والجدير بالذكر أن مكتب التحقيقات الفيدرالي في داخل وزارة العدل يزعم امتلاكه قدرًا معيّنًا من الاستقلالية عن رؤسائه في الوزارة، وكذلك عن البيت الأبيض ذاته).

يسود إحساسٌ قوي بوجود خطوط لا يمكن تخطّيها حتى بين أولئك العاملين في وزارة العدل وفي مكتب التحقيقات الفيدرالي، والذين يمتلكون رؤية مختلفة قليلًا، ويعترفون بوجود علاقة تضامن بينهم وبين البيت الأبيض. ويُذكر أن وزارة العدل، ومكتب التحقيقات الفيدرالي، وقعا؛ منذ فضيحة ووترغيت، تحت رقابة الكونغرس والمحاكم. يعني كل ذلك أن أي جهدٍ تبذله الجهات العليا للتأثير في مسار التحقيقات، أو أي دليلٍ يظهر على على خضوعها للتأثير، عبر مذكّرة ما أو رسالة بالبريد الإلكتروني، قد يُسبّب خسارة الحياة المهنية لمن يخضع لها.

قدّمت براند راتشيل، التي كانت مساعِدة النائب العام، ومحامية بوش سابقًا، والتي رُشّحت لتولّي المركز الثالث في وزارة العدل خلال فترة حكم أوباما، استقالتها في شهر شباط/فبراير من العام 2018، وذلك لكي تتولّى وظيفة محامية في والمارت. ولو أن ترامب أقدم على إقالة روزنشتاين من منصبه لتولّت براند منصب النائب

العام بالوكالة، ولأشرفت على التحقيقات التي يجريها مولر. أبلغت براند زملاءها بأنها ترغب في الاستقالة قبل أن يبادر ترامب إلى إقالة روزنشتاين. وبعد ذلك، انتقلت براند من واشنطن العاصمة إلى بنتونفيل، أركنساس، حيث مقر والمارت.

بدت العلاقة الاستقلالية غير التبعية، التي استمرت على مدى جيلٍ كامل بين البيت الأبيض ووزارة الدفاع، أقرب ما تكون إلى حربٍ لا نهاية لها بين معسكرين مسلّحين. كان بيل كلينتون يجد صعوبة في التواصل مع جانيت رينون، التي شغلت في عهده منصب النائب العام، وكان عليه أن يتحمّل النكسات التي أدّت إليها قراراتها المتعلقة بِروبي ريدج، أي القرارات التي تسبّبت بمواجهة ردود فعلٍ عنيفة بين المعتدلين في الوزارة ومكتب التحقيقات الفيدرالي؛ وكذلك قضية واكو التي سبّبت مواجهة أخرى مع أحد المذاهب المسيحية؛ والتحقيقات مع الدكتور وِن هو لي، وهي القضية التي اشتملت على توبيخ وزارة العدل بسبب مطاردتها الطائشة لشخصٍ مشتبهٍ به بالتجسس. يُذكر كذلك أن كلينتون قد اعتزم ذات يوم إقالة لويس فريه، مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي في عهده، وهو الذي انتقده بشكلٍ علني، لكنّه تمكّن من السيطرة على غضبه الشديد تجاهه. أما أصحاب المراكز العليا في إدارة بوش، ومكتب التحقيقات الفيدرالي، ووزارة العدل، فقد وصلوا إلى حدّ التشابك بالأيادي حين اجتمعوا إلى جانب سرير مرض آي. جي. جون آشكروفت. ووقف جيمس كومي شخصيًا في طريق مندوبي البيت الأبيض الذين حاولوا دفع آشكروفت إلى استئناف برنامجه للتنصّت داخل البلاد. لكن البيت الأبيض تراجع أخيرًا عن هذا المسعى. تمكّن كومي في ظل إدارة أوباما، وكان آنذاك مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي، من انتزاع قدرٍ آخر من الاستقلالية للمكتب من وزارة العدل، وذلك عندما قرّر، ومن جانبٍ واحد، إقفال التحقيقات المتعلقة بِرسائل هيلاري كلينتون الإلكترونية، قبل أن يقرّر إعادة فتح التحقيقات مجددًا في وقتٍ لاحق. وهكذا تمكّن من توجيه دفة الانتخابات لمصلحة خصمها.

ظهر دونالد على المسرح السياسي في هذا الوقت، وهو الذي كان يفتقد أيّ خبرةٍ سياسية، أو بيروقراطية، والذي قضى حياته العملية بأكملها في إدارة مؤسسة صغيرة ذات طابعٍ عائلي، وهي شركة أراد أن تقوم بما يريده، وأن تخضع لأسلوبه في إدارة الأعمال. افتقد ترامب في وقت انتخابه أي معرفة في علم السياسة الحديث، وقواعد عمله وتقاليده.

تلقّى ترامب بعد ذلك محاضرات مستمرة عن أهمية «العادات والتقاليد» في وزارة العدل. لكنه تعوّد أن يردّ على الدوام، بقوله: «لا أريد الاستماع إلى هذه التفاهات!».

قال أحد المساعدين: «يجب أن نضع له خطأ أسود صارماً، حيث لا يمكنه تجاوه وتخطي الحدود. كما يفعل الآن».

اعتبر ترامب أن من الطبيعي أن تعمل وزارة العدل ومكتب التحقيقات الفيدرالي لمصلحته وبإمرته، أي إنهما كانا يعملان بتوجيهاته وسيطرته. وهكذا افترض أن على المؤسستين تنفيذ ما يطلبه منهما بالضبط، وأن تبقيا ضمن دائرة الصلاحيات التي يمنحها. وتعوّد ترامب في الفترة الأولى من تسلّمه لمنصبه أن يقول غاضبًا: «إنه يعمل بإمرتي! أنا الرئيس!» وكان يقصد جيف سيشنز، النائب العام في إدارته، وكذلك جيمس كومي، مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي.

أصرّ ترامب على القول: «كان بإمكاني تعيين شقيقي نائبًا عامًّا، أي كما فعل كينيدي». وكان يقول ذلك بالرغم من أنه لم يكن يتعاطى مع شقيقه روبرت، الذي كان رجل أعمال متقاعدًا في الحادية والسبعين من عمره، علماً أن الكونغرس، وبعد مرور ست سنوات على تعيين جون كينيدي شقيقه روبرت في منصب النائب العام، أصدر قانونًا اتحاديًا يمنع محاباة الأقارب، وأُطلق على القانون اسم «قانون بوب كينيدي»، وذلك بهدف منع تكرار حدوث هذا الأمر بالذات في المستقبل. لكن ذلك لم يمنع ترامب من تعيين ابنته وصهره في منصب مستشار أول).

أثارت الجهود، التي بذلها كثيرون لشرح المسارات الدقيقة التي تربط العلاقة بين مختلف فروع الإدارة، مشاعر الإحباط لدى ترامب. كذلك عزّزت إحساسه بصوابية قراراته وأحقيّته في اتخاذها. ولطالما شعر بأن الجميع يتآمرون عليه، وهو الأمر الذي زاد من سخطه. وقد شعر أيضاً بأن المحامين يريدون النيل منه هذه المرة كما حدث في مراتٍ عديدة من قبل. ولم يستطع تجاهل أنه لا ينتمي إلى النادي الذي ينتمي إليه كومي، ومولر، وروزنشتان، وماكابي. وقال: «إنهم يتبادلون الأحاديث في غالب الأوقات، وهم يتكتلون معًا ضدّي».

كانت العلاقة التقليدية التي تربط رئيس الولايات المتحدة بالنائب العام في

إدارته باردةً عمومًا، هذا إذا لم تكن متوترة، لكن ترامب جعلها أسوأ بكثير. أما الإذلال العلني الذي مارسه بحق جيف سيشنز، والذي كان أحد أبرز مناصريه في الكونغرس، فقد حوّل سيشنز إلى أبرز الحاقدين عليه. لم يكتفِ ترامب بتوبيخه والسخرية منه، بل أقدم على تهديده، وخيّره ما بين الاستقالة من منصبه أو تغيير نهجه. وكان الرئيس في مناسباتٍ عدة، يوجّه مكغان للضغط على سيشنز بهدف نزع صلاحياته. يُضاف إلى ذلك أن ترامب طالب العدد الأكبر من مساعديه، إن لم يكن جميعهم، بالانضمام إلى مساعيه. ولم يمضِ وقتٌ طويل على انسحاب سيشنز من القضايا المتعلقة بروسيا، حتى أصدر الرئيس توجيهًا إلى كليف سيمز، الموظف الشاب الذي ينتمي إلى الجناح الغربي، والذي نال عند الرئيس حظوة (وصفه بانون بالماكر الذي تسلّل ليصل إلى الرئيس)، والذي أتى من آلاباما مثل سيشنز، يكلّفه فيه التوجّه إلى منزل النائب العام صبيحة يوم السبت، ويطالبه بالتراجع عن انسحابه وإكمال مهمته. إلّا أن بانون لم يطلب من سيمز تلبية أوامر الرئيس.

إذا ما افترضنا وجود وسيلة تمكّن النائب العام المعيّن من رئيس البلاد، من استخدام سلطاته لتخفيف التوتر بين المدعين العامين في وزارة الدفاع، فسوف يمكننا القول إن جيف سيشنز، الذي ألف تلقّي إهانات الرئيس بشكلٍ يومي، لم يكن جزءًا منها. وخلال إحدى فترات التوتر الشديدة، بعث سيشنز برسالة إلى الرئيس يخبره فيها أنه إذا ما استمر في مضايقاته وإرسال التهديدات له، فإنه سوف يتقدّم باستقالته، وسيوصي بعزل الرئيس.

* * *

اعترت الرئيس حالة غضب شديد في الأيام التي أعقبت مداهمة مكتب مايكل كوهن ومنزله في التاسع من شهر نيسان/إبريل. لم يقتصر الأمر على معاداة وزارة العدل له، بل كانت هذه الوزارة تتآمر لضربه في أضعف نقطة عنده، أي محاميه. وسبقَ أن قدّم مايكل كوهن نفسه أحيانًا بوصفه محامي ترامب الشخصي، لكن ترامب كان يصحّح هذا التعريف بالقول: «إنه يهتمّ بعلاقاتي العامة».

لكن كيف حصلت وزارة العدل على مذكرة تسمح لها بمداهمة مكتب كوهن؟ أصرّ ترامب أن لا علاقة له بالمداهمة. وقال إن الأمر يتعلق بشركة سيارات الأجرة التي يمتلكها كوهن. وأضاف أن الرجل مرتبط بعصابات. أما من الجهة الأخرى، فقد

اقتنع الرئيس بأن وزارة العدل قد استغلّت هذه الفرصة لنشر شبكة من أجهزة التنصّت بين الناس، قد تمكّن «الأجهزة السرية» من التنصّت على مكالمات ترامب ذاته. وكان ترامب يعتبر أن حكومته، وهي عبارة عن مجموعة مترابطة من الأشخاص ذوي الذهنيات المتشابهة، تدين بالولاء، وبطريقة ما، لباراك أوباما وجورج بوش، وهي المجموعة التي تريد إسقاطه.

شعر عددٌ من المحافظين، الذين ساندوا في الماضي عملية تطبيق القوانين بصورةٍ تلقائية، بأنهم أصبحوا متشكّكين، إن لم نقل خائفين، بشأن رقابة الحكومة وسياساتها. وهذا ما اعتُبر انقلابًا واسعًا وغريبًا في الدور الذي يؤدّونه. لكن، مع تقدّم التحقيقات التي يقوم بها مولر، تكرّست في ثقافة اليمينيين قناعة أكبر بأن مفهوم الدولة العميقة أصبح واقعاً بالفعل، وأنه يستهدف ترامب. يُضاف إلى ذلك أن هذه القناعة قد تبنّاها على مضض بعض الجمهوريين التقليديين. تحوّلت هذه النقطة بالذات إلى موضوعٍ رئيسي لدى نجم محطة فوكس نيوز، سين هانيتي، سواءً من خلال محطة التلفزيون الوطنية، أو من خلال مكالماته الهاتفية الخاصة. قال بانون في هذا الشأن: «وجد سين موضوعاتٍ دسمة له، لكن هذه الموضوعات تصلح أن تكون قصص ما قبل النوم للرئيس».

وفي موقف مماثل، اعتمد عدد من الليبراليين، الذين كانوا في الماضي معادين لمكتب التحقيقات الفيدرالي، والمدّعين العامين، ومجتمع وكالات الاستخبارات، على المحقّقين الحكوميين في ملاحقة ترامب وأسرته من دون هوادة. وقد اعتبروا أنهم بذلك يقومون بحماية الديمقراطية من التدهور. أما محطة الإم.إس.إن.بي. سي، فقد اعتبرت عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي بمثابة آلهة. كذلك حظيت شخصيات أجهزة تطبيق القوانين، والتي كان يُنظر إليها بامتعاضٍ شديد في السابق، بالترحيب في رؤيتها الليبرالية الجديدة للعالم. أما أشخاصٌ، مثل جيمس كومي الذي ساعدت تحقيقاته على تمهيد طريق رئاسة البلاد أمام دونالد ترامب، فقد تحوّلوا إلى رأس حربة لمقاومة ترامب.

* * *

نُشر كتاب جيمس كومي، الذي حمل عنوان «ولاء أعلى» (Higher Loyathy)، في السابع عشر من شهر نيسان/إبريل. وهكذا شرب كومي وستيفن

كولبرت، الممثل الهزلي المسائي، نخب نشر الكتاب في محطة التلفزة الوطنية.

اشتمل الكتاب على عددٍ من القصص التي تُكشف لأول مرة، وكان من بينها مذكرتان تثيران قلق دونالد ترامب خصوصاً، وهما: الغمز من قناة سلوكه الذي يشبه تصرفات رجال المافيا، وحقيقة أن كومي لم يذكر شيئًا عن مؤسسته الخاصة. لكن، إذا قال الرئيس السابق لمكتب التحقيقات الفيدرالي إن شخصًا ما يتصرف مثل رجل مافيا، فذلك سيضعه في دائرة الضوء. لكن إذا لم يذكر شيئًا عن مؤسسة أساسية تقع ضمن شركات ذلك الرجل وحياته العائلية، فإن ذلك يُعتبر إخبارًا ضمنيًّا يضع تلك المؤسسة ضمن أهداف مكتب التحقيقات الفيدرالي.

لم يكن البيت الأبيض مستعدًّا لمواجهة ذيول نشر الكتاب، بالرغم من معرفته أن الكتاب سوف يصدر قريبًا. كذلك لم يكن مستعدًا لمواجهة رد الفعل الضخم وغير المألوف الذي أبداه ترامب تجاه الكتاب. لم يطل الوقت حتّى كُلّفت كيلي - آن تكذيب ما ورد في الكتاب، إلا أنها ركّزت بدلًا من ذلك في معالجته مسألة رسائل كلينتون الإلكترونية، وهي بذلك أوحت أن كومي قد رجّح فرص فوز ترامب في الانتخابات. كان ذلك خبرًا لا يرغب أحد في قوله خلال فترة إدارة ترامب الذي أصبح سيّد البيت الأبيض، لأن مثل هذا القول كان يعني أن نتيجة الانتخاب لم تكن فوزاً ساحقاً لدونالد ترامب.

كان أبرز ما يميّز رئاسة ترامب هو أن جميع المواجهات خلال فترة الرئاسة تتّخذ منحىً شخصيًا. هذا الواقع يعني أن كومي، الذي تلقّى صفعة سبّبها لنفسه بعد صفعة إقالته من منصبه بتلك الطريقة المهينة، بدا خصمًا لا يمكن تجاهله.

أجرى ترامب مكالمة ليلية مع أحد أصدقائه في نيويورك، أبلغه فيها بلهجة ارتياح غير مألوفة الآتي: «يعتقد كومي بأنني أحمق. سأبرهن له كم أنا أحمق إذا كان يظن أنني كذلك. إنني أحمق إلى درجة أنني سوف أسحقهم جميعًا. هذا هو مدى حَمَقي». اشتمل كتاب كومي على تبريراته الشخصية، وهي تبريرات تتوافق مع وجهة نظر ترامب القائلة إن جميع الموظفين الفيدراليين غير منضبطين، وإنهم يريدون النيل منه بالتحديد. مضى ترامب، وبعد أن لاحظ أن خصومه يتصرفون بالضراوة ذاتها التي يتميّز بها، إلى القول إنني: «سأهتم بأمرهم، سوف أنال منهم جميعاً حتّى أعلاهم مكانة. وسوف أحرص على ذلك».

كان ترامب ينظر إلى موظفي مكتب التحقيقات الفيدرالي ليس من حيث مهماته كرئيسٍ للبلاد مؤتمنٍ على قوانينها، بل كرجل أعمالٍ يتمكن في أي لحظة من الاستحواذ على انتباه موظفيه لمعارضتهم وللإساءة إليهم. فقد كان طوال حياته المهنية يعتبر الفيدراليين وكأنهم الخطر الداهم الذي يواجهه ويواجه أمثاله. وأبلغ ترامب ذات يوم أحد أصدقائه الذي كان يواجه مشكلات عدة مع وزارة العدل: «إنهم مثل السرطان، وعلى وجه التحديد مثل سرطان القولون».

أشار ترامب إلى أن كل هذا لا يعني أنه وآخرين يعرفهم، كانوا يخشون وزارة العدل. فهو يعتبر قضاياه مع وزارة العدل وكأنها لعبة يجيد الفوز فيها، وهكذا تعوّد أن يكون مخيفًا أكثر من رجال الوزارة. وقد لخّص نظريته القانونية بالقول: «إذا اعتقدوا أن بمقدورهم النيل من شخصٍ ما، فإنهم سوف يفعلون ذلك. لكن إذا اعتقدوا أن ذلك الشخص بإمكانه النيل منهم، فإنهم لن يفعلوا شيئًا».

إلّا أنّ أقوى خيبات الأمل التي تلقّاها كانت اكتشافه أنه لا يستطيع، بوصفه رئيسًا، التحكّم في تنفيذ القانون الاتحادي. فقد عجز الرئيس أن يفهم كيف أن مسؤولي مكتب التحقيقات الفيدرالي باتوا يشكّلون مصدر إزعاج كبير وخطير بعد أن أصبح رئيسًا. لم يكن يرى نفسه مسؤولًا عما آلت إليه هذه الأوضاع، كما أن تلك المسؤولية لم تكن لتقع على النظام، أو على هيكلية الحكومة. لذلك ألقى ترامب كل اللوم على جيف سيشنز، النائب العام. ودأب على ترداد أنه: كان يتعيّن عليه تعيين رودي جولياني، أو كريس كريستي، في ذلك المنصب. كان الرجلان صديقيْ ترامب الحقيقيين والوحيدين في السياسة، «لأنهما يعرفان كيفية خوض هذه اللعبة».

كان ترامب، ولأسبابٍ وجيهة بالفعل، يلقي مسؤولية تعيين سيشنز على بانون الذي كان حليف سيشنز ونصيره منذ وقتٍ طويل: «لقد أنزل بي الأذى مجددًا. أنزل بي الأذى مراتٍ عديدة، عديدة، عديدة»...

* * *

تحوّل ترامب بعد رحيل جون داود إلى تاي كوب، وهو الذي كان في المرتبة الثانية بين المحامين الذين عيّنهم البيت الأبيض في صيف العام 2017، بعد عجزه عن توظيف فِرَقٍ قانونية من الصفّ الأول. صبّ ترامب سيلًا من الإهانات على

المحامي الذي بلغ الثامنة والستين من عمره، لعدة أسباب ليس أقلّها شاربيه. فلم يكن يخفي انزعاجه من كل شخصٍ له شاربان، لكن هذين الشاربين المشمّعَيْ الطرفين كانا مزعجَين جدًا له. (أطلق ترامب على كوب، لقب ساي يونغ، وهو اسم أحد أبرز لاعبي كرة القدم). كان الرئيس متأكدًا أن كوب لا يستطيع الصمود أمام ملاحقات مولر.

بدأ مولر في أوائل شهر نيسان/إبريل بإجراء سلسلة من المكالمات اليومية للتشاور حول إقالة كوب. «ماذا يتعيّن عليّ فعله؟ أعتقد أن عليّ إقالة كوب. أتعتقد أن عليّ إقالة كوب؟ أعتقد أن عليّ أن أفعل ذلك».

احتاج ترامب إلى محامٍ فذٍّ. لذلك طرح هذا السؤال على الجميع: «أين المحامي الفذّ الذي أبحث عنه؟». برزت الحاجة مرة أخرى وبشكل مفاجىء إلى العثور على مكتب محاماة كبير يمتلك موارد كبيرة تمكّنه من الوقوف في وجه حكومة الولايات المتحدة. لكن مكاتب المحاماة الكبيرة تستعين بلجانٍ تنفيذية تقوم بتفحّص الجوانب الإيجابية والسلبية في تبنّي قضايا أصعب الموكّلين، أمثال دونالد ترامب. في تلك الحالة، يتمثل الجانب السلبي باحتمال إقدام ترامب على طرد المحامين علناً، وبالتالي التغاضي عن دفع الفاتورة، وهو ضررٌ كبير.

لكن ترامب لم يرغب، على أي حال، في الاستفادة من خدمات محامٍ يعمل في مكتب محاماة شهير، بل أراد محاميًا ساحقًا. وكان يقول مؤكدًا: «أتعرفون، أريده ساحقًا ماحقًا».

لم يكن القانون في نظره هو القانون الذي نعرفه، بل كان ميدان معارك، وإن كان مصطنعًا. وهكذا كان يعرف ذلك النوع من المحامين بالضبط، أي المحامي الساحق القادر على التمثيل.

بقيت أخبار ستورمي دانييلز، الممثلة الإباحية الشهيرة التي أقام ترامب علاقة معها، تتنقّل بين وسائل الإعلام على مدى أشهر، حتى تمكّن مايكل كوهن من إبرام تسوية مالية معها. لم يكن ترامب يولي دانييلز ذاتها اهتمامًا كبيرًا، بل كان يُطلق الأكاذيب أمام الجميع، وكلهم كانوا يعرفون أنه يكذب عليهم بالقول إن علاقته بدانييلز لم تحدث على الإطلاق.

لكن إعجابه الكبير كان بمحامي دانييلز الجديد، مايكل آفانتي. كان هو الرجل الذي يُمكن أن نطلق عليه لقب المحامي الساحق، كما أنه كان مدهشاً بالقدر ذاته على شاشة التلفزيون. أتقن آفانتي دوره، وكان محاميًا مقنعًا في التلفزيون. وكان ذلك النوع من المحامين الذي يريده ترامب.

قال عنه: «إنه نجمٌ بالفعل. أحضِروا لي نجمًا مثله». أراد الرئيس نجمًا يتمكَّن بوساطته من مواجهة أنواع الضغوط والهجمات التي يجابهها.

كان من البديهي في نظره أن تتحوّل مشكلاته الصغيرة إلى مشكلات كبيرة، لأنه لم يحظَ بمحامٍ مثل آفانتي، المحامي الذي يمكنه القيام بأي شيء يراه ضروريًّا للفوز. وهكذا تحوّل هذا النوع من التفكير، وبسرعة، إلى شعورٍ عميق بالشفقة على الذات. وأصبح ترامب مقتنعًا، أن كل المحامين الساحقين قد أُبعدوا عنه.

* * *

أعلن ترامب مراتٍ عديدة أن ديرشوفيتز هو المحامي الأشهر في البلاد، ثم قال: «دعونا نُحضِر ديرشوفيتز».

وبالرغم من أن آلان ديرشوفيتز قد شغل مركزًا تعليميًّا في جامعة هارفرد للقانون على مدى فترة زمنية طويلة قبل أن يتقاعد سنة 2014، فإن كثيرين من زملائه اعتبروه رجلًا ذكيًّا وقادرًا على إثارة الانزعاج والتوتر عند الآخرين، أكثر من كونه باحثًا قانونيًّا ومحاميًا نزيهًا. شارك ديرشوفيتز في مجموعة متنوعة من النقاشات العلنية، وتسلّم عددًا من القضايا الكبرى، وكان من بينها القضايا المتعلقة بباتي هيرست، ومايك تايسون، وأو. جاي. سمبسون. وأسفرت الكتب التي ألّفها، والانتباه الذي حصده، سواءً من البرامج التلفزيونية أو من الأفلام المصورة الأخرى، ليس عن تعزيز سمعته بوصفه باحثًا قانونيًا فحسب، بل أضافت إليه شهرةً وقيمة جديدة. يعني ذلك أن إقدامه، ومطالعاته، وحرفيته، وهيبته، قد اجتمعت كلّها، لتجعل منه أحد أشهر المحامين في البلاد. لكن ذلك لا يعني أن أيًّا من تلك المزايا قد أفلحت في جعله محاميًا جيّدًا. قال أحد موكّلي ديرشوفيتز السابقين، والذي كان شخصية بارزة، إلا أنه لم يكن راضيًا عن أدائه: «افعل عكس ما ينصحك به». لكن من المؤكّد أن ديرشوفيتز كان من ألمع المحامين الناجحين الذين ظهروا على شاشة التلفزيون

في البلاد. كان ترامب يريد، قبل أي شيء آخر، شخصًا يمكنه أن يؤدّي دور المحامي على شاشة التلفزيون، وهذا ما يفسّر وجهة نظره القائلة بأن التمثيل هو أهم مهارة قانونية يمكن للمرء الاعتماد عليها.

لفت ديرشوفيتز منذ فترةٍ قريبة انتباه ترامب، بعد ظهوره في سلسلةٍ من البرامج التلفزيونية التي جادل فيها بأن رئيس الولايات المتحدة فوق القانون، أو بأنه يمثّل وضعًا خاصًا أقرب ما يكون إلى الوضع الملكي. دُعي ديرشوفيتز في أوائل شهر نيسان/إبريل إلى مائدة عشاء الرئيس في البيت الأبيض، لمناقشة إمكانية تمثيل الرئيس قانونيًّا. كان الرجل ذاك النوع من المحامين الذي اعتقد الرئيس بأنه يحتاج إليه: المحامي المقدام الذي بإمكانه مناقشة قضاياه على شاشة التلفزيون.

طلب ديرشوفيتز في ذلك اللقاء مبلغ مليون دولار ليكون مقدّم أتعابه القانونية.

كان ترامب يعتبر أن عدم الدفع للمحامي الوكيل هو جزء من اللعبة القانونية، وهكذا ردّ بأنه سوف يبلغه بجوابه في وقتٍ لاحق. لكن الحديث انتهى عند هذا الحد، لأن ترامب لم يكن مستعدًا لدفع مليون دولار مقدّمًا لمحاميه، ولو بعد مرور مليون سنة.

* * *

سبع عشرة سنة قضاها رودي جولياني من دون أن يتسلّم منصبًا رسميًّا، وهو الرجل الذي لُقّب يوماً بأنه «عمدة أميركا». كان رودي في ذلك الوقت مرشحًا رئاسيًّا فاشلًا، ومتحدثًا جوالًا، ورئيس مآدب في المناسبات، ومساعدًا على إنجاح أعمال الشركات، ومستشارًا. وكان بإمكانه أن يقوم بأي عمل يكلّفه به رجل يمتلك الملايين. وقال عنه صديقه القديم، الرئيس السابق لمحطة فوكس نيوز، روجر آيلز: إنه كان مستعدًّا لفعل أي شيء ليكون محط الاهتمام من جديد.

أخفق جولياني في زواجه الأول والثاني؛ حتى أن زواجه الثالث كان أسوأ من الزواجين السابقين. وغدت زيجاته موضوعًا لتندّر أصدقائه وقهقهاتهم. كما أن جودي جولياني تعوّدت توجيه كلام قارصٍ إلى رئيس البلدية السابق، واستصغار شأنه.

قال عنه صديقه دونالد ترامب ذات يوم: «لم أرَ في حياتي رجلًا في حالة

مزرية كحالة رودي المسكين». كان ترامب يكره جودي جولياني على وجه التحديد! لذلك أمر بأن تبقى بعيدةً عنه.

أما وجهة نظر أيلز المذهلة، فكانت أن الإخفاق في الزواج قد مهّد الطريق أمام جولياني لإذلال نفسه في الساعات الكثيرة التي ظهر فيها على شاشة التلفزيون، بعد نشر شريط ترامب الفاضح، والذي يشجّع فيه الرجال على التحرُّش بالنساء.

قالت أيلز: «إنه على استعداد لفعل أي شيء للخروج من المنزل».

لكن ولاءه للرئيس ترامب كان حقيقيًّا، وكان جولياني على قناعة صادقة لا يمكن لأحد أن يشعر بها تجاه ترامب، بأنه مدين لترامب في حياته الزوجية. فبعد انهيار زواج جولياني الثاني سنة 2000، وكان ذلك انهيارًا علنيًّا مريعًا على وجه التحديد، أنكره أولاده. وبدا أن عداء ابنه آندرو له لن ينتهي أبدًا. لكن آندرو كان مراهقًا متحمسًا في لعبة الغولف، حتى أنه كان يأمل أن يصبح لاعبًا محترفًا ذات يوم. لم يُعرف عن ترامب التعاطف مع الآخرين، لكنه أراد ردّ جمائل جولياني المتعددة التي قدّمها إليه عندما كان رئيسًا لبلدية نيويورك، وكان ترامب حينها مطوّرًا عقاريًا نشطًا. لذلك خرج عن تقاليده ودعا آندرو ليلعب معه في ملاعب الغولف التي يملكها. تحدث ترامب مع آندرو عن مشكلة والده، وأسفر اللقاء عن بعض النتائج الإيجابية. بادر ترامب بعد مرور زمنٍ طويل إلى دعوة آندرو إلى البيت الأبيض، ومنحه وظيفة مساعد مدير في مكتب الاتصالات العامة، كما منحه، وعشرات الأشخاص الآخرين، دخولًا حرًّا غير مشروط إلى المكتب البيضاوي.

أدى ولاء جولياني واستعداده لتحدّي العفوية والمنطق في الدفاع عن ترامب، إلى زيادة فضلٍ جديد على قائمة أفضال جولياني، وهو الأمر الذي دفع ترامب إلى التفكير خلال الفترة الانتقالية في منح جولياني منصبًا رفيعًا في الإدارة الجديدة. شكلت هذه الرغبة مشكلة شديدة لجميع المحيطين بالرئيس المنتخب. فقد كان الجميع تقريبًا، بمن فيهم ترامب أحياناً، يعتبرون أن رودي غائب عن السمع. وقد رأى بانون أن هذا الرجل مصابٌ بالخرف. أما ترامب فقال: «هذا، إضافة إلى إسرافه في تناول الشراب». وكان ترامب قد أبلغ جولياني مباشرة خلال حملته الانتخابية أنه يكاد «يفقد صوابه».

لكن المفارقة تكمن هنا في أن فقد جولياني لصوابه يتطابق تطابقاً رهيباً مع الهستيريا، والشعور بالعظمة، وميل ترامب إلى قول أي شيء يخطر في ذهنه بعفوية تامة.

اعتبر عددٌ من كبار المساعدين في الفريق، الذي عمل في الفترة الانتقالية، أن أكبر إنجاز حقّقوه في تلك الفترة كان استبعاد جولياني، الذي كان في الرابعة والسبعين من عمره، عن المناصب الرفيعة. إذ قال راينس بريبوس، وهو مدير مكتب ترامب: «كان ذلك على الأقل أحد النجاحات التي أنجزناها».

شارك جولياني في جهود استبعاده عن أداء دور في الإدارة الجديدة، بإصراره على أن الوظيفة الوحيدة التي يقبلها هي منصب وزير الخارجية، وربما فعل ذلك بتشجيع من زوجته التي تخيّلت نفسها ذات يوم بأنها سوف تصبح سيّدة أميركا الأولى. تقبّل ترامب فكرة أن جولياني ليس ديبلوماسيًّا بما يكفي لشغل ذلك المنصب، لكنه حثّه على شغل منصب النائب العام. أبلغ جولياني المحبط صديقه بانون، قائلاً: «لا تسمح لي سنّي بالعمل في الشؤون القانونية»، وكان بانون هو الذي أبلغ جولياني أن وظيفة وزير الخارجية لم تعد متوفّرة.

لكن ظهرت في التاسع عشر من شهر نيسان/إبريل، ووسط رعب جميع المحيطين بالرئيس المنتخب ودهشتهم، فرصة جديدة أمام جولياني الذي فقد فرصته وخياره الأول، عندما تحوّل إلى نسخة من المحامي الساحق الذي كان يبحث عنه الرئيس. كان ذلك أمرًا مفاجئًا كلّيًّا في تاريخ الذين يستحيل عليهم شغل المناصب الرفيعة: جولياني، وهو رئيس جيمس كومي السابق، سوف يسطع نجمه عندما يعود ويسعى إلى الإيقاع بمرؤوسَيْه كومي ومولر.

كانت تكلفة تولّي ذلك العمل مناسبة تمامًا للرئيس،لأن جولياني أبلغه بأنه سوف يعمل من دون مقابل.

تبادل ترامب وجولياني في هذه الفترة سلسلة من المكالمات الهاتفية. أما ترامب الذي قال عنه جولياني إنه كان يبكي خلال المكالمات، فقد قال عن جولياني إنه «كان يتسوّل الوظيفة». سعى ترامب في هذه الأثناء إلى إقناع جولياني بأنه يتعيّن

عليه العمل مع آفانتي.

فور دخول جولياني إلى البيت الأبيض، طُلب إليه اختيار مجموعة من المساعدين في مكتبه. ضمّت تلك المجموعة غرينبيرغ تراوريغ الذي سوف يشكّل لاحقًا، مع شريكه القانوني مارك موكاسي (نجل النائب العام السابق في عهد بوش مايكل موكاسي)، الفريق القانوني للرئيس. أما جولياني، فسوف يكون الواجهة الخارجية لهيئة الدفاع عن الرئيس، بينما يجهد غرينبيرغ تراوريغ في صياغة خطوات الرئيس القانونية.

كان جولياني أقرب ما يكون إلى الرجل الذي يسعى إلى اقتناص الفرص التجارية أكثر مما هو محامٍ ممارس، بينما أظهر غرينبيرغ تراوريغ أفكارًا معاكسة. واعتبرت اللجنة الإدارية في مكتب غرينبيرغ تراوريغ أن الدفاع عن ترامب سوف يكون أمرًا يفتقر كثيرًا إلى الشعبية في المكتب، بالإضافة إلى أن شركاء المكتب كانوا يشكّون في تحصيلهم تكلفة الدفاع عن الرئيس.

قرّر جولياني بعد ذلك ترك مكتبه، والدفاع عن الرئيس منفردًا، بالرغم من أنه لم يكن متحمّسًا جدًّا لشغل تلك الوظيفة.

الفصل الرابع

الإحساس بالوحدة

يسود الاعتقاد بأن ترامب يبدو في البيت الأبيض بصورة الرجل الغاضب والمنتقم دائماً. لكن الواقع مخالف، حيث تغلب عليه صورة الرجل الكسول، غير المكترث، والراضي عن نفسه؛ رجل بلغ الحادية والسبعين من عمره، يستعرض بإعجاب أداءه وإنجازاته الاستثنائية.

قالت إيفانكا ترامب في معرض الحديث مع أحد أصدقائها عن حالة والدها النفسيّة في البيت الأبيض: «قد يبدو بوضع نفسي سيّئ جدًا، لكنه يكون فرحاً جدًّا أحياناً».

تلك كانت الفقّاعة التي يعيش فيها ترامب. لم يكن يستطيع أن يعترف بضعفه قط. لم يقرّ يوماً بأن بيته الأبيض مهزوز، أو أنه هو شخصيًّا معرّض للخطر. لم يسبق لأيٍّ شخص من دائرة معارفه الواسعة أن سمعه يتحدث عن ندم حيال تصرّفاته، أو شكٍ أو حتى تمنّ. لكن، عندما كان يجري اختراق فقّاعته تلك، فيسمع ترامب كلاماً ليس مداهنة ولا تملّقاً، كان يتّجه مباشرة إلى إلقاء اللوم على شخصٍ ما، أو حتى إقالته من وظيفته في بعض الأحيان.

لكن الفقّاعة تبقى مغلقة في معظم الأحيان. فالصعوبات القانونية المتراكمة التي تعرّض لها ترامب جعلت عدداً متزايداً من الناس يتجنّبون التحدّث إليه عن مشكلاته، خشية التعرّض لمثل هذه المسائل. يُضاف إلى كل ذلك أن عددًا من نظرائه العاملين في قطاع التطوير العقاري، والذين تعوّدوا زيارته في أوقاتٍ متأخرة من

الليل، من أمثال ريتشارد ليفراك، وستيفن روث، وطوم باراك، وجميعهم يتميزون بأنهم عمليون وواقعيون في أحاديثهم، كانوا يخشون من استدعاء مولر لهم. أخذت فقّاعة ترامب تضيق شيئًا فشيئًا، كما أن اختراقها قد ازداد صعوبة. وهكذا كان يخلد إلى سريره ليلاً، يتناول ألواح الشوكولاتة «ثري مسكيتيرز» التي يفضّلها، ويتحدث إلى شون هانيتي الخانع والذي لا يعارضه في شيء.

لا يستطيع ترامب إلا أن يكون جزءًا من مؤسسة تهتمّ به بولاء مطلق. لا يمكنه حتى أن يتصوّر مؤسسة من نوع آخر. لقد أصرّ أن يكون العمل في البيت الأبيض أقرب ما يكون إلى طبيعة عمل مؤسسة ترامب، التي تعمل على إرضائه وتلبية مصالحه المتقلبة والمتهوّرة. يُضاف إلى ذلك أن ممارسات ترامب الإدارية تتمحور حول شخصه، فهي ليست موجّهة لإنجاز المهمات، ولا تستند إلى نظام مؤسساتي. ولم يكن الرئيس يولي اهتماماً لأيّ تركيز خارج عنه، أو أي تركيز من أي نوع آخر، ولا كان ذلك نهجه.

تحسّباً لأي شيء يُحزنه ليلاً، تعوّد ترامب الوصول إلى مكتبه متأخرًا، ليستمتع بسلسلة من اللقاءات مع شخصٍ أو مجموعة أشخاص في المكتب البيضاوي، أو في قاعة روزفلت، لقاءات لا تهدف إلى شيء سوى الاستماع إلى كلمات الثناء عليه، أو تهنئته، أو إلهائه وتسليته. ويعرف موظفوه جيدًا أن ترامب يكون سعيداً حين يتسلّى.

وعندما لا يكون ترامب مهتماً بشيء، فإن البيت الأبيض، وكبار الموظفين التنفيذيين، تغمرهم السعادة أيضاً. وفي هذا الجو الملائم يتمكّن السياسيون والبيروقراطيون المحترفون من التحرّك لإنجاز الأعمال التي لم تثر اهتمامه، علماً أن ترامب لم يكن يهتم بمعظم الأعمال التي يقومون بها.

* * *

صحيح أن ترامب يميل أن يكون في قمة الفرح بنزوعه إلى المرح، لكن مزاجه يكون جيداً أيضًا في غمرة افتتانه بأشخاصٍ وصداقاتٍ يعقدها بانتظام. صحيح أن تلك العلاقات غالباً ما تنتهي، إلا أنها تكون متينة في لحظتها. مايكل فلين كان واحداً من أولئك الأصدقاء الذين افتُتِن بهم ترامب، وكذلك بانون، وروب بورتر،

وحتى بول رايان.

ظهر بعد ذلك الأميرال روني جاكسون، طبيب البيت الأبيض. يبدو جاكسون مصاباً بالهذيان عندما يُغرق الرئيس بعبارات المديح. وقد علّق جاكسون على التقرير الصحي للرئيس الصادر في كانون الأول/ديسمبر 2018 بالقول: «يمتلك بعض الناس جيناتٍ عظيمة. أخبرت الرئيس أنه كان يستطيع أن يعيش ليبلغ المئتين من العمر، لو أنه التزم في السنوات العشرين الماضية نظامًا غذائيًّا صحيًّا أفضل من النظام الذي يتّبعه حاليًّا».

أقدم ترامب في أواخر شهر آذار/مارس على إقالة دافيد شولكين، وهو مدير شؤون المحاربين القدماء، ثم رشّح جاكسون لهذا الموقع. كان ذلك اختيارًا غريبًا بعض الشيء. فجاكسون هذا لم تكن لديه أي خبرةٍ إدارية، كما أنه لم يشغل أي منصب يتعلق بشؤون المحاربين القدماء. لكن هذا الخيار جاء منسجمًا مع رغبة ترامب في مكافأة أصدقائه ومناصريه. في الأسابيع التي تلت، لم يتنبّه ترامب إلى أن أحد الموظفين داخل البيت الأبيض بدأ حملة معقدة تهدف إلى إبطال ترشيح جاكسون، وهي الحملة التي بدأت في مكتب نائب الرئيس.

لم يكن ترامب يكنّ ودًّا كبيرًا لنائبه. وواقع الأمر أن مايك بنس قد سبّب له إزعاجاً في الأسابيع الأولى لتولّيه منصب الرئاسة (شغل بنس منصب حاكم إنديانا بين العامين 2013 و2017. وشغل قبل ذلك مقعدًا في الكونغرس على مدى اثني عشر عامًا). كان ترامب بطبيعته يتوقّع الإذعان من الآخرين، لكنه يتحوّل بعد ذلك إلى الشك في الشخص الذي أذعن له. كلما انحنى بنس أمامه أكثر شكّك به أكثر.

«لمَ ينظر إليّ هكذا؟». كان ترامب يتساءل حول الطريقة الطوباوية التي يحدّق بها بنس إليه. استنتج ترامب أنه «شخص متديّن جداً. كان حاكماً لمدةٍ طويلة، لكنه كان على وشك أن يخسر منصبه هذا عندما عيّنّاه في هذه الوظيفة. أعتقد أن هذا سبب كافٍ لكي يحبني. يُقال إنه كان الشخص الأشد غباءً في الكونغرس».

ساعد بانون في شهر حزيران/يونيو من العام 2017 على توظيف نيك آيرز كمدير لمكتب بنس، وهو شابٌ منظّم، شقّ طريقه كناشط سياسي ليصنع له اسماً في الحزب الجمهوري؛ فبنس على حدّ تعبير بانون «هو رجلنا الاحتياطي، الذي لا

يعرف أين هو في معظم الأوقات»، ومن الواضح بأنه بحاجة إلى مساعدة. وجاءت النتيجة أن أصبح مكتب بنس، برئاسة آيرز، الأكثر فاعلية ونجاحًا في الجناح الغربي من البيت الأبيض.

لم تقف الأمور عند هذا الحدّ. لأنه مع حلول ربيع العام 2018، بدا عدد من الأشخاص النافذين المحيطين بالرئيس ترامب على وشك الانهيار. كان كيلي أضعف رئيس موظفين في تاريخ البيت الأبيض، وذلك جرّاء عدائية ترامب المستمرة له. أما المبادرات المتعدّدة التي قام بها كوشنر ومراكز القوى في البيت الأبيض، وعلى الأخص مكتب البيت الأبيض للابتكارات الأميركية، فقد أخفقت كلها. قدّم مستشار الأمن القومي، إيتش. آر. ماكماستر، استقالته من منصبه في شهر آذار/مارس، بعد أن قضى فيه فترة ستة أشهر كشخص غير مرغوب فيه في الجناح الغربي، وكان ترامب يقوم طوال تلك المدة بتقليد ماكماستر والسخرية من دندنته وتنفسه الثقيل. أما مارك شورت، مدير الشؤون التشريعية في البيت الأبيض، فقد استبعده الرئيس هو والمكتب الذي يمثّله الرئيس، منذ الخلاف الذي نشب حول قانون توزيع مخصّصات الموازنة.

كانت دائرة الاتصالات في حالة من الفوضى تدعو إلى السخرية. الشخصيات الثلاث الأبرز فيها كنّ مرسيدس شلاب، مديرة الاتصالات الاستراتيجية في البيت الأبيض؛ وسارة هاكابي ساندرز، سكرتيرة الشؤون الصحافية (التي كان ترامب يُطلق عليها لقب «فتاة هاكابي»)؛ وكيليان كونواي، مسؤولة الاتصالات. أما مسؤولياتهن المحدّدة في دائرة الاتصالات فتكاد تكون مجهولة للجميع. كانت كل منهن تحاول عرقلة عمل الأخرى على مدار الساعة. كما كانت هوب هيكس تنتقد زميلاتها السابقات من خارج البيت الأبيض، عبر الإعلام. بدا ترامب راضياً عن هذا الوضع، حين قال إن المشهد يبدو وكأنه «صراع هررة»، في إحدى إطلالاته الإعلامية التي كان يُجريها مستخدماً هاتفه الخليوي الخاص.

إن فترة راينس بريبوس، الذي شغل منصب مدير مكتب الرئيس خلال الأشهر السبعة الأولى من عهد الرئيس، وهي فترة أصبح بيت ترامب الأبيض خلالها في حالة فوضى إدارية عارمة، تبدو الآن أشبه بوضع شركة آي. بي. إم في خمسينات القرن الماضي، مقارنة بالخلل السائد حاليًّا. فحتى وسط الانهيار، كان يمكن الاعتماد على مكتب بنس لإنجاز أعمال البيت الأبيض، بفضل شخصين فقط،

هما: نيك آيرز، وكارين زوجة بنس.

نشرت مجلة رولنغ ستون، خلال الفترة الأولى للإدارة الجديدة، مقالة أشار فيها بنس إلى زوجته على أنها «الأم». إطلاق هذا اللقب على السيدة كارين التي أصبحت تُعرف في أنحاء الجناح الغربي على أنها «الأم». لكن ذلك لم يترافق مع شعور بالمودّة حيالها. كان يُنظُر إليها على أنها السلطة الكامنة وراء عرش نيابة الرئاسة، وأنها واضعة الاستراتيجية، والمرأة الحديدية التي لا تتعب، وهي التي أوصلت زوجها المسكين إلى منصبه الحالي.

قال ترامب الذي كان يتجنَّب السيّدة بنس: «إنها تخيفني حقًّا».

وكان جورج كونواي، وهو زوج كيليان كونواي، وأحد القانونيين الكبار في وول ستريت، قد نشر تغريدات ساخرة من الرئيس. كذلك كانت زوجة جون كيلي، كارين هيرنست، التي كانت تتحدّث باستخفاف إلى غرباء، عن مدى كره زوجها للرئيس. وكذلك كانت زوجة ستيف منوشين، الممثلة السابقة لويز لينتون، تعبّر عن موقفها مستخدمةً باستمرار إيماءةً توحي بأنها ستتقيّأ. كانت «الأم» زوجة أخرى لا تؤمن بكفاءة الرئيس.

في الوقت الذي كان بنس يؤدّي فيه يومياً واجب الطاعة والإجلال للرئيس، ويظهر ولاء يجعله ذليلًا أمام ترامب، كان آيرز و«الأم» يتوقعان الأسوأ لرئاسة ترامب، ويطرحان اسم بنس كبديلٍ مقبولٍ في حال عزل الرئيس، أو طرده من منصبه، أو حتى في حال استقالته. وكانت «الأم» تتحدّث أمام أصدقاء أن احتمال حدوث ذلك يتراوح ما بين 40% و60%.

بحلول شهر نيسان/إبريل من العام 2018، كان كلٌّ من آيرز و«الأم» يعتقدان بأن مجلس النواب سينقلب في شهر تشرين الثاني/نوفمبر، وحتى الأغلبية في مجلس الشيوخ سوف تكون في مأزق، الأمر الذي يعطي دفعًا جديدًا وإنعاشًا لطموحات من يدورون في فلك بنس.

مع ذلك، بدا ترامب غير مدرك لخطط نائبه بنس وأسرته. ولم ينتبه كذلك إلى أن ترشيح العميد جاكسون سوف يكون اختبارًا لقوة تحالف «الأم» - آيرز، وبالتالي بنس، وكذلك لضعف موقع الرئيس.

أما جاكسون، طبيب الرئيس في عهد إدارة أوباما، والذي أصبح في خدمة ترامب سيّد البيت الأبيض، فسرعان ما أصبح الطبيب الذي يستعين به الرئيس، والوزراء، وكبار المسؤولين، بالإضافة إلى إشرافه على الوحدة الطبية التابعة للبيت الأبيض. كان جاكسون الشخصية الودودة التي يحبّها الجميع، ولأسبابٍ ليس أقلّها استعداده لوصف العلاجات والأدوية بسهولة. كان يزوّد الرئيس بمخزون من البروفيجيل، وهو عقّار منشّط، كان طبيب ترامب في نيويورك يصفه له منذ فترة طويلة. أما الآخرون فكان يصف لهم بسهولة عقاقير أمبيان، وهي عقاقير منوّمة. كان جاكسون يشعر بارتياحٍ أكبر عندما يكون برفقة الرجال. وقد وصفه أحدهم قائلاً إنه «شارب كحولٍ من الطِّراز القديم». ولم يكن يرتاح كثيرًا لرفقة النساء، الأمر الذي تسبّب له باعتراضات عديدة.

كانت «الأم» إحدى النساء اللواتي التقاهنّ.

استشارت «الأم» جاكسون خلال السنة الأولى من حكم ترامب بخصوص مشكلة صحّية نسائية كانت تعاني منها. لكن جاكسون، الذي شارك في أجواء التهكم على زوجة نائب الرئيس، لم يتكتّم على المشكلة التي تعاني منها. لم يطل الأمر حتى علمت «الأم» بخرقه لعرف السرية الطبية. وهكذا حوّلت حنقها وغضبها إلى التصميم على الانتقام.

كانت «الأم» وآيرز مصدر قدر كبير من التسريبات التي تتعلّق بشرب جاكسون للكحول، وسهولة صرفه للأدوية، وادعاءات المضايقة التي يُتّهم بها. لكن ترامب اعتقد أن مصدر تلك التسريبات الديمقراطيون وخصومه الآخرون. بيد أن تلك التسريبات سرعان ما أصبحت جزءًا من سيل الأخبار اليومية المتعلقة بالرئيس. لم يطل الوقت حتى سقط الترشيح. فقد سحب جاكسون اسمه من لائحة المرشحين في 26 نيسان/إبريل.

قال بانون: «كان ذلك أحد أكثر الأمور إثارة للذهول التي شهدتُها في الجناح الغربي، وهو أن توجَّه الضربة القاضية إلى الأميرال. لقد نالوا من ذلك الوغد».

* * *

يمكننا اعتبار قضية جاكسون حادثة لا تتعلّق كثيرًا بمعارضة ترامب، أو

بعدم الولاء له، بل تتعلق أكثر بإنجاز الأعمال، رغماً عنه. غالباً ما كان يبدو وكأن ترامب، البعيد عن الناحية التقنية للحكم، والملتصق بشاشة التلفزيون، والمهووس بالتحديات والإهانات التي يتلقاها كل لحظة، لا يتقاطع فعليًا مع ما يحدث في بيته الأبيض. أما «الأم» وآيرز فقد عمدا إلى الانتقام السياسي، لأن بمقدورهما فعل ذلك. ربما كان روني جاكسون خيار ترامب، إلا أنه خيار الخامل، فجاكسون لم يكن جزءًا من أي خطة شاملة وضعها ترامب، وقد أهان «الأم»، فما المانع من توجيه ضربة قاضية إليه؟

بالرغم من عدم اكتراث ترامب لخسارة ترشيح جاكسون، فإنها قد عزّزت قناعته بحقّه في تعيين أي شخص في المركز الذي يراه مناسبًا. كانت التعيينات نقطة حامية يمكن الاعتماد عليها لتحقيق ذلك؛ فبدت معارضة خياراته الخاصة تحديًا مباشرًا له. لكن الرئيس ارتبك عندما اكتشف أن لسلطة الرئاسة حدوداً؛ فاعتبرأن تلك الحدود هي حدوده هو ودليل على ضعفه شخصياً. كانت وظيفة وزير شؤون المحاربين القدماء وظيفة صغيرة الشأن نسبياً، فلمَ لا يستطيع تعيين أي شخصٍ يريده فيها؟ البيت الأبيض هو من كان يقف في طريقه، وكذلك واشنطن تقف في طريقه، وبالتالي فإن آلة البيروقراطية الهائلة بأكملها، هي التي امتنعت عن مساندته.

وبالرغم من كل هذه المشاعر التي خيّمت على أجواء البيت الأبيض، فإن كثيرين من المحيطين بالرئيس فوجئوا عندما لاحظوا أن لديه ميزة غير متوقعة، وهي أنه ليس مصابًا بجنون الارتياب. كان ترامب كثير الشفقة على نفسه وذا شخصية ميلودراميَّة؛ لكنه لم يكن مرتاباً أو متشكّكاً. وكانت المواقف السلبية والخيانة تفاجئه دائماً. إن النرجسية نقيض جنون الارتياب. اعتقد ترامب أن الناس يحمونه، وأن من واجبهم أن يفعلوا ذلك. لكنه فوجىء، وشعر بجرح عميق حين أدرك أن عليه أن يهتم بنفسه.

مرة أخرى، بعد مسألة قانون الإنفاق، حدث ما جعله يفهم الحقائق المرّة. حتى أنّ مايك بنس، المتملّق، لم يقف إلى جانبه. لكن حتى عندما شرحت إيفانكا حقيقة الأمر، وهي أن جاكسون قلّل من احترام السيدة بنس، فضّل ترامب تجنّب الخوض في هذه القضية المزعجة. عوضاً عن ذلك تابع مناقشة مسألة سلطاته المحدودة، مستغربًا عدم حصوله على ما يريده، مع أنه رئيس الولايات المتحدة.

* * *

كانت المشكلة تكمن في البيت الأبيض ذاته. فمع وجود عدد كبير من الشخصيات ومواقع القرار، كان الأمر يتطلّب ذكاءً وتهذيبًا وديبلوماسية ومهارة، والأهم استعدادًا للعمل مع الآخرين. وهذا أمر يناقض كل شيء في حياة ترامب، وهو لم يكن في وارد تبنّيه. يعود سبب وجود وظائف شاغرة عديدة في البيت الأبيض في جزء منه إلى عدم وجود مرشَّحين، فضلاً عن عدم اهتمام ترامب بتوظيف أحد.

لم تتمحور قصة الشهور الخمسة عشر الماضية حول رئيسٍ يحاول تعزيز فريقه في البيت الأبيض، بل تمحورت حول تآكل الفريق الضعيف نسبيًّا الذي دفع ترامب لقبوله سريعاً. إن ثلث شاغلي الوظائف العليا في إدارة البيت الأبيض قد اختفوا في أقل من سنة. وهكذا اختفى كلٌّ من فلين، وبريبوس، وبانون، وكوهن، وهيكس، وماكماستر، وغيرهم كثر. ويمكننا القول إن الرئيس لم يكن لديه رئيس موظفين، ولا دائرة اتصالات، ولا مجلس أمن قومي، ولا دائرة عمليات سياسية، ولا مكتب شؤون تشريعية، بل اكتفى بمكتب مستشار البيت الأبيض، وهو المكتب الذي يفتقر إلى التنظيم.

أما أولئك الذين ظلّوا في الفريق، أو انضموا إليه لاحقًا، فقد بدا أنهم يمتلكون فهمًا أفضل لقواعد العمل: إنهم يعملون لمصلحة دونالد ترامب، وليس لمصلحة رئيس الولايات المتحدة الأميركية. وإذا أراد المرء البقاء في وظيفته، فلا يمكن له أن ينظر إلى الأمر على أنه مجرد علاقة مؤسساتية، بل يحتاج إلى أن يتقبل واقع أنه يعمل من أجل إرضاء رئيسٍ مزاجي، يجعل كل القضايا التي تُعرض عليه قضايا شخصية. كان مايك بومبيو قد استطاع حتى الآن أن يبقى في فريق الرئيس. ويبدو أن ذلك قد تحقّق لأنه فهم أنَ مستقبله مرتبط بخضوعه للرئيس ترامب. وقد ظن، على ما يبدو، أن القدرة على التحمّل ولجم لسانه، قد يجعلانه رئيسًا في يومٍ من الأيام. أما لاري كودلو، الذي حلّ محلّ غاري كوهن في المجلس الاقتصادي القومي، وجون بولتون، الذي حلّ محلّ إيتش. آر. ماكماستر، فقد كانا البديلين المناسبين، لأن كلًّا منهما كان بحاجة ماسة إلى الوظيفة التي عُرضت عليه. ذلك أن كودلو خسر برنامجه على محطة السي. إن. بي. سي. أما بولتون فقد طال أمد وجوده في مجال السياسة الخارجية، وكان أمله في الابتعاد عنها ضئيلًا.

لكن، بغضّ النظر عن الذين تولّوا وظائف بدلًا من الذين أقيلوا من مناصبهم، يمكننا القول إن عدداً من وظائف البيت الأبيض، بعد سنة تقريباً من بدء عهد ترامب قد ظلّ شاغراً. إن الثمن القانوني الذي يدفعه أي موظف في إدارته مرتفع جدًّا، والمعاناة الناتجة من العمل لمصلحة دونالد ترامب كانت كبيرة جدًّا. وكذلك كانت وصمة العار التي يخلّفها العمل على الحياة المهنية للشخص واضحة جداً.

أحياناً كان الجناح الغربي يبدو شبه فارغ. وهكذا كان ترامب أكثر وحدة مما كانه يوماً في حياته.

* * *

هل يكترث ترامب حقًا لبقائه وحيدًا؟ كان أكثر ما ينجح به هو العمل بمفرده، وليس مع فريق.

يُعدّ العشاء السنوي الذي يقيمه البيت الأبيض للمراسلين الصحافيين مناسبة تقليدية تعوّد الرؤساء إقامتها كل عام لتوجيه الانتقادات إلى مجموعة واسعة من السياسيين والإعلاميين، وفسح المجال أمام أحد مشاهير الفكاهيين في البلاد لتوجيه الانتقادات إليهم. وكان من المقرر إقامة هذه المناسبة في 28 نيسان/إبريل. ربما كانت مأدبة العشاء هذه تمثّل في نظر الرئيس ترامب، ليس فقط جهود وسائل الإعلام التي لا تنتهي للتعاون ضدّه، بل أيضاً مطالبة وسائل الإعلام الدائمة بأن يحترمها.

قال الرئيس لصديق كان يحاول إقناعه بحضور العشاء، والاستفادة منه، وإطلاق بعض النكات على نفسه: «أنا لست متملّقًا. ترامب لا يتملّق، ولَما كنت ترامب الذي تعرفه، لو أنني كنت متملقاً». رفض الرئيس حضور تلك المناسبة، وقال: «لم يعد أحد يحضرها. إنها مناسبة ميتة».

لكن، مع اقتراب موعد المناسبة، فكّر ترامب في تحويل الأنظار عنها عبر إقامة مهرجان له، أو على الأقل محاولة منافستها، كما فعل سنة 2017. خطّط الرئيس لزيارة واشنطن، في ميشيغان. لكن ما إن وضع خطة لإقامة هذا المهرجان، حتى أدرك مساعدوه أنه سوف يتحوّل إلى مناسبة سياسية كبرى، أي إنه سيكون بمثابة إطلاق غير رسمي لحملة الانتخابات النصفية المقررة للعام 2018. لم يكترث الرئيس كثيرًا حتى هذا الوقت لتلك الانتخابات الوشيكة، لكنه الآن يُظهر نفسه في

صورة الشخصية المركزية في سباق الانتخابات النصفية.

لكن، في مساء يوم 28 نيسان/إبريل، انهالت الممثلة الكوميدية ميشيل وولف في فندق هيلتون على الرئيس بعبارات التجريح، والتوبيخ، والكلمات النابية القاسية، أمام جمهورٍ واسع تقبّل بمعظمه تلك العبارات. كان ترامب في هذا الوقت يتحدث في ميشيغان. تكلّم لفترة تزيد على الساعة في مهرجان حماسي أقيم في متنزّه الرياضة الشاملة التابع لبلدية واشنطن. كان هدف ترامب الأساسي دعم بيل شويت، النائب العام في ميشيغان، والمرشح الذي ينافس مساعد الحاكم بريان كالي، وهو الذي ارتكب الخطيئة التي لا تُغتفر، بسحب تزكية ترامب قبل انتخابات العام 2016. لم يذكر الرئيس شويت كثيرًا في بداية خطابه. وما لبث أن استغرق بعد ذلك في خطابٍ طويل ومفصّل، وشبه جنوني، تمحور حول كل الأمور التي يعارضها وحده.

ارتجل ترامب لفترة من الوقت حديثًا عن موضوعات عدّة تهمه، مثل العَلَم الأميركي، والجدار، والصين، وسوق الأسهم، وكوريا الشمالية؛ ثمّ بدأ استهدافه لجون تستر، عضو مجلس الشيوخ من مونتانا، الرجل الذي يعدّه ترامب مسؤولًا عن إفشال ترشيح روني جاكسون لمنصب وزير شؤون المحاربين القدماء.

«سأقول لكم شيئًا، إن ما فعله جون تستر مع هذا الرجل، لهو عار. فقد كان الأميرال جاكسون قد بدأ بدراسة الأمر، وكان يعمل بكل جدّية. وأنا اقترحت عليه أن يشغل هذا المنصب. أتعرفون أن الرجل بطل حرب، وقائد عظيم. إنه رجلٌ عظيم جدًّا، ويبلغ الخمسين من العمر، وبدأ بالدراسة، لكنه تعرّض بعد ذلك لشائعاتٍ كاذبة. أخبرني رجال الشرطة السرية بالأمر، وقالوا لي: «تلقّينا معلومات جديدة يا سيدي. تفحّصنا كل تلك الأمور، وتبيّن لنا أنها غير صحيحة». حاولوا تدمير هذا الرجل، لكن كل ما يُقال عنه غير صحيح.

«حسنًا، إنهم يحاولون فعل ذلك معنا أيضاً، ويقومون بأسوأ الأشياء. لكنني، مع ذلك، أريد أن أقول شيئًا صغيرًا. أريد في هذه المناسبة أن أشكر لجنة الاستخبارات في مجلس النواب. إنها تفعل ذلك معنا، مثيرةً مثلاً موضوع التواطؤ الروسي. إنني أؤكد لكم أنني قاسٍ على روسيا بشدّة لم يتصوّرها أحد من قبل. هل سمعتم ما قالته المحامية؟ قالت: ‹أوه. أنا لا أعرف شيئًا›. وفجأة أصبحت الآن تعمل مع الحكومة. أتعرفون لمَ؟ لأن بوتين والمحيطون به قالوا: ‹أتعرفون؟ ترامب هذا

سيقضي علينا. لمَ لا نقول إننا ضالعون مع الحكومة الأميركية لكي نتمكَّن من التسبّب بفوضى أكبر في الحياة الداخلية في الولايات المتحدة؟'. انظروا ماذا حدث بعد ذلك! هل تلاحظون كيف صدّق هؤلاء السياسيون تلك الترّهات؟ تدخلات روسية؟ كفّوا عن ذلك!

«سأقول لكم شيئًا. إن التآمر الوحيد هو بين الديمقراطيين والروس؛ فضلاً عن أن الديمقراطيين قد تآمروا مع عدد كبير من الجهات الأخرى. راجعوا وكالات الاستخبارات. لكن مهلًا. ماذا بشأن كومي؟ هل شاهدتموه في المقابلات التلفزيونية؟ 'آه، آه، آه...'. ماذا بشأن كومي؟ ماذا بشأن كومي؟ ماذا يمكننا أن نفعل؟ لدينا كومي إذن، ما رأيكم بهذا الرجل كومي؟ هل سمعتم ما قاله ليلة البارحة عن ذلك الملف الملفّق والقذر. قال ليلة البارحة على شاشة محطة فوكس: 'لا، لم أكن أعلم أن الديمقراطيين، وهيلاري كلينتون هما اللذان دفعا'، إنه لم يعرف. إنه لم يعرف. ماذا تقولون بهذا الشأن؟ باشروا أمراً بالاستناد إلى وثيقة دفعت تكلفتها اللجنة الوطنية للحزب الديمقراطي وهيلاري كلينتون. أقول لكم بصدق. دعوني أقُلْ لكم: إن كل ذلك عار، لأن علينا العودة إلى العمل. إن ما يجري في بلادنا هو عار. لكنهم فعلوا ذلك، وفعلوا ذلك مع الأميرال جاكسون، وهم يفعلون ذلك مع عددٍ كبير من الناس.

«إن كل ما يكتبونه تشويه للحقائق. تعرفون أن الصحف كانت فيما مضى حين تنشر مقالات، تذكر فيها أسماء المصادر. أما اليوم، فتكتب على هذا الشكل: 'قالت المصادر إن الرئيس ترامب...' مصادر! لكنهم لا يقولون من هي تلك المصادر، لأنهم بلا مصادر. لا وجود لتلك المصادر في معظم الحالات، وليس لديهم مصادر، ولا وجود لتلك المصادر. أقول لكم إن عددًا منهم مخادعون. إنهم مخادعون جدًّا جدًّا. إنهم ينشرون أخبارًا ملفَّقة وكاذبة جدًّا. لاحِظوا كومي، ولاحِظوا طريقة كذبه، وانتبهوا للمذكرات. إنني أتساءل: متى كتب هذه المذكرات؟ لقد حصل عليها، ثم تحدث عنها. انتبهوا للطريقة التي يكذب بها. إنها طريقة مريعة جدًّا...

«وبالمناسبة، بالمناسبة... بالمناسبة، هل من شيء أفضل من مسرحية عشاء المراسلين العاملين في البيت الأبيض؟ هل هذا العشاء ممتع أكثر من التحدث إليكم؟ كان بإمكاني أن أكون هناك هذه الليلة، وأتبادل الابتسامات مع الحاضرين، وأتظاهر بأنني أوافقهم عندما يصوبون سهامهم نحوي، سهمًا إثر سهم. إن أولئك الناس يكرهونني... ويفترضون أن عليّ أن... [يضحك]. أتعرفون؟ إنهم يتوقعون منّي أن

أبتسم، وسوف يقولون إذا لم أبتسم: ‘إنه مريع، لم يستطع أن يتحمّل النقد’. لكن إذا ابتسمت بالفعل، فسوف يقولون: ‘ما الذي يضحكه يا تُرى؟’. أتعرفون؟ لا يمكن لأحد أن يفوز معهم...».

ومضى ترامب يتكلم بهذه الطريقة، مرتاحاً في محيطه، وعلى سجيّته لمدة ثمانين دقيقة.

الفصل الخامس
روبرت مولر

صمّم ترامب مراتٍ عدّة على إقالة مولر. لكنه كان يتراجع في كل مرة. لا يدل الأمر على ضبط النفس بقدر ما هو لعبة كرّ وفرّ. كان التهديد بالإقالة، وعدم تنفيذ هذا التهديد، من ضمن استراتيجية ترامب المشروعة. فإما أن يهوّل عليك أو أن تهوّل على الآخرين. تلك كانت النظرية الشرعية التي يتبنّاها ترامب. وكانت أخبار وشوك تعرّض مولر للإقالة تسريبات ترامب المباشرة. شرح الرئيس الأمر بالقول: «ينبغي للمرء أن يعبث معهم في بعض الأحيان».

مع استمرار التحقيقات التي خلت من التسريبات، حيث كان الصمت الذي يحيط بها من الأمور التي تزعج ترامب في واشنطن؛ تحوّل المستشار الخاص إلى نوع من الهولوغرام في الجناح الغربي. كان حاضرًا هناك على الدوام، لكنه ليس هناك. وبالرغم من الإزعاج الذي تسبّبه تحقيقات مولر الحاضرة على الدوام في ذهن دونالد ترامب، فإن طبيعتها الغامضة، والمتغيّرة، أعطته أيضاً قدرًا أكبر من التشجيع. اعتبر الرئيس أن التحقيقات لم تكشف شيئًا، وإلا لقام شخص ما بتسريبها بطبيعة الحال.

قال ترامب في مكالمة هاتفية أجراها مع أحد أصدقائه بعد وقتٍ قصير من نهاية سنته الأولى في منصبه: «إن كل ما يملكونه تفاهات[4]، تفاهات، تفاهات، تفاهات. إنه تحقيق لا نهاية له». كان هذا التعبير يُستخدم بشكلٍ يوميّ لوصف التحقيقات التي يجريها مولر: «أعني أنها تفاهات بكل ما لهذه الكلمة من معنى».

كان ترامب يعتقد أنه يعرف تمامًا ما يفعله، لأنه أَلِفَ الإجراءات القانونية بصورة شبه دائمة في حياته المهنية، إذ كانت حياته المهنية سلسلة من المواجهات القانونية، وهو يعتقد أن بإمكانه إخافة خصومه. كان مولر ذلك النوع من الخصوم الذي يكنّ له ترامب البغض على الدوام. وكان يعتبره الرجل المستقيم؛ لكنه كان يعرف كيف يتصرّف معه. كان الجميع يعدّون استقامة مولر نقطة قوته، بينما كان ترامب يعدّها مكمن ضعفه.

أبلغ ترامب مكغان قائلاً: «تذكّر أن مولر لا يريد أن يتعرّض للإقالة. ماذا حدث للرجل الذي أقاله نيكسون؟ وقعت إثر ذلك مجزرة ليلة السبت بالتأكيد. لكن هل تتذكَّر الرجل الذي أُقيل؟ لا».

قال ترامب إن مولر كان مجرد «صورة مزيّفة»، «شيئاً مثيراً للضحك». الرجل يعتقد «أنه ذكي، لكنه ليس ذكيًّا». كان الرئيس يقصد أنه ليس واسع الحيلة، وليس مستعداً للقيام بأي شيء يضطر إلى فعله. «أعرف هذا النوع من الرجال. إنه يبدو صُلبًا، لكنه ليس كذلك».

* * *

إن سيرتَيْ حياة ترامب ومولر متماثلتان بشكل غريب. هما متماثلتان لكنهما متعاكستان في الوقت ذاته.

وُلد ترامب سنة 1946 في نيويورك. أما مولر فقد وُلد سنة 1944 في نيويورك. يتحدّر الرجلان من المهاجرين الألمان الذين وصلوا إلى نيويورك في القرن التاسع عشر؛ كذلك نشأ الاثنان في سنوات ما بعد الحرب العالمية. وكانت أسرتاهما تنتميان إلى الدرجة العليا المرفّهة من الطبقة الوسطى.

لكن أوجه التشابه بين الرجلين تنتهي عند هذا الحد. كان ترامب ابنًا لأبٍ من الطراز الأميركي الأصيل. كان أبوه فْرِد يعمل بحسب غرائزه الجشعة وسط عالم لا يرحم، وكان يؤمن بضرورة تحقيق النجاح بأي ثمن. صمّم ترامب منذ نعومة أظفاره أن يتفوّق على أبيه. أما مولر، فكان ابنًا لأب من نوعٍ آخر؛ فأبوه كان موظفًا إدارياً من أصحاب الياقات البيضاء في شركة دوبون، الشركة التي عملت في خمسينات القرن الماضي وشهدت ازدهارًا في عالمٍ كان النجاح فيه مرهونًا بالعمل الهادىء. أما

مولر، فقد صمّم منذ نعومة أظافره أن يحذو حذو أبيه.

كان روبرت س. مولر الثالث أحد خريجي جامعة برنستون سنة 1966، وكان عضوًا في آخر جيلٍ من أجيال الجمهوريين من خرّيجي جامعات رابطة اللبلاب (Ivy League) العريقة. كانوا جمهوريين معتدلين من الطبقة العليا المرموقة. تحوّلت رابطة اللبلاب هذه، منذ ستّينات القرن الماضي، تحوُّلاً ثابتاً لتصبح نادياً ثقافياً ذا توجّه يساري. لكن هذا المجتمع أصبح ممثَّلا في الماضي القريب بعائلة بوش، وبأنواع التجمُّعات الريفية الأخرى. أما الممثل الأرقى في هذه الأيام لذلك المجتمع، فهو عائلة مولر، العائلة التي تنتمي إلى مجتمع الأميركيين البروتستانت البيض غير الانفعاليين، وهو المجتمع الذي يتحاشى مظاهر الغرور على المستوى الشخصي ولا يعطي لنفسه حقوقاً لا يستحقّها.

أما بوب مولر، فقد كان باحثًا ورياضيًّا من الطراز القديم الذي يجمع الذكاء وقوة العضلات، في كلية سانت بول في كونكورد، نيو هامشاير، حيث كان يقود الأنشطة الرياضة في كل موسم. كان الرجل شخصية لها ما يماثلها في بعض الروايات والقصص التي شاعت في الأربعينات، والخمسينات، والستينات من القرن الماضي؛ مثل رواية جون نولز «سلام منفصل»، التي نُشرت سنة 1959، وتُظهر تراجع الطبقية والملكية؛ وروايات لويس أوشنكلوس، التي تدور حول موضوع الألم والإحباط اللذين شعرت بهما الطبقة الأرستقراطية الأميركية؛ والقصص القصيرة التي ظهرت في صحيفة نيويوركر، وصوّرت الرواقية التي تعتمد على كبح المشاعر والحياة العاطفية المقيّدة. كانت تلك هي الشخصيات ذاتها التي تعرّضت لاحقاً للسخرية الشديدة في الأدب.

شارك مولر في حرب فييتنام بعد تخرُّجه في الجامعة سنة 1968، شأنه شأن جون كيري، رفيق صفّه في كلية سانت بول، وهو الذي انتُخب عضوًا في مجلس الشيوخ، وأصبح مرشحًا للرئاسة، ووزيرًا للخارجية بعد ذلك. سرعان ما قضت الحركة المعادية للحرب على كل تقاليد الجنود الذين تخرّجوا في جامعات رابطة اللبلاب. وهكذا برز جون كيري في عالم السياسة بوصفه الناطق الرسمي للحركة المعادية للحرب، وتمكّن من شق طريقه في مجال السياسة الليبرالية. لكن مولر الذي سلك طريقًا موازيًا في الحكومة، تمكّن، بطريقةٍ ما، من البقاء بعيدًا عن التوترات الثقافية والسياسية التي عصفت بالبلاد على مدى السنوات الأربعين التالية. قال أحد

زملاء مولر في وزارة العدل: «إما أن يكون أرفع من التنصّل بهذه الزوبعة السياسية، وإمّا أنه فضل البقاء خارجها، ليس بالإمكان معرفة أيّ من هذين التفسيرين أدقّ».

لم يكن أحد على اطّلاع بما يشعر به مولر، وبما يؤمن به، أو ما يريد التعبير عنه في الواقع، سوى قلة قليلة من أصدقائه المقربين. وبينما عدّه بعض الأشخاص كتوماً جدًّا بطريقة يمكن تفسيرها على أنه يتمتّع بالحكمة والذكاء، كان آخرون يشكّون بأنه ليس لديه ما يقوله. ويمكننا القول إنه ربّما كان أهم مدير لمكتب التحقيقات الفيدرالي في الأزمنة الحديثة، وهو الذي تسلّم وظيفته قبل أيامٍ قليلةٍ فقط من وقوع أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. لكنه تمكّن من تحويل مكتب التحقيقات من مؤسسة تركّز على التحقيقات في الجرائم التي تقع داخل الولايات المتحدة إلى مؤسسة تركّز على محاربة الإرهاب في جميع أنحاء العالم. لكن، بالرغم من كل ذلك، فإن غاريت غراف اعتبر أن سجلّ حياة مولر في الخدمة العامة ضئيل جدًّا، ولا يؤهله ليكون أكثر من «شخصية ثانوية». وقد أورد هذا الاستنتاج في كتابه «مصفوفة التهديد»، الذي يؤرّخ الحرب على الإرهاب، وإنشاء مكتب التحقيقات الفيدرالي الجديد.

تحوّل الشكّ بشخصية مولر إلى سمة مميزة له. وهو الذي كان نائبًا عامًّا بالمفهوم القديم ويمثّل النظام البيروقراطي. كان مولر يعمل بحسب الأنظمة والتقاليد، ولم يُظهر استقلاليته مطلقًا، وهو ما يعاكس شخصية جولياني. يُضاف إلى كل ذلك عدم اهتمامه بالإعلام والظهور فيه؛ وكان يجد صعوبة في تفهم من يهتمون بالصحافة والإعلام إذ اعتبر هذا الانفتاح مقلقاً على المستوى الأخلاقي. يمكننا وصف مولر، وبحسب التصنيفات القديمة، بأنه رجل نزيه محبّ لعائلته، ومتزوج بحبيبته التي عرفها أثناء دراسته الثانوية، وأبٌ لولدين. باختصار، هو حالة استقامة ميؤوس منها. وقد بقي هكذا حتى بعد أن تخلت الثقافة الأميركية عن الاستقامة في السياسة، ما جعل منه بطلًا بنظر الجناح اليساري في البلاد، ومثالاً يحتذى ثقافياً، وصورة عن أميركا الرافضة لترامب.

كان من غير الطبيعي أن يقوم الرئيس أوباما سنة 2011 بتجديد ولاية مولر

سنتين كرئيسٍ لمكتب التحقيقات الفيدرالي، بعد مضي عشر سنوات على تولّيه منصبه. وقال مساعدو أوباما إن الرجلين كانا متقاربيْن جدًّا، ومتشابهَين في طريقة تسيير الحكم وفي الفضائل الشخصية، وفي النهج التحليلي لحل المشكلات، وفي ابتعادهما عن المظاهر الشخصية والمهنية.

يصعب على المرء أن يتخيّل شخصية معاكسةً تمامًا لشخصية روبرت مولر أكثر من دونالد ترامب. ولن نجد رجلين من العمر نفسه وينتميان إلى البيئة نفسها يمكن أن يكونا أكثر اختلافًا منهما في الرؤية، والمزاج، والسلوك الشخصي، والمفاهيم الأخلاقية. ولا أحسب أن نجد رجلين يمثّلان أفضل منهما الفرق بين الثقل المؤسساتي والقواعد المتبعة، وبين الدهاء الشخصي، والاستعداد للمخاطرة، وكذلك الادعاء. لم يشكّل الأمر صراع ثقافات بقدر ما كان عدم تطابق: التناسق مقابل عدم التناسق، الجدّية مقابل الإخلال، وضبط النفس مقابل التفلّت من الضوابط.

وصف ترامب مولر أمام أحد أصدقائه بالقول: «لا وجود لديه لشيء اسمه لعبة».

عندما مثُل ستيف بانون أمام المحقّق الخاص في شهر كانون الثاني/يناير من العام 2018، احتشد وقتها خمسة عشر شخصًا من عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي، وثمانية نواب عامّين في الغرفة، وذلك بهدف مشاهدة دارث فادر. حضر مولر قبل بدء الاستماع إلى الشهادات. وتوجّه مباشرة نحو بانون، وحيّاه بطريقةٍ مهذّبة، ثم فاجأه بالقول: «أعتقد بالفعل أن مورين سوف تستمتع في وست بوينت».

لم تُخبر مورين، وهي ابنة بانون وتحمل رتبة نقيب في الجيش، أحدًا حتى أقرب أصدقائها، بأنها قبلت للتوّ منصبًا في وست بوينت. قال بانون فيما بعد: «تساءلت عندئذ ماذا يعني ذلك بحق الجحيم؟».

سأل بانون محاميه بيل بيرك خلال فترة الاستراحة عن الأمر: «ماذا يقصد أن يقول؟».

قال بيرك: «أعرف ما يعنيه بالضبط. يريد أن يقول لك: إياك أن تنسى أن ابنتك واحدة منا، ويقول أنت واحد منّا أيضاً».

* * *

سارع مولر فور تعيينه في شهر أيار/مايو من العام 2017، إلى توظيف آندرو ويسمان، رئيس قسم مكافحة الاحتيال في وزارة العدل، وأكثر نوّابها العامّين خبرة. اعتبر كثيرون أن ويسمان هو أخطر نائب عام في البلاد.

اعتقد دونالد ترامب أنه يعرف كل شيء عن ويسمان. ونعته بأنه فاشل في التحقيقات وخاسر. سبق لويسمان أن تولّى التحقيق مع آرثر أندرسون، ومجموعة المحاسبة والتدقيق المعروف بتسمية «الخمسة الكبار»، في قضية شركة إنرون. وتمكّن من الحصول على إدانة، ومن إقفال واحدة من أكبر الشركات في العالم تستخدم خمسة وثمانين ألف موظف. نُقض الحكم بعد ذلك. وكان ترامب قد قال إن الأمر شكّل كارثة تجارية، وكان من المفترض منع ويسمان من مزاولة عمله. وقد أطلق الرئيس عليه لقب «آرثر ويسمان».

مع أن قضية أندرسون قد أثّرت في ويسمان، فإنها عزّزت من ناحية أخرى سمعته كشخص قادر على شنّ حرب شاملة. اعتبر ويسمان أن سطوته تعود إلى معتقدٍ فلسفي، وهو يرى أن المجرمين من كبار الموظفين إنما يحاولون التغلب على النظام. ولهذا يتعيّن على النظام أن يُلحق الهزيمة بهم. وكان يرى أن حياة دونالد ترامب المهنية بأكملها هدفت إلى إلحاق الهزيمة بالنظام.

كان فريق مولر يدرس في شهر آذار/مارس من العام 2018، إمكانية القيام بخطوة جسورة. وكان ويسمان قد طلب، بمبادرةٍ منه، أن يقوم مكتب المحقّق الخاص بتحضير مسوَّدة اتهامية للرئيس. وفّرت هذه اللائحة الاتهامية المقترحة خريطة طريقٍ افتراضية للسنة الأولى من رئاسة ترامب.

اشتملت دعوى «الولايات المتحدة ضد دونالد ج. ترامب، متَّهم» على ثلاثة اتّهامات. الاتهام الأول، بموجب المادة 18 من قانون الولايات المتحدة العام، القسم 150، يتمحور حول محاولة الرئيس التأثير في إجراء رسمي معلّق في وزارةٍ أو وكالة في الولايات المتحدة، أو عرقلته، أو معارضته عن طريق الفساد، أو التهديد بالقوة أوالاتصالات. أما البند الاتهامي الثاني فهو بموجب القسم 1512، الذي يتّهم الرئيس بالتدخل مع شاهد، أو ضحية، أو مصدر. ويقع البند الاتهامي الثالث في القسم 1513

الذي يتّهم الرئيس بالانتقام من شاهد، أو ضحية، أو عرقلة شاهد.

وبحسب مسوّدة اللائحة الاتهاميّة، فإن خطة دونالد ترامب لعرقلة سير العدالة قد بدأت منذ اليوم السابع من بداية عهده. تتبَّعت المسودّة عرقلة سير العدالة منذ أكاذيب مستشار الأمن القومي، مايكل فلين أمام مكتب التحقيقات الفيدرالي المتعلّقة باتصالاته مع الموفد الروسي، مرورًا بجهود الرئيس التي تهدف إلى دفع جيمس كومي إلى حماية فلين، وصولًا إلى إقالة كومي، وإلى تدخّل الرئيس في تحقيقات المحقق الخاص، ومحاولة التستّر على الاجتماع الذي عقده ابنه وصهره مع عملاء حكوميين روس. زد على ذلك مساعيه التي بذلها للتدخل في شهادة مساعد مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي، آندرو مكابي، ومحاولة الانتقام منه. تضمّنت مسوّدة لائحة الاتهام كذلك ما اعتبره المحقق الخاص ثيمة رئاسة ترامب الرئيسية: فمنذ بداية عهده ذهب الرئيس إلى أبعد الحدود لحماية نفسه من التدقيق والمحاسبة القانونيين، ولعرقلة تحقيقات اللجان الرسمية في ما يتعلق بإجراءاته.

لكن، منذ زمن فضيحة ووترغيت التي مضى عليها حتى الآن خمسة وأربعون عامًا، راوحت مسألة حق النيابة العامة في استدعاء رئيسٍ حالي إلى قاعة المحكمة لمحاكمته، كأي مواطنٍ، جرّاء خرقه القوانين، بين مخارج النظرية الدستورية وفضائح البيت الأبيض. قدّم مكتب الاستشارات القانونية، وهو مكتب ملحق بوزارة العدل لا يعرف كثيرون بوجوده، ومهمته تقديم المشورة القانونية إلى النيابة العامة، رأيًا قانونيًّا خلال فضيحة ووترغيت، وبعد فضيحة كلينتون - لوينسكي، يشير إلى أن من غير الممكن توجيه إدانة إلى رئيسٍ موجودٍ في سدة الحكم. لكن، بالرغم من أن هذا الرأي لا يُعتبر مانعًا قانونيًّا، أو حكمًا قضائيًّا يمنع إدانة رئيس البلاد، فإنه قد تحوّل إلى موقفٍ أصيل، لأسبابٍ كثيرة، ليس أقلّها أن أحدًا لم يحاول مطلقًا توجيه إدانة إلى رئيس.

أسفر الجدال، الذي دار في بعض الدوائر الدستورية حول إمكانية توجيه اتهامٍ إلى الرئيس، عن إثارة نقاشاتٍ حامية. وبالرغم من اعتراضات عددٍ من الليبراليين، فقد جادل كين ستار، المستشار المستقل الذي حقّق في قضية بيل كلينتون، بأن الدستور لا يُعطي لرئيسٍ حالي حصانة ضدّ أيّ اتهام، وأنه كأي مواطنٍ يخضع للإدانة والملاحقة الجرمية. غير أن بعض المختصين اعتبروا موقف ستار تجاوزًا.

* * *

لم يحصل فريق مولر مع نهاية شهر آذار/مارس على تفاصيل اقتراح توجيه اتهام فحسب، بل حصل على مسوّدة مذكّرة قانون يتصدّى لمحاولة المتهم، أي دونالد ترامب، رفض إدانته.

اشتملت المذكّرة، وبشكلٍ صريح، على نقيضٍ للرأي السائد الذي أصدره مكتب الاستشارات القانونية. أشارت المذكّرة إلى أن القانون لا يورد في أي موضع استحالة توجيه اتهامات إلى الرئيس، ولا يعطيه وضعًا قانونيًّا مختلفًا عن المسؤولين الفيدراليين الآخرين. يسمح القانون بتوجيه اتهامات للمسؤولين الفيدراليين، وإدانتهم، بل إقالتهم من مناصبهم. والدستور دقيق جدًّا من حيث الحصانة التي يمنحها، وهو لا يمنح الحصانة للرئيس.

تنصّ المذكرة على ما يأتي: «تفيد مادة حكم العزل والإقالة، والتي تنطبق بالتساوي على جميع مسؤولي الدولة، بمن فيهم الرئيس، أن بالإمكان إقالة المسؤولين من مناصبهم وإيقافهم عن العمل. غير أنّ الجهة المدانة تكون مسؤولةً ومعرّضة لتوجيه الاتهام إليها، والمحاكمة، وصدور الحكم والعقاب بحسب القانون».

«تعتبر مادة حكم الإقالة... أن إمكان توجيه الاتهام إلى المسؤول وملاحقته قضائيًّا، قبل الإقالة، أمرٌ مسلّمٌ به. لكن إذا لم تكن الحال كذلك، فإن تلك المادة تعطي المسؤولين في الدولة الحصانة ذاتها التي رفضها صائغو الدستور».

كانت تلك الحجة واضحة وأساسية. فالرئيس لا يتمتع بأي استثناءٍ دستوري من القانون؛ بل العكس صحيح، لأن الإطار الدستوري بأكمله أوضح أن الرئيس ليس فوق القانون في أي حالٍ من الأحوال. كانت الإقالة إجراءً قانونياً يمكن استخدامه ضد كل موظفي الدولة في الولايات المتحدة، إلا أنها لم تمنحهم الحصانة من توجيه الاتهام إليهم. يمكننا أن نستنتج من هنا أن المادة المتعلقة بالإدانة يجب ألّا تحمي الرئيس من توجيه الاتهام إليه. أما ما يسمى بالحجة الوازنة، أي تلك القائلة بأن أعباء القضية الجرمية التي يتحملها الرئيس سوف تتداخل مع قدرته على القيام بواجباته الرئاسية، فقد كانت فضفاضة، لأن حملها لن يكون أكبر من حمل الأعباء الكبيرة التي تتضمنها إجراءات الإقالة.

* * *

لم يصل بوب مولر إلى أعلى مستويات الحكم الفدرالي من طريق إساءة فهم حدود السلطة البيروقراطية، فهو من أصحاب أعلى الإنجازات في الحكومة.

كان مولر وفريقه يدرسان يومياً إمكانية أن يقدم الرئيس على إقالتهم. إن مجرد وجود تحقيق يقوم به محقق خاص قد تحوَّل إلى قضية أساسية في التحقيق ذاته. إن إغلاق التحقيق، أو حتى تأخيره، أو إتلاف مستنداته، سوف يشكّل سابقةً غير مرحّبٍ بها، وهي الخطوة الطبيعية التالية التي سوف يتّخذها الرئيس أو مَن ينوب عنه، لمواجهة دعوى العرقلة التي كان فريق مولر يرفعها ضدّه.

أثناء جمع مواد قضيته ضد الرئيس بتهمة عرقلته لسير العدالة خلال شتاء العام 2018 وربيعه، كان مكتب المحقّق الخاص يحاول الإسراع قدر الإمكان في إثبات العرقلة. فما تبيّن أثناء التحقيق لم يكن مطمئنًا.

تساءلت إحدى المذكّرات التي جرى توزيعها داخليًّا: «أيستطيع الرئيس ترامب أن يأمر سيشنز بسحب الضوابط التي وضعها المحقّق الخاص (وإقالته إذا لم يفعل ذلك)؟».

جاء ردّ فريق الأبحاث على الشكل الآتي: «الجواب السريع هو نعم». كان النائب العام، سيشنز، على الرغم من أنه قد أعلن عدم أهليته لإجراء التحقيق، يستطيع أن يُبطل الضوابط التي وضعها المحقّق الخاص، وأن يفتح بذلك الطريق أمام ترامب لإقالة مولر مباشرة.

أما الشيء الوحيد الذي بدا أنه يقف في طريق خطوة حاسمة كهذه، فقد كان الخوف من تكرار «مجزرة ليلة السبت» التي حصلت في عهد نيكسون. إنّ إقالة المحقق الخاص قد تسبّب سلسلة متعاقبة من الاستقالات والإقالات، الأمر الذي قد يؤدي إلى ردود فعلٍ سلبية رغم أنّ الكونغرس ذو غالبية جمهورية. وكان من شأن ذلك أن يؤدي إلى الإضرار بفرص الجمهوريين في الانتخابات النصفية. كان ميتش ماكونيل مستعدًا لفعل أي شيء مقابل حماية غالبية أعضاء حزبه في مجلس الشيوخ. لذلك أرسل تحذيرات صارمة إلى البيت الأبيض، تضمّنت أن مجلس الشيوخ لا يُمكن أن يُعتمد عليه في الوقوف إلى جانب الرئيس إذا تصرّف بطريقة متهورة تجاه مولر.

لكن الخوف من وقوع أحداثٍ دراميّة كهذه، أو عواقب لم تكن في الحسبان، أو الخشية من توتر أعصاب ماكونيل، لا يُمكن أن تعتبر مصادر قلق أساسية لهذا الرئيس. لكن ما هو أكثر من ذلك، هو إمكانية حصر هذه الأحداث الدرامية، إذا تمكّن ترامب من تجنُّب خوف الجميع وارتباكهم، والإقدام على إقالة مولر من فوره. هل كان ذلك ممكنًا؟

استنتج فريق أبحاث مولر أن ذلك ممكن في واقع الأمر، وأورد مستنتجًا الأمر الآتي: «يستطيع الرئيس إقالة المحقق الخاص على الفور، وتبرير ذلك الإجراء بأن الضوابط التي وضعها النائب العام غير دستورية، لأنها تحدّ من قدرته على إقالة المحقق الخاص». وأضاف البحث أن الضوابط تتجاوز سلطة الرئاسة. «لكن تبقى هناك فرصة على الأقل لتجميد إجراءات الرئيس، إذا جرت مراجعتها في المحكمة، خصوصًا أن القواعد المذكورة [التي تنظّم عمل مكتب المحقق الخاص] لم يقم الكونغرس بإدراجها في القانون الأميركي».

تبيّن بعد كل هذا أن هيكلية مكتب المحقق الخاص هي هيكلية هشّة وغير محددة بشكلٍ مستغرب.

ورد في إحدى المذكّرات الأساسية الأخرى التي أعدّها فريق مولر التساؤل الآتي: «ماذا سيحدث بمكتب المحقق الخاص، وموظفيه، وسجلاته، وتحقيقاته الجارية، وكذلك بهيئة المحلفين المكلّفة مراجعة الأدلة المقدّمة في حال إقالة المحقّق الخاص، أو في حال توقيف تحقيقاته؟».

جاءت الإجابة المختصرة على الشكل الآتي: «لا يمكن الردّ على هذه المسألة بشكل قاطع بالاستناد إلى الدستور أو إلى سوابق قانونية». عالجت المذكّرة بعد ذلك النقطة الأساسية الآتية: «لا وجود، في كلّ الأحوال، لمادة قانونية، أو سوابق قانونية موثوقة، تحدّد دقة التأثير الذي سيولّده... إنهاء الخدمة على هذا المكتب، أو على موظفيه، وعلى تحقيقاته الجارية، ومواد التحقيقات». يعني ذلك أن بالإمكان إلغاء العملية بأكملها بين ليلةٍ وضحاها، وتمزيق مستنداتها.

لكن تبقى مهلة يكون فيها المحقق الخاص قادرًا أن «يطلع زملاءه المحققين على المواد الموجودة في حوزة هيئة المحلفين، بهدف تنفيذ القانون الجنائي

الفيدرالي». والواقع هو أن تلك العملية قد بدأت بالفعل، وهي عملية تحويل جزء من التحقيقات، كما حدث في قضية مايكل كوهن، إلى مقاطعة نيويورك الجنوبية، لحماية القضية في حال إقالة مولر، وكذلك من أجل استباق أي نقد يتعلق بتجاوزات المحقّق الخاص.

اقترب تاريخ الأول من تموز/يوليو، وهو موعد تقديم مولر موازنة مكتبه، أي قبل بدء السنة المالية 2019 بتسعين يوماً. لكن كلًّا من النائب العام، أو من ينوب عنه في حال غيابه، أو مساعد النائب العام، يمتلك الحق الحصري في رفض طلب التمويل هذا، وكذلك إقفال تحقيقات المحقق الخاص بدءًا من 30 أيلول/سبتمبر، 2018.

يُذكر أن مساعد النائب العام رود روزنشتاين، الذي أبلغ الكونغرس بامتناعه عن تنفيذ أي أمرٍ رئاسي يتعلق بإقالة المحقق الخاص مولر من دون وجود «سبب موجب»، يمكنه، من هذا المنظور الإيجابي، أن يقلق من العواقب السياسية التي سوف تترتّب على «قرار حجب التمويل عن المكتب». من جهة أخرى، كان الرئيس قد دأب على التهديد بإقالة روزنشتاين.

لكن ماذا سيحدث إذا ما رُفض طلب التمويل، وإذا ما أُقفل التحقيق؟ «إذا ما أُقفل مكتب المحقّق الخاص، فمن المحتمل والمرجّح أن يقوم المحقق الخاص مولر بإنهاء تكليف مولر لهيئة المحلّفين الخاصة، وأن يشجّع هذا المحكمة على إنهاء خدماتها». ويُحتمل في هذه الحالة أن تذهب نتيجة العمل إلى سلّة المهملات بعد تمريرها في آلة تقطيع الأوراق.

لكن البحث تضمّن أيضاً سيناريو أكثر تفاؤلًا: يُحتمل أيضاً أن يستمرّ محامٍ «مكلّف من الحكومة»، وعلى الأرجح من مكتب النائب العام الأميركي، في تحقيقات هيئة المحلفين العليا. وفي هذه الحالة، لن يعود مؤكّداً أن تستغني المحكمة عن هيئة المحلفين العليا».

لكن ما كان ليبدو الموقف لو حدث الأسوأ؟ وما كان ليحدث لو أقدم الرئيس على إقالة المحقّق الخاص، أو حدثت مجزرة استقالات ممنهجة لسلسلة من المسؤولين عن التحقيقات؟ هل بإمكان أي شخص أن يقاوم؟ لكن من المؤسف ألّا يتمكن النائب

العام، أو مساعد النائب العام، من مقاومة عملية الإقصاء من الخدمة، لأن الرئيس هو الذي عيّن الرجلين في منصبيهما، وهذا ما توصَّل إليه بحث المحقق الخاص.

توالت الأسئلة بعد ذلك: هل يتمكّن المحقق الخاص، أن يقاوم مسألة إقالته، بالنظر إلى أن الرئيس ليس هو الذي عيّنه؟ يمكننا أن نجزم أنه لن يتمكن من ذلك، لعدم وجود «حق خاص باتخاذ إجراء»، بحسب الضوابط التي وضعها المحقّق الخاص. لكن يمكنه أن يزعم أن مخالفةٍ دستورية قد حدثت، وأن إقالته بحد ذاتها تُعدّ عرقلة لسير العدالة. يضاف إلى ذلك ان بحث المحقق الخاص قد افترض أن يلجأ أعضاء الكونغرس إلى حقّ التقاضي. يُحتمل كذلك أن يتمكّن أفراد فريق المحقّق الخاص من إقامة دعاوى بشكل إفرادي. وقد تنشأ دعاوى لضمان حقوق أطراف ثالثة، كنقابة المحامين الأميركيين، والمرصد القضائي، الأمر الذي يشكّل أساسًا لإجراء استثناء للقاعدة القائلة بأن المدّعي لا يمكنه رفع دعوى تهدف إلى تأكيد حقوق الآخرين. انتهى البحث إلى القول بأن ثمة عدداً قليلاً من الاحتمالات، لكنها بمعظمها سيناريوهات غير مضمونة.

استعرضت صفحات وصفحات من الأبحاث سيناريوهات مختلفة تتعلّق بأي محاولة تهدف إلى إغلاق مكتب المحقق الخاص، وإنهاء أعماله. لكن جوهر القضية كان واضحًا: ما دام الرئيس يتمتع بدعم حزب الأغلبية في الكونغرس، فإن الورقة الرابحة ستبقى بين يديه.

* * *

في يوم 2 أيار/مايو، وبعد تناول الشراب في أحد مطاعم وسط المدينة، توجّه رودي جولياني ليشارك في أحد أغرب البرامج التلفزيونية في التاريخ السياسي الحديث «شون هانيتي شو»، حيث يجمع خلال مقابلة تستغرق ثماني عشرة دقيقة، الموضوعات السخيفة وغير المترابطة. وهناك كان في انتظاره محامٍ متمرّس يشرح خطة الرئيس القانونية.

وجّه جولياني كلامه إلى هانيتي قائلاً: «أنا أعرف جيمس كومي، وأعرف الرئيس. أنا آسف يا جيم لأنني مضطر إلى القول إنك كاذب، وكاذب غير شريف... ليت الله أبعدك عن رئاسة مكتب التحقيقات الفيدرالي».

ومضى يقول: «انظر إلى ما يحدث في كوريا الشمالية. أبلغت الرئيس بأنك سوف تنال جائزة نوبل».

وقال كذلك: «أعتقد أن النائب العام سيشنز، صديقي العزيز، وروزنشتاين الذي لا أعرفه، يجب أن يقفا في صف العدالة، وأن ينهيا هذا التحقيق».

واستطرد قائلًا: «لست على استعداد للسماح بأن يعامل موكّلي، ورئيسي، وصديقي، والرئيس الذي حقّق في سنة ونصف السنة أكثر مما توقّع أي شخص، بأن يُعامل أسوأ مما عومل بيل كلينتون، الذي كذب رغم القسم... ثم التعامل معه بطريقة أسوأ بكثير مما عوملت هيلاري كلينتون... لن أسمح بأن يُعامل أسوأ مما عوملت هيلاري كلينتون».

«إنني آسف يا هيلاري. أعرف أنك محبطة جدًّا، لأنك لم تفوزي في الانتخابات، لكنك مجرمة».

شعر بانون بالرعب من أداء جولياني، وقال لهانيتي لاحقاً: «لا يمكنك أن تفعل هذا يا رجل. ما كان يجب أن تسمح له بالكلام علناً بهذا الشكل».

أجاب هانيتي: «لستُ جليس أطفال».

«لكنه رودي، ويجب أن تعامله كذلك».

لم يقف جولياني عند هذا الحد. فبعد أيام قليلة من ظهوره في برنامج هانيتي، أجرى مقابلة مع جورج ستيفانوبولوس على شاشة محطة الآي. بي. سي. أنكر خلالها أي علاقة تربط بين ترامب وستورمي دانييلز. لكنه اعترف بأن ترامب دفع لها مبلغًا من المال لاحقًا.

وأكّد جولياني لستيفانوبولوس قائلاً: «ما يهمّني هنا أمران، وهما أمران قانونيان مهمّان، ومن صلب وظيفتي. الأمر الأول هو أن المبلغ لم يكن تبرُّعًا لحملة انتخابية، إذ كان لا بد من الإقدام على أمر ما في أي حال. كان ذلك نوعًا من التسويات التي أجريها مع الفنانين والمشاهير، وجميع المحامين يفعلون ذلك. أما الأمر الثاني فهو أن المبلغ، في حال اعتباره تبرّعًا للحملة الانتخابية، لا يشكّل إدانة،

لأنه مدفوع من أرصدة خاصة. وأعتقد بأنني لست مضطرًا إلى الخوض في هذا الموضوع، لأن تفسير الأمر الأول يكفي. ولهذا أقول إن القضية قد انتهت. أقفلت القضية بما يتعلق بدونالد ترامب».

لاحظ بانون، أثناء مشاهدة البرنامج، أن ستيفانوبولوس كان لطيفًا جدًّا مع جولياني. «كان بإمكان ستيفانوبولوس أن يحطّمه، لكنّ الرجل أعرج، فكيف له أن يرفس رجلًا مثله؟».

هزّ بانون رأسه مندهشًا وتابع: «لندع مسألة الشراب جانبًا. يعرف الجميع أن رودي عاجز عن الدخول في مناقشة حقيقية. ويمكننا أن نلاحظ ذلك من حركات وجهه، وعينيه الكبيرتين. يضاف إلى ذلك أنه يبدو وكأنه يتحدث مع نفسه بينما يروي بعض المعلومات المذهلة. أتعرف أن زوجة رودي، وهي السيّدة الأولى المستقبلية، أو على الأقل، هذا ما تتخيّله، وهي ملكة الأعماق المظلمة، لن تتخلّ عن هذا الموضوع إلّا إذا علمت بأنها استنفدت كل ما لديها، إنه أمرٌ محيّرٌ بالفعل».

* * *

لكن رودي أذهل ترامب شخصياً.

كان الرئيس مسرورًا عندما لاحظ أن جولياني قد تبنّى النظريات القانونية المبطِلة، والتي أذهل بها آلان ديرشوفيتز الرئيس في مقابلاته التي أجراها على شاشات المحطات الفضائية. لا يمكن أن تكون هناك أي مسؤولية جرمية على رئيس يمارس سلطاته الدستورية، وذلك بغض النظر عن سبب استخدامه لتلك السلطات. وإذا اختار الرئيس إقالة شخصٍ ما، فإن الدستور قد أعطاه الحق في إقالته. نقطة على السطر. وحتى إذا كان الرئيس يقيل هذا الشخص لأنه جزء من مخططٍ للتغطية، فلا مشكلة في ذلك. إن السلطات الرئاسية مطلقة تمامًا.

لكن نظرية ديرشوفيتز حول الحصانة الرئاسية بدت مستغربة عند نطق جولياني بها. اكتسب جولياني شهرته عندما كان النائب العام الأميركي في مقاطعة نيويورك الجنوبية، وبعد ذلك من عمله في السياسة، وفي قضايا القانون والنظام والملاحقات القانونية التي استهدفت النافذين في البلاد. اشتهر الرجل بنهجه الحازم، وكان النقيض الصارخ لنموذج المثقف الأنيق والمراوغ، ومحامي الدفاع الذي يؤمن

بالنسبية الأخلاقية. لكنه بدا الآن، وبشكلٍ مفاجئ، أنه متحمّس لأداء دوره.

اشتُهر ترامب بتركيزه على التفاصيل الشكلية. وهكذا دأب على إعادة مشاهدة مقابلات جولياني التلفزيونية، وكان يشير باستمرار إلى «عينيه المجنونتين، المجنونتين». كما علّق الرئيس كذلك على وزنه الذي كان يزداد ليبلغ 136 كيلوغرامًا، وعلى مشيته غير المتوازنة. قال عنه ترامب: «يبدو وكأنه مختلٌّ عقليًّا».

اعتبر جميع موظفي البيت الأبيض، وعلى الأخص دون ماكغان، أن دفاع جولياني عن الرئيس كان سخيفًا ومقلقًا في الوقت ذاته. واكتشف ترامب أنه مضطر إلى محاولة تهدئة جولياني، وكذلك إقناعه بالتخفيف من إدمانه شرب الكحول.

لكن الغريب في الأمر أنه كلما بدا جولياني لاعقلانيًّا، ابتعد في أحاديثه عن استراتيجيته القانونية المعهودة، وزاد من رجحان الكفة لمصلحة ترامب، على حساب مصلحة المستشار الخاص. تمكّنت قوة تأكيداته التي ترافقت مع الارتباك الأرعن الناجم عن تصريحاته العفوية، من فتح جبهةٍ جديدة. لم يكن ما حدث على الشاشة مواجهةً قانونية، بل مواجهة تلفزيونية. وقف المحقق الخاص في جهة، صامتًا، ومتثاقلًا، وتقليديًّا في ملابسه، وعاديًّا، ومؤسساتيًّا. وفي الجهة الأخرى وقف رودي وترامب اللذان يتصرفان بطريقة ارتجالية وغير متوقّعة، وباندفاع. وكانا يشكلان معًا فرجةً للآخرين.

تولّد فجأة إحساسٌ جديد في البيت الأبيض تجاه عبقرية جولياني الغامضة. كان رودي مجنونًا، لكن جنونه كان يعطي نتيجة جيدة، بل إنه بدا نسخةً طبق الأصل عن ترامب. وضع جولياني بدهائه خطة دفاعٍ غير منطقية، وغريبة. لكنها، من الناحية المسرحية البحت، تفوّقت على النقاط التقنية الدقيقة للقانون. وكان ترامب يعرف، بسبب خبرته الطويلة في الدعاوى القضائية، أن الجرأة والتشويش يسفران عن نتائج كبيرة على الدوام، وها هو رودي ينفّذ تلك الاستراتيجية بكل حماسة.

كان محامي الادعاء الصامت في هذه الأثناء مجهدًا في دفاعه. وكان هناك احتمال قوي أن يُقال المحقق الخاص، وقد يحدث ذلك في أية لحظة. وكان ترامب يردّد أن الإقالة، أو التهديد بها، يخلقان جوًّا من التشويق والترقّب، لأن أحدًا لم يكن يعرف ما سوف يحدث. كان جولياني يعلم أن أي شيء يحدث هو ما يريده ترامب أن

يحدث. وكان الرئيس في نظر جولياني البذيء والرافض والثرثار، هو مَن يُمسك بالأوراق، وهو الذي يقرّر كيف يلعب ومتى.

الغريب في الأمر أن يرى مولر الوضع بالطريقة ذاتها.

* * *

يمتلك كل ادعاء نصيبه من الشرعية، في عالمٍ لا يعرف فيه أي شخص القواعد، أو الشخص الذي قد يُمسك بمقاليد السلطة، والذي سيتمكّن من وضع تلك القواعد، بعد الانتخابات النصفية.

سمع مارك موكاسي، وهو صديق جولياني وشريكه السابق، شائعة عن خطة توجيه اتهام إلى الرئيس. وكان من المفترض أن يتطلب الاتهام موافقة رود روزنشتاين بصفته الشخص الذي سوف يشرف على التحقيقات. وليفعل ذلك كان على مساعد النائب العام أن يدحض الرأي الذي قدّمه مكتب المستشار القانوني إلى وزارة العدل، والقائل باستحالة توجيه الاتهام إلى الرئيس.

ومرة أخرى، يبدو من الصعب التعبير عن مدى كره روزنشتاين للرئيس ترامب. أخبر روزنشتاين أصدقاءه أن ترامب رجل مخادع وكاذب، وغير مناسب لتحمّل أعباء الرئاسة.

وفي 16 أيار/مايو، أعلن أن من غير الممكن توجيه اتهام إلى الرئيس، ولا يعلم أحد إن كان قد اعتمد في ذلك على أسبابٍ منطقية، أو على اتصالٍ مباشرٍ مع الله لا يعرف أحد شيئًا عنه. واستطرد جولياني يقول إن مكتب المحقق الخاص قد أخبره بأن كل ذلك يتوافق مع رأي وزارة العدل بعدم إمكانية توجيه اتهامٍ إلى الرئيس. لكن ذلك يتعارض مع تسطير الأوراق الاتهامية التي أُعدّت بالفعل.

هذا هو جولياني المشوّش أو الثمل، أو جولياني المحنّك وغير الاعتيادي، أو الاثنان معًا.

كانت مناورة جولياني، أي إعلانه على الملأ موقفًا قانونيًا للمحقق الخاص، أشبه ما يكون بسخرية مهينة. كان مولر نتيجة لذلك أمام خيارين: إما أن يختلف علنًا

مع محامي الرئيس، ويفتح الباب على جدالٍ سياسي ويدخل فيه، وإما أن يلزم الهدوء ويستمر في الاحتفاظ برأيه القانوني. وهو بذلك يجعل الجميع يفترضون أن ما يقوله جولياني صحيح. وهذا ما حدث بالفعل، إذ افترض المراقبون ووسائل الإعلام في الأشهر التي تلت أن الرئيس لا يمكن أن يستهدفه اتهام.

* * *

بقدر ما أراد آندرو ويسمان توجيه اتهامٍ إلى الرئيس، أراد بوب مولر الاحتفاظ بمنصبه. وبقدر ما تقبّل محامو ترامب فكرة استحالة توجيه اتهامٍ إلى رئيس البلاد، تقبّلوا فكرة أن موكّلهم يُمكن أن يكون استثناءً للقاعدة.

أصبح التأخير أداة بأيدي الطرفين.

لكن وجهة نظر ترامب تقول: إذا تمكَّنت الإدارة من اجتياز فترة الانتخابات النصفية، التي كان ترامب على قناعة راسخة بأنه سيفوز بها هو والجمهوريون، من دون أن يتحرك مولر ضد الرئيس، فسوف يتمكن الرئيس من إقالة مولر من دون أي مشكلة. أما فريق مولر فكان يفكّر هكذا: إذا وصل مولر إلى موعد الانتخابات النصفية من دون تجري إقالته، وإذا فاز الديمقراطيون في مجلس النواب، فإن التحقيقات التي يقوم بها الفريق سوف تمضي قُدُمًا من دون عراقيل.

نتيجة التشاور، الذي أجراه محامو ترامب مع فريق مولر في نهاية شهر نيسان/إبريل، توصّل الجانبين إلى وضع تلخيصٍ للمجالات التي تهم الجانبين، والتي يرغبان في مساءلة الرئيس بشأنها. أما جاي سيكولوف فقد أشار إلى النقاط التي أثارها المحقق الخاص ووضعها في لائحة من الأسئلة المحددة، ثم سرّبها سيكولوف بعد ذلك بشكلٍ يوحي بأنها في واقع الأمر أسئلة المحقّق الخاص.

ورغم أن ذلك كان يشير إلى قرب وقوع مواجهة، فإن الهدف منها كان في الحقيقة، للمحققين ولمحامي ترامب على السواء، هو التوصّل إلى نتيجة عكسية، وهي تحذير ترامب، وكبح جماحه. كانت إثارة احتمال تقديم الرئيس للإدلاء بشهادته خطة هدفها تأخير التحقيقات. فقد كان الجميع، ما عدا الرئيس، متأكّدين أن تلك الشهادة غير المقيّدة سوف تؤدي إلى إغراقه.

لم تفلح لائحة الأسئلة في ردع ترامب تمامًا. إلا أنها، على الأقل، أخّرته. اعتبر الرئيس العنيد، والذي يُكثر من التصريحات، والواثق بنفسه على الدوام، أن لا شيء يزعزع وجوده وسلطاته المؤثرة. وفضلاً عن ذلك لم يعترف أنه شعر بأي قدرٍ من الخوف. يُحتمل أن يكون وكلاء دفاعه قد شعروا بالخوف، لكن ليس هو على الإطلاق. كان ترامب يعتبر نفسه رجل مبيعات متفوّقاً، ويتمتّع بقدرةٍ هائلة على الإقناع والإغواء، وأنه أكثر الرجال فتنةً على وجه الأرض. ولا يتردد في تقبيل الأيدي عندما يكون الأمر ضروريًّا لتحقيق غاياته، أي إن ترامب قادرٌ على إقناع أي شخص بأي شيء.

يُحتمل أن يكون هذا النهج قد نجح تمامًا مع ترامب في نيويورك، حيث التفوق في فن التسويق والبيع هو القاعدة. لكن بانون اعتبر أنه أخفق في آلاف الحالات التي حاول فيها استخدام سحره الذي لا يُقاوم.

نصّت هدنة الأمر الواقع، التي فرضت نفسها، على الآتي: ما دام المحقق الخاص وفريقه يمتنعون عن الضغط على الرئيس كثيرًا، فإن الرئيس لن يواجههم؛ وما دام ترامب يحتفظ بسلطته التي تخوّله إنهاء عمل فريق مولر، فإنهم لن يواجهوه. وقد تمكّنت هذه الهدنة القانونية من الصمود حتى الآن.

الفصل السادس
مايكل كوهن

لطالما كان بانون يتحدّث باندهاش عن عدد المرات التي نظر فيها الرئيس في عينيه مباشرةً وكذب، وكيف أنه فعل ذلك بدمٍ بارد، ومن دون أن يرف له جفن.

كان شريط فيديو بائعات الهوى في موسكو مثالًا حيًّا على ذلك.

حضر رؤساء وكالات الاستخبارات الأميركية يوم 6 كانون الثاني/يناير من العام 2017، وقبل حفل تنصيب الرئيس، بهدف إبلاغه بعض أسرار الدولة المهمة. أبلغ جيمس كومي، مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي، ترامب بوجود ملف ستيل، الذي يتضمّن تقريراً قام بتحضيره كريستوفر ستيل، وهو عميل استخبارات بريطاني، كان يتلقى معظم تمويله من الديمقراطيين. ذلك التقرير، وهو ملف أولي يشتمل على شائعات بدأت بالانتشار سريعاً في كثير من وسائل الإعلام الأميركية، وكانت وسيلة إعلامية، أو اثنتان، على استعداد لنشره في وقتٍ قريب، قال عنه الروس إنه يشتمل على معلومات قد تمس ترامب وتعرقل حملته الانتخابية. قيل كذلك إن تسجيلات الفيديو والتسجيلات الصوتية تشتملان على مشاهد أُخذت في الغرفة التي كان ترامب ينزل فيها في فندق ريتز - كارلتون سنة 2013، وذلك أثناء استعراض المرشحات لعرش ملكة جمال الكون، وخصوصاً صور بائعات الهوى يتبوّلن على السرير الواسع ذاته الذي استخدمه باراك وميشيل أوباما عندما زارا موسكو.

لم يمضِ وقت طويل على هذا اللقاء، حتى أقدم ترامب الغاضب على إسكات بانون من خلال تأكيداته الصارمة ونظرته المباشرة، معلنًا أن كل ذلك مثير

للسخرية، ومجافٍ للحقيقة. كانت حجته بمنتهى البساطة، هي أنه لم يمكث الليل في ذلك الفندق. وأضاف أنه، بعد هبوط طائرته في ذلك اليوم، انتقل مباشرة مع مرافقه الأمني من المطار إلى فندق ريتز كارلتون لتغيير ملابسه، ومن هناك توجّه إلى حفل الاستعراض، وتناول العشاء، ثم عاد إلى الطائرة.

قال بانون: «سمعت هذه القصة عشرات المرات حرفيًّا، وربما أكثر. صحيح أن التفاصيل لم تتغيّر قط، لكنني اكتشفت فيما بعد أن القصة صحيحة، باستثناء تفصيل صغير واحد، هو أنهم أتوا قبل يوم واحد، أي إنهم وصلوا صباح يوم الجمعة، وليس صباح يوم السبت، ومكثوا هناك اليوم بأكمله، وفي ذلك اليوم أُرسلت الفتيات، وأن كيث، وهذا ما عرفناه الآن، هي من صرفتهن».

تضمَّنت لائحة الأكاذيب التي يعرفها بانون تأكيد ترامب أنه لم يمضِ أي ليلة مع نجمة الأفلام الإباحية ستورمي دانييلز. وقد أكد ترامب لبانون قائلاً: «هذا لم يحدث قط». وكذلك كذب بشأن مبلغ التسوية الذي دفعه إلى دانييلز، عندما قال إنه لا يملك أدنى فكرة عن ذلك. لكن هذين الإنكارين لم يصمدا زمنًا طويلًا.

أدرك بانون أن أكاذيب ترامب كانت قهرية، ودائمة، وتفتقد أبسط الأدلة الحسية في الواقع. وفي إحدى المرات أكّد ترامب لمذيع محطة فوكس نيوز، تاكر كارلسون، أنه ليس هو مَن ظهر في شريط الفيديو الذي يتضمّن مشاهد جنسية قوية، وأن الأمر مجرد خدعة لإظهاره بمظهر الفاسدين.

شعر مساعدو الرئيس بالقلق والحرج، بعد أن أيقنوا أن الرئيس كان كاذبًا بشكلٍ جليّ. لكن سمة الكذب هذه ساعدت على إبراز نقطة قوة ترامب: كان الكذب أداةً قوية في ترسانة دفاعاته. صحيح أن السياسيين ورجال الأعمال يقومون أحيانًا بتشويه الحقيقة وتقديمها على طريقتهم، وتحويرها، والمراوغة فيها، وإلباسها أقنعة، لكنهم يفضّلون تجنّب الكذب الفاضح. وقد يتملّكهم بعض الخجل، أو على الأقل بعض الخوف من أن يُكشفوا. إلّا أن الكذب لدى ترامب كان متعمّداً، وعن سبق إصرار، ومن دون ندم أو قلق، ولم يكن ليقدّر عواقب فعلته تلك. وقد يكون الكذب كذلك متراسًا، ما لم يكن دفاعًا فاشلًا. لكن يبدو على ما تبيّن، أن هنالك دائماً من يصدّق الكاذبين. بيد أن الكذب على بعض الناس، طوال الوقت، كان ما يميّز طبيعة ترامب.

أجبرت أكاذيب ترامب المستمرة الأشخاص المحيطين به على التورُّط فيها؛ أو على الأقل الاكتفاء بالمراقبة وكأنهم أبرياء. وهكذا أَلِفت سارة هاكابي ساندرز، السكرتيرة الصحفية للبيت الأبيض، أن تبدو متألمة صلبة في آن كلما استُدعيت لتكرار أكاذيب الرئيس والدفاع عنها.

أضف إلى ذلك أن كيليان كونواي قد اتخذت من جهتها موقفًا أخلاقيًّا يقترب من الصرامة، إذ اعتبرت أن أي قول يُصرّح الرئيس به يستدعي الدفاع عنه لمجرد صدوره عن الرئيس. شعرت كونواي أن عليها أن تدافع عن التصريح كما يفعل المحامي، وهي محامية بالفعل، وهي تستطيع الدفاع عن تصريحات الرئيس، لأن موكّلها لم يبلغها أن التصريح غير صحيح.

أتقنت كونواي في الواقع فن إرضاء ترامب والتهرُّب منه في الوقت ذاته. وهي التي أتت إلى البيت الأبيض من أجل تلبية رغباتها، ولتكون «في الغرفة»، لكنها تمكّنت من النجاة عبر تفاديها الوجود في «الغرفة»، لمعرفتها بأنها المكان الذي يستطيع ستالين القضاء فيها على مَن يريد.

بدا في هذا الوقت أن دفاع كيليان كونواي عن أكاذيب الرئيس قد أدخلها في مواجهة علنية مع زوجها جورج كونواي، وهو شريك في واحدة من شركات وول ستريت: واتشيل، ليبتون، روزين، كاتز. تعتبر هذه الشركة إحدى أغنى الشركات وأكثرها احترامًا في البلاد. وقد شعر كونواي بضغطٍ كبير مارسته شركته كي يبتعد عن ترامب وأكاذيبه. ويبدو أنه قد تمكّن من تلبية طلب الشركة على حساب زوجته، وذلك من خلال تغريداته على تويتر، التي تابع من خلالها تقديم تعليقات مستمرة حول أكاذيب الرئيس وتحريفه للحقائق، المتعلّقة بوضعه القانوني. تحوَّلت هذه التغريدات المستمرة إلى نوعٍ جديد من التعليقات السياسية، هي تعليقات «الزوج».

اعتبر بعض معارف الزوجين كونواي وأصدقائهما أن هذا الخلاف العلني هو كذبة بحد ذاته، وأن الأمر لا يتعدى كونه خدعة تسمح لهما بعدم تحمُّل مسؤولية أكاذيب ترامب. قال أحد أصدقاء الزوجين: «إن موقفهما واحد تجاه ترامب. إنهما يكرهانه. وبينما يلتزم الزوج موقفاً أخلاقياً يسمح له بحماية سمعته وسمعة شركائه، تقوم زوجته، التي اعترفت بأنها مستاءة من ترامب، بالدفاع عن موكّلها. يمتلك الزوجان كونواي منزلًا بحجم فندق قيمته ثمانية ملايين دولار، يقع قرب حي

كالوراما في واشنطن. لا يبعد ذلك المنزل عن منزل جاريد وإيفانكا كثيرًا. أما اعتراضات جورج كونواي العلنية على الرئيس، فقد ساعدت على إبقاء جيرانهما في الحي سعداء ومرتاحين.

لكن، بالرغم من أن أكاذيب ترامب المتمادية قد أزعجت مساعديه، فإنها كانت تطمئنهم في الوقت ذاته. كانوا يعلمون بانتفاء أي دليل أو منطق يمكنهما أن يجبرا الرئيس على الاعتراف؛ ويعلمون أنه مستمرٌ في أكاذيبه حتى الرمق الأخير.

وفي المقابل كان ثمة خوف مستمر ينتاب كثيرين في البيت الأبيض، من أن يظهر جزءٌ من دليلٍ لا يمكن الشك في صحته، ويسبّب ضررًا مميتًا وخطيرًا لا يمكن تلافيه. ما الذي سيحدث إذا أقدم أحدهم على إبراز نسخة عن شريط فيديو بائعات الهوى في موسكو؟ غير أن المقرّبين منه أكّدوا أن لا داعيَ للقلق، وأضافوا قائلين: حتى لو نشأ مثل هذا المأزق، فإن ترامب لن يلجأ فقط إلى النفي والتكذيب، بل سوف يتمكن من إقناع قسمٍ كبيرٍ من الناخبين بتبنّي التكذيب، وسوف تكون كلمته هي التي ستتغلّب على شريط الفيديو الملفّق.

يحرص ترامب ألّا تفلت الحقيقة من بين يديه. لذلك يقول إنّ بإمكان الناس أن يثقوا به. وبغضّ النظر عن الظروف، فإنه لا ينهزم ولا يستسلم، لأن كلمته هي التي ستنتصر، حتى ولو كانت تناقض كلمات الآخرين جميعًا، وهو لن يتراجع عنها لأنها كلمته.

يُمكن للمرء أن يقول إن الكذب هو طبيعة ترامب. والواقع أن الكذب هو الاستراتيجية الأساسية التي اعتمدها في حياته المهنية. أما مؤسّساته المتعدّدة، التي تشمل برج ترامب، وخطوط ترامب المكوكية، وترامب سوهو، وجامعة ترامب، وكازينوهات ترامب، ومارالاغو، فقد وقعت جميعها في سلسلةٍ من المشكلات القانونية التي تضمّنت التجاوزات والاحتيال. تعرّض ترامب للإفلاس في تسعينات القرن الماضي، لكنه عاد مليارديرًا، بطريقةٍ ما، بعد سنوات قليلة. وتضاعفت ثروته، على حد قوله، عشر مرات عما كانت عليه من قبل. كان رجلًا مخادعًا، لكن هذا الخداع لم يكن الجزء المفاجئ من شخصيته. كان الجزء المفاجئ هو أن ترامب يتمكّن، وبكل ثقة، من نفي الأمور الدقيقة في مخالفاته وتعاملاته المشكوك فيها. وكان الجزء القليل المعروف من شخصيته حقيقيًا، ومع ذلك تمكّن من إقناع ما يكفي من

الناس بما يقوله، الأمر الذي يسمح له دائمًا بمتابعة خداعه.

كان هذا هو المجال الذي سطع فيه، أي القسم الذي يتمكَّن من التفوق فيه. وعندما يبقى شخصٌ ما هادئًا، وهو هدف لكثير من التحقيقات، يُعدّ ذلك أمرًا استثنائيًّا تمامًا. تتمكَّن هذه البرودة الظاهرة من استغلال مبدأ البراءة إلى حين إثبات الإدانة، وإن كان صاحبها هدفًا للاتهامات. فقد اعتقد ترامب أن من غير الممكن أن يثبت الآخرون بأنه مذنب، لذلك هو بريء. وكان يظهر دائمًا بمظهر الواثق بنفسه، ممتلكًا رصانة البريء، أو على الأقل كان ذلك الإنسان الذي يدرك أن من الصعب إثبات ذنب شخصٍ يستطيع إنكار كل شيء، ومن دون تردد. أما واقع عدم دخوله السجن، فيُثبت بقوة سهولة التلاعب بالنظام. يمكننا القول، والحالة هذه، أنه قد يكون عبقريًّا بالفعل.

بقي ترامب الرجل الذي لا يُقهر خلال كل تلك الظروف. وإن كان من المحتمل أنه يشكو من أن الاتهامات التي سيقت ضدّه كانت شائنة. لكنه لم يكن ليبدو أقل تفاؤلًا بشأن النتائج النهائية.

أعلن ترامب مرارًا قائلاً: «إنني أفوز على الدوام، وأعرف كيف أعالج الأمور». وكان يردّد تلك العبارة المفضلة لديه: «أنا لا أغمض عينيّ أبدًا».

* * *

يمكننا القول إن ترامب يدير مؤسّساته وكأنها مؤسّسات إجرامية. ويتعيّن في هذه المؤسّسات إبقاء الحقيقة ضمن دائرة ضيّقة، وكانت هذه طريقة عمله السرية. أما معايير ترامب للاستمرار في العمل، فهي الولاء، العملة المهمة المعتمدة لدى العاملين لديه وطريقة معيشتهم، وهم المعرّضون للافتضاح مثله تمامًا، فهو يدرك تمامًا أن هؤلاء مستعدون للكذب من أجله.

أما النموذج المفضّل للحياة هنا، فقد كان حياة الأشقياء. ولا يقتصر الأمر على معرفته لهم، بل تعدّاه إلى التعامل معهم والاختلاط بهم. تتصف حياة الأشقياء بقدرٍ أكبر من المرح. لم يكن ترامب يستسيغ السلوك الذي يتطلب الاحترام، حتى أنه قد يتجاوز حدوده ويتخلى عنه تمامًا. كان ترامب أشبه ما يكون بشخص دابر دون، وكانت تلك مزحةً تستهويه. أما نيويورك التي يحبّها، فهي نيويورك حياة الليل

والملاكمة مع روي كوهن، النموذج المثالي في نظر المحامين الذين يقفون إلى جانبه، ويصفّقون له.

إننا نفهم من هنا طبيعة الدائرة الضيّقة التي تكوّن مؤسسة ترامب. فالجميع موالون له: مساعده التنفيذي (الذي يحمل لقب نائب رئيس أول)، ورونا غراف، المحاسبة الشخصية، والمديرة المالية لمؤسسة ترامب آلن ويسيلبيرغ؛ ومجموعة المحامين في مؤسّسته، مايكل كوهن، ومارك كازوفيتش؛ ورجل أمنه الخاص كيث شيلر؛ وحارسه الشخصي مات كالاماري، الذي رُقّيَ ليصبح رئيس العمليات في مؤسّسة ترامب؛ وكذلك أولاده. انضمّت هوب هيكس إلى هذه الدائرة الضيقة الموثوقة في البيت الأبيض، وكذلك فعل كوري ليفاندوفسكي.

كان ذلك مثالًا ممتازًا على الدرجة القصوى للاعتماد المتبادل بين فريقين، حيث يصبح أعضاء تلك الدائرة الضيقة مجرَّد امتداد لمؤسسة دونالد. جاي. ترامب، أي جزء من كيانٍ غريب، يُثبت في كل يوم قدرة غريبة على صموده أمام كل تهديد.

* * *

كان إريك وايتستون واحداً من الذين أصبحوا جزءًا من هذه المؤسسة قبل اثني عشر عامًا من تولّي ترامب مهماته الرئاسية. وكان آنذاك مهندسًا شابًّا في مدينة نيويورك. سبق أن عمل وايتستون مع مارك بيرنيت، وهو منتج تلفزيوني كان قد أطلق سنة 2004، برنامج المتدرب، المنتمي إلى تلفزيون الواقع. قدّم هذا البرنامج ترامب المفلس، في ذلك الوقت، على أنه رجل أعمال فائق النجاح، الأمر الذي أكسبه شهرة عالمية. كانت مهمة وايتستون في الأسبوع الأول من إنتاج البرنامج تثبيت الميكروفون أعلى قميص ترامب. كان الأمر يتطلب تمرير اليد تحت السترة والقميص، لكن الجميع رفضوا القيام بهذا العمل ما عدا وايتستون. بيد أن ترامب، وبالنظر إلى حجمه وطوله، ومظهره الغاضب واشمئزازه، ومن دون سببٍ ظاهر، بدأ بخلع بنطلونه قليلًا، فظهرت ملابسه الداخلية. قال وايتستون الذي اكتشف أنه تورّط بهذه المهمة: «بدا الأمر مثل توجيه رأس المرء نحو فم الأسد».

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ على إنتاج البرنامج، وعلى تحوّل وايتستون إلى المكلّف الدائم بتثبيت ميكروفون ترامب، حتى جاء يوم أخذ فيه وايتستون إجازة، فكلَّف

شخصاً آخر ليعمل بدلًا منه، وكان مهندس صوت أميركيًّا من أصلٍ أفريقي. الأمر الذي جعل ترامب ينفجر غضبًا.

اتصل بيرنيت، وهو بحالة من الاهتياج الشديد، بمنزل وايتستون، بينما توجّه ترامب إلى الحمام. قال بيرنيت: «دونالد لن يكمل البرنامج إلى أن تحضر. تعالَ إلى هنا من فورك!».

وصل وايتستون بعد ساعة من الزمن، فسمع ترامب وهو يصرخ من وراء باب الحمّام. «إريك، يا للعنة، حاولوا العبث معي... لقد تركوا بصمات أصابع وسخة على ياقة قميصي، وحاولوا إفساد ربطة عنقي».

انتحى بيرنيت مع وايتستون جانبًا، بعد الانتهاء من تصوير البرنامج، وقال: «اسمع يا صديقي. مهمتك الوحيدة من الآن فصاعدًا هي التعامل مع دونالد». تحوّل وايتستون بعد ذلك إلى الشخص الرسمي الوحيد الذي يهامس ترامب في برنامج المتدرب.

دأب وايتستون صباح كل يوم فيه تصوير للبرنامج، ولأربع عشرة سنة، على ارتياد منزل ترامب. كان يلتقي هناك كيث شيلر، التي أصبحت الحاضرة الدائمة في حياة ترامب. وصف وايتستون الوضع بالقول: «وجلست لساعات لا حصر لها».

قال وايتستون متذكّرًا تلك الفترة: «كنت أقضي معه فترة طويلة من الوقت، إلى درجة تجعلني أرى فيه شخصًا عاطفيًّا جدًّا. وكان ترامب يقول لي: «إريك، أنت مثل ابني، وأنا عندي صبي اسمه إريك. أليس ذلك غريبًا؟»».

كانت تلك صداقة عميقة من دون حميمية، لأن ترامب كان يقدّم إلى وايتستون هدايا سبق له أن حصل عليها مجانًا، مثل منتجات «الحلاقة»، وهي مجموعة رائعة من المنتجات الرجالية الرخيصة. نجح ترامب في تحويل الجميع إلى أفراد في أسرته. وكان يقوم في الوقت ذاته بالتعليق على نقاط الخلل في حياته الأُسَرِية. قال وايتستون: «إنه يثابر على القول كم يتمنى لو أنه لم يمنح دون الصغير اسمه، ويتمنى أيضاً لو أن بإمكانه أن يسترجع هذا الاسم منه»».

كان ترامب ذات يوم داخل سيارته الليموزين عندما وردت خاطرة مفاجئة في

ذهنه، وقال: «إريك. أريد أن أبعث برسالة إلى والدك لأقول له كم أنت ابن رائع». اتصلت بي رونا بعد مرور أسبوعٍ من الزمن، وطلبت مني عنوان منزل والديّ. مرّ أسبوعان قبل أن يتصل بي والديّ ليقول: «تسلمت رسالة رائعة من السيد ترامب وقال لي كم أنت رائع. أعتقد أن عليّ أن أردّ عليه». انتهى البرنامج ولم أجتمع بترامب بعد ذلك لفترة تقارب الأشهر الأربعة. قصدت مكتبه ذات يوم فقال لي: «لقد تلقيت رسالة من والدك». تابع ترامب السرد الحرفي لرسالة تلقّاها قبل أربعة أشهر. وقال لي: «وافقني والدك على أنك رجل عظيم».

قدّم ترامب خدماتٍ كثيرة إلى وايتستون، أو بالأحرى طلب إلى أشخاصٍ آخرين تقديم تلك الخدمات. فعلى سبيل المثال، قدّم مايكل كوهن، منحة دراسية إلى ابن وايتستون في إحدى مدارس نيويورك الخاصة.

عانى وايتستون ما عاناه جميع المحيطين بالرئيس ترامب، وكانت معاناة طويلة. يعود السبب في ذلك إلى أن ترامب كان جاهزًا على الدوام للانفجار غضبًا. قال وايتستون: «كنا ننظر إلى الأمر ونقول، إنها ليست غلطتك. إنه دورك الآن».

كانت الشيفرة التي تحدّد مزاج الرئيس بين المحيطين به هي السؤال: كيف هي حالة الطقس اليوم؟

كان ترامب شخصًا بسيطًا. فلم يكن من الصعب على وايتستون أن يعرف هواياته الخاصة: الرياضة والفتيات، وأن يعرف كيفية استخدامهما كأدوات إلهاء مضمونة.

«عندما يكون في مزاجٍ سيّىء نتوجّه من المكتب إلى غرفة اجتماعات مجلس الإدارة، ويكون علينا المرور عبر رواق برج ترامب، حيث تلقي السائحات القادمات من أوروبا الشرقية نظرة على شلال الماء، وهو الشلال الذي كان يصفه ترامب بأنه «نازل من عند الله». كنت أبحث عندها عن امرأة جذابة، وأقول: «اسمعي... موعدنا عند السادسة».

كان تدفُق السياح مستمرًّا. وكان ترامب يقول لي: «إريك، اذهب وأحضِرها... كنت أذهب وأقول لها: السيد ترامب يريد أن يعرف إن كنت تودين الصعود لرؤية غرفة الاجتماعات. كان يعانق الفتيات ويحتضنهن، ثم يرسلهن في

سبيلهن».

أما داخل سيارة الليموزين، «فكان يسدل الستائر ويقول: «وماذا الآن؟»، ثم يوجّه كلامه إلى سيدتين مثيرتين ليقول: «مرحبًا سيدتاي...» ويضيف: «كان ذلك مسليًّا جدًّا... ذكّراني لأفعل ذلك ثانيةً».

كان ترامب عائدًا ذات مرة من شيكاغو، فرأى داخل طائرته شابة جذابة تعمل في الهندسة الداخلية، وكانت تحاول إقناعه بأحد مشروعاتها. قادها ترامب إلى مقصورة النوم التي كانت مزوَّدة بسقف مغطى بالمرايا... خرجت الشابة بعد نصف ساعة بفستانٍ ممزق، تمشي مشية مترنحة. ثم جلست على مقعدها... خرج ترامب بعدها وقد نزع ربطة عنقه، وقميصه غير مزرّر، ثم قال، «يا رفاق... لقد استمتعت بوقتي».

كان ترامب يصطحب معه في السيارة واحدة أو اثنتين من مساعداته دائماً. وكان لديه مساعداتٍ تنفيذيات ذوات جمالٍ خارق. كما تعوّد أن يأمر إحداهن بمرافقته في سيارة الليموزين لتجلس إلى جانبه، ثم يحاول التحرش بها، بيما تقوم هي بصدّه كما فعلت مئة مرة من قبل.

كانت جميع العاملات في الدائرة الضيقة المحيطة بالرئيس معرّضات لتحرُّشه. قالت إحدى الشابات: «سوف نسافر إلى شيكاغو، لكن طائرة ترامب معطّلة، ولهذا نحن مضطرون إلى استخدام طائرة صغيرة أخرى. اضطررت إلى الجلوس قبالته وكادت رُكَبنا تتلاصق. ولاحظت أنه متوتر، لأن طائرته معطّلة. تناولت كتابًا لكي أتجنّب نظراته، وكان عنوانه «حرب ديزني». لكن ترامب لا يقبل أن يتجاهله أحد، فهو يحتاج إلى الثرثرة على الدوام. سألني: «أي كتابٍ هو هذا؟... ما هو موضوعه؟... هل أنا مذكورٌ فيه؟ أيمكنك أن تقرأي لي؟». قلت له إنه كتاب مارك بيرنيت «المتدرب». سألني مجددًا: «كيف أبدو فيه؟».

قال وايتستون إن على المرء أن يألف هذا المخلوق المزاجي، وهو الذي لا يستطيع نزول الدرج، ولا هبوط تلة، كما أنه يعاني بعض الصعوبات الذهنية... ولا يستطيع التعامل بالأرقام... فهي لا تعني له شيئًا».

كانت شفافيته مذهلة إلى حد أنها ساحرة. «كنا في إحدى المرّات مجموعة من

الأشخاص، وكان دونالد الابن معنا. قال لنا إن ترامب قد شارك في لعبتَي يانكي على التوالي، لكنه خسر فيهما، وهذا يعني أنه صاحب حظ سيّىء. قال ترامب: لمَ تتكلم هكذا أمام هؤلاء الناس؟ وهم سوف يعلنون ذلك للجميع. كاد دونالد الابن يبكي وهو يقول: «ترامب حظٌ سيّىء»، «أبي أنا آسف. إنني آسف يا أبي».

توجّه ترامب إلى المستشفى عندما وُلد حفيده، أي ابن دونالد الابن. قال ترامب حينها: «لمَ يتوجب عليّ الذهاب لرؤية هذا الولد؟ إن دونالد الابن لديه عدد كبير من الأولاد».

كان جميع المحيطين بالرئيس ترامب مضطرين إلى الاشتراك في برامجه وخططه. لكن، في أوائل أيام الحملة الانتخابية الرئاسية، انضم وايتستون إلى فريقها الإعلامي. حدث ذلك لأسبابٍ كثيرة ليس أقلّها أنه كان الأقل تكلفة. «لديه خطة. وأنا سوف أهتم بالإعلانات اللازمة للحملة. قال ترامب: «أريدك أن تستخدم تجهيزاتنا في غرفة الاجتماعات، ثم تجمع عددًا من العرب بأزياء ومظاهر تميّزهم وتدلّ عليهم، ثم نضع لافتة على الطاولة كُتب عليها «أوبك». سنطلب إليهم أن يصيحوا، ثم نضع الترجمة على الشكل الآتي: «الموت للأميركيين؛ سوف نقضي على الأميركيين». سوف أدخل بعد ذلك، وأدلي ببعض التصريحات الرئاسية التافهة... ثم نقوم بنشر كل ذلك. يمكنك أن تهاتف كوري ليفاندوفسكي، هذا رقمه؛ أنجِز المطلوب».

كان وايتستون يعرف أن ترامب الذي لا يمكن السيطرة عليه، والذي يواجهه العاملون في برنامج «المتدرّب»، يظهر طبعه هذا من خلال آلاف الساعات من التسجيلات، التي باتت الآن في عهدة بيرنيت، وإم. جي. إم. «مثل تابوت العهد في فِلم «قراصنة السفينة المفقودة». وقد حُفظت تلك الأشرطة في مكانٍ ما من صحراء، خارج لوس أنجلوس، على لوح خشبي، ملفوفة بشريط لاصق. يعني ذلك أن تسجيلات ثماني عشرة كاميرا، كانت تقوم بالتصوير أربعًا وعشرين ساعة في اليوم، كانت محفوظة كلها على أقراصٍ رقمية مدمجة، إذ لم نكن نمتلك أقراصًا صُلبة في ذلك الوقت».

يُحتمل أن تحتوي هذه الأقراص على أغنى سجلّ تاريخي محفوظ عن إنسان في فترة ما قبل تسلّمه لسلطاته الرئاسية. يعني ذلك حفظ أربع عشرة سنة من برنامج «المتدرب». ويتذكر وايتستون أحداثًا منها بوضوحٍ تام.

«قال أحدهم كلمة ‘مهبل’، لكن شخصًا آخر قال: «لا يمكنك أن تقول كلمة ‘مهبل’ على شاشة التلفزيون». ردّ دونالد بالقول: «ولمَ لا يمكنه أن يقول كلمة ‘مهبل’؟» مضى ترامب يقول: «مهبل، مهبل. اسمعوا لقد قلتها على شاشة التلفزيون، والآن بإمكانك أن تقولها».

روى وايتستون حادثة أخرى. قال ترامب لإحدى الشابات: «إنك جميلة جدًا. قفي، وتقدّمي إلى هنا، واستديري». وقع بعد ذلك جدال حول أي واحدة من الشابات تمتلك صدرًا أجمل، ثم حدث جدال مرير مع المنتجين حول عدم استخدام ذلك التعبير. قال ترامب: «ولمَ لا نستطيع؟ هذه كلمة عظيمة، وهذا تلفزيون عظيم».

تحدّث وايتستون كذلك عن ترامب بصورة أكثر عمومية، وقال: «إن له عقل صبي في الثانية عشرة من العمر في جسد رجل. إن كل ما يفعله هو توصيف الناس بحسب مظهرهم الجسدي، فأحدهم قصير، وآخر سمين، وأصلع، أو أي وصفٍ آخر. وما من منتج يستطيع أن يقول له: «لا تقل ذلك»، ونحن نعطيه الحرية الكاملة لقول ما يحلو له، بل نبجل ما يقول أيضاً. يشبه الأمر الجلوس في المقعد الخلفي في سيارة يقودها سائق ثملٌ بالفعل... كان الرجل غير متزنٍ وقتها... لا أكثر ولا أقل... أما الآن، فهو يكرّر الأفكار والجمل الغريبة... وكان يقول عندما يعطس، إنني أعاني من حمى القش... وتعوّد كذلك تناول قطع اللحم المقدّد أوسكار ماير... وذات مرة تناول شريحة منها ودسّها في فمي».

* * *

انضم مايكل كوهن إلى دائرة المقربين من ترامب سنة 2006. كان كوهن ينتمي إلى الطبقة الوسطى الراقية، وهو ابن طبيب جرّاح يهودي من لونغ آيلند. كان مايكل معجبًا بواحد من أعمامه يدير مطعمًا شعبيًّا في بروكلين. كان المطعم ملتقى الأشقياء، وكان هو يحضّر نفسه ليصبح واحدًا منهم. تزوج كوهن بفتاة من أوكرانيا، هاجرت أسرتها إلى بروكلين، ثم حصل على إجازةٍ من معهد توماس. إم. كولي للقانون التابع لجامعة غربي ميشيغان (وهي الأخيرة في البلاد بحسب تصنيف الموقع الإلكتروني «فوق القانون») ثم أصبح محاميًا، وما لبث أن جمعَ أسطولًا من سيارات الأجرة. ساعده والد زوجته على التعرّف إلى ترامب، ثم أُعجب به واعتبره نموذجًا مذهلًا عن تقاليد عمل الشركات التي تسعى إلى النمو بسرعة، وأسلوب حياة الأثرياء

والمشاهير.

يعتمد النجاح المهني في مؤسّسة ترامب على جذب انتباه ترامب واهتمامه. وهكذا حاول كوهن، مثله مثل ترامب، أداء دور الشقي، إلى درجة أنه أصبح واحدًا منهم. كان يعتقد أنه كلما كان الرجل أكثر خشونة وحدّةً كان ذلك أفضل. واعتقد أن سلوكًا كهذا يعزّز موقفه عند رئيسه. كانت تعليمات ترامب الدائمة تأتي على الشكل الآتي: «لا تقدّم إليّ مشكلات، بل قدّم إليّ حلولًا». كان ذلك إجازةً، وتوجيهًا لفعل أي شيء ضروري، لتعزيز قضية مؤسسة ترامب.

أما سام نانبرغ الذي قدّم شهادته أمام هيئة كبار المحلفين في تحقيقات مولر، فقال إنه، عندما عمل في برج ترامب، أي في السنوات التي سبقت الحملة الانتخابية، رأى كوهن يحمل أكياسًا ممتلئة بالأموال النقدية. كان كوهن في نظر ترامب رجل أكياس بالمعنى الحرفي للكلمة، وكان يتعامل مع النساء، ويتولّى أمورًا أخرى غير قانونية.

كان مساعدو ترامب الذين يعملون في مؤسّسة ترامب يتلقّون قسمًا كبيرًا من مداخيلهم من عقودٍ جانبية. وقد نصّب كوهن نفسه ليكون المتحدث باسم ترامب في العالم. وهكذا حاول التفاوض على عقودٍ مغرية، والاستفادة من «فرص توسيع شهرة العلامة التجارية». أسفرت جهود كوهن هذه عن إثارة عداء إيفانكا وأشقائها ضده، لأن هذا بالتحديد ما كان يفترض أن يقوموا به هم أنفسهم. فقد اعتبرت الأسرة ذلك المحامي أحد المتنافسين الكثر على استمالة انتباه ترامب.

حاول كوهن مرارًا سنة 2016، فرض نفسه في أنشطة الحملة الانتخابية. ودأب على التنقل جيئة وذهابًا بين مكاتب مؤسّسة ترامب في برج ترامب، والطابق الذي يلتقي فيه ناشطو الحملة الانتخابية. أقدم بانون في شهر آب/أغسطس من العام 20، على إبعاده عن المكاتب السياسية للحملة. في مرحلة ما حاول كوهن «الاهتمام» بالحملة الانتخابية بنفسه، وقاد مفاوضاتٍ مع واحد من الأشخاص الكثر، الذين زعموا أن لديهم ثلاثة وثلاثين ألفًا من رسائل هيلاري كلينتون الإلكترونية المفقودة. لكن كوهن صُدم عندما لم يحصل على تكليفٍ يجعله يحلّ محل كوري ليفاندوفسكي في

إدارة الحملة الانتخابية. وكان كوهن قد اعتقد أنه رتّب هذه الخطوة مع دونالد الابن. لكن بول مانافورت حصل على الوظيفة بدلًا منه. صُدم كوهن مرةً أخرى عندما لم يُعلمه أحد بأن مانافورت سوف يُستبدل مجددًا ليحل محله بانون.

كان كوهن في نظر وسائل الإعلام رجل تسريب المعلومات الموثوق به حول ترامب والحملة الانتخابية. واعتُبر في وقتٍ لاحق الصوت الأساسي في كتاب كاتي تور، مراسلة محطة الإن. بي. سي، الذي كتبته عن الحملة الانتخابية، بالرغم من كراهية ترامب لها.

بعد النصر غير المتوقع الذي حقّقه ترامب في الانتخابات، لم يتخلّ كوهن عن طموحاته، وتوقّع أن يكون مدير مكتبه. لكن حلقة ترامب الرئاسية بذلت جهدًا مكثفًا لإبعاد كوهن عن البيت الأبيض. جاء استبعاده هذه المرة بمثابة خيبة أمل مريرة.

لم يُتَح لكوهن عمليًا أن يحظى بغير ترامب داعمًا لطموحاته. لكن هذا الدعم جاء ضعيفاً ومؤقتًا، تماماً كالدعم الذي يقدمه إلى الجميع. قال ترامب عن كوهن: «كان من المفترض به أن يكون وسيطًا، لكنه كان يُفسد أمورًا كثيرة».

كان موظفو ترامب جميعهم يعتبرون كوهن مصدر خطر. وكان بانون يرى أن على المرء أن يواجه شكوكه بخصوص «تلك الأعمال المخيفة التي اقترفها كوهن مع ترامب عبر السنين. لا يمكن للمرء أن يتصوّر ذلك أبدًا».

لم يكترث ترامب لمسألة ولاء كوهن له، حتى بعد مداهمة مكتبه. لكن عددًا من المحيطين به كوّنوا فكرة مختلفة عن ذلك. فقد كانوا يعرفون أن كوهن لم يشعر بأن ترامب قد أهانه فقط، بل خدعه تكرارًا. أقدم كوهن سرًّا على تسجيل بعض اجتماعاته مع ترامب التي كانا يبحثان فيها الصفقات المالية المريبة. لكن، في الوقت ذاته، كان كوهن هو الذي يقوم بخداع ترامب في وقتٍ كان فيه ترامب يحاول إرضاءه. يعني ذلك أن كلًّا من الرجلين كان يخدع الآخر.

كانت التسوية المالية مع ستورمي دانييلز إحدى عمليات كوهن المميزة، وكان المقصود منها إرضاء ترامب، فضلاً عن حلّ مشكلة محدّدة. لكن مارك كازوفيتش، وهو أحد محامي ترامب الخارجيين، رفض فكرة القيام بأي نوع من

أنواع التسويات المالية، فقضية دانييلز كانت قد افتضحت في ذلك الوقت وانتهى الأمر. أضف إلى ذلك أن صحيفة وول ستريت جورنال أوردت تقارير عن علاقة أخرى في العامين 2006 و2007 مع كارين ماكدوغال وذكرت هذه العلاقة أيضاً. رفض بانون بدوره فكرة التسويات. وقال إنه بعد الحديث عن شريط فيديو بائعات الهوى في موسكو، لن تحدث أيّ مادة إضافية عن مغامرة أخرى من مغامرات ترامب أي تغيير في أصوات الناخبين. لكن ترامب، على عادته، تجاهل نصيحة مستشاريه، وشجّع الرجل المخلص الذي يحلّ له مشاكله على تسوية الأمر.

* * *

شعر ترامب بالإهانة الشخصية نتيجة سلوك عناصر مكتب التحقيقات الفيدرالي أثناء مداهمة منزل كوهن. ووصل به الأمر إلى حد وصف ذلك السلوك إزاء محاميه بأنه أشبه بـ «أسلوب الغوستابو»، ورأى فيه اليد الحديدية الثقيلة لوزارة العدل. لكن ما أثار الاستغراب أنه ظلّ برغم كل ذلك ثابتاً على رأيه. حتى أنه كان يكرّر قائلاً: «إنني أمتلك حق الإنكار». غير أن هذا التصريح لم يكن مطمئنًا لأحد.

في الحقيقة لم يكن أحدًا يعرف المعلومات التي كان يعرفها مايكل كوهن. ومن المعلوم أن مؤسّسة ترامب كانت مؤسّسة حرة، يتصرّف كل شخص فيها بحسب رغبة دونالد ترامب، أو باسم دونالد ترامب، أو أنه يحاول تلبية الدوافع التي تحرّك دونالد ترامب.

في أي حال، وأيًّا تكن المعلومات التي يعرفها مايكل كوهن، فإنه لن يُفصح عنها، على ما كان ترامب يعتقد، لأنه يستطيع مسامحته دائمًا. وكان مردُّ ذلك الاعتقاد أن العلاقة القائمة بينهما أشبه برصيد مالي في المصرف. وواقع الأمر هو أن ترامب كان يعتقد أنه يتمتع بحماية فريدة من نوعها، وهي صلاحية منح العفو، وأنه قوي بشكلٍ فريد بسبب تلك الصلاحية. لكن منطق ترامب هذا قاده إلى التفكير في اعتبار صلاحية العفو، التي ميّزه بها النظام العام، أكثر من مجرد أداة لحماية شخصية. فهو يرى صلاحية العفو تلك بمثابة سلاحٍ ذي حدين، فمن جهة، يستطيع منح عفوه كهدية لأي شخص يريده، ومن جهة أخرى يمكنه التهديد بحجبه عمن يريد.

إلّا أنّ ما زاد من استياء ترامب بأنه بُعَيْد مداهمة مكتب التحقيقات الفيدرالي، كان إقدام كوهن على الظهور، وبانتظام، في مقهى على الرصيف، قرب منعطف الريجنسي، الواقع عند تقاطع الشارع الحادي والستين، وجادة بارك آفنيو في مانهاتن. بدا كوهن متحمّسًا لإظهار نفسه كرجل مافيا، أي إنه استخدم مقهى آبر إيست سايد على أنه نسخته من النادي الاجتماعي في بروكلين. كان كوهن يدخّن السيجار أمام الصحافيين الفضوليين، وبدا وكأنه غير آبه لشيء في هذا العالم.

كان حرص كوهن على الظهور العلني طريقته لتوجيه رسالته التهديدية إلى الرئيس، أي ليقول له: «انظر إنني هنا، ليراني الجميع». كان مهمًّا لكوهن أن يحصل على العفو، مثل ما كان مهمًّا له أن يقوم الرئيس بتوقيع فواتير أتعابه القانونية. لكن إذا لم يفعل الرئيس ذلك، فإنه سوف...

لكن الرسالة التي تلقّاها ترامب لم تكن تهديدًا كبيرًا له، لأنه كان قادرًا على فهمها. وبدلًا من ذلك، رأى فيه رجلًا يقوم بسرقة الأضواء منه. ورأى فيه الخادم، والمتملّق الوصولي الذي يسعى إلى تحويل الانتباه نحوه. يُضاف إلى ذلك أنه يريد الحصول على أموال من ترامب!

نال حب الظهور الذي مارسه كوهن من إيفانكا بدورها، وهي التي شعرت بالإهانة الشخصية، الأمر الذي دفعها إلى لفت انتباه كوهن إلى حساب ابنته في تطبيق إنستغرام. لجأ ترامب بعد ذلك إلى الاهتمام المبالغ فيه بمتابعة حساب سامانثا كوهن، الذي اشتمل على أخبار الأسفار المكلفة لتلك الفتاة البالغة تسع عشرة سنة من العمر، والتي كثُرت نشاطاتها مذ بدأ والدها عمله المضني. بدا أن هذه المراهقة تستمتع على الأخص بالظهور بلباس البكيني، وثياب المنتجعات السياحية ذات الأنواع التي لا حصر لها.

مع نهاية شهر نيسان/إبريل أصبح ترامب مهووساً بمعرفة ما سيناله كوهن من محاولته لفت الأنظار. قال ترامب إنه يحاول أن يكون نجمًا، ثم أعلن بدهشةٍ واضحة: «أن لديه استراتيجية إعلامية». بدأ الرئيس بعد ذلك بمقارنة غير منصفة بين كوهن ومانافورت الذي كان، «يبتعد عن الأضواء».

كان ما حدث خروجاً خطيرًا عن أخلاقيات الأشقياء زعماء العصابات. وبينما

كان النهج التقليدي يقضي بالتركيز على الاهتمام بمايكل كوهن وإرضائه، وتفهّم تقاطع مصالح ترامب وكوهن، بدا أن ترامب عاجزٌ عن الربط بين السبب والنتيجة، وهو ما حدث في مناسباتٍ أخرى عديدة. فضّل ترامب بعد ذلك الإكثار من مهاجمة محاميه السابق، والتقليل من شأنه وإهانته.

شمل ترامب بهجومه ابنة كوهن وأسفارها التي تعرضها على الأنستغرام. وفي إحدى المرات قال ترامب لأحد أصدقائه: «إنها تكتفي بعرض نهديها من دون احترام للموقف الذي نحن فيه».

بيد أن إصرار ترامب على أن كوهن ليس بذي أهمية، أدى إلى نتيجة معاكسةٍ تمامًا. فقد استطاع مايكل كوهن، وبعد سنواتٍ من التملّق وحتى من حمل الحقائب في مؤسّسة ترامب، وبعد انحيازه التام إلى دونالد ترامب والعناية به، وبعد عبادة شخصٍ لم يبادله الاهتمام بالمثل، أن يصل إلى التعاون مع ترامب على قدم المساواة، وبسلطة متساوية. كان اسماهما يظهران كل يوم تقريبًا في نشرات الأخبار، وفي فقرةٍ واحدة. فقد غدا مصيرهما واحدًا، وهذا ما كان يحلم به مايكل كوهن على الدوام.

الفصل السابع
النساء

خرج الرئيس ترامب في يوم 7 أيار/مايو للتنزه في حديقة الورود. جلس في الصف على مقعدٍ قابلٍ للطي، بعد أن ألقى التحية على نائب الرئيس الذي كان جالسًا أمام جمهورٍ محتشد على الباحة العشبية.

بدأت الشاشة التلفزيونية الكبيرة الخارجية بعرض شريط فيديو. سُمع بعد ذلك صوت زوجة الرئيس في الشريط، وهي تتحدث بلغتها الإنكليزية التي تشدّد كثيرًا على مخارج حروف كلماتها، وبدأت بالتحدث عن الموضوعات التي سوف تركّز عليها بصفتها السيّدة الأولى. بعد مرور سبعة عشر شهراً على وجود ميلانيا في البيت الأبيض، لم تتضّح أنواع المهمّات التي تتولّاها ولا أهداف تلك المهمّات. وها هي الآن توضحها بكلمتها تلك وقد لخّصتها قائلة إنها سوف تهتمّ بمصالح الأولاد، وتنبّه الناس لمخاطر وسائل التواصل الاجتماعي، وتسهم في التوعية ضد انتشار المخدّرات. وقد أطلقت السيّدة الأولى على مبادرتها اسم، «كونوا أفضل»، بلكنتها الإنكليزية المميزة.

أُدخلت ميلانيا، بعد مرور أسبوع، المركز الطبي العسكري القومي «وولتر ريد». لم يكن البيت الأبيض جاهزًا لهذا الوضع، ولم يبدُ أن أحداً قد أعدَّ خطة يعلن من خلالها عن دخول ميلانيا إلى المستشفى، أو شرح حالتها المرضيّة. يُضاف إلى ذلك أن أحدًا لم يعرف كيفية الرد على الأسئلة التي كان من المنتظر تلقّيها بعد توصيف حالتها على أنّها «مرض كلوي حميد»، وهو وصف لم يكن ليرضي أحدًا.

تُشكّل زوجات الرؤساء مادة دسمة للصحافة. لذلك تغصّ المستشفيات بالصحفيين عند دخول سيّدة أولى إلى المستشفى. أما موقف البيت الأبيض المعتمد فهو صريح جدًّا، ويقضي بالإجابة عن كل الأسئلة المطروحة في هذه الحالة. أما السرية الشديدة، أو الغموض، فيفتحان الباب أمام التخمينات، الأمر الذي يُعتبر عدو سياسة البيت الأبيض. لكن، مع صدور القليل من الإجابات الموثوقة، بدأت التخمينات حول صحة ميلانيا بالانتشار سريعاً. كثُرت التساؤلات عن سبب مكوث السيّدة الأولى في المستشفى قرابة أسبوع، وفي مستشفى والتر ريد بالذات، أي حيث لا يحب أحدٌ المكوث طويلًا، وخصوصاً لعلاج حالة لا تستدعي المكوث ما يزيد على ليلة واحدة كما وُصفت، مادام علاجها ممكناً في عيادة خارجية. سرعان ما تكاثرت الفرضيات وتراوحت ما بين وجود مؤامرة، ووجود مرض خبيث.

بدا في النهاية أن سبب إخفاق منظومة العلاقات العامة يعود منطقيًّا إلى واحد من سببين: الإخفاق الذريع لفريق التواصل في البيت الأبيض، أو الإخفاق الذريع لزواج الرئيس. وهكذا اختار الرئيس السبب الأول، وهو الذي تعوّد أن يصف فريق العلاقات العامة في البيت الأبيض بالبله. لكن موظفي البيت الأبيض فضّلوا اختيار السبب الثاني، أي إخفاق الزواج.

تُعدّ زيجات الرؤساء في البيت الأبيض أشبه ما تكون بالألغاز. إذ كيف يُمكن للإنسان أن يبرّر غياب الهدف الأكبر للزواج، أي الحياة الخاصة، وكذلك التعويض عنها؟ كان الوضع شديد الوضوح في هذه الحالة، وعلى الأقل بحسب آراء كل المقربين الذين يكوّنون فكرة عن طبيعة العلاقة بين الرئيس وزوجته. بدا لهؤلاء أن هناك اتفاقًا عُقد بين الاثنين. كانت القناعة عند كثيرين أن الأمر يشبه «اتفاقًا بين كاتي هولمز وطوم كروز». لكن اللغز هنا كان يدور حول ما إذا كان هذا الاتفاق سيدوم طويلًا.

* * *

مع بلوغ حملة ترامب الانتخابية ذروتها في العام 2016، بدأت التساؤلات حول الزواج تتّخذ طابعًا أكثر جدية. أما إيفانكا فلم تكن تحب زوجة والدها، لكن انزعاجها بدأ يتضح. وكان أكثر ما يثير قلقها هو ماضي ميلانيا بوصفها عارضة أزياء من أوروبا الشرقية، وكذلك التساؤلات عن كيفية لقاء الزوجين. ومَن كانت

ميلانيا ناف (أو ناوس، كما يحب الرئيس مناداتها باللغة الألمانية)؟ أما الأهم من ذلك، على الأقل من الناحية السياسية، هو أن ترامب وزوجته، في الحقيقة، يعيشان بوضوح حياتين متوازيتين.

كان هناك أصدقاء مقربون يقلقون بشأن الأسئلة التي كان يُمكن أن تُطرح، وغياب الأجوبة الجاهزة عنها. حاول أولئك إثارة الموضوع مع ترامب، وكان من بينهم كيث شيلر، الرجل المكلّف بأمن ترامب، وطوم باراك، وهو رجل الأعمال والصديق المقرَّب من ترامب. كان رد الرئيس على تلك التساؤلات غير مشجّع، أي إنه لم يكن مختلفًا عن كينيدي. لم يكترث ترامب للمشورة التي تلقّاها، والقائلة إن ما حدث في زمن جون ف. كينيدي لا يمكن أن يشكّل غطاءً لحياة شخصية تتسم بالفوضى، وكان يردّ دائماً: لا تكونوا جبناء.

لجأ ترامب إلى توكيل محامٍ، بعد أن أوحت صحيفة دايلي مايل ضمنًا في شهر آب/أغسطس من العام 2016، بأن ميلانيا قد تجاوزت حدود عملها كعارضة أزياء لتعمل كمرافِقة. سبق أن ربح المحامي تشارلز هاردر، الذي وكّله ترامب، الدعوى القضائية التي أقامها هالك هوغان ضد موقع الشائعات المعروف باسم «جاوكر»، لأنه نشر شريط فيديو جنسيًّا خاصًّا أعده هوغان. وبهذا أصبح المحامي الذي يقصده المشاهير لرفع دعاوى التشهير. وهكذا رفع هاردر دعوى قضائية ضد صحيفة دايلي مايل بوكالته عن ميلانيا. رفع هاردر هذه الدعوى في المملكة المتحدة من ضمن دعاوى التشهير في بريطانيا، لأنها الأكثر ملاءمة. وقد كان يأمل في الحصول على نتيجة أفضل بكثير من تلك التي كان يأمل في الحصول عليها في الولايات المتحدة، أي حيث يواجه الرئيس وأسرته، بوصفهم شخصيات عامة، عقبات هائلة إزاء دعاوى التشهير، أو خرق الخصوصية. في نهاية الأمر، جرت تسوية القضية عبر التراجع عنها وتقديم اعتذار، ودفع تعويضٍ لم تحدّد قيمته. كان من شأن استعداد ترامب لرفع الدعاوى القضائية، ودعاوى التشهير خارج الولايات المتحدة التي يعلم بأفضليتها إلى جانب الشهرة التي اكتسبها هاردر بعد قضية غاوكر، أن تساعد على الحد من تسليط وسائل الإعلام الضوء على ماضي ميلانيا، وعلى زواجها من ترامب.

لم تصبح ميلانيا زوجة سياسية في واقع الأمر حتى حلول الساعة 8:45 مساءً من يوم تشرين الثاني/نوفمبر 2016، أي عندما اتّضح، وبشكل إعجازي

تقريبًا، أن زوجها، أو بحسب تعبير بعض الأشخاص، زوجها الذي أصبح غريباً عنها، سوف يصبح رئيسًا للولايات المتحدة. مع مرور الوقت تكتسب زوجة الرجل السياسي عادات، وتحليلاتٍ منطقية، ودرعًا شخصية تساعدها على مواجهة فقدان الخصوصية والذات، وعلى تقبّل تعابير الوجه المقلقة في بعض الأحيان للرجل الذي تزوّجته، إلّا أنّ ميلانيا لم تحصّن نفسها بأيّ من هذه الدفاعات.

كان من السهل على الزوجين أن يعيشا كلّ منهما حياة خاصة لا يسأل فيها أحدهما الآخر عما يقوم به، وذلك بفضل ممتلكاتهما الكثيرة، التي كان من بينها منزل يقع قرب نادي الغولف الذي يمتلكه ترامب في ضواحي نيويورك، والذي أخفاه بعناية عن زوجته. لكن ذلك أصبح مستحيلاً الآن. كلّ الترتيبات المهذّبة التي اتفقا عليها قبل الحملة الانتخابية انهارت في شهر تشرين الأول/أكتوبر، أي عند انتشار الفيديو الشهير الذي يظهر ترامب في مشاهد إباحية. لم يتوقّف الأمر عند حدود التجريح العام المريع الذي تعرّضا له، بل جاء بعد ذلك السيل من الشهادات العلنية، والتي أدلت بها نساء كثيرات زعمن تعرّضهن للتحرش على يدَي ترامب. لكن الآن، ومع انتخاب زوجها رئيسًا، وجدت ميلانيا نفسها مكشوفة إلى درجة لم يكن بوسعها أن تتخيّلها.

* * *

استخدم بانون عبارة «أحداث خارجة عن المألوف» لوصف الاضطرابات غير المتوقعة التي بدا أنها ترافق ترامب دائماً. كان من أبرز الأحداث الخارجة عن المألوف التي اعتبر بانون أنها قد تؤدي إلى إنهاء رئاسة ترامب، هذان الأمران: الأمر الأول، أن يتقدّم أحدهم بدليل يُثبت أن ترامب قد دفع مالًا من أجل دفع إحدى النساء إلى الإجهاض؛ والأمر الثاني، إذا تركته زوجته علانية.

يُحتمل أن يؤدي الإنكار على طريقة ترامب إلى التعاطي بنجاح مع قضية بحجم الإجهاض. لكن مهما تبلغ درجة الكذب الصريح عنده، يصعب عليه إنكار انهيار زوجة لا تسامح، ولا تشفق، بصورة علنية. اعتقد بانون أن ترامب لم يكن يخشى كثيراً فضيحة طلاق علني يمكن أن يقضي عليه، بقدر ما سيعاني من إحراجه الشخصي أمام العلن.

سبق لزوجة ترامب الثانية، مارلا مابلز، أن أقامت سنة 1996، علاقة مع حارس ترامب الشخصي. انكشفت تلك العلاقة ذات ليلة على شاطئ قريب من مارالاغو. وقد حدث الأمر تحت منصة المنقذ من الغرق. عرف بانون أن تلك الحادثة قد أصابت من ترامب مقتلًا.

قال بانون: «إن معظم الأشياء التي يقوم بها تتمحور حول تجنّب الإذلال، لكنه كان يحيط به على الدوام. وهو منجذب إليه باستمرار، لكنه واثق بقدرته على إخفاء أي شيء يقوم به. إنه موهوب من الناحية النفسية، وهو الذي تعرّض على يد والده، لإذلال هو نفسه الذي حطّم شقيقه. إلّا أن ترامب تعلّم كيف يتحمّل. كان ذلك أشبه ما يكون بلعبة الروليت الروسية، أي إنه كان ينتظر الإذلال الذي يحطّمه.

بدا ترامب عاجزًا كليًّا عن الاعتراف بخفايا حياته شخصية، مع ما يستتبع ذلك من تفهّم أو مسامحة عاطفية. لكن الواقع هو أن حياته الشخصية كانت تحتاج إلى إصلاح تماماً مثل حياته المهنية. وهكذا، عندما أصبحت مارلا مابلز حاملًا في أوائل تسعينات القرن العشرين، وكان ذلك قبل زواجه منها، دخل في نقاش مع أحد أصدقائه، تناول كيفية تجنّب الزواج وإنجاب الطفل. وكان واحد من السيناريوهات دفع مابلز من أعلى الدرج لإجهاضها.

كان الزواج في نظر ترامب في أحسن الأحوال بمثابة تعقيد مؤقّت. فقد أصبح ذلك لمستشاريه تحدّيًا سياسيًّا جديًّا، لأن ترامب لم يكن مهيأً للرئاسة، ولم يكن مستعدًا، أو لم يتقبّل قط النقاش عن كيفية دمج حياته الشخصية ضمن البروتوكولات الإدارية الأساسية، أو ضمن صورة البيت الأبيض وأجوائه. تحدث بانون بعد ذلك عن الفترة التي قضاها في البيت الأبيض، قائلاً: «لم أشاهد أي دليلٍ على وجود زواج». لكن أي ذكرٍ لميلانيا كان يستتبع نظرة دهشة من ترامب، وكأنه كان يقول: «وهل تسترعي ميلانيا أي اهتمام؟».

* * *

دخل ترامب إلى البيت الأبيض برفقة طفل عمره عشر سنوات. صحيح أن وجود أطفال صغار في البيت الأبيض يُدخل جوًّا من البهجة والسرور، ولكن علاقة ترامب بابنه بارون كانت سطحيةً بعض الشيء.

اقترح واحد من المساعدين الجدد، انضم حديثًا إلى دائرة المقرّبين من ترامب في أوائل أيام الإدارة الجديدة، على ترامب أن تلتقط صورٌ له، وهو يلعب الغولف مع ابنه. وانطلق هذا المساعد يتابع بمرحٍ حديثه عن الرابطة الخاصة التي يشعر بها الآباء الذين يمارسون لعبة الغولف مع أبنائهم. ومضى متحدثًا إلى أن شعر بأن ترامب قد انزعج منه، وتجمّدت ملامح وجهه، التي تعكس قدرته على التظاهر بأن الشخص الجالس أمامه ليس موجودًا على الإطلاق. ولا يتورّع ترامب أن يضمر في قرارة نفسه إمكانية قتله لو بقي يشعر بوجوده الحقيقي.

أما تركيز ميلانيا الوحيد فقد كان على ابنها، وقد شكّلت معه عالماً خاصًّا داخل عالم ترامب، ونجحت بعنايتها في حماية بارون من عزلة والده عنه. كانت ميلانيا باردة جدًّا مع أبناء ترامب الكبار. وهكذا شكّلت مع ابنها بارون أسرة بعيدة عن ترامب وعائلة داخل عائلة.

كانت ميلانيا تتحدّث أحياناً باللغة السلوفينية مع بارون، وعلى الأخص بحضور والديها، اللذين كانا يتردّدان عليها كثيرًا، الأمر الذي كان يُغضب ترامب ويُبعده عن أي غرفة يكونان فيها. لكن جناح المعيشة الخاص في البيت الأبيض كان أصغر كثيراً من منزلهما في برج ترامب، الأمر الذي جعل من الصعب على ترامب وزوجته تفادي رؤية أحدهما الآخر.

كانت ميلانيا تردّد أمام أصدقائها: «إننا لا ننتمي إلى هذا المكان».

لا يستغرب المرء، والحالة هذه، أن ترامب كان يطمئن زوجته خلال الحملة الانتخابية بأنه لا يمتلك أي فرصة للفوز؛ لذلك رفضت ميلانيا في البداية الانتقال إلى واشنطن.

لكن الواقع هو أن السيدة الأولى لم تكن في البيت الأبيض في أي وقت، وهي التي استغرق انتقالها من نيويورك إلى واشنطن بصورة رسمية فترة ستة أشهر. إلّا أن ذلك الانتقال ظلّ اسميًّا فقط. وإذا وضعنا جانبًا غرفتَيْ نومهما المنفصلتين في البيت الأبيض، فإن معظم وقت ميلانيا كانت تقضيه في منزلٍ بميريلاند، حيث أسكنت والديها، وبدأت فيه ما كان عمليًّا حياة خاصة بها. يعني ذلك أنهما أول زوجين رئاسيين منذ زمن جون ف. كينيدي يناماًن في غرفتين منفصلتين.

كان ذلك هو الترتيب المتّفق عليه؛ فترامب كان يرى هذا الترتيب عمليًّا، وكانت ميلانيا لا تشاطره الرأي. كانت ولاية ميريلاند تريحها، لأنها كانت تهتم هناك بمدرسة بارون، وهي مدرسة سان آندروز المشيخية في بوتوماك. لكن واجباتها في البيت الأبيض غدت أكثر ثقلًا، كما غدت علاقة ترامب بابنه أكثر صعوبة.

بلغ بارون عامه الثاني عشر في شهر آذار/مارس 2018. وقد ازداد ابتعادًا عن والده أكثر فأكثر. يُحتمل أن يكون هذا الوضع طبيعيًّا لصبيّ في مثل سنّه؛ لكن ترامب ردّ بعدائية على سلوك ولده هذا. اتخذت العلاقة منحى تجاهُل الابن حتى عند وجودهما معًا. تعمّد ترامب تجنّبه في المناسبات. لكن عندما كان يظهر معه في العلن، فقد كان يتكلّم عنه بصيغة الغائب. ونادرًا ما كان يوجّه الحديث إليه مباشرة، بل غالبًا ما كان يعمد إلى التحدّث هو عنه.

لدى ترامب نزعة إلى أن يبدو في الإعلام والإعلان الرجل الأطول الموجود في الغرفة، إلّا أن ابنه بارون، وبعد طفرة نموٍ مفاجئة، بلغ طوله، سنة 2018، حوالي 183سم. مما دفع ترامب في هذه الفترة أن يردّد نكتة سمجة حول طول ابنه: «كيف يمكنني أن أوقف نموه؟».

أما أصدقاء ترامب، بمن فيهم كيث شيلر، فقد أبلغوا ميلانيا أن ترامب كان يعامل أولاده دائمًا هكذا. امتنع ترامب في أحيان كثيرة عن ملاحظة ابنه إريك عندما يجتمعان معًا. لكنه كان يختار دونالد الابن لتوجيه سهام سخريته إليه. وفي الوقت ذاته، كان يغدق الثناء على مُنافسه، كوري ليفاندوفسكي في دائرة ترامب السياسيّة. أما تيفاني، ابنته من زوجته الثانية مارلا مابلز، فلم يكن يذكرها إلا نادرًا، في الوقت الذي يعامل فيه إيفانكا، المفضّلة رسميًّا لديه، بكل عناية. وكان يقول لها عندما يريد أن يحييها: «مرحبًا حبيبتي».

كان ترامب ينظر إلى العالم من خلال نقاط ضعف الآخرين. وكان يحكم على الناس من خلال عيوبهم الجسدية والفكرية، أو من خلال أي شيءٍ غريب في طريقة حديثهم، أو لباسهم. أما سخريته من الآخرين فقد كانت طريقته للدفاع عن نفسه. بدا أن خياره الوحيد، إضافة إلى التوبيخ المباشر، أن يبتعد أحياناً عن ابنه بارون حتى لا يراه على الإطلاق.

أما ميلانيا، فقد ظهرت في هذا الوقت وكأنها تبذل كل جهد ممكن لكي تعيش حياتها المستقلة، وتحمي ابنها من طبع أبيه الشرير.

* * *

ركّزت صحيفتا نيويورك تايمز ونيويوركر في خريف العام 2017، على النتائج الكارثية التي تركها تاريخ هارفي واينستين الممتلىء بالانتهاكات الجنسية. وقد انشغل ترامب بالدفاع عن واينستين في هذه الفترة، وقال عنه: «إنه رجل طيّب. إنه رجل طيّب». كان ترامب متأكدًا من أن هذه القضية لن تُفضي إلى شيء، وهو ما حدث في تحقيقات روسيا. يُضاف إلى ذلك أنه كان يعرف هارفي، ويعرف أنه سيكون بعيدًا عن أي لومٍ بعد تلك التحقيقات. أضاف ترامب أن هذه هي الحال مع هارفي، فهو يفلت من اللوم على الدوام، ويقول إن المسؤولية تقع على أريكة المكاتب، أريكة المكاتب! وزعم ترامب أن هناك، مقابل كل فتاة ممانعة، خمسين فتاة أخرى وحتى مئة، يرحّبن بذلك. لكن في ترامب لاند نجد أنّ القلّة فقط يردون على تصريحات كهذه، لذلك كان معظم الناس يتظاهرون بأنهم لم يسمعوا ما قاله.

حظيت حملة MeToo#[5] بموجة استنكار عارمة وتوتُّر عند ترامب سيّد البيت الأبيض، هي حملة شكّلت ظاهرةً ثقافية وسياسية. لم يُذكر في هذا السياق شيءٌ عن سلوك دونالد ترامب مع النساء. يُضاف إلى ذلك أن أحدًا لم يناقش احتمال أن يكون ترامب هو الهدف المباشر لتلك الثورة الإعلامية، والثقافية، والقانونية؛ تلك الثورة التي أدّت إلى سقوط عشرات الرجال الأقوياء والبارزين.

لم تكن عند ترامب ذاته أدنى فكرة عن الحساسية الجديدة المتعلقة بالنساء والجنس. لكنه أعلن، في حفل عشاء أقيم في نيويورك تخلّل الحملة الانتخابية، ووسط دهشة جميع الحاضرين، قائلاً: «إنني لا أحتاج إلى فياغرا، بل أحتاج إلى حبّة تخفف من رغبتي الجنسية».

لم يعمد أحد في البيت الأبيض إلى مناقشة التداعيات السياسية لفضيحة متجددة.

لكن، وبالرغم من كل ذلك، كان السؤال الذي يطرح نفسه: ما الذي كان

سيحدث لو أن تداعيات تلك الاحتجاجات وصلت إليه؟ أصرّ بانون على أن الرئيس سوف يتمكّن من الخروج من الأمر بسلام. وكان بانون قد أدّى دورًا سياسيًّا مركزيًّا خلال فضيحة شريط التحرش الجنسي. يُضاف إلى ذلك أنه شبّه الضجيج الذي أحدثته حملة MeToo# بحلقة من حلقات كولومبو، وهو مسلسل رجل التحري القديم. تُظهر تلك الحلقة كيف أن ذلك التحري العنيد، الذي لا يكف عن إجراء تحرياته بطريقة منهجية، يجد طريقه إلى مكان وجود الفاعل الحقيقي. يرى بانون أن حملة MeToo# لن تنتهي قبل وصوله إلى البيت الأبيض.

لا يعرف أي شخص عدد النسوة اللواتي يمتلكن أسباباً مقنعة للتقدّم واتهام ترامب بالتحرش والاستغلال. كان بانون يرجّح بأن يكون العدد مئة فتاة، لكنه كان يرفعه أحيانًا إلى ألف. أما محامي ترامب مارك كازوفيتش، فهو الذي كان يسجّل كل ما يتعلق بهذه القضية. كان ترامب يعمد في بعض الأحيان إلى تحويل القضايا المتعلقة بالنساء إلى مايكل كوهن. ويُحتمل أن الأمور كانت تجري بعكس هذا الترتيب، أي إن كوهن كان هو المسؤول الرئيسي الحقيقي عن التعامل مع قضايا ترامب التي تُعرف الآن بأنها قضايا تحرُّش جنسي، أو اعتداءاتٍ جنسية، بينما يهتم كازوفيتش بالجولة الثانية من الانتخابات. لكن مهما يكن من أمر فما من أحد كان يدري ما يجري بالفعل في البيت الأبيض.

قبل سنة واحدة من الفضيحة التي سبّبها المنتج واينستين، أي عندما انتشر فيديو التحرش الجنسي، واجه ترامب عددًا من النسوة اللواتي ظهرن فجأةً لإثارة قضايا متنوعة ضدّه. قال بانون إن خمساً وعشرين امرأة كانت لديهنّ أسبابٌ قوية للشكوى. جرت العادة في ذلك الوقت أن تُدمَج القضايا في قضية واحدة مختلطة، أي من دون وضع كل قضية على حدة. لكن، منذ ذلك الوقت تغيّرت طبيعة الاتهامات بالتحرُّش والاعتداءات الجنسية. وهكذا ترافقت كل قضية مع سردٍ مؤثر، وشكّلت هجومًا واحدًا وجُرحًا واحدًا، كما عُرفت هوية كل من النسوة المدّعيات، واسمُها ووجهها. يُضاف إلى ذلك أن الإنكار الذي تمسّك به في قضية ستورمي دانييلز وكارين ماكدوغال، قد جرى تفنيد كل تفصيلٍ فيه على حدة. وكانت النتيجة أن لا أساس له من الصحة أبدًا. أقدم الرئيس على استبعاد كل شيء ونفيه. لكن تبيّن أن كل شيء في الاتهامات كان صحيحًا. لم يقتصر الأمر على أن الرئيس أصبح أبرز معتدٍ جنسي والرجل الذي لا يُجارى في هذا المجال، بل أصبح أيضًا نموذجًا للإنكار.

وهكذا أصبحت الطريق ممهدةً لتصديق ادّعاء أي امرأة تتقدم للشكوى.

فرضت مسألة مقلقة نفسها بعد انتشار حملة MeToo#، وهي: ماذا حدث لأولئك النساء اللواتي لقيت الاتهامات التي قدّمنها ضد ترامب سنة 2016 النفي والإهمال؟ متى سيعدن إلى تقديم الشكاوى؟ والأمر لا يتعلّق بهن فقط، بل بأخرياتٍ كثيراتٍ كذلك.

قال بانون عن كل اللواتي قدّمن شكاوى خلال فترة الحملة الانتخابية: لقد قمنا بجمع كل تلك القضايا في ملف واحد، فوقت الناس لا يتسع لسماع تلك الاتهامات أو تصديقها؛ لقد دحضناها كلّها. جمعناها وعمدنا إلى دحضها بالجملة. سألت الجميع عن النسوة، فلم يتذكّرهنّ أحد. لكنني أنا أتذكَّر، لأنني دوّنت كل شيء، ولأنني كنت أراهن في أحلامي. أتذكرون تلك الفتاة في النادي الصيني؟ إنني أتذكَّرها، وهي تُدعى كريستين آندرسون. قالت إن ترامب دسّ إصبعين في مهبلها عندما كانت في النادي، وهي تبلغ الثالثة والأربعين، وأصبحت في الرابعة والأربعين الآن. ستأتي تلك المرأة ذات يوم لتنظر إلى الكاميرا في برنامج صباح الخير أميركا؛ وسوف تقول: «لقد جاء بي إلى خلف الطاولة عندما كنت في الثامنة عشرة من عمري، ودسّ إصبعين من أصابعه في مهبلي... مهبلي... مهبلي». وأنتم سوف تسمعون ذلك عند الساعة 8:03 صباحًا، وتسمعونها عندما تبدأ بالبكاء. وتأتي بعد يومين الفتاة التالية... ثم تأتي فتاة أخرى. أليس هذا حصارًا في حملةٍ حربية. سيأتون ذات يومٍ بقضية يثيرونها، ثم يأتون بقضيةٍ أخرى ويضعونها على نارٍ حامية. سوف نواجه خمساً وعشرين، أو ثلاثين، أو مئة، وربما ألفًا، لكننا سوف نواجه كل قضية على حدة، وسوف تقول كل امرأة في البلاد: «مهلاً، ما الذي فعله بها؟ لمَ تبكي تلك الفتاة».

بدأ محققون من مكتب المحقّق الخاص بالبحث المعمّق في تفاصيل سلوك ترامب الجنسي: أين حدث؟ وكم من المرات؟ ومع مَن؟ وكيف كانت طبيعته؟ وصف أحد الشهود ما حدث بأنه «أنشطة ترامب الشنيعة»، وهو يدلي بشهادته، ولعل ذلك كان طريقة للتأثير في هيئة المحلفين العليا، لكي تنحاز ضد حياة ترامب المتفلّتة أخلاقياً، بقدر ما كان طريقة للمساعدة على تحديد علاقاته كلها كتلك التي كانت له مع دانييلز وماكدوغال، وهما العلاقتان اللتان انتهتا بدفع تسويات مالية، وكذلك من أجل تفحُّص الاتهامات في ملف ستيل. ينعكس الوضع ذاته على لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ، وهي التي كانت ترغب في التثبّت من صحة المعلومات الواردة في

ملف ستيل، والتأكد من مقدار الدعم الذي جَيَّره الروس لترامب. ولهذا استمعت اللجنة إلى شهادة أحد الأشخاص، وبضمان حفاظ المحكمة على سرية شهادته، وهو الذي رافق ترامب في زيارته إلى موسكو سنة 1996. قدّم هذا الشخص صورًا سرية تُظهر ترامب مع مرافقاتٍ في جولته، وهكذا أصبحت مستنداتٍ قانونية في المحكمة.

* * *

لا يمكن لأحدٍ أن يتكهَّن بمدى قدرة صمود درع النفي والإنكار التي فرضها ترامب، وعلى الأخص في القضايا الأولى التي أثيرت ضده. لكن مع كل الخطورة التي تحملها تلك القضايا، يبقى الأخطر، والأسوأ منها، هو أن تدفع تلك الاتهامات الجديدة ميلانيا إلى تركه.

ما زاد الطين بلّة تحوُّل علاقة ترامب مع النجمة الإباحية ستورمي دانييلز، والتي كان على رأسها مايكل آفانتي، في ربيع العام 2018، إلى موضوعٍ يومي في وسائل الإعلام. كان ذلك سيّئًا بما فيه الكفاية للسيدة الأولى التي تبذل أقصى جهدها لإبعاد تلك الأخبار المتواصلة عن ابنها. أما أكثر ما كان يثير حنق ميلانيا، مع كل ذلك، هو أشرطة فيديو ممارسة الجنس من دون قيود، وهو وصف حرص مايكل آفانتي على تكراره، وكأنه يتعمّد توجيه الإهانة الشخصية إليها. قال آفانتي كذلك إن ترامب، وتلك الممثلة الإباحية، قد مارسا نوعًا محددًا من الجنس، هو «الجنس من دون قيود».

كان جمهور ترامب يكنّ احتراماً شديداً لميلانيا، لأنها كانت تحتفظ بأوراقها لنفسها وتلعبها بنجاح. ويُحتمل أن تصبح في النهاية أفضل مفاوض أُسَري لدى ترامب. وقد ظهرت نقطة القوة هذه عند ميلانيا، عندما استطاعت الحصول على ما كانت ترغب به. بيد أن التسويات المستمرة، والترتيبات الجديدة، التي عقدها الطرفان، حجبت روح العدائية بينهما. لكن لم يستبعد أحد احتمال أن يكون شريط الفيديو الذي يُظهر ترامب وهو يقوم بضرب ميلانيا داخل المصعد صحيحًا، مع انتشار الأخبار والنظريات التي تؤكد وجود الشريط. أما داخل البيت الأبيض فإن الجميع كانوا يعتقدون بالآتي: إذا كان شريط الفيديو حقيقيًّا بالفعل فإن الحادث يكون قد وقع في لوس أنجلوس، وربما سنة 2014، بعد اجتماع مع المحامين، كان مخصّصًا للتفاوض على مراجعة عقد زواجهما.

كان ذلك الاتفاق يتناول السماح لدونالد ترامب بأن يكون دونالد ترامب. قال ذات مرة لصديق له من المجتمع الهوليوودي، زاره في البيت الأبيض: «أنا لا أختار سوى الفتيات الجميلات، وبإمكانك أنت أن تشهد على ذلك. (ترك ترامب ذات مرة رسالة صوتية وجّهها إلى تاكر كارلسون، وكان كارل قد انتقد شَعْره، قال فيها: «صحيح أن شَعرك أجمل من شعَري، لكنني أمتلك فتيات أكثر منك»). أما أهم بنود هذا الاتفاق فهو أن يكون دونالد ترامب، دونالد ترامب بالذات، أي دونالد ترامب المتحرّر من أي قيد. كان ترامب على استعداد لتعويض ميلانيا بسخاء مقابل قبولها شرطه هذا.

لكن الاحتمالات، ونقاط قوة ميلانيا زادتا إلى درجة استثنائية منذ دخول ترامب البيت الأبيض.

* * *

لم يصدّق أحدٌ في الجناح الغربي التفسير الذي أعطي لمكوث السيّدة الأولى في المستشفى. وكانت ميلانيا قد دخلت مستشفى والتر ريد العسكري يوم الاثنين، 14 أيار/مايو، وبقيت هناك لفترة أربعٍ وعشرين ساعة. لكن لم يقدّم أي شخص رواية مقنعة عن سبب دخولها. وكان من الواضح أن البيت الأبيض يتجنّب إعطاء أي تفسيرٍ بهذا الشأن. يعني ذلك أن الجو العام كان يميل إلى التعتيم أي «لم أرَ شيئًا. لا أعرف شيئًا». لكن الاستعداد لتصديق أي تفسير وصل إلى مداه. كذلك انعكست موجة التوقعات والترجيحات داخل البيت الأبيض أو ربّما أدت، إلى انتشار توقعاتٍ أخرى خارجه. هل تجري جراحة تجميلية، أم وقع بينهما عراك جسدي؟ هل كان الأمر نتيجة تناول جرعة زائدة، أم انهيارًا عصبيًّا؟ أم أن الأمر يتعلق بمفاوضات مالية؟

كان الجناح الشرقي، حيث كانت مساعِدة ميلانيا، ستيفاني غريشام، التي تُعدّ المدافعة الأهم عن السيّدة الأولى، يقف في مواجهة الجناح الغربي، الذي كان إلى جانب الرئيس، ويتصرّف وكأن أمر ميلانيا ليس من شأن أحد. لكن، بعد مرور أسبوعٍ على دخول السيّدة الأولى المستشفى، لم يكن بوسع أحد تحديد موعد عودتها.

كان من اللافت جداً الهدوء وعدم الاكتراث الذي تعامل به ترامب مع غيابها. لكن كيلي، ومع تزايد التساؤلات، طلب شرحًا أكثر تفصيلًا للوضع. سأل كيلي: ما

خطبها بالضبط؟ جاء ردّ الرئيس على الشكل الآتي: «لا أحد يكترث للأمر غير وسائل الإعلام. إنها السيّدة الأولى، وليست الرئيس». قام ترامب، على عادته خلال كل أزماته المصيرية، بقلب الوقائع بسرعة كما كانت الحال مع كل أزمة أخرى في التاريخ السياسي. الرئيس على ما يرام، وميلانيا على ما يرام، وزواجهما على ما يرام، بل على أفضل ما يرام. لكن العالم من حوله عالم فاسد، وقاسٍ، وشرير، ومهووس، وممتلىء بالأكاذيب.

أجمعت الآراء على أن ترامب لا يعترف بأن أي شيء هنا يجري بشكلٍ يخالف السير الطبيعي للعمل، سواءً في زواجه أو في حياته الخاصة عمومًا. يُحتمل أن يكون زواج ترامب مثل قرية بوتمكين[6]؛ لكن هكذا يُفترض أن يكون. كانت هذه هي الترتيبات التي اتفق عليها الطرفان!

إنه طبعاً منطق أعوج. لم يكن هناك أي زواج فعلي، وعلى الأقل لم يكن هذا الزواج من النوع الذي يلاحظه أحد من الناس على الإطلاق. إذن كيف يُمكن أن تكون هناك مشكلة في الزواج؟

أما المراقبون، الذين تعتمد أعمالهم ومستقبلهم على هذه العلاقة، فقد كانوا يحاولون التمييز والفهم: هل كان دونالد ترامب ذلك السيّد الساخر الذي يمتلك كل شيء، والذي لا يحفل بأي شيء، أم كان يتجاهل، ببساطة، الهشاشة المرعبة لعالمه، من دون أن ينتبه لهذا الاحتمال الحقيقي، أي إن هذا العالم قد ينهار عليه في أي لحظة؟

عادت السيّدة الأولى يوم 19 أيار/مايو إلى البيت الأبيض، بل، في الحقيقة، عادت لفترة قصيرة إلى منزل والديها في ماريلاند. وبعد مرور تسعة أيام تخلّفت ميلانيا عن الحفل السنوي لوضع أكاليل في يوم تذكار موتى الحروب، الذي يقع في آخر يوم اثنين من شهر أيار/مايو، وهو حفل يُقام في مقبرة آرلنغتون الوطنية. قام ترامب في 1 حزيران/يونيو برحلة نادرة إلى كامب دافيد مع أفراد أسرته، بمن فيهم تيفاني، لكن من دون ميلانيا ولا بارون. ولم تظهر ميلانيا مجدداً إلا يوم 4 حزيران/يونيو، خلال المناسبة السنوية التي تقام في البيت الأبيض لتكريم عائلات غولد ستار. كان قد مضى أربعة وعشرين يومًا، على الظهور الأخير للسيدة الأولى، والذي صادف يوم 10 أيار/مايو، والذي يُعد الأفضل.

لكن في 21 حزيران/يونيو، وخلال زيارة مفاجئة لميتمٍ لأطفال المهاجرين في تكساس، التُقطت صورة لها وهي ترتدي سترة من ماركة «زارا»، كُتب في القسم الخلفي منها: إنني لا أكترث بالفعل، وأنت؟؟!.

أصرّ الرئيس على أنها كانت تشير بتلك الجملة إلى وسائل الإعلام التي تنشر أخبارًا ملفّقة.

الفصل الثامن
مايكل فلين

في أوائل شهر حزيران/يونيو، استعدّ فريقُ مولر لمعارضةِ ما كان يعتقدُ أنّه آتٍ قريبًا، وهو عفوُ الرئيس عن مايكل فلين، ذلك المتغطرس الذي يسرع نجمه بالأفول، ومستشار الأمنِ القوميّ السابق الذي وُجّهت إليه تهمةُ الكذب على مكتب التحقيقات الفيدرالي.

كان ثمّة موّالٌ يكرّره ترامب بشأن الأشخاص الذين يمكنه أن يعفوَ عنهم. وقد شملت قائمة العفو التي بين يديه شخصيّات معاصرة وتاريخية على حدّ سواء. كما أنه كان يحثّ مساعديه على اقتراح أشخاص يمكن إضافتهم إلى تلك القائمة. سعى جاريد إلى إضافة والده، تشارلي كوشنر، لكنّ جهودَه ذهبت أدراجَ الرياح، فترامب لم يكن من مُحبّي تشارلي كوشنر. لكنّ الشريف جو أربايو، الشخصيّة المناهضة للهجرة، وأحد مؤيّدي ترامب، حصل على عفو. كما شمل العفو كلًّا من سكوتر ليبي، الذي سرّبَ معلومات سرية إبّان عمله في إدارة بوش، وكان الرئيس بوش، وهو هدفٌ معتادٌ لسخرية ترامب المتكرّرة، قد امتنع عن العفو عنه؛ كذلك شمل العفو دينيش دي سوزا، الكاتبُ اليمينيّ. وكانت مارثا ستيوارت شخصية مرشحةً للانضمام إلى قائمة العفو. وكذلك كان الفاسد، حاكم إلينوي السابق، رود بلاغوفيتش، وهو وقح ومغرور على غرار ترامب. لم تكن قرارات عفو ترامب تصحيحات قضائيّة أو أفعالًا تعبّرُ عن تسامحٍ وطيبة بقدر ما كانت بيانات تحدّ.

لكنّ ترامب كان يحتاج إلى طمأنةٍ مستمرّةٍ حول فاعلية هذه السلطة، وحقّه في ممارستها. وأراد أن يعرف إلى أيّ حدّ كانت مطلقةً حقًّا. وقد بذل محاموه قصاراهم،

ليؤكّدوا له أن سُلطته كانت مطلقةً حقًّا وحقيقةً، ممّا طمأنه بأنّه كان يسيطر بشكلٍ نهائيّ على مصيره الشخصيّ. ففي أسوأ الأحوال كان بوسعه حتى أن يعفو عن نفسه، إذا اقتضى الأمر. لكنّهم في الوقت نفسه، حثّوه على توخّي الحذر، على الأقل في الوقت الراهن. قالوا له إنّ الجميع الآن يفهمون أنّك تملك القدرةَ على العفو وأنك تريدُ استعمال هذه القدرة، وهذا يرسلُ الإشارة التي تريدُ إرسالها.

بزهوّ وتعجُّب يقول ترامب لأحد المتّصلين المعتادين: «إنه صكُّ غفرانٍ حقيقيّ»، ويُضيف: «بوسعي أن أعفو عن أيّ شخص كان متى أردتُ، ولا أحد يستطيع شيئًا حيال ذلك. أتمتّعُ بحمايةٍ مطلقة. وأستطيع منح هذه الحماية لمن أريد. بوسعي أن أعفوَ حتى عن نفسي. هذه حقيقة». ويقول المتّصِل إن ترامب، في كثير من الأحيان، كان يكرّر الحديث في هذا الموضوع.

أصبحت قرارات العفو لدى ترامب شبيهةً بشرائط نيكسون. وهو موضوعٌ كان يكنُّ له مشاعر عميقة. فلو أنّ نيكسون عمد فقط إلى حرق الأشرطةَ، لما كانت هنالك أيّ مشكلة. وبالمثل، لو أنّ ترامب، بكل بساطة، أصدر عفوًا عن الجميع، لما كانت هنالك أيّ مشكلة.

لدى سماعه هذا النوع من التقديرات والتخمينات التي تعوزُها الدقّة، كان دون مكغان يشعر بالقلق. فقد وجد نفسه بين نارين، ولم يعُد متأكدًا من الدور الذي كان يؤدّيه بصفته مستشارًا قانونيًّا للرئيس. هل كان يشرح، فقط لا غير، صلاحيّات العفو الممنوحة للرئيس، أم أنّه كان يقدّم إلى ترامب المشورةَ الفعاّلةَ حول كيفيّة استعمالِ تلك الصلاحيات لعرقلة العدالة؟ كانت قرارات العفو قد أصبحت موضوعًا آخر من موضوعات البيت الأبيض الخطرة التي لا ينبغي الاقتراب منها. كان الجميع يعلمون أنهم لا يرغبون أن يجدوا أنفسهم مرغمين على إعادة فتح نقاشٍ حول قرارات العفو أمام هيئة محلّفين عليا أو لجنةٍ تابعةٍ للكونغرس.

* * *

استمرّ ترامب في إقناع نفسه بأنّ تحقيقات مولر كانت إهانةً لشخصه، لكنّها لم تكن مصدر تهديد. في المقابل، كان كبارُ موظّفي البيت الأبيض يرتعدون خوفًا من مولر وحده. كانت هناك تقديرات مختلفة في أروقة البيت الأبيض، أشبه بالاستفتاء،

في محاولةٍ لمعرفة التهمة التي سيرتكز عليها سيناريو مولر الأكثر تفاؤلًا: أهي العرقلة، أم التواطؤ، أم الإدلاء بشهادة الزور، أم تزوير الانتخابات، أم الجرائم المالية المرتبطة بطموحات ترامب الروسية. كان كبار المساعدين بغالبيّتهم خائفين من مولر لخوفهم من ترامب. لم يكن أحدٌ منهم على درجة متقدّمة من الثقة بأنه لم ينتهك القانون في مناسبات وظروف عدّة. ولم يكن لدى الجميع أيّ سببٍ للاعتقاد بأنه قد نظّف خلفه، ولم يترك أثرًا يدل على انتهاكاته. ومرةً أخرى، كان هنالك ذلك العنصر الرئيسي لرئاسته: لا أحد من كل الذين عملوا لدى ترامب كان يجهل حقيقته. كانوا يدركون أنّه لا يتورّع عن القيام بأيّ فعل شائن مهما تكن طبيعته. «كذلك هو دونالد ترامب»، كانوا يقولون. وقد شكّلَ التسليم بهذه المقولة، الغطاءَ الأخلاقي اللازم لاستمرارهم في العمل في تلك الأجواء الضبابية المضنية، ولتفسير الأزمة الوجودية التي كانوا يعيشونها مع كل إشراقة شمس.

كان من الغريب والمثير للقلق على حدّ سواء، أنّه لم تكن قد وُضعت بعدُ خطّةُ عملٍ رسميّة تُمكّنُ البيتَ الأبيض من التعامل مع كلّ ما يستتبعه التحقيق مع الرئيس. فقد بدأ فريقُ مولر عملَه في شهر أيار/مايو 2017؛ الآن، وبعد مرور عامٍ كامل، لم يكن بعدُ لدى الرئيس، محامون حقيقيون. لم يكن لديه فريقٌ قانونيٌّ مُخصَّص، ولم تنعقد هيئة محكمة بخصوص القضية، أو حتى دعاوى مرفوعة ضده. في أوائل أيار/مايو عُزِل تاي كوب، الذي كان يستحقّ في ذهن الرئيس، تحمُّلَ كامل اللوم، في التحقيق الجاري بعد خَلْع جون دواد. الآن، لم يبقَ لترامب سوى جاي سيكولو، وهو محامي دفاع ينتمي إلى الجناح اليمينيّ، وغير مرتبطٍ بمكتب محاماة، ورودي جولياني، المُكلّف الدفاع عنه على شاشات التلفزيون. حتى ترامب نفسه، كان يفهم أنه مهما كانت الميزة التي قد توفّرها جرأةُ جولياني في مجال العلاقات العامة، فإنه سرعان ما يبدّد تلك الميزة لشغفه في جذب الأنظار إليه، أو لأنه، ببساطة، ثملٌ. من المؤكّد أن ترامب لم يكن يُعوّل على أيّ من محاميه. حقيقة الأمر هي أنه استمرّ في طلب النصح من الجميع، وبالتالي في إمكانية توريط الجميع.

كان كل يوم بمثابة حقل ألغام جديد. وباستمرار، كان ترامب يفكر بصوتٍ مرتفع. ربما لم تكن لديه أفكار خاصّة بمعنى الخصوصية، وكان يعبّر دائمًا عمّا يدور في ذهنه من دون أي تعديل. بالتالي، كان الجميع شركاء محتملين في مؤامرة واسعة. كما كان الجميع على علم بتفاصيل التستُّر على سرّ أو فضيحة ما.

حتى أعضاء الفريق أنفسهم، كانوا يخشون أن يُفسّر تواطؤهم، لتجنُّب التستُّر على أمر ما، على أنه تستّر بحدّ ذاته؛ مثل: «لم أسمع بذلك» أو «هذا اجتماعٌ تريد بلا أدنى شك البقاء بعيدًا عنه». وقد أدّى ذلك إلى نشوء شبكة قنوات تواصل غير رسميّة من المحامين المشترَكين. فبيل بورك، على سبيل المثال، كان يمثّل دون مكغان وستيف بانون ورانيس بريبوس. وقد مكّنَهم ذلك، من التواصل تحت طيّ الكتمان بفضل ميزة السريّة التي يؤمّنها محاميهم المشترَك.

كان كل فردٍ يعمل لنفسه. وبحلول ربيع 2018، كان الفريق يختبر نوع الذعر الذي لا تتوقّع رؤيته إلا عندما تُستنفد السُّبُل والخيارات كلّها، وتتّضح العلامات التي تؤكّد حتميّة وقوع الكارثة. فقد أقرّ الجميع أن ثمة احتمالاً حقيقيًّا لانهيار رئاسة ترامب وجَرفِ الكثيرين معه. هل بلغَت فرص حدوث ذلك الانهيار نسبة 50/50؟ تلك هي التوقعات التي كان جون كيلي يعرب عنها أمام أصدقائه، وتهمس زوجته بأن النسبة أعلى من ذلك. حثّ هذا المزاج المأساويّ المروّع معظم اللاعبين الكبار في الجناح الغربي من البيت الأبيض على التفكير مليًّا في وضع خطط للطوارئ ممثّلة في السؤال الآتي: متى يمكنهم الانسحاب بشكل معقول؟ أصيب دون مكغان باكتئاب شديد، وقد وجد نفسه محاصرًا: فالتزامه الأخلاقي كان يُملي عليه البقاء على رأس عمله، إلى أن يوافق على تولّيه شخصٌ آخر، ولم يكن ذلك سهلًا.

جرى الاتصال بمحامٍ بعد آخر لشغل منصب مستشار البيت الأبيض، وتحديدًا لاستباق إمكانية إقالة الرئيس وتحاشيها. كان إيميت فلود، أحد أكثر المحامين خبرة وكفاءة في مجال الدفاع السياسي عن ذوي الياقات البيضاء، قد رفض الوظيفة في وقتٍ سابق من السنة، بعد أن طالب بنوعٍ من الاستقلال الذاتي لم يكن ترامب راغبًا فيه، أو قادرًا على منحه. أخيرًا، وبعد سلسلة من الرفض والاعتذارات، بالإضافة إلى تهديد مكغان بالاستقالة، تمكّن مكغان من الإلحاح على الرئيس كي يقبل بشروط فلود. ففي شهر أيار/مايو، حلّ فلود محلّ كوب، بعد أن أُعطيت له الضمانات بنيل الاستقلالية التي قد يحتاج إليها خلال توليه مسؤولياته في حماية مصالح الرئاسة.

في أواخر العام 2017، ومن دون علم الرئيس، بدأ مكغان بالتعاون مع تحقيق مولر. لم يكن بانون الذي تنبّه لتحرُّكات مكغان، يشبع من الاستهزاء بهذه المفارقة المتميزة. كان ترامب مهووسًا بالدور الذي أداه جون دين، بفضحه رئاسة نيكسون؛ مع ذلك، لم يكن باديًا أنه يدرك تمامًا، أنّ دين كان، مثل مكغان مستشارًا

للبيت الأبيض. بدا ترامب الآن، غافلًا تمامًا عن مدى الحقد الذي يكنُّه مكغان له. إنه «حقدٌ أسود»، بحسب تعبير أحد أصدقاء مكغان.

فبفضل مكغان، بدأ فريق مولر يشتبه في إمكانية إقدام ترامب على العفو عن فلين، على الرغم من النصائح التي أُسديَت له بالتريث وضبط النفس، سعيًا منه إلى حرمان التحقيق من شاهد مهم.

* * *

في الواقع، اعتقد بانون أن مولر في موقف أضعف مما يظن البيت الأبيض العظيم. كما رأى أن غرائز ترامب، التي تغيرت بالتالي بشكل فعال جداً، كانت صحيحة. فقد كان مولر يخشى ترامب أكثر ممّا يجدر بترامب أن يخشاه. ربما كان ترامب هدفًا لمكتب المحقق الخاص، وهو بحد ذاته هدف ثمين؛ وفي الوقت ذاته، كان هذا الهدف بمثابة تهديد دائم لمكتب مولر.

كان لترامب اليد العليا، أو على الأقل في الوقت الراهن؛ فهو لا يزال يطبق بقبضته على الكونغرس. وهو، وبالتالي لا يزال يضمن إفلاته من العقاب. مع الأغلبية الجمهورية في مجلس النواب، كان مولر نمرًا من ورق، وكان بمثابة الرصاصة التي تستهدف الرئيس. لكن الرصاصة لم تكن لتنطلق من دون المسدّس، أي مجلس النواب، الذي كان بإمكانه أن يعلي من السقف الأخلاقي، إلّا أنه لم يكن قادرًا على صونه.

فضلاً عن ذلك، وبعد شهادته أمام المحقق الخاص في وقت سابق من السنة، بدأ بانون يشكّك في امتلاك مولر لأي أدلة فعلية. جلّ ما تم استنتاجه حتى الآن هو أن معسكر ترامب يتضمّن أشخاصاً هم الأقذر والأتفه والأغبى على وجه الأرض، وهم أشخاص لا يدركون حتّى ما يعنيه «قبول المساعدة الخارجية»، على حسب تعبير بانون. إذاً، ما هي الوقائع التي كانت في يد تحقيق مولر، أو بالأحرى من هم الأشخاص الذين كانوا في صفّ التحقيق: روجر ستون، كارتر بيج، جورج بابادوبولوس، جوليان أسانج؟

لم يكن بانون منبهرًا أو قلقًا: «يستحيل أن تقيل الرئيس بالاعتماد على هؤلاء الفرسان». كانوا ثلّة من الأشخاص غير المفيدين.

وفي ردّه على مسألة العرقلة، يقول بانون ساخراً: «ترفّق بي!»

مع وجود كونغرس جمهوري قوي، كان لا بد لمولر من السعي لزعزعة مكانة ترامب، محاولًا خفض نسبة المؤيدين الذين كان ولاؤهم قد بلغ حدّ التعصُّب، إلى أقل من 35٪ من جمهور الناخبين. وبحسب اعتقاد بانون، فإن الكونغرس الجمهوري سيظل صامدًا، إذا لم يصبْ هذا الدعم بأي خلل.

كان مولر يحتاج إلى تطبيق استراتيجية الصدمة والرعب. كان عليه أن يوفّر لجمهور «البائسين»، وهو تعبير مهين استخدمته هيلاري كلينتون، وتبنّاه بانون كوصف محبّب خاص به، سببًا جذّابًا لإعادة تقييم ترامب. أي إنّه كان يحتاج إلى تقديم دليل دامغ لا يقبل الشك، على فعل شائن ارتكبه ترامب، شرط أن يكون أسوأ كثيرًا من أي فعل لا يمكن لأي كان أن يتصوّر أنّ ترامب قادر على ارتكابه. كان عليه أن يقدّم هذا الدليل، مع علمه بالعقبات الكثيرة التي تحول دون ذلك. لم يكن المحقق الخاص ليحقّق هدفه إذا اكتفى بتأكيد ما يعرفه جميع الناس عن ترامب. كانت هناك حاجة إلى قول شيء جديد!

واصل بانون تأييده لقرار إزاحة روزنشتاين. فإذا ما تحقّق له ذلك، يستطيع أن ينقضّ على مولر. في إطار العمل على تطبيق هذه الاستراتيجية، وظّف جوقته الإغريقية: ليفاندوفسكي، بوسي، هانيتي، وعضو الكونغرس الجمهوري، قائد مجموعة الحرية مارك ميدوز. كما حثّ دفاع ترامب على اتباع النهج الذي اتّبعه البيت الأبيض في عهد كلينتون، أي المساواة بين الشعبية والفضيلة. صحيح أن كلينتون كان على الدوام يتمتّع بنسبة تأييد تفوق 50٪، في حين أن ترامب يتمتّع بنسبة 40٪، لكنّ دعم ترامب هو دعم صُلب إلى حدّ يثير الإعجاب. من وجهة نظر بانون، لم يحظَ أي رئيس أميركي بالإعجاب الذي يحظى به ترامب، وإن كان مكروهًا بالقدر نفسه تمامًا. وقف مولر، في صف كارهي ترامب، متحدّيًا إرادة محبيه. هذا ما كان بانون يعتقد أنه شعار المعركة القادمة.

بدا البيت الأبيض، وتحديدًا رودي جولياني، عاجزًا أن يُعدَّ قضية عادلة يمكنه الدفاع عنها، وأن يقدّمها. في أفضل الأحوال، كان جولياني مدافعًا أخرق. في الواقع، كانت الحجة التي قدّمها، هي الآتية: نعم، ربما كان الرئيس مذنبًا، ولكن لأنّه الرئيس، كان من حقّه أن يُذنب (كانت هذه المقولة صيغةً معدّلةً للموال المتكرر بشأن

سيرة ترامب المهنية: نعم، ربما كان وغدًا فاسدًا، لكنه كان وغدًا ناجحًا). وبدلًا من التشكيك في صدقية التحقيق، بدا أنّ البيت الأبيض يناقض نفسه. ومرة أخرى، يعلن غضبه لكنه في الوقت نفسه يقرّ بأن دونالد ترامب، في السراء والضراء، هو دونالد ترامب. في هذا الصدد، قال بانون لجولياني: «قل ما يحلو لك». إن ثمة نزعة كبيرة إلى الواقعية تسري في بيت ترامب الأبيض، وهي واقعية أشاعها الرئيس نفسه.

حتى أشدّ الترامبويين إخلاصًا، كانوا يسلّمون، وبلا أدنى شك، بوجود أشياء كثيرة خفيّة في القضية الروسية. ويعتقدون أن ترامب كان على الدوام يضمر انطباعًا جيدًا عن بوتين، على غرار مشاعر الإعجاب التي كان يكنّها لكل الرجال الناجحين، وأولئك الأكثر منه ثراء. كانوا يقرّون بأنّ ترامب حرص على كسب احترام بوتين، ولعلّه فعل كل ما في وسعه لإرضائه. كما كانوا يدركون أنّ ترامب، وهو مقترِضٌ من الصف الأول إبّان العصر الذهبي لتدفقات رأس المال الروسي الخارجية، ربما كان قد أغمض عينيه عن التفاصيل القانونية ليكون شريكًا في هذه الثروة التمويلية المفاجئة. وممّا لا ريب فيه أيضًا، أن هؤلاء الترامبويين المخلصين كانوا يعرفون أن ترامب لم يكن قادراً على فهم أو التزام الخط الدقيق الفاصل بين الميدانين، الخاص والعام.

لكنّ ما صعب عليهم أن يصدقوه، هو وجود خطة، ومشروع، ومنظور عام على المدى الطويل. ربما قام دونالد ترامب بعدد معيّن من الأشياء التي لم يكن ينبغي له القيام بها، بالنظر إلى تناقضها مع الحس السليم، ومخالفتها الصريحة لنص القانون. ولكن بالنظر إلى قصر مدى انتباهه، وعدم قدرته على إدارة متغيّرات متعددة، وتركيزه الحصري في احتياجاته الشخصية الفورية، وتجاهله العام لكل النتائج المستقبلية، بدت فكرة تخطيطه لمؤامرة كبيرة مبالغًا فيها.

لا، ردّ الترامبيّون، كل ما في الأمر أن الليبراليين ومولر كانوا يستفيدون من ترامب لكونه ترامب، هذا الرجل الذي كان على الدوام ألدّ أعداء نفسه. كان بوسعكم الدفاع عن ترامب كونه ترامب. فهو على الرغم من شركائه القذرين، ومبالغاته الخيالية، ولامبالاته بمراعاة حرفيّة الحقيقة، وتجاوزه المستمر لخط القانون، فإنه الرجل الذي انتُخب مع كل عيوبه المعروضة على الملأ.

* * *

بالتالي، لم يكن ترامب هو الذي يتآمر، بل كان... أوباما.

في ربيع العام 2018، اكتملت أخيرًا نظرية «الدولة العميقة»، التي طالما تبنّاها الرئيس، ولكن بشكل نصف مُقنع. كان الديمقراطيون يعتقدون أن ترامب تآمر مع الروس بهدف التأثير في سير الانتخابات. وكان الترامبيّون يعتقدون أن إدارة أوباما تآمرت مع أجهزة الاستخبارات لتجعل الأمر يبدو كما لو أن ترامب وجماعته قد تآمروا مع الروس بهدف التأثير في سير الانتخابات. لم يكن ترامب والروس هم الذين نجحوا في سرقة الانتخابات، بل؛ كان أوباما وأزلامه هم الذين حاولوا سرقتها وأخفقوا.

وفقًا لما جاء على لسان أكثر الترامبويين تشدّدًا، كانت المؤامرة ضد ترامب قد بدأت عام 2014، وذلك عندما حضر مدير وكالة استخبارات الدفاع في عهد أوباما، الجنرال المتقاعد مايكل فلين، اجتماعَ تجسسٍ في كامبريدج. (قد ينوّه الترامبويون بأن مايكل ستيل، صاحب ملف ستيل، قد جرى تجنيده في كامبريدج للتجسس على روسيا). كان معظم الجواسيس الذين التقوا في ذلك العشاء في بهو إحدى الجامعات، من دعاة الحرب الباردة؛ وكانوا حذرين من استعداد فلين للتسامح مع الروس، إن لم يكن لاحتضانهم. فبحسب قناعته الشخصية، كان فلين يرى في إيران الشيطان الجيوسياسي الحالي. انطلاقًا من هذه النقطة، ومن وجهة نظر الترامبويين، كانت عيون الاستخبارات على فلين. في الحقيقة، سيتبيّن أن فلين، هو الذي أقنع ترامب وحبّبَه بالمساعدة التي يعرضها الروس في مواجهة بلاء الإسلام الأصولي. شكل ذلك جوهر قضية المؤامرة ضد ترامب وشركاه. كانت المدرسة القديمة، أي مجتمع الاستخبارات المهووس بالروس، ضد أشباه فلين وترامب الذين كانوا يُقدّرون أعداءنا الجدد، أي عصبة الإرهاب الدولي السرية. في الواقع، وفي ما يبدو وكأنه مكافحة للتجسّس استفاد عالم الجاسوسية من موقف عالَم ترامب الذي يميل إلى التقرُّب من روسيا، ودفع الترامبويين في اتجاه الريبة والتوجُّس.

الآن، في محاولة لتشويه صدقيّة مولر، دفع الجمهوريون من أعضاء الكونغرس وزارة العدل أواخر شهر أيار/مايو، لتكشف بالتفصيل عن ما برّر استهداف حملة ترامب. وقد طفا على السطح اسم ستيفان هالبر، بتسريبٍ مرجّحٍ من البيت الأبيض.

وفق النظرية الجمهورية، كان هالبر، وهو أميركيٌّ في كامبريدج بإنكلترا، على صلة وثيقة بجهاز الاستخبارات العسكري، (القسم 6)، ذراع الاستخبارات الخارجية البريطانية. جنّد هالبر، بتكليفٍ من إدارة أوباما، وعبر الجهاز، اثنين من مناصري ترامب المتزلّفين التعساء، هما: كارتر بيج، وجورج بابادوبولوس، في إطار خطة للاتصال بالروس. كانت الرواية الجديدة لمجموعة ترامب تقول: لقد وقعت مجموعة أوباما في الفخ.

كان هاربر بعينيه المبطّنتين، ومعطفه القديم، وأعوامه الأربعة والسبعين، يعمل في الجاسوسية المضادة في كامبريدج، حيث «تلتقي العوالم كلها» وفق خلاصة وصف بانون المُلغّز (كان بانون يعرف كامبريدج جيدًا. فقد تنقّل هو وهالبر في الشوارع نفسها بصفتهما عضوين في فريق المكتب الخلفي لكامبريدج أناليتيكا، شركة التكنولوجيا المشبوهة التي كان بانون شريكًا فيها، والتي حصلت بطريقة لا أخلاقية، على كمية هائلة من المعلومات والبيانات الانتخابية). في الحقيقة، كان ستيفان هالبر جاسوسًا من العيار الثقيل في عالم الجاسوسية الأميركي-البريطاني المشترك، وزوج ابنة شخصيةٍ أسطوريةٍ في وكالة الاستخبارات المركزية، راي كلاين، الذي عمل على قضية أزمة الصواريخ الكوبية. كما كان هالبر محترفًا في تجنيد الجواسيس، أي إنه كان مصيدة الذباب في كامبريدج. الآن، وبعد أن صعد هالبر من الدولة العميقة وطفا على السطح، من البديهي أن يكون هو الشخص المناسب لتجنيد عدد من الأشخاص العديمي الكفاءة ليكونوا من حاشية ترامب.

يرى بانون أن البيت الأبيض ومجتمع الاستخبارات في عهد أوباما، قد غضّا الطرف عن ترامب في أثناء الحملة. كان ترامب شخصيةً مشبوهة منذ سنوات عدّة؛ كيف لم تتوجّس الجهات المسؤولة من حضوره المفاجئ على المسرح العالمي؟ والأدهى من ذلك، أنه لم يكن، بلا أدنى شك، مرشحًا للفوز بالانتخابات، ليس فقط كما أجمعت كل مراكز استطلاعات الرأي، بل أيضاً بحسب أحد الأشخاص الموثوقين والمقرّبين من الرئيس أوباما للجهات الديمقراطية المانحة طوال خريف العام 2016، الذي أكّد أن ترامب، حتى كمرشح حزبٍ رئيسي، لن يجري التعامل معه جدّيًّا. ولكن، بما أنه كان مرشحًا، فقد بدا بالتأكيد مثل مرشح منشوريّ[7]، ومجرّد مخادع صعد إلى القمة بطريقة مشبوهة. لذلك، وبالطبع، سوف يُلاحق سرًّا.

كانت، إدارة أوباما تجري بوضوح تحقيقًا استخباراتياً في إطار مكافحة التجسّس ضد مرشح رئاسي، على الرغم من أن الأمر كان صوريّاً أكثر منه حقيقي.

وفي حين أنّه بدا من المنطقي إجراء عملية استخبارات متواضعة تواصلُ تعقُّبَ نصّابٍ يقيم صلات مشبوهة مع روسيا، شاعت مصادفة سخيفة أن يصبح مرشحَ حزبٍ رئيسيّ للانتخابات الرئاسية، فقد تصبح مساندة هذه العملية أصعب، في حال أصبح هدفها رئيساً للولايات المتحدة. إنّ من بدا حذرًا ومسؤولًا خلال الحملة، سيصبح غادرًا وغير ديمقراطي، ولكن بعد فوات الأوان.

قال بانون ملخّصاً القضية: «هل تعتقد أن نائب المدير العام للولايات المتحدة قد يكون قادرًا على التقاط قلمه وكتابة مذكّرة تقول: 'بالطبع، لا مستندات تتعلّق بمراقبة الحملة الانتخابية الرئاسية أو بالمرحلة الانتقالية لرئيس الولايات المتحدة المنتخَب شرعيًا'، التوقيع: رود روزنشتاين». وأضاف، مصفّقاً فجأة، «لم يكتب ذلك، لأسباب بديهية. أفحمتك!».

مرةً أخرى، كانت المفارقةُ التي اتّسمَت بها رئاسة ترامب، متعلّقة بعدم جدارته بهذه الوظيفة، إن لم نقل عدم أهليّته لها، كما أنه كان يشكّل اعتداءً على النظام القائم، إلى حدّ جعل جميع المدافعين عن هذا النظام مصمّمين على حمايته من ترامب. لكنّه فاز بالانتخابات، وقد أضفى عليه ذلك الفوز شرعيةَ النظام القائم. أو على الأقل، اعتقد ترامب أن هذا النظام منحه كل تلك الشرعية.

مع ذلك، لم يكن ترامب ماكرًا، أو صبورًا، أو قادراً على التحكّم في انفعالاته بما يكفي ليُثبِت تلك الشرعية ويحظى بها. وبدلًا من ذلك، وبكل بساطة، أصرّ عليها. فالشخص نفسه، الذي كان معظم الناخبين، بلا جدال، ينظرون إليه كمرشح غير شرعي قبل الانتخابات، أصبح الآن يخبط الأرض بقدمه، ويطالب بأن يُنظَر إليه على أنه الرئيس الشرعي. كانت حجته تقوم على عملية عكس بسيطة: الطبقة الحاكمة، أي الدولة العميقة، تنظر إليّ كلاشرعيّ، وهي بذلك تخرق المبادئ الديمقراطية لتحرمني من البيت الأبيض. لكنني فزتُ؛ وبالتالي، فإن أفراد تلك الطبقة هم اللاشرعيون، ولستُ أنا.

أصبح الجمهوري ديفين نونيس، الذي كان في ذلك الحين رئيس لجنة

الاستخبارات في مجلس النواب، دون كيشوت مبادرة فضح الدولة العميقة، مطالبًا وزارة العدل بخرق البروتوكولات، وكشف تفاصيل تحقيقها الأولي المتعلّق بترامب. كان الأمل من هذه المبادرة، أو المحاولة الأخيرة اليائسة، الكشف عن أنّ الأفعال التي قامت بها وزارة العدل، تحت تأثير البيت الأبيض في عهد أوباما، كانت جزءًا من مؤامرةٍ تهدف إلى التأثير في سير الانتخابات، أو على الأقل، كانت عمليّةً قذرةً تهدف إلى تعقيد الانتخابات وعرقلتها عبر التشويش عليها، وإحاطتها بجوّ من الغموض، وهي تفاصيل حرص شون هانيتي على إيضاحها وشرحها بكثير من الدقة. وكان من الأشخاص المتورطين، بالإضافة إلى هالبر، عميلان من مكتب التحقيقات الفيدرالي، هما بيتر سترزوك وليزا بيج (وهما عاشقان تركا سلسلة طويلة من الرسائل النصية التي تشي باحتقارهما لترامب)؛ جيمس كومي، مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي السابق؛ جون برينان، مدير وكالة الاستخبارات المركزية السابق؛ جيمس كلابر، مدير الاستخبارات القومية السابق. وقد أسهمت في هذه المؤامرة، الانتهاكات المزعومة التي نُسبت إلى محكمة مراقبة الاستخبارات الخارجية، وملف ستيل، والتي اعتبرها الجمهوريون مسرحيةً من إخراج الحزب الديمقراطي تهدف إلى التحريض المؤامراتي، وأساسًا فاسدًا للجزء الأعظم من القضية المرفوعة ضد الرئيس.

إلى حدّ ما، كان الترامبويون على صواب. وفي ذلك الحين، كانت السلطات مذعورة من ترامب شخصيًّا، ومن سلوك حملته المُستهجَن والمحيّر، إلى الحدّ الذي جعلها ترد عليه بشكل فطري، وتسلك تجاهه سلوكًا لم تكن لتسلكه حيال أي مرشح محترم، أو أي مرشح آخر كانت تعتقد حقًّا باحتمال فوزه. لكنّ ذلك لم يغيّر شيئًا من الحقيقة؛ فترامب، كان لا يزال ترامب، وعمليًّا، كل شيء فيه كان يستدعي التحقيق.

استمرّت دائرة الترامبويين المخلصين الضيقة: بانون، وليفاندوفسكي، وبوسي، وهانيتي، في حثّ مكغان والبيت الأبيض على الانضمام إلى ديفين نونيس. وألحّت أن يكشف رود روزنشتاين عن كل الملفّات المتعلقة بتحركات إدارة أوباما في إطار التحقيق بشأن صلة ترامب بروسيا. كان باستطاعة روزنشتاين تأخير طلبات الكونغرس، والتهرب منها إلى ما لا نهاية، تقريبًا. لكنه لن يكون قادرًا على تجاهل رئيسه، أي الرئيس نفسه. ألحّ الترامبويون على الرئيس أن يأمر روزنشتاين بالكشف عن تلك الحلقات طالبين منه أن يطرده إن لم ينصع لأوامره.

قاوم مكغان، الذي كان بالفعل قد تحوّل إلى شاهدٍ سريّ في يد مولر. كان قلقًا

من الكشف الشامل عن وثائق الاستخبارات السرية، وتبعاتِ مواجهةٍ بين البيت الأبيض ووزارة العدل.

في ذلك الوقت تقريبًا، وفي أوج المؤامرة المضادة، كان ليفاندوفسكي وبوسي يسرعان في إنهاء كتاب عن إدارة ترامب، وهو كتاب يركّز في جهود الدولة العميقة الرامية إلى تقويض مكانة الرئيس. استعان ليفاندوفسكي وبوسي، بخدمات سارة كارتر، وهي إحدى المساهمات في محطة فوكس نيوز، وزميلة مقرّبة من هانيتي، ككاتبة خفيّة، وأرسلاها إلى بانون، بهدف الحصول منه على مزيدٍ من التفاصيل التي تتعلق بالمؤامرة. روى بانون، كواحد من أفطن المحرّضين على المؤامرة في عصر ترامب، ما حدث، مارًّا بأدق التفاصيل.

إلّا أن بانون، شعر أن من واجبه أن يحذّر كارتر من القصة التي ستصبح قريبًا العمود الفقري لكتاب ليفاندوفسكي وبوسي عن «أعداء ترامب: كيف تقوم الدولة العميقة بتقويض الرئاسة؟»، قائلاً «أنت تدركين أن لا شيء صحيحٌ من ذلك كله».

* * *

حظي مايكل فلين في تحقيق مولر بمكانة خاصة. صحيح أنه لم يبقَ في منصبه سوى خمسة وعشرين يومًا، لكنّه كان لاعبًا أساسيًّا خلالها، إذْ لم يكن ترامب يسمح لأيّ شخص آخر سواه، أن يكون لاعبًا حقيقيًّا. فخلال الحملة، لم يحظَ أحد بمثل الصلة الوثيقة التي كانت تربطه بترامب. في الحقيقة، ومنذ الأيام الأولى للمرحلة الانتقالية، كان فلين أحد المسؤولين الرسميين الأوائل الذين سيوظفهم ساكن البيت الأبيض الجديد، دونالد ترامب.

لكن فلين بدا الآن أكثر وأكثر أشبه بالدليل الذي فاحت رائحته. وقد اتصل فلين، ملبّياً بذلك أمراً مباشراً من ترامب أو كوشنر، أو من كليهما على الأرجح، بالسفير الروسي إبّان المرحلة الانتقالية، وتفاوض معه بشأن العقوبات التي فرضتها إدارة أوباما على روسيا، أو هذا ما أشار إليه فريق مولر في اقتراح قرار اتهامه لترامب بالعرقلة. ثمّة ندم تاريخيّ دائم كان يشعر به العديد من الديمقراطيين، وهو أن نيكسون تمكّن من الإفلات من عقبات وعده مفاوضين فييتناميين شماليين كانوا

مجتمعين في باريس لبحث اتفاقية سلام، بالحصول على صفقة أفضل إذا انتظروا وصول إدارته إلى سدّة الحكم. هنا، بدا أن ترامب وفلين كانا يمارسان الألاعيب القذرة نفسها.

والأدهى من ذلك أن محاولة ترامب عرقلة سير العدالة مع فلين قد بدأت تتضحّ.فقد أدّت تلك المحاولة إلى حرف مسار تحقيق مكتب التحقيقات الفيدرالي عن متابعة فلين، وأتاحت لترامب أن يصرّ على طرد كومي؛ فكانت الشرارة التي أشعلت تحقيق مولر.

* * *

كان المحقق الخاص مستعدًا، في حال صدر العفو عن فلين، للجوء إلى المحكمة الفيدرالية ومطالبتها بإصدار أمر قضائي يمنع ترامب من إصدار هذا العفو. لكنّ المشكلة هي أنّ سلطة العفو الرئاسية، كما أكّد ترامب، كانت مُدرّعة إلى حدّ ما.

استنتجت أبحاث المحقّق الخاص في الموضوع، «احتمال أن يستطيع الرئيس العفو عن أفراد أسرته أو المقربين منه، حتى لو كان الهدف من ذلك عرقلة تحقيقٍ ما». وعند الاختبار، قرّرت المحاكم أن سلطة العفو الرئاسية «كاملة ومطلقة، مع بعض الاستثناءات». وقد اتّضح، في الواقع، أنّ الرئيس يمكنه أن يعفو عن نفسه. قد يكون ذلك «فاضحًا»، في أي فهم معقول للمعايير الأساسية للمنطق ومدى الصلاحية. لكنّ «الدستور لا يحرّم العفو عن النفس في نص واضح وصريح... وتفيد القراءة النصيّة بالآتي: لو أنّ الرئيس لا يملك سلطة العفو عن نفسه، لأضاف المشرعون نصًّا مخصّصًا يقيّد قدرة الرئيس على العفو عن النفس».

ورغم استنتاج فريق تحقيق مولر أن سلطة العفو كانت منيعة عمليًّا، لكنه رأى في الوقت نفسه أن حالة ترامب يمكنها أن تشكّل استثناءات محدّدة لهذه السلطة المطلقة.

أولًا، في الحجة القانونية، يرد في المادة الثانية، الفقرة 2، البند 1، من الدستور، الذي يمنح سلطة العفو، قيدان محدّدان. من جهة، لا تنطبق سلطة العفو إلا على القانون الفيدرالي، هذا يعني أن كل التهم الموجَّهة بالاستناد إلى قانون الولاية المحلي كانت مستثناة. ومن جهة أخرى، تستثني السلطة كل ما يمتّ إلى العزل

بصلة. لا يستطيع الرئيس منع العزل، لا عزله شخصيًّا ولا إقالة أحد غيره، ولا يستطيع منع مجلس الشيوخ من إدانة مسؤول فيدرالي بعد إقالته، وبالتالي حرمانه من المنصب. ولكن هذا كل شيء: فخلاف ذلك، كانت سلطة العفو لا تُطال.

ثانيًا، ارتكزت أبحاث المحقّق الخاص على قضية شيك ضد ريد المرفوعة عام 1974، أمام المحكمة العليا، التي أيّدت سلطة العفو الواسعة، وأضافت تحفّظًا: إذا كانت ممارسة السلطة مشروعة «لا تسيء إلى الدستور». وفي قضية العام ، بورديك ضد الولايات المتحدة، أبطلت المحكمة عفوًا، لأن الرئيس وودرو ويلسون، الذي كان قد أصدر عفوًا عن رئيس تحرير إحدى الصحف، يشمل كل الجرائم الفيدرالية التي ربما كان قد اقترفها، قد استخدم هذه السلطة تحديدًا لإنكار حقوق المحرر التي يضمنها التعديل الخامس للدستور، وبالتالي، إجباره على الإدلاء بشهادته. إذن، رأت المحكمة في العفو انتهاكًا لحقوق المحرّر الدستورية. مع ذلك، أشارت الأبحاث إلى أن بوردريك كان المثال الوحيد الذي ألغت فيه المحكمة قرارًا بالعفو.

ثالثًا، قد يصدر الرئيس عفوًا قانونيًّا. لكنه بذلك، وفق الحجة التي أقامها الفريق، قد يرتكب جريمة، هو نفسه. كان الفريق هنا، يستند إلى مقالة افتتاحية في صحيفة نيويورك تايمز الصادرة بتاريخ 21 تموز/يوليو 2017. كتب صاحبا المقالة، دانييل هيميل، وإريك بوزنر: إذا باع الرئيس عفوًا مقابل المال... من شأنه أن ينتهك قانون الرشوة الفيدرالي. وإذا كانت تجوز ملاحقة الرئيس ومقاضاته بتهمة إصدار قرارات عفو مقابل تلقّي رشى، فإن طبيعة سلطة العفو الواسعة وغير القابلة للمراجعة لا تحمي الرئيس من المسؤولية الجنائية في إساءة استخدام هذه السلطة».

وأخيرًا، درس المحقّق الخاص، في خطّته القانونية، ما قد يُعتبر سيد كل قرارات العفو المخزية، وهو قرار العفو الذي أصدره بيل كلينتون خلال الساعات الأخيرة التي سبقت نهاية ولايته سنة 2001، والذي شمل رجل المال مارك ريتش، الفارّ إلى سويسرا هربًا من التهم الموجهة إليه بالاحتيال المالي، والابتزاز، والتهرب الضريبي، والذي كان قد أسهم، وليس من قبيل المصادفة، في تمويل حملة كلينتون الرئاسية بسخاء. بعفوه عن ريتش، تجنّب كلينتون في اللحظة الأخيرة، تعرُّضه شخصيًّا للملاحقات القضائية بتهمة عرقلة محتملة لسير العدالة، والرشوة، وتبييض الأموال، وتهم أخرى. إن النقطة المهمة هنا، هي الآتية: بعد قرار عفو كلينتون عن

ريتش، اقترب المدعون العامون الفيدراليون من استنتاج فحواه أن بالإمكان توجيه تهمة إساءة استخدام سلطة العفو إلى كلينتون. في النهاية، اختارت وزارة العدل عدم السير في هذه الطريق (بدا أيضًا أن العفو عن ريتش كان جزءًا من مقايضة ديبلوماسية مع إسرائيل، حيث كان ريتش على الأرجح واحداً من أصول الموساد المالية). ولكن الجدية التي جرى التعامل بها مع هذه القضية، عَنَت أن تحدّي الرئيس وملاحقته بتهمة العفو مقابل المنفعة الشخصية، لم يكونا خارج نطاق الممكن.

* * *

مع ذلك، إذا كان العفو عن فلين يعرّض مصالح أي شخص أو حقوقه، للخطر، ويدفعه إلى الشهادة ضد الرئيس، فيمكن اعتبار هذا العفو مثالًا على استخدام الرئيس لسلطته بحيث لا يطاله القانون. إن مثل هذا العفو «يسيء إلى الدستور»، وفق الجملة المفتاحية في دعوى شيك ضد ريد. بعبارة أبسط، كانت سلطة العفو الرئاسية المطلقة تتعارض مع الضمانة الدستورية الأخرى: لا أحد فوق سلطة القانون.

«الإساءة إلى الدستور»، تلك هي الحجة القانونية التي كانت تستند إليها هذه المقاربة للقضية، والتي دفعت قلّة قليلة من المحامين الدستوريين ومحامي وزارة العدل، عندما اطلعت عليها، إلى القول إن نجوم السماء كانت أقرب. لكنّ مسوّدة خلاصة المحقق الخاص الساعية إلى منع عفوٍ رئاسيّ استباقي عن مايكل فلين، حاولت الدفع بهذه الحجة من دون اعتذار أو تحفُّظ.

وقد ورد في المسوّدة ما يأتي: «إنّ العفو الذي يزمعه الرئيس ترامب، فريد من نوعه وغير مسبوق. ولم يسبق أن سعى رئيس إلى عرقلة تحقيق جارٍ بهذه الوقاحة، عبر إصدار قرار بالعفو عن متهم يتعاون بنشاط مع تطبيق القانون. إن ما يزيد من فرادة عفو الرئيس، ويتجاوز الحدود المسموحة في الدستور، هو أن الرئيس شخصيًّا، يمثّل موضوع هذا التحقيق الذي يحاول عرقلته بالعفو عن هذا الشاهد الأساسي المتعاون.

«إن سلطة العفو الرئاسية، مهما اتسعت لن تكون مطلقة؛ بل هي محدّدة بنصّ بند العفو، الذي يحظّر ممارسة سلطة العفو في حالات العزل، وبموجب الدستور

ككلّ، الذي يحظّر أي فعل ينتهك الدستور أو يسيء إليه، بما في ذلك التعدي غير المشروع على فروع الحكومة الأخرى، أو تقويض المصلحة العامة من حيث الغرض أو التأثير. إن العفو الذي يزمعه الرئيس ينتهك صراحة اثنين من المحظورات الدستورية».

كانت هذه استراتيجية بعيدة المدى في أحسن الأحوال، لكن المرء يستخدم ما في حوزته.

الفصل التاسع
الانتخابات النصفية

في شهر أيار/مايو، أي قبل ستة أشهر من موعد الانتخابات النصفية لشهر تشرين الثاني/نوفمبر، وخلال ثلاثة اجتماعات متتالية مع الرئيس، جرى تسليط الضوء على خمسة وعشرين تنافسًا انتخابيًّا في سبيل الوصول إلى عضوية مجلس النواب. وقد أُعدّ موجز لإطلاع الرئيس على مجرى تلك الانتخابات، التي كانت جميعها في ولايات حرجة غير مؤكدة الفوز والربح، وكان ينبغي للرئيس أن يقوم بزيارتها، على الأقل، من وجهة نظر بعض المستشارين. ثمة وجهة نظر أخرى تبنّاها كوشنر ودافع عنها بقوة، بدعم من بعض قيادات الحزب الجمهوري، تنصح ببقاء الرئيس بعيدًا قدر المستطاع عن حملة الانتخابات النصفية.

بمعنىً ما، وفي أي حال، لم يكن لهذا النقاش أهمية أو جدوى من وجهة نظر ترامب، الذي بدا، وبعد ثلاث دقائق من بداية تلك الاجتماعات، ضجرًا ومشتّت الانتباه. وهو ذاته التصرُّف الذي بدر عنه أثناء العروض التقديمية العسكرية. عمليًّا، كان ترامب عاجزًا عن القيام بعملية حسابية بسيطة، وكانت الأرقام واللوجستيات تُشعره بالملل، بل أسوأ من ذلك، إذ كان يصاب بما يشبه تجمُّد الدماغ؛ لم يكن يستوعب شيئًا.

كان هناك عدد كبير من أعضاء مجلس النواب. لم يستطع تذكُّر أسمائهم. وعندما قيل له من أين هم، راح يدوّر عينيه بشكل مأساوي، واصفاً إياهم بـ «أهل الوسط»، ومضيفاً «باعةٌ في المتاجر المخصصة للرجال».

على أن انقسام مستشاريه إلى طرفين وتقديم كل منهما وجهة نظر تتناقض مع الأخرى لم يعنيا له شيئًا. كانت وجهة النظر الأولى ترى أن الانتخابات النصفية تمثل معركةً حاسمةً لرئاسة ترامب. وكانت الثانية ترى أن الانتخابات النصفية هي الانتخابات النصفية، وأن ما كان يحدث في تشرين الثاني/نوفمبر شأنًا معتادًا، لا أكثر ولا أقل.

كان نموذج العمل المعتاد، يعني أن نتائج الانتخابات النصفية كانت تأتي دائمًا بعكس ما يشتهيه الحزب الذي يُمسِك بزمام الأمور في البيت الأبيض. ثمة حقيقة أخرى إضافية كانت تهدّد تطلعات الحزب الجمهوري المستقبلية، وهي أن عددًا متهوّرًا من الجمهوريين، وقد تخلّى كثيرون منهم عن ترامب وعن السياسة في عصره، راحوا يستقيلون طواعية من مناصبهم. أضف إلى ذلك، النتائج المؤلمة لانتخابات عدّة غير مدرجة، حيث تحوّل الإقبال الديمقراطي، المتواضع عادةً، إلى طوفان أغرق الجمهوريين. الآن، مع اختتام الانتخابات التمهيدية، واقتراب بدء موسم الحملة الصيفي، كانت قليلةً المساراتُ التي تُمكّن الجمهوريين من الاحتفاظ بمجلس النواب. ومع ذلك، وعلى الرغم من خسارة كل من أوباما وكلينتون أكثريته في الانتخابات النصفية الأولى، فقد استمر كل منهما على رأس السلطة لولايتين متتاليتين.

بحسب أصحاب نظرية المعركة الحاسمة، كانت الحسابات الحالية ترجّح أن يواجه ترامب ولاية رئاسية من سنتين فقط. الآن، مع كسب ثلاثة وعشرين مقعدًا، قد يخسر الجمهوريون في السادس من تشرين الثاني/نوفمبر، ثلاثين، أو أربعين، أو خمسين، أو حتى ستين مقعدًا. في هذه اللحظة السياسية الدقيقة، قد يكون من المرجح أن ينتخب البلدُ كونغرس يصوّت لصالح إقالة الرئيس. وإذا سقط مجلس الشيوخ في أيدي الديمقراطيين، فقد يكون من المرجح أن يُصار إلى تصويت عقابي ضدّ الرئيس.

صحيح أن الجمهوريين قد يحتفظون بمجلس الشيوخ؛ لكن بانون، وحده ضد الجميع، توصّل إلى اعتقاد مفاده أن نتيجة المعارك الانتخابية كانت ثنائية. إذا احتفظ الجمهوريون بمجلس النواب، فستبقى رئاسة ترامب وأجندته قابلتين للحياة؛ وقد يتمكّن الرئيس من كبح جماح القوى المصمّمة على مواجهته. لكن إذا خسر الحزب الجمهوري مجلس النواب، فإن ترامب لن يتمكّن من تحمّل كونغرس معادٍ، قد يتلذّذ بالغوص عميقًا في كل أشغاله. لكن الأسوأ من ذلك، أن ردة فعل الرئيس الحتمية،

والتي وصفها بانون بأنها ستكون «جنونية» قد تقوّض دعم الجمهوريين له حتى في مجلس الشيوخ.

وإذا سقط مجلس النواب، فقد تثور ثائرة الحزب الجمهوري. وسينجم عن سقوطه خسارة خمسة آلاف موظف جمهوري عملهم، وستنخفض معهم بسهولة فوترةُ شركات اللوبي الجمهوري من عشرة ملايين دولار سنويًّا إلى مليون ونصف. إنها لكارثة، بسبب ترامب، تحلّ بجهاز العاصمة.

بالاستناد إلى وجهات نظر أصحاب نموذج العمل المعتاد، كانت الحسابات، في الواقع، تكرّر نفسها إلى حد بعيد. لكن، في هذا السيناريو، وبالاعتماد على بعض التحليل النقدي، فإن خسارة ثلاثين إلى ستين مقعدًا قد تكون هديةً لترامب، على افتراض أن الجمهوريين كانوا يحتفظون بمجلس الشيوخ على الأقل. تمامًا كما ترشَّح ضد واشنطن عام 2016 قد يكون قادرًا على تكرار ذلك عام 2020. على أن ترامب لا يستطيع أن يشعر أنه في حال جيدة إلّا عندما يواجه عدوًّا. كان بحاجة إلى الديموقراطيين كمعارضة هستيرية مسعورة. ولم يكن لدى «الأعداء» أفضل من نانسي بيلوسي لرئاسة مجلس النواب.

كان انتقاد ترامب المستمر لبيلوسي قد منحه طاقة جديدة، وقد وجد متعة خاصة في التقليل من شأنها. ولأنها امرأة، كان استهتاره بها يزيده استمتاعًا. ماذا؟ تقول عزلاً؟ فلنرَ ما في وسعها فعله. فمنذ أن ضمن مفتاح أمانه في مجلس الشيوخ، اعتقد أن العرض قد بدأ، عرضُه هو.

لطالما جذبت المواجهة وجهاً لوجه انتباه ترامب وراقت له. فقد كان ذلك يساعده على الخروج من تشتُّته الذهني الدائم. ربّما كان الصراع ضد الكونغرس قضية نبيلة، بيد أن كوشنر قدّر بالمجمل أن من الأفضل إبقاء ترامب بعيدًا من فوضى الانتخابات النصفية. كان ذلك جزءًا من أساليب العمل المعتاد. فإذا كان لديك رئيس مكروه، فعليك ألا تسمح له بأن يخطب أمام جمهور غير موالٍ. ومن الجدير بالذكر أن شعبية أي رئيس أميركي لم تتدنَّ قط مثلما تدنّت شعبية ترامب في الفترة التي سبقت الانتخابات النصفية.

ثم كانت هناك وجهة نظر ترامب الشخصية. حيث كان يجد صعوبة كبيرة في

الاهتمام بمشكلات الآخرين السياسية، إذ لم يكن يشعر أن هذه المشكلات تعنيه. ولم تمثل فكرة أن يكون الرئيس، في نهاية المطاف، مجرد جندي يعمل ضمن إطار جماعي في حزب معين أي قيمة له. حتى أنه لم يكن يطيق فكرة إلقاء كلمة ثناء في شخص غير شخصه.

كانت تفاصيل دوائر مجلس النواب تمثّل مشكلة أخرى. قد تكون السياسة شأنًا محلّيًا، ولكن المحلّي في نظر ترامب تافه ونتن. وعلى نحو خاص، كانت رقصةُ المرشحين الذين كانوا يطلبون تأييده مملةً، وفي الوقت نفسه كانوا يرغبون بالاحتفاظ باستقلاليتهم عنه. كان يحتاج إلى الحد الأقصى من الاحترام والانتباه، ويطالب بهما. لكنه كان يخشى الفاشلين أكثر من أي شيء آخر. وقد تركّزت جميع المناقشات القسرية، بشأن سباقات الانتخابات النصفية، في تكافؤ احتمالات الفوز والهزيمة، أي إن كل مرشح من أولئك المرشحين كان فاشلًا محتمَلًا، وبالتالي، قد تقترن اقتراناً مُنفّراً صفة الفشل هذه بترامب نفسه.

* * *

لم يكتفِ ميتش ماكونيل بالترويج لخسارة الجمهوريين مجلس النواب، بل كان يجيّر الخسارة لمصلحته، عبر استخدامه المجلس المنكوب كحجّة لجمع المال لمجلس الشيوخ. كان واثقًا أن أكثرية مجلس الشيوخ الجمهورية ستصمد، مع زيادة ستة وعشرين مقعدًا ديمقراطيًّا، مقابل تسعة مقاعد جمهورية. فضلاً عن ذلك، كان يعتقد أن الجمهوريين قد يحصدون مقعدين بل ثلاثة مقاعد إضافية. ربّما كان ترامب بمأمن في مجلس الشيوخ، وهذا ما كان يؤكده ماكونيل. لذا كان من الضروري التماسك والتراجع. كان ماكونيل يوطّد، أكثر فأكثر، سمعته كالناجي الأخير، واللاعب السياسي الحقيقي الوحيد بين أبناء جيله، متطلعًا إلى استحقاقات العام 2020، حيث يكون الدفاع عن مجلس الشيوخ أصعب كثيرًا.

كان بانون يعتقد أن قبول ماكونيل التخلي عن مجلس النواب، وهو قرار استراتيجي اتخذه بالتنسيق مع عصبة من الجهات المانحة الرئيسية للحزب، يقترب من المؤامرة. فإذا كان الديمقراطيون يخوضون حربًا معلنةً حتى الموت ضد ترامب، فإن حرباً سرّية حتى الموت كانت تخوضها ضد الرئيس قيادة الحزب، أو على الأقل ماكونيل ورايان. وكان القتال الدائر يهدف إلى السيطرة على الحزب.

بيد أن ازدراء ماكونيل لترامب كان بلا حدود. فهو لم يكن فقط أغبى رئيس على الإطلاق حدث له أن تعامل معه، بل أغبى شخص التقاه ماكونيل في الوسط السياسي. وقد كان ذلك يعبّر عن شيء ما. كان هو وزوجته إيلين تشاو، وزيرة النقل، يهزآن على الدوام بترامب ويقلّدان حركاته، كمشهد كوميدي يؤدّيانه لتسلية الأصدقاء.

إذا تمكّن الجمهوريون بطريقة أو بأخرى من الاحتفاظ بمجلس النواب عام ;، فقد يكون ذلك وفق صيغة بانون المحسّنة، نصرًا مكررًا لترامب. وقد يصبح النصر غير المتوقّع الذي توّج في انتخابات العام 2016 بمنأى عن أي خطرٍ الآن. وقد يكون للإخفاق في السيطرة على مجلس النواب تأثير قنبلة نووية في الديمقراطيين، لكن نجاحهم في السيطرة على مجلس «النوّاب» ذي الغالبية الجمهورية سيكون له أثرٌ مشابه من حيث القوّة في الجمهوريين، وسيؤدي إلى انهيار البنية الجمهورية، مشكّلاً بذلك تأثيراً أقوى بعد من التأثير السلبي الذي ألحقه نصر ترامب بالطبقة الحاكمة الجمهورية.

ولكن إذا حلّت الكارثة، وسيطر الديمقراطيون على مجلس النواب، فإن ميتش ماكونيل سوف يمسك عمليًّا بكل الأوراق. ترامب، الذي لطالما عمد إلى تسخيف ماكونيل والسخرية منه باستمرار بشكلٍ مسرحي، سوف يقع، من دون الدعم الجمهوري في مجلس النواب، تحت رحمة زعيم الأكثرية في مجلس الشيوخ.

من وجهة نظر ماكونيل، يشكّل ذلك الطريقَ التي تؤدي إلى استعادة الحزب من قبضة ترامب. ذلك أن مجلس نواب ديمقراطيًّا كان يعني أن ماكونيل وحده سيقف بين ترامب وعزله من المنصب. وسوف يكون ترامب أسير ماكونيل.

كان بانون مقتنعًا أن ماكونيل قد استخدم هذا السيناريو المكيافيلي ليستقطب العديد من الجهات المانحة الرئيسية للحزب. كان ماكونيل يريد أن يخسر الجمهوريون مجلس النواب، وكان يعمل جاهدًا على تحقيق هذا الهدف.

* * *

باختصار، لم يكن ترامب موهوبًا في التكتيك السياسي. كان حسُّه التنظيمي محدودًا، ولم يكن قادرًا على الاعتراف بجدوى الآخرين ومواهبهم. كانت غرائزه السياسية صمّاء، حتى أنه كان يتعامل مع كل شيء بردود فعل فطرية حصرًا.

عام 2016، خلال معركة فلوريدا الانتخابية المصيرية، ساعدت ناشطة سياسية تدعى سوزي وايلز، ترامب على التقدُّم وتجاوز عجز مهم. لكنه عندما التقاها أثناء الحملة، قال: «إنها تشبه ثلاجة بشعر مستعار»، وطلب أن تُطرد (لم تُطرَد، وفاز ترامب بفلوريدا).

الآن، في ربيع العام 2018، مع بيت أبيض خالٍ فعليًّا من أي شخصٍ قد يقول له ما لا يحب سماعه (علماً أن القادة السياسيين كانوا من بين الأشخاص الذين تجنّبهم ترامب)، كان ترامب قادرًا وبسعادة كبيرة، على تأجيل أي تركيز في سباقات الانتخابات النصفية الحاسمة.

كان كوشنر حريصًا على إبقاء والد زوجته بعيدًا من الانتخابات النصفية. لذلك تبنّى النهج الترامبوي: «فلنفعل أشياء كبيرة». قد نخسر مجلس النواب، لكنّ الانفتاح الجديد على كوريا الشمالية سيكون كبيرًا. يرى كوشنر الآتي: كلما زاد تركيز ترامب في شأن كوريا الشمالية، ضعفت قدرته على جعل الأمور أسوأ في سباقات الانتخابات النصفية.

في الفترة التي كان ينبغي للبيت الأبيض أن يتحضّر فيها للانتخابات النصفية، غادره ثلاثة من أقرب مستشاري ترامب السياسيين، هم: ديفيد بوسي، وكوري ليفاندوفسكي، وشون هانيتي. كان كلّ من هؤلاء الثلاثة يملك حسًّا واضحًا لما كان يعنيه شهر تشرين الثاني/نوفمبر القاتم لترامب. لكنّ الرجال الثلاثة كانوا يفهمون جيدًا أن علاقتهم بترامب تتعلق بتعزيز ما كان يؤمن به. «كل ما ينبغي فعله هو أن ندع ترامب يكون ترامب»، أوضح هانيتي. «دعه يذهب حيث يريد وشجّعه على الوصول».

فضلاً عن ذلك، كان الرجال الثلاثة ينظرون إلى العالم كما لو كانوا في خندق محصّن. كانوا من معدن المحاربين. كانوا مقاتلين. وإذا خسر الجمهوريون مجلس النواب في شهر تشرين الثاني/نوفمبر، فسوف يجدون أنفسهم في الموقع الذي كانوا يعرفونه أكثر من أي موقع آخر، أي الدفاع عن ترامب وإنقاذه من الهجوم عليه. لم يكونوا رجال سياسة، كانوا مؤمنين، وهذا بالضبط ما أراد ترامب لهم أن يكونوا.

أما الفكرة الرشيدة القائلة بأن الفريق الإعلامي في البيت الأبيض ينبغي أن

يتّبع ثيمة سياسية قادرة على توحيد البيت الأبيض والحزب في معركة واحدة أوائل شهر تشرين الثاني/نوفمبر، فلم تكن حتى في الحسبان. فبالإضافة إلى القصور في المواهب والقدرات القيادية ضمن الفريق الإعلامي الخاص بالبيت الأبيض الحالي، وبالإضافة إلى حرب العصابات الدائرة بين ساندرز، وكونواي، ومرسيدس شلاب، لم يكن عمل فريق التواصل يصبّ اهتمامه في العالم الخارجي، إذ كانت مهمته التركيز داخلياً بحيث، يهدف فقط إلى كسب رضى ترامب بالدفاع عنه، وبشكل يحظى بموافقته. بالطبع، كان ذلك مستحيلًا: لم يعجبه الفريق ولم يرض عنه قط. بالتالي، كان البحث عن طريقة متماسكة ومدروسة في التفكير بأي شيء، غير حاجة الزعيم إلى الطمأنة، ضربًا من ضروب المستحيل، وإن كان الضرر الذي سينتج من ذلك كبيرًا.

خارج جدران البيت الأبيض، كان الحزب قد استقرّ على استراتيجية خاصة به، تلك التي لا تمتّ بصلة إلى مزايا دونالد ترامب المفترضة. وبدعم من رايان وماكونيل، قرّرت لجنة الحزب الجمهوري الوطنية، ونشطاء انتخابات مجلس النواب ومجلس الشيوخ الجمهوريون، بل حقيقة الأمر معظم شخصيات الطبقة الحاكمة الجمهورية، العمل على مزايا قانون الإصلاح الضريبي الذي صدر أواخر العام 20. كان ماكونيل يردّد: «إنه الإصلاح الضريبي أيها الأبله»، كلّما سنحت له فرصة، وكان قصده من ذلك أن يوضح قدر الإمكان أن هذا الإصلاح الضريبي كان إنجازًا حقّقه الكونغرس بمساهمة شحيحة من البيت الأبيض الذي يسكنه ترامب.

* * *

مع اشتداد حدة السباقات، كان من الصعب أن نجزم إن كانت مهمة بانون إحباط ماكونيل أم إنقاذ ترامب. فبالقدر نفسه كان يحاول طبعاً موضعة نفسه. كان مقتنعًا بوجود حركة خلف ترامب، يمكنه أن يكون صاحب النفوذ فيها، أو حتى ملكها، وبأن السبيل إليها يكمن في توظيف الطبقة الحاكمة الجمهورية. بالتالي، إذا كانت مشاعره نحو ترامب، فلنقل باختصار، ملتبسة وغامضة، كان يعتقد أن عليه أن يبدو في عيون البائسين آخر رجل على متن سفينة تغرق.

كانت الطبقة الحاكمة الجمهورية، شأنها شأن الكثير من الأشخاص في البيت الأبيض، تكره بانون بقدر ما كان يكرهها. «من أين جاءت ثروة ستيف؟» سؤالٌ كان

يُطرح كثيرًا عام 2018. لقد دعم آل ميرسر، أي بوب، ملياردير صندوق التحوّط، وابنته ريبيكا، بانون وموقعه الإخباري بريتبارت نيوز لفترة زمنية طويلة. لكن ذلك كان قد انتهى، أو على الأقل، انتهى الدعم العلني، أوائل العام 2018، بسبب تمزيق الصحافة الرديئة لآل ميرسر، والتهديدات الشخصية ضدهم، والتي برأي الأسرة، كانت ناتجة عن ارتباطهم بترامب، وبانون، وبريتبارت.

بعد أن غادر البيت الأبيض في شهر آب/أغسطس عام 2017، وعلى غرار رجال أعمال سياسيين آخرين من الطيف الإيديولوجي، أطلق بانون منظمته الشخصية غير الربحية، التي كانت تستطيع جمع الأموال بشكل مجهول، أي من دون التصريح عن هوية الجهة المانحة. خلال الأشهر التي تلت خروجه من الإدارة، توجّه بانون إلى جميع مانحي ترامب الرئيسيين، خاطبًا ودّهم بكثير من الانضباط والاهتمام.

لاقت هذه الحملة الهادئة نجاحًا كبيرًا أثار انزعاج البيت الأبيض. فربما كان بعض مانحي الرئيس يدعمون بانون، وربما كان دعمهم هذا على حساب ترامب نفسه. كان إيجاد الرابط سهلاً. فكثيرون من مؤيدي ترامب الأثرياء معجبون بمعظم ما ينتهجه ترامب من سياسات، لكنّ معظمهم تقريبًا لا يحبّه شخصيًا. كان بانون قد أصبح مروّجاً لتناقضات ترامب. ليس ترامب هو المهم، كان يحاجج. المهم، هو: إلى أين قد يقودنا؟ فالوجهة هي المهمة، وليس الرجل الذي يوصلك إليها. وقد لاقى خطاب بانون هذا آذانًا صاغية. كانت هناك علاقاتُ معرفة تربط بين الأشخاص الذين كانوا يجدون ترامب سخيفًا، ولكن مع ذلك، كان لا بدّ من دعمه.

كان بانون يحتاج إلى فرضيّةٍ تنظيميّةٍ، وإلى شيء يعتمد عليه ليؤكّد أن الحالة طارئة. وباتت ثمة حاجة ملحّة الآن إلى إنقاذ ترامب من نفسه. لذلك، فإن منظمة بانون، مستفيدةً من عدم نقص الموارد المالية اللازمة، سوف تدعم حملةً انتخابية، تتمكّن من تجاهل حملة البيت الأبيض، إن لم نقل من منافستها، وستطغى في الوقت نفسه على مجهود الحزب الجمهوري الذي يعتبر الانتخابات ملكه.

بحلول شهر أيار/مايو، جمع بانون حوله فريقًا. وبدأ ينسّق جهوده عبر مكالمة هاتفية جماعية صباح كل يوم. من خارج مبنى «السفارة»، سرعان ما عمل على تطوير رسالة متماسكة، واستقطاب مشاهير يمثّلون الحملة، متمكّنًا بذلك من جذب

انتباه الناس ليتسمّروا أمام شاشات التلفزة وعلى المحطات الإذاعية، كما تمكّن أيضاً من تنظيم عملية اقتراع لفرز السباقات الانتخابية الستّين غير المحسومة.

لم يكن الموضوع هو قانون «الإصلاح الضريبي» أيها الغبي، بل كان ترامب.

كان بانون مقتنعًا بوجوب أن يكون ترامب حاضرًا على بطاقة الاقتراع في كل سباق. غالبًا ما يُتّهم السياسيون والناشطون السياسيون بأنهم على الدوام يديرون أي سباق انتخابي بالطريقة نفسها التي أداروا بها آخر سباق فازوا فيه؛ وفي نظر بانون كان يكرّر سيناريو العام 2016. وحده ترامب كان قادرًا على إلهاب القاعدة بما يكفي من الحماسة، بحيث يصوّت البائسون في انتخابات الكونغرس لمرشّحين مجهولي الهوية. كانوا يحتاجون إلى التصويت لترامب.

* * *

عادت الفرقة لتجتمع من جديد.

فقد انضمّ إليها سام نانبرغ، وديفيد بوسي، وكوري ليفاندوفسكي، وجيسون ميلر، وآخرون، أي كل الذين كان بانون قد اتخذهم تحت جناحه خلال الحملة.

ما يميّز فرقة بانون هو أنها حقًّا كانت فرقته، باستثناء ولاء ثانويّ لترامب وغالبًا إشكاليّ. وكما كان الأمر في نظر بانون، كذلك كان ترامب في نظرهم مربكًا ومزعجًا إلى حدّ بعيد، وغير قابل للمساءلة. لكنه في الوقت نفسه كان جزءًا مركزيًّا مهمًّا من حياتهم. فهو هاجسهم. وقد أرّقهم.

كان جزءٌ كبير من رواية ترامب اليومية قد تسرّب عبر هذه المجموعة، ولم يكن هذا الجزء يمثّل الجزء الإيجابي. كان بانون هو المصدر الرئيسي في البدء، ثم شيئاً فشيئاً، وبشكلٍ ثابت، صار الباقون يضيفون ما لديهم، همسًا أو جهارة. ترامب المهرج، ترامب الأبله، ترامب المعتوه. ترامب الذي لا ينفك يردد عبارات مثل: لا فرق عندي، أو، فليكن ما يكون، أو، أنا رجل كبقية الرجال. من هذا الطاقم، تشكّلت صورة ترامب الكوميدية.

على الرغم من أن بانون وأعضاء فرقته كانوا يعملون على دعم ترامب، فقد أضفوا على هذه الحملة مشاعر متناقضة، إن لم تكن ملؤها الألم. كان جزء من ذلك يعود إلى قربهم من ترامب. لقد احتضنهم جميعًا، وأحرقهم. لكن ذلك يعود أيضًا إلى طبيعة الأشخاص الذين جذبهم إلى مداره. كل فرد فيهم كان يعيش في مستوى ما من عبثية عالم ترامب وفوضاه العاطفية؛ كان مجرَّد جزء من تقلباتهم الشخصية المستمرة.

جيسون ميلر، وهو ناشط سياسي صبور، ضمّه إلى فريق حملة ترامب، كين كورسون، رئيس تحرير صحيفة كوشنر، نيويورك أوبسرفر. كان ميلر قد أصبح ناشرًا قديرًا لأخبار ترامب الكاذبة، ساعده على ذلك صبره ورزانته، كما بدا أنه كان مرشَّحًا لتولّي منصب مدير الإعلام في البيت الأبيض (في أثناء الحملة، كان ميلر أول ضيف صباحي. كانت مهمته التزلّف عن ترامب للصحافة الرديئة الصادرة خلال الليل والصباح الباكر). ثم انتشرت أخبار علاقة عاطفية بين ميلر وإحدى العاملات على حملة ترامب، علاقة أدّت إلى الحمل، في الوقت الذي كانت فيه زوجة ميلر قد حملَت أيضًا. بذلك ذهب منصب مدير الإعلام أدراج الرياح، وقد كان ذلك سيّئًا جدًّا. لكن القادم سيأتي بالأسوأ، فقد بدأت عشيقة ميلر آي. جاي، دلغادو، التي انتقلت مع والدتها إلى فلوريدا لتلد وتربّي طفلتها من ميلر، حربًا قانونية وإعلامية بهدف إفلاسه وفضحه. في غضون ذلك، أصبح ميلر مدافعًا مأجورًا عن ترامب على قناة السي. إن. إن. وقد دفع ذلك ترامب إلى القول: «يعمل معي الأشخاص الذين لا يريدهم أحد».

كان كوري ليفاندوفسكي، حتى الآن، ناشط سياسياً جمهورياً من الدرجة الدنيا، حصل على وظيفة مدير الحملة في الوقت الذي رفض فيه الجميع تلك الوظيفة. عندما كان ترامب يبحث عن تشكيل فريق لإدارة حملته عام 2015، كانت اتصالاته تمرُّ من يدٍ إلى أخرى كثمار البطاطا الحارقة، لم يكن أحد يريدها فيرميها إلى الآخر، حتى بين الناشطين الذين كانوا بلا شك بأمس حاجة إلى العمل. في الدقيقة الأخيرة، رفض ديفيد بوسي مقابلة ترامب نفسه، ومرّر الوظيفة إلى ليفاندوفسكي. كان ليفاندوفسكي قد اشتُهر بمزاجه المتقلّب، وعدم قدرته على تركيز انتباهه، واستماتته للحصول على عمل. في غضون فترة قصيرة، بات مكرّسًا لترامب كليًّا. فقد قال عنه بانون، وليس بالضرورة من قبيل الثناء، من شأن كوري أن يضع يده فوق شعلة،

ويراقب أصابعه تحترق قبل أن يذكر ترامب بسوء.

أصبح ليفاندوفسكي، على حد تعبير ترامب، «بمثابة ابني الحقيقي» (لكن ذلك لم يمنع ترامب من الاستهزاء به ونعته بـ «المتملّق»). تسبّب ذلك بمشكلات مزلزلة مع أبنائه الحقيقيين، وأدّى ذلك إلى فتح معركة مستمرة بين أسرة ترامب وليفاندوفسكي، انتهت بإخراجه في شهر حزيران/يونيو عام 2016 على يدَيْ دون جونيور وكوشنر. منذ ذلك الحين، حاول ليفاندوفسكي بنجاح أحياناً، إعادة نفسه إلى كنف أسرة ترامب السياسية.

كان بانون، الذي عمل في الماضي مع ديفيد بوسي على حفنة من أفلام دعاة الجناح اليميني، هو الذي أدخل بوسي إلى الحملة في شهر أيلول/سبتمبر عام 2016. (في الواقع، كان بوسي هو الذي قدّم بانون إلى ترامب لأول مرة، عام 2011، خلال اجتماع رفض إثره بانون بشكل قاطع جديّة ترامب كمرشح سياسي حالي أو مستقبلي). كان بوسي عضو الفريق الوحيد الذي يملك مواهب حقيقية في التنظيم السياسي. فقد ركّز في تطوير عملية ميدانية متينة، أطلق عليها تعريف «من الباب إلى الباب»[8]، كمفهوم جديد لحملة ترامب. لكن ترامب لم يكن يثق به تمامًا: «إنه مراوغ، لا يستطيع النظر في عيني». على غرار كريس كريستي، كان بوسي يميل إلى الاقتراب جسديًّا من ترامب، حيث يقتحم فضاءه الحميمي. «ثيران، ثيران، إنهم كالثيران من حولي طوال الوقت». هكذا كان ترامب يردّد شاكيًا. نظر كوشنر إلى عمل بوسي السابق في الجناح اليميني، كمحقق معاد لكلينتون إبان أعوام قضية وايت ووتر، وأحد المنظمين الرئيسيين لقضية سيتيزن يونايتد التي أطلقت العنان لعدد لا محدود من مساهمات حملة الشركة التسويقية، على أنه «مادة لمؤامرة كبيرة ينفّذها الجناح اليميني». في أثناء الفترة الانتقالية، جرى تجميد إمكانية شغل بوسي لمنصب في البيت الأبيض الجديد.

قد يجسّد سام نانبرغ، أكثر من أي شخص آخر، خطر العلاقة بترامب وعبثيتها. كان نانبرغ في السادسة والثلاثين من العمر، ذا وجه طفولي، وابنًا لمحاميين بارزين، تمكّن من الحصول على إجازة في الحقوق بسهولة. مع احتمالات ضئيلة بتحقيق حياة مهنية مجزية في مجال القانون، انتهى به الأمر إلى الانخراط في العمل السياسي التطوعي، ثم بوظيفة مع روجر ستون، وهو صديق ترامب

ومستشاره. كان ستون ناشطًا سياسيًّا فاقد الصلاحية من حقبة ريغان ومذمومًا وبغيضًا. مع ذلك، لم يكن يكل ولا يمل من الترويج لنفسه. عمليًّا، كان الجميع يجدونه سخيفًا باستثناء ترامب. حتى ترامب كان يعامله كالكلب الذي يعود دائمًا إلى البيت. عن طريق ستون، توصّل نانبرغ إلى العمل لدى ترامب بدوام كامل.

ابتداء من العام 2011، عمل نانبرغ لدى ترامب بشكل متقطع. كان مساعدًا سياسيًّا ومستشارًا مخلصًا وعنيدًا خلال السنوات التي لم يكن فيها ترامب أكثر من مهرج سياسي في أحسن الأحوال. «لا وجود للرئيس ترامب من دون سام نانبرغ»، هذا ما قاله بانون. «وعلى اعتبار أن ترامب قد أصبح يمثّل سردية سياسية، ولو نصف مشروعة، فنانبرغ هو الذي اخترعها».

إذن، فقد طرده ترامب بالطبع. «إنه يعيش مع والديه».

كان ليفاندوفسكي بديل نانبرغ. خلال الحملة، نشبت خصومة مرة بين ترامب ونانبرغ، استرسلا فيها، وكأن أحداً لا يراهما.

حتى بعد طرده، لم يبتعد نانبرغ قط عن مدار ترامب. وذلك يعود جزئيًا إلى عدم وجود وظيفة أخرى تلوح في الأفق. ولكن، أيضًا، لكون نانبرغ مستودعاً أساسيًّا لذاكرة ترامب المؤسساتية، وهو الشخص الوحيد الذي كان يعرف ترامب حقًّا. وكان يعرف مسالك الدخول إلى عالمه.

كان نانبرغ أيضًا مرجعاً ذكياً، ومصدرًا متاحًا على الدوام لكل مراسل صحفي يريد تغطية عالم ترامب. كان بلا شك الشخص الذي يمكن التعويل عليه لتأكيد أي قصة سلبية عن ترامب. وعندما كان ترامب ينتقد وسائل الإعلام، كان في كثير من الحالات ينتقد سام نانبرغ.

غالباً ما نانبرغ هو الذي يجمع ما بين شائعات ترامب وأخباره. فحين كان يتلقى شائعة، يحوّلها على الفور إلى حقيقة مبهِرة تقطع الأنفاس من مصدر أو حتى من عدة مصادر، ممّا كان يزيد من جدواه إن لم يكن من صدقيته. «أفكر في ماغي هابرمان»، مراسلة النيويورك تايمز التي تغطّي أخبار ترامب، «مثلما أفكر في جدتي»، قال نانبرغ. «أهرع إليها دائمًا».

ومع ذلك، وعلى غرار الآخرين، كان مقترنًا بترامب، بغض النظر عن مدى ما يجلب عليه مثل هذا الرابط من سوء.

في أواخر شهر شباط/فبراير، استُدعي نانبرغ للإدلاء بشهادته أمام هيئة المحلفين الكبرى، في إطار التحقيقات التي يجريها مولر. قُبَيْل مثوله أمام الهيئة، وصلته أخبار تقول إن ترامب قال بحقه كلامًا جارحًا. مرة أخرى، وبكثير من الألم، أعرب عن حزنه وألمه بقضائه عطلة نهاية أسبوع حافلة ببائعات الهوى والكوكايين. صباح يوم الاثنين، أرِقًا ودائخًا، قرّر رفض الذهاب إلى موعده للمثول أمام هيئة المحلفين الكبرى. أعلن عن رفضه وأعاد تأكيد هذا الرفض، الذي سيعود عنه في آخر النهار، في ما لا يقل عن أحد عشر برنامجًا تلفزيونيًّا أو إذاعيًّا، الواحد تلو الآخر، في ميلودراما ترامبية حيّة وكارثية من الألم، والتجريم، وتعاطي المخدرات. كان ذلك أيضًا عملًا إعلاميًّا بارعًا.

صبيحة أحد أيام الأحد من العام 1998 ظهر محامي مونيكا لوينسكي، وليم هـ. غينسبورغ في خمسة برامج حوارية تلفزيونية على التوالي في اليوم نفسه. منذ ذلك اليوم، عُرف ذلك الحدث باسم «غينسبورغ الكامل». تفوّق «نانبرغ الكامل» على حدث غينسبورغ بأشواط، وبعد عطلة نهاية أسبوع أكثر إفراطاً أيضاً.

«قال الجميع، لا يمكنك أن توظّف هذا الرجل، لقد تعاطى المخدّرات وظهر في أحد عشر برنامجًا»، قال بانون. «ولكن كيف لي ألاّ أوظّفه؟ لقد أمضى عطلة الأسبوع في التعاطي ومضاجعة زمرة من العاهرات ثم استيقظ وظهر في أحد عشر برنامجًا. كل شيء يكمن في جودة الرسالة التي تقول: تباً لكم، وهذه كانت رسالة بجودة عالية».

* * *

لا يمكن أن يفوتك حس الاعتماد المتبادل هنا. كان معاونو ترامب الرئيسيون يعملون لديه فقط، لأن لا أحد غيره كان يريدهم أن يعملوا معه.

وكان بانون قد خبِر مرارة أشياء كثيرة. ولكنه الآن، وهو في الرابعة والستين من عمره، ويعيش أفضل أوقات حياته، فقد كان انتخاب ترامب تحدّيه الأخير ورسالته الأخيرة القائلة: تباً لك. كانت مهمته في جزء منها، انتخاب ترامب تحديدًا،

من أجل إغاظة كل الذين لا يريدون له أن يُنتخَب وإهانتهم. «ما الديموقراطية، إن لم تكن مسألة إزعاج؟» كان يسأل. إن حقيقة أن ترامب هو ترامب هي مسألة أخرى؛ نعم، لم يكن السلاح المثالي، لكنه كان سلاحًا في متناول اليد.

كان بانون يرى في حملة ترامب ورئاسته تجروًا جزئيًّا. أوقِفني إن استطعت. وإن كنت لا تستطيع، فأنت تستحق ترامب. لم يكن احتقاره للديمقراطيين، على طريقته، موجهًا إلى الديمقراطيين بحد ذاتهم، بل لما كان يعتبره الرداءات التي يتسبّب بها مجموعة من النوّاب الذين لا يملكون المواهب السياسية الضرورية. كان يعدّد أسماءهم بنفس واحد: هيلاري كلينتون، إليزابيت وارن، كوري بوكر، كامالا هاريس، كريستن جيليبراند. «أهؤلاء كل ما لديهم؟ أهؤلاء كل ما لديهم؟ كفى! أنت تقتلني».

مع ذلك، كان الاحتفاظ بالكونغرس أمرًا ممكنًا على الرغم من ترامب. تلك كانت النقطة الحقيقية المهمة. لم يكن ترامب قادرًا على إدارة انتخابه أو إنجازه. لم يكن يستطيع التنفيذ، على أقل تقدير. كان هو مجرد رمز. لكنه، كما تبيّن، كان رمزًا خارقًا. بالتالي، هذا ما كان يحتاج إليه بانون.

في الحملة الانتخابية الرئاسية، لم يكن الفوز هو الهدف، بل تمثل بتخفيض هامش الفارق الانتخابي بما يرد لترامب اعتباره، من 7 أو 20 نقطة إلى 6 نقاط. بالنسبة إلى بانون، ربما كان ذلك في نظر بانون دليلًا كافيًا على إبراز المفهوم، الذي يبرهن على نجاح القضية الشعبوية. ثم فاز ترامب فعلًا، منتجًا بفوزه ديناميّة أخرى مختلفة كليًّا، وإشكالية.

الآن، في الانتخابات النصفية، قد تشكّل الهزيمة بفارق ضئيل وضعًا أفضل في حسابات بانون. فخسارة خمسة وعشرين مقعدًا، أي أكثر بمقعدين من أغلبية المقاعد، قد تعني أن ترامب سيكون بحاجة إلى كل صديق من أصدقائه، وبانون ضمنًا هو واحد منهم، وربما كان الأهم منهم جميعًا.

«أعتقد أن من الممكن فعلًا أن ننجح، ونحتفظ بمجلس النواب»، قال نانبرغ. «ذلك ممكن، حقًّا. ولكن، إن لم ننجح، فسوف يكون من دواعي السرور رؤية ترامب وهو يتلوّى. أنا مستعد لأن أدفع من جيبي مقابل أن أرى كيف سيكون رد فعله أمام

خسارته».

الفصل العاشر
كوشنر

بينما كان دونالد ترامب يوجّه تهديد «ناره وغضبه» على كوريا الشمالية عبر تصريحات مشتتة غير مترابطة، بعد مأدبة غداء في نادي بدمينستر للغولف الذي يملكه بنيو جيرسي، أقيمت في صيف العام 2017، بدأ صهره محادثة مختلفة كليًّا.

وبدعمٍ من هنري كيسنجر، ونتيجةً لشعورهم العميق بالقلق جراء تركيز ترامب في كوريا الشمالية، إلى جانب إدراكهم للنفوذ الذي قد يوفّره لهم الوضع الكوري الشمالي، اتصل الصينيون بجاريد كوشنر. كان هذا الشاب الذي لا يملك تجربة واضحة، قد رسّخ نفسه، لدى العديد من قادة العالم، ولدى والد زوجته أيضاً، على أنه العقل المفكر لسياسة ترامب الخارجية.

لطالما هدّد ترامب «بالتخلي عن» وزير خارجيته ريكس تيلرسون، وتنصيب كوشنر مكانه، علماً أن استياءه منه سرعان ما بدأ بالظهور. صرّح كوشنر لأصدقائه بأن الوقت كان لا يزال مبكرًا؛ إذ كان كيسنجر قد نصحه بالانتظار، مشيرًا عليه أن يضع اسمه أولًا على مبادرة من المقام الأول.

ذلك الصيف، وضع الصينيون كوشنر على اتصال مع مستثمر أميركي يدعى غابرييل شولز، ينتمي إلى طبقة جديدة من صيّادي الثروة الدوليين، الذين يعملون عند تقاطع الأسواق المالية العالمية والأنظمة المزعجة، بما في ذلك نظام كوريا الشمالية. كانت العلاقات الشخصية هي العملة الأكثر رواجًا وقيمةً، خصوصًا في أجزاء العالم

التي تسود فيها أنظمة استبدادية. منذ وصوله إلى البيت الأبيض، بذل كوشنر جهودًا كبيرة لتطوير علاقاته الشخصية مع قادة يستطيعون، بكلمة واحدة، تغيير شكل المسرح العالمي. هذا النوع من الرجال قادر على تسريع الأمور. وقد أراد الاثنان، كوشنر وترامب، تجاوُز وتيرة سير النظام الدولي البطيئة والحذرة.

إذن، بتشجيع من الصينيين، والقائد الكوري الشمالي كيم جونغ أون، كان شولز المبعوث المستتر. كان ترامب قد أعلن عن صراع حتى الموت مع الطاغية الشاب. لكنّ الصينيين رأوا في ذلك فرصة يمكن استغلالها. فخلال اجتماع شهر نيسان/إبريل عام 2017 في مارا لاغو، التقى ترامب الرئيس الصيني شي. وقد رعى كيسنجر وكوشنر ذلك الاجتماع. كان الصينيّون مندهشين من صراحة ترامب وعلانيته، ونزواته، ونقص المعلومات الأساسية الذي يعاني منه.

اعتقد الصينيون بعدم أخذ وجهات نظر ترامب المعلنة على محمل الجد. في الحقيقة، كانت مبادرة شولز تمثّل فهمًا معقدًا لحقيقة دبلوماسية ترامب الجديدة. في واشنطن ترامب، كان من الممكن تجنُّب وزارة الخارجية، ومنشآت السياسة الخارجية، ومجتمع الاستخبارات، وعمليًّا، كل عملية أو قيد دبلوماسيين. كان الالتفاف على الدبلوماسية المؤسساتية يمر عبر كوشنر، الذي نصّب نفسه خبيرًا في شؤون السياسة الخارجية. كانت ثمة نكتة مذهلة تُردّد في البيت الأبيض تفيد بأن كوشنر هو النسخة المعاصرة لمترنيخ.

خلال خريف العام 2017 وشتائه، حثّ كوشنر والد زوجته على تبنّي وجهة نظر مختلفة في قضية كوريا الشمالية؛ وقال له: إذا صنعت سلاماً، فقد تحصُل على جائزة نوبل للسلام، على غرار أوباما تمامًا.

على أثر ذلك، وفي العاشر من حزيران/يونيو، 2018، أي بعد أقل من عام على بدء تواصل شولز وكوشنر، وصل الرئيس إلى سنغافورة للقاء كيم جونغ أون. كان ترامب قد هدّد في الصيف الماضي بحربٍ وشيكة، لكنه لم يكن يعي المشكلات التي تنطوي عليها أزمة كوريا الشمالية الطويلة. والآن، لم يكن ملمًّا بالأزمة على نحو أفضل بكثير، لكنّه أتحف الزعيم الكوري الشمالي بأغرب أشكال التزلّفُ والمداهنة في تاريخ العلاقات الدبلوماسية.

* * *

لم يمض وقت طويل على انتخاب ترامب حتى اتصل كوشنر بكيسنجر طلبًا للنصيحة والاستشارة، وذلك بتشجيع من روبرت مردوخ، الذي ربطته به علاقة صداقة مذ كانا جارين في مبنى يقع على جادة بارك أفنيو، يملكه ترامب. كان كوشنر قد قرّر أن يشغل منصباً رسميًّا في البيت الأبيض، وبالنظر إلى علاقاته الأُسَرية بترامب، قد يتمكن من صياغة دور لنفسه، كقناة اتصال مباشرة بالرئيس. في هذا الإطار، تخيّل أنه يستطيع أن يُضفي وضوحاً وفاعلية جديدين على أكثر القضايا الدولية إلحاحاً، بفضل لمسته الشخصية. بدا أنه لم يكن مهمًّا ألّا تتجاوز معرفته الضئيلة لأبعاد هذه القضايا ما قرأه عنها في أعمدة النيويورك تايمز.

رأى كوشنر في كيسنجر مفتاحًا لقفزته الكبرى إلى الأمام. وقد شعر الرجل المسنّ بالإطراء، الذي كان في الرابعة والتسعين من العمر، بسبب الاهتمام الذي أظهره تجاهه الرجل الأصغر منه سنًّا. فكوشنر لم يكن يحترم ويبجّل كيسنجر فحسب، بل تبنّى عقيدته بكثير من الحماسة، أي الاعتقاد بأن المصلحة المتبادلة، ينبغي أن تشكّل الركيزة التي تستند إليها التحركات الذكية والحكيمة على رقعة الشطرنج العالمية، سعيًا إلى الحصول على المنفعة القصوى.

كوشنر، الذي كان يدرك تمامًا قلّة اهتمام والد زوجته بقضايا السياسة الخارجية، رأى في نفسه، ما رآه كيسنجر نفسه ذات مرة، أنه المستشار الأكثر حكمةً وتركيزًا لرئيسٍ تعوزه الحنكة. وبينما اعتقد البعض أن كيسنجر أصبح عجوزًا فارغًا، وأنه لطالما كان متسلّقاً اجتماعيًّا لا يرتدع، فقد كان كوشنر واثقاً بأن كيسنجر قد يمنحه ميزة خاصة في عالم واشنطن الجديد.

بوقاحة، تخلّى كوشنر عن الإشارة إلى صديقه الجديد باسم عائلته، كان يردّد: «يقول هنري...»، «كنت للتو أتحدث مع هنري...»، «أرغب في معرفة رأي هنري في هذا...»، «فلنُعلم هنري...».

أما إيفانكا، فكانت تشير إلى كيسنجر بـِ «العمّ هنري صديق جاريد»، في إشارة إلى أنها لم تكن توافق كليًا على التسمية التي اعتمدها زوجها.

وأما كيسنجر، الذي لا يزال نشطاً يسافر عبر مختلف البلدان، ولا يزال يعمل

وشركاءَه معظم أيامه، ولا يزال يرتقي اجتماعيًا، فقد كانت هذه الفرصة المذهلة تسمح له في مرحلة متقدمة من الشيخوخة، بأن يصبح المستشار الرئيسي لأحد أهم اللاعبين على مسرح السياسة الخارجية، وربما اللاعب الأهم في الحكومة الأميركية. أما النقطة الجوهرية، كما شرح كيسنجر لأصدقائه، فهي أن كوشنر كان مادةً خامًّا، بالنظر إلى انعدام خبرته في العلاقات الدولية.

خلال الأسابيع التي تلت الانتخابات، استمرّ كيسنجر في مديح استعداد جاريد وقدرته على الاستماع، وسرعته في التعلُّم. أما جاريد، فقد أشاد من جهته، ببراعة كيسنجر التي لم تتغيَّر، وصلته الوثيقة المتجددة بعالم معقَّد. حتى أن كوشنر اقترح كيسنجر وزيرًا للخارجية، ونقل له هذه الفكرة.

كان ترامب قد روى لبعض الأشخاص أنه يحظى بدعم كيسنجر الكامل في مساعيه الرامية إلى إقامة علاقة صداقة جديدة مع روسيا. وقال إن كيسنجر كان ينظر إلى بوتين «بفائق الاحترام.. كان يحبه».

خلال الجزء الأكبر من السنة الأولى للإدارة الجديدة، استمرّ جاريد في اللجوء إلى كيسنجر. حتى عندما بدأت سياسة ترامب الخارجية تجنح نحو اتجاهات مجهولة، من تهديدات بحرب طارئة، وتهديدات يومية بفرض رسوم جمركية، واحتضان ذليل لشخصيات استبدادية، ظلّ كيسنجر الذي يستمتع بمكانته الجديدة المرتفعة، ملاطفًا وداعمًا، مؤكدًا لدائرته الواسعة من خبراء السياسة الخارجية المعنيين، ورجال الأعمال الدوليين، أنّ الدراما والتغريدات كانت عرضيّة، وأنّ ترامب المتهوّر كان مكبوحًا بكوشنر العاقل المتفكّر.

ولكن في أوائل العام 2017، ضغط كوشنر على كيسنجر، وطلب إليه كتابة كلمة ثناء يزكّيه فيها، ويقترح ورود اسمه في قائمة التايمز السنوية، التي تضم مئة شخصية، هي الأكثر تأثيرًا في العالم. بدا كيسنجر مجبرًا على تحقيق توازن بين طموحاته الشخصية ونقص حسن النية في سياسة كوشنر الخارجية.

وكواحد من أفراد أسرة ترامب، يعرف جاريد حق المعرفة حاجات الرئيس

المعنوية. وهو، كمتخرج في جامعتَيْ هارفارد، ونيويورك، يتمتَّع بدرجة تعليمية عالية، ومعرفة لكيفية الإدارة كرجل أعمال. ينبغي لذلك كله، أن يساعده على النجاح في أداء دوره الشاق بالتحليق قريبًا من الشمس.

لم يخفَ تحوطه المُبطن في رهانه على كوشنر على أي من خبراء السياسة الخارجية في إدارة ترامب الجديدة.

* * *

خلال الجزء الأعظم من عامهما الأول في واشنطن، بدا جاريد وإيفانكا في أحيان كثيرة، نادمَين على انتقالهما إلى مناصب رسمية. كما بدا أن الرئيس أيضًا كان يعيد النظر في الأمر على نحو متكرر. كان يُنظر إلى كوشنر المحاصَر كرجل ألقى عليه والد زوجته باللوم إثر اتخاذه سلسلة من القرارات الخاطئة، بما فيها طرد كومي. وقد دفع ذلك ستيف بانون إلى مهاجمته بضراوة في العلن، وبشكل قاتل على انفراد. خلال وقت قصير، أصبح كوشنر إحدى الشخصيات التي تحظى بأقل قدر من التعاطف في دوائر السياسة الحديثة (كان دون جونيور قد أصبح بديلًا منشودًا لوالده في أوساط الجناح اليميني، في حين انتهت سريعًا الجهود المبذولة في تحسين صورة جاريد الشعبية). وفي عيون الكثيرين، كان الزوجان الذهبيان قد فقدا ميزتهما الاجتماعية وبريقهما إلى غير رجعة. حتى جيرانهما، كانوا يديرون لهما ظهورهم. «لا أعتقد أن أحداً يمكنه أن يفهم ما مررنا به»، أفضت إيفانكا إلى أصدقائها.

ولكن خلال عام الإدارة الثاني، بدأ بالظهور تصور جديد، لما وصفه ريكس تيلرسون، وزير الخارجية آنذاك، بـ «حالة جاريد كوشنر الغريبة». كان تيلرسون قد توصّل إلى كره كوشنر، بسبب تدخُّله وتسريباته وأجندته الشخصية. مع ذلك، بدأ تيلرسون والمسؤولون الإداريون والمعنيون بإنفاذ القانون، بالانتباه إلى أن جاريد، الفتى الغر، والضحية السافرة لعدم كفاءته وغطرسته كان يتابع مخطَّطًا محسوبًا بدقة.

كانت ثروة كوشنر الشخصية تعتمد على أعمال غير مستقرة، يقوم أساسها المالي على قروض لا تتمتع بالأهلية الائتمانية. كان ذلك النوع من القروض الذي تضمنه العلاقات الشخصية، وتجارة المحسوبيات والنفوذ. وغالبًا ما كان يجري

الحصول على تلك القروض من بلدان ذات قوانين تنظيمية متراخية.

كان تشارلي، والد كوشنر الشهير بخبثه ووحشيته، قد دخل السجن الفيدرالي بتهمة الغش الضريبي والتلاعب بالشهود. كما أنه حاول ابتزاز صهره عن طريق امرأة تعمل في الدعارة. ولكن اتفق الجميع على أن خطايا الأب، الذي وصفه ترامب بالنصاب المفلس، لم يكن لها أي تأثير في طبيعة جاريد المنظمة والرزينة إلى حد بعيد.

مع ذلك، لم تغيّر طباع جاريد من حقيقة العجز المالي الكبير الذي كانت تعاني منه أعمال الأسرة. تلك هي طبيعة الأعمال العقارية عمومًا. لكنّ قفزة الأسرة من المقاولة في بناء الشقق الحدائقية في نيوجرسي، إلى ملكية برج مانهاتن وعقارات أخرى في نيويورك سيتي، كانت متهوّرة إلى حد بعيد. وقد حدث الجزء الأكبر من هذا التحوُّل برعاية جاريد وإدارته إبّان وجود والده في السجن. مع بداية إدارة ترامب، واجه آل كوشنر ضرورة إعادة تمويل فورية لملكيتهم الأهم، العقار رقم 666، من الجادة الخامسة، وسوقًا متوترةً أدّت إلى تعثُّر مشروعهم في بناء مركز تقني على العقار الواسع الذي يملكونه في حي بروكلين.

جعل قرار جاريد بدخول البيت الأبيض أعمال الأسرة أكثر انكشافاً على العلن من ذي قبل. وفضلاً عن ذلك، وضع قراره هذا والد زوجته في وضع فظيع. إذ لا ينال من الرجال الأشداء إلا ذووهم. كان لدى ترامب ما يكفيه من المشكلات التي لا تُحصى، وبات عليه الآن أن يهتم بمشكلات آل كوشنر.

مع ذلك، فإن ما بدا أنه ضرب من ضروب السذاجة وسوء الحكم، بدأ يتضح أنه تحرُّكات لاعب عالية الخطورة. لعلّ مظهر كوشنر الذي بدا أنه يعبّر عن اتزان وضبط للنفس، لم يكن إلّا واجهةً. ولكن مهما يمكن قوله عن البيت الأبيض بحلول ربيع العام 2018، فقد تمكّن جاريد من تجاوز الجزء الأكبر منه بنجاح؛ كان الشخص الوحيد الذي استطاع ذلك، بالإضافة إلى زوجته. وقد كان له تأثير فريد في القنوات الخلفية لعالم كان جاريد يعوّل عليه كثيرًا من أجل أداء دور أساسيّ في ضمان ثروته.

* * *

خارج الديمقراطيات الغربية، كانت معظم سياسات العالم الخارجية ذات طبيعة مبنيّةً على الصفقات. كان الإثراء الشخصي، والحفاظ على السلطة الفردية، من أكثر المشاغل إلحاحاً في جميع أنحاء العالم، في ما عدا أكثر البلدان والمناطق استقراراً. وقد أصبح ذلك أشد وضوحًا عندما بدأت الثروات الشخصية تنافس الحكومات أو تتعاون معها. كان لعالم الأوليغارشيات المليارية، من روسيا إلى الصين، ومن جنوب آسيا إلى دول الخليج، بعثاته الدبلوماسية الخاصة به. وقد بات الأشخاص، الذين يملكون المال لدفع الرشاوى، والذين يعتقدون أساسًا أن أي شخص قابل للرشوة، والذين مارسوا نفوذهم وضغوطهم على الهياكل القانونية التي قد تحدّ من الرشوة، بات هؤلاء لاعبي السياسة الخارجية الرئيسيين في مناطق رئيسية من العالم.

لعقود، أحبطت الولايات المتحدة بشكل موثوق الجهود الدبلوماسية المستقلة وتلك المبنية على الصفقات. فقد كانت الحكومة الأميركية واسعةً جدًّا، ومؤسساتها راسخة جدًّا، وبيروقراطيتها قوية جدًّا، وبنيات السياسة الخارجية الخاصة بها نافذة جدًّا. بالتالي، كان على عالم المصلحين والمشغّلين الذين غالباً ما تُطلق عليهم تسمية «مستثمرين» و«ممثلين» للتخفيف والتلطيف من حدة الوصف، أن يكدح بالطول وبالعرض لكي يُسمع في أروقة واشنطن.

ثم دخل جاريد كوشنر.

ما إن انتُخب والد زوجته رئيسًا، حتى أصبح جاريد الرجل المنشود لأي حكومة أجنبية تميل إلى التعامل مع أسرة حاكمة، عوضًا عن نظام من المؤسسات. فبدل أن تخضع لبيروقراطية ثقيلة، وغير متجاوبة في معظم الأحيان، من أجل التحكيم في مشاغلك وتسويتها، كنت تستطيع الذهاب إلى كوشنر مباشرة، وكوشنر بدوره يذهب إلى الرئيس المنتخب. فمنذ أن جرى تنصيب ترامب، كان لديك، عن طريق كوشنر، خط شبه مباشر مع الرئيس.

وسرعان ما ولّدت الصفقات الجانبية، والتقديمات الشخصية، والمقايضات، والعملاء، قوة دبلوماسية موازية، ممثلة في فيلق من الأشخاص الذين يقدّمون أنفسهم كأصحاب علاقة مباشرة مع الرئيس. نذكر منهم، على سبيل المثال، محامي الرئيس الشخصي مايكل كوهن، الذي انخرط في عالم الأعمال، وراح يجمع الأموال من

شخصيات وأنظمة مشبوهة؛ وكريس رودي، الذي كان مقرّبًا من الرئيس في بالم بيتش، حيث كان يدير موقعًا إخباريًا محافظًا، ويسوّق فيتامينات مُكمّلة، وتلقّى بشكل فجائي في شهر أيار/مايو، 2018، عرضًا استثماريًّا بقيمة 90 مليون دولار من قطر؛ ودافيد بيكر، صديق الرئيس، وصاحب صحيفة ناشيونال إنكوايرر، الذي أدخل وسيطًا سعوديًّا رفيعًا إلى البيت الأبيض، وراح، فجأةً، يتحدث مع السعوديين من أجل دعم جهوده الخيالية، إن لم تكن الغريبة، في شراء مجلة التايم.

لكن قناة الاتصال الأكثر فاعلية كانت صهر ترامب. فقد تمحورت استراتيجية الدبلوماسية الروسية والصينية والشرق أوسطية حول كوشنر، بخلاف الأوروبية والكندية والبريطانية، التي بدا أنها كانت تعاني من جراء ذلك.

في صفقة جانبية تُعَدّ سابقة في تاريخ الدبلوماسية الحديث، اتّصل وسطاء سعوديون من طرف نائب ولي العهد السعودي، محمد بن سلمان بكوشنر، إبّان المرحلة الانتقالية، قبل دخول ترامب إلى البيت الأبيض. كانت القضية الرئيسية التي تهمّ بيت آل سعود قضية ماليةً، ولا سيما انخفاض أسعار النفط، والطلبات المتزايدة للأسرة المالكة التي تعتمد على ريع إنتاج النفط. وقد رأى نائب ولي العهد أن الحلّ يكمن في التنويع الاقتصادي، الذي يمكن تمويله عن طريق الاستحواذ العام على شركة أرامكو لإنتاج النفط، والتي جرى تقييمها بتريليونين دولار.

ولكن أولًا، كان يتعيّن على الخطة أن تتغلّب على عقبة كَأْداء، هي: قانون العدالة ضد رعاة الإرهاب، الذي وُضع خصيصًا لتمكين ضحايا الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، من مقاضاة المملكة العربية السعودية. وإذا أُدرجت أرامكو في سوق التداولات الخارجية، فسوف تصبح مكشوفة أمام أي شخصٍ يحاول الاستفادة من الميزات التي يوفّرها قانون العدالة ضد رعاة الإرهاب؛ في الواقع، ستكون مسؤولية أرامكو غير محدودة عمليًّا. بالتالي، مَن سيفكّر في الاستثمار؟

لا داعي إلى القلق: كان كوشنر يعمل على الصفقة. إذا ساعد محمد بن سلمان كوشنر في جملة من الأمور، بما فيها الضغط على الفلسطينيين، فسوف يساعد كوشنر محمد بن سلمان. بيد أن ما أرعب وزارة الخارجية، التي كانت تدعم ابن عم محمد بن سلمان ولي العهد محمد بن نايف (م ب ن)، هو، في الواقع، أن محمد بن سلمان سيكون أول زائر رسمي للبيت الأبيض. بعد ثلاثة أشهر، وبغياب أي

اعتراض من طرف البيت الأبيض، أطاح محمد بن سلمان ابن عمه، وأصبح ولي العهد، والوريث المفترَض للعرش، والزعيم السعودي الفعلي.

كانت ضربة إدارة ترامب الأولى.

بهدف كسب مساندة كوشنر، راحت دول الخليج الغنية، أي قطر، والإمارات العربية المتحدة، والمملكة العربية السعودية، تتنافس، أو تتعاون. في هذا الجو، وفي ظل هذه الظروف، وجد كوشنر نفسه، بل تموضع، واحداً من اللاعبين الأساسيين في أكبر بقعة جغرافية من العالم تتدفق فيها السيولة النقدية في ظل غياب تام لأي قوانين ناظمة، أو رقابة.

* * *

بطريقة شبه رسمية، اعتبر البيت الأبيض في عهد ترامب، الصين العدوّ الأوّل، بدلًا من روسيا والاتحاد السوفياتي السابق. كان ترامب يكنُّ للصينيين كراهية شخصية: لم يكونوا «الخطر الأصفر» فحسب، بل كانوا منافسين غير شرفاء. دعم موقف ترامب هذا نظرية الحقل الموحد للقرن الحادي والعشرين التي تبناها بانون. كانت الصين القوة الصاعدة التي من شأنها أن تغرق الولايات المتحدة وتفجّر فقّاعتها الاقتصادية، ساحبةً العالم إلى دوامة مرعبة.

كان موقف كوشنر أقلّ وضوحًا.

كان ستيفن شوارزمان واحدة من صلات وصل كوشنر الرئيسية، وهو الرئيس التنفيذي لمجموعة بلاكستون، أحد أكبر صناديق الأسهم الخاصة، التي كانت استراتيجية أعمالها ترتكز على النمو المستمرّ للسوق الاستهلاكية الصينية. أدخل كوشنر شوارزمان إلى البيت الأبيض لكي يترأّس إحدى مجموعاته الاستشارية في مجال الأعمال التجارية. نتيجة ذلك، أصبح شوارزمان أهمّ صلة وصل لترامب في عالم الأعمال المزدهرة.

شكل كوشنر وشوارزمان وشخصيات أخرى تابعة لوول ستريت معارضة بانون ومهندسَيْ سياسة ترامب التجارية في البيت الأبيض، بيتر نافارو وروبرت لايتزر. واقترحت المجموعة المناهضة للصين حربًا تجاريةً شاملةً ضدها. وسعَت

مجموعة كوشنر التي تربطها بالصين علاقات عميقة متنامية، إلى عقد صفقة أكثر مرونة.

في أوائل العام 2017، أطلع مسؤولو الاستخبارات الأميركية كوشنر على ماضي وندي دنغ، زوجة روبرت مردوخ السابقة. قبل عقد من الزمن، كانت دنغ قد سهّلَت كلتا العلاقتين: علاقة كوشنر بمردوخ، وعلاقة كوشنر بإيفانكا، إحدى صديقات دنغ المقرّبات. وقد استمرّت علاقات مردوخ-دنغ وكوشنر-ترامب، في التوسّع عندما كانوا يسكنون جميعًا في مبنى ترامب الواقع في جادة بارك أفنيو. الآن، في البيت الأبيض، قيل لكوشنر إن ثمة أسبابًا وجيهة تدعو إلى الاعتقاد بأن دنغ كانت تتجسّس لمصلحة الصينيين. فقد جرى إعلام كوشنر بأنها كانت تزوّد المسؤولين الرسميين، ورجال الأعمال الصينيين، بالمعلومات على نحو منتظم، مستفيدةً من علاقاتها الاجتماعية والسياسية.

كان ذلك ما حدث، تمامًا كما كان يقول زوجها السابق لكل من أراد أن يسمع: كانت وندي تعمل لمصلحة الصينيين، وربّما كانت دائمًا تعمل لمصلحتهم. («كنت أعرف ذلك»، صرّح ترامب). رفض كوشنر تقييم الاستخبارات، وقال، بكل ثقة، إن مردوخ قد أصبح عجوزًا خرفًا.

بعد الانتخابات بثمانية أيام، وبمساعدة من دنغ، تناول كوشنر العشاء مع وو شياو وي، رئيس شركة أنبانغ للتأمين، وهي تكتل مالي صيني متعدد الأنشطة. كان وو الذي شارك شوارزمان في عدد من الصفقات، شريكًا مقرّبًا من القيادة الصينية، إذ كانت زوجته حفيدة الزعيم الصيني السابق دنغ شياو بينغ؛ وكان أحد أنجح ملوك المال قاطبة في الحقبة المالية الحالية؛ ذلك أنه قد حوّل أنبانغ من شركة برقم مبيعات إجمالي لا يتجاوز بضعة ملايين من الدولارات، إلى شركة عملاقة تبلغ قيمة أصولها المالية 300 مليار دولار، وذلك خلال عشر سنوات فقط.

خلال أشهر الإدارة الأولى، فاوضت أسرة كوشنر وو ودفعَت باتجاه صفقة إنقاذ بكفالة مالية للعقار 666، في بارك أفنيو. في شهر آذار/مارس 2017، وبعد دعاية سلبية حول الصفقة، انسحب الطرفان. في شهر حزيران/يونيو، عزلَت الحكومة الصينية وو من الشركة. وبعد ذلك، حاكمته وزجّت به في السجن بتهمة الفساد المالي.

* * *

مثّل كوشنر وبانون صوتين متعارضين في البيت الأبيض: العولمة الليبرالية، والجناح اليميني. كان بانون يعتقد أن كوشنر يجسّد وجه العولمة الليبرالية الحقيقي، الهادف إلى المنفعة الشخصية. وكانت احتياجات أسرة كوشنر اليائسة للسيولة النقدية، تحوّل السياسة الخارجية الأميركية إلى مشروع استثمار مصرفي مكرّس لإعادة تمويل ديون أسرة كوشنر. كانت الخدمة في جهاز الحكومة تسهّل تحقيق الطموحات المهنية الشخصية وجمع الثروة. لكن كوشنر كان، بنظر بانون، قد ذهب بعيدًا جدًّا، إلى مستويات فلكية من المنفعة الشخصية.

استمرّ الخلاف الشخصي والإيديولوجي الدامي بين بانون وكوشنر حتى ما بعد دفْع بانون إلى الخروج من البيت الأبيض. في الحقيقة، كان الكثيرون يعتقدون أن بانون كان فقط، ينتظر أن ينكشف أمر كوشنر ويُنفى من البيت الأبيض، وبالتالي، ينفتح باب عودته شخصيًّا. لكنّ بانون توصّل إلى الاعتقاد باستحالة فصل جاريد عن الرئيس، وأن جاريد قد تحوّل إلى خطر آخر مميت يحيق بترامب. قال بانون: «سيكون كلاهما سعيدًا بدفع الآخر تحت عجلات الحافلة». وأضاف: «لكن مصالحهما وصفقاتهما المشتركة بلغت حدًّا يجعل دهس أحدهما دهسًا للآخر».

كانت مسرحية أسرة ترامب-كوشنر الاجتماعية تؤدّى على مستويات عدة من الفضيحة، أبعد من الاهتمام المتواصل بفرص الصفقات المالية. فقد كان هناك حاكم نيو جرسي السابق كريس كريستي، الذي لاحق تشارلي كوشنر. حثّ تشارلي جاريد وإيفانكا على تجميد تسليم كريستي المرتقب منصباً رفيعاً في إدارة ترامب. كان كريستي الضليع بممارسات أسرة كوشنر في مجال الأعمال، أو هكذا كانت تعتقد القوى المؤيدة لجاريد، والمناهضة له، يتحدث بلا رحمة إلى زملائه السابقين في وزارة العدل بشأن نقاط الضغط التي يمكن أن تمارَس وتُطبّق على الأسرة وأميرها التافه. كان أيضًا يزوّد الصحفيين بتفاصيل تحقيقه في قضايا أسرة كوشنر عندما كان مدّعيًا فيدرالياً عامًا.

* * *

رأى جاريد نفسه حلاّلاً للمشكلات. كان ذكيًّا ومنهجيًّا. وما النجاح إلّا في

مواجهة التحديات وتخطّيها. كن واضحًا في ما تريد. كن واضحًا في ما يمكنك الحصول عليه. ركّز حيث يمكنك أن تُحدِث الفرق. «إن اعتماد جاريد على نفسه، وحديثه الواثق كرجل أعمال من الصف الأول، هما الأمران اللذان جذبا إيفانكا إليه»، بحسب أحد أصدقاء الزوجين.

مع ذلك، وبحلول ربيع العام 2018، أصبح جاريد كوشنر جبهةً أخرى في مشكلات الرئيس القانونية. كان أحد الأشخاص المعنيين بتحريات المحقّق العام. وكان محط أنظار المدّعين العامّين الفيدراليين في كل من المنطقتين الجنوبية والشرقية لمدينة نيويورك (كانت المنطقة الشرقية تطالب بأسبقيتها في «كل ما يمت إلى كوشنر بصلة»)؛ كما كان نائب عام منطقة مانهاتن يبحث عن نصيبه من التشويق.

كان أحد جوانب التحقيق، اللافتة للنظر في قضية كوشنر، يشمل كين كورسون، وهو واحد من أزلام كوشنر ومعاونه، تولّى عام 2013، رئاسة تحرير صحيفة كوشنر، نيويورك أوبسرفر، بعد أن اصطدم عدد من رؤساء التحرير مع كوشنر، بسبب رغبته في استخدام الصحيفة لدعم مصالح أسرته المالية. في الآونة الأخيرة، كان كوشنر قد ساعد كورسون على الانضمام إلى مجلس إدارة الوقف القومي للعلوم الإنسانية. دقّق مكتب التحقيق الفيدرالي في خلفية كورسون، والمرحلة التي تعود إلى صيف العام 2018، حيث ركّز في سلسلة من الادعاءات تلت تفكُّك زواجه خلال العامين 2013 و2014، بما فيها العنف الزوجي، والتعقُّب، واستهداف صديقة زوجته المفضّلة، التي تعمل طبيبة في مستشفى جبل سيناء. كانت الطبيبة تحتفظ برسائل إلكترونية، ومعلومات إلكترونية أخرى تضر بكورسون، وهي معلومات لم تكن تتعلق بحياته الزوجية فقط، بل بصحيفة نيويورك أوبسرفر وكوشنر.

تحوّلَت متاعب كورسون إلى مشكلة في ضمان براءة كوشنر الشخصية. كانت المنطقة الشرقية، ومكتب التحقيقات الفيدرالي، يواصلان التحقيق في تقارير تفيد بأن كوشنر قد اتّخذ إجراءات قصوى لمساعدة صديقه. كانت طبيبة مستشفى جبل سيناء تسكن شقة في المبنى الذي يعيش فيه كوشنر، ويملكه ترامب (كانت زوجة كورسون قد سهّلت في السابق، بمساعدة كوشنر، قدوم الطبيبة إلى المبنى). وقد جرى إبلاغ المدّعين العامّين ومكتب التحقيقات الفيدرالي، بأنّ كوشنر قد استخدم مفتاحًا مشتركًا للمبنى، ودخل خلسةً إلى شقة الطبيبة بهدف الاستيلاء على حاسوبها

الشخصي.

كان السعي إلى الإيقاع بكوشنر قد بلغ حدّ السعي إلى الإيقاع بترامب نفسه. وبالإضافة إلى إعادة النظر في صفقة أنبانغ، كان المدّعون العامّون ينظرون عن كثب في قرض مصرفي تبلغ قيمته 285 مليون دولار، حصل عليه كوشنر ووالده من الدوتش بانك عام 2016، وكذلك في مشروع إنقاذ مالي موجَّه مباشرة إلى وزير المالية القطري عام 2017.

أصبحت الآن إمكانية اتهام صهر الرئيس موضوع نقاش وحساب دائمَين بين العديد من ممثلي وسائل الإعلام والديمقراطيين، بالإضافة إلى موضوع قدرة الرئيس على التصرّف حيال الأمر. ودار تساؤل يقول: إذا وقع قرار الاتهام، فهل سيأتي قبل اتهام نجل الرئيس دون جونيور، أم بعده؟

تكهّن محامي كوشنر آبي لويل، الشهير بالقيل والقال، لأصدقائه بما يمكن أن يصبح معضلة مدهشة: الاضطرار إلى الاختيار بين الوالد ووالد الزوجة، الذي صادف أنه الرئيس. بدا أن لويل كان يستمتع بخيار الشيطان هذا. في الوقت نفسه، كان على ما يبدو يقول في كل مكان، إن كوشنر بات خارج نطاق الخطر، ويدعي أن الفضل في ذلك يعود إليه. أصبح لويل أحد المستشارين الرئيسيين، ليس فقط في قضايا كوشنر القانونية، بل في الاستراتيجية السياسية الأوسع لجاريد وإيفانكا.

كانت حملة 2020، تمثل لكوشنر اللعبة المرتقبة التي يخطّط لها. وقد بدا مقتنعًا بأن الجمهوريين سيفقدون مجلس النواب في تشرين الثاني/نوفمبر، 2018؛ فليكن. ولكن، بغض النظر عمّن سيكون المرشح الديمقراطي عام 2018، فمن المحتمل أن يكون سباقًا انتخابيًّا متقارباً للغاية. وقد يشكّل هذا الاحتمال ميزةً خلال الحملة: فالنِسب المتقاربة من شأنها أن ترُصّ صفوف الحزب. وما دام الحزب الجمهوري صامدًا، فإن بإمكانهما عرقلة السم الديمقراطي. ومع وجود أغلبية في مجلس الشيوخ، فإن العزل أصبح تهديدًا غير مؤثّر.

قال كوشنر لأصدقائه، إنّ رئيس الوزراء الإسرائيلي، وصديق الأسرة «بيبي» نتنياهو، هو قدوته. وكان بيبي، الذي يُبدي اهتماماً دائماً بقاعدته، دائم القدرة على مواجهة التهم الموجّهة إليه، لأن احتمالات فوزه بالانتخابات القادمة مؤكدة

دائماً. في أوائل العام 2018، قام كوشنر بتثبيت حليفه براد بارسكيل، الذي أدار جهود جمع البيانات في الحملة الرئاسية للعام 2016 - رئيسًا لحملة 2020. متطلعًا إلى الأمام، كان كوشنر يخطط لأخذ زمام الحملة بنفسه، في الوقت المناسب.

إنّ ما بات يقف بين الحاضر والمستقبل، هو تقلُّب والد زوجته. وكان جاريد يناقش مع أسرته فقط، لاسيما مع والده وشقيقه، ما يمثله العمل مع ترامب ومحاولة إدارته، من تحديات استثنائية. كان تحليل كوشنر مماثلًا لتحليل كل شخص قضى وقتًا طويلًا بجوار الرئيس. لقد كان طفوليًّا، طفلًا مفرط الحركة والنشاط. لم يكن هناك سبب واضح يفسّر لماذا يهتم بأمرٍ ما دون سواه، ولم يكن هناك أي طريقة للتنبؤ بردّ فعله تجاه هذا الأمر، أو صياغة كيفية استجابته له. لم يكن لديه القدرة على التمييز بين المهم والأقل أهمية، كما لو أنّ الحقيقة الموضوعية شيء لا وجود له.

كان جوش، شقيق كوشنر المناهض بشدة لترامب، يحاول دائمًا أن يشرح لأصدقائه تورُّط شقيقه في إدارة ترامب. وكان يردّد: إنه يشعر بما يشعر به الجميع. إنه يرى بوضوح.

لكن مستقبل جاريد كان يعتمد على إدارة ترامب. كان عليه أن ينجز ما يقرب من المستحيل الذي كان في الواقع يعتقد أنه قادر على إنجازه. كان الجانب السلبي كبيراً. ولكن كان هناك الجانب الإيجابي أيضاً. لقد رأى هو وزوجته مستقبلًا يحوّلان فيه لحظتهما تحت الشمس الدولية إلى شيء ذي قيمة هائلة لهما.

كان ذلك خاصيةً مركزية في البيت الأبيض. ولكي تفهم تمامًا رغبة الزوجين، ترامب وميلانيا، الأولين في البيت الأبيض في التقدم، كان عليك أن تُقدّر اعتقادهما، بأنّ أمامهما، دربًا مفتوحةً تؤدّي إلى بيتهما الأبيض الخاص بهما. كان هذا البيت الأبيض الذي يسكنه ترامب، مجرّد نقطة انطلاق.

* * *

على الرغم من أنّ كوشنر كان المحرّك الرئيسي لقرار طرد كومي، وهو القرار الذي أدّى إلى نشوء جميع الأزمات التي تلت أو معظمها، فإنه أصبح الآن مناصرًا قويًّا لعدم طرد مولر أو روزنشتاين. متأثراً بأبي لويل، كان جاريد قد توصل إلى رؤية العملية القانونية على أنّها إجراءات احتواء وإدارة. وقد أشار إلى ذلك

صديق لكوشنر قائلاً: «يحب جاريد أن يكون له مرشد خاص».

لم يكن الوضوح أمراً مرغوباً، وكان تشتّت ترامب يساهم في غياب الوضوح المرغوب ذاك. كما أن رفع مستوى الصراع لم يكن أمراً مرغوباً أيضاً، وهي النتيجة المتوقّعة من ترامب عند مواجهته أي مشكلة. في ذهن كوشنر، أصبحت معركة والده تشارلي لإفشال التحقيق الذي أجراه المدّعون العامّون الفيدراليون نموذجًا لما يجب ألّا نقدم عليه.

«علينا ألّا نكسر شيئاً»، تلك كانت نصيحة كوشنر المتكرّرة لوالد زوجته الذي كان يتصرَّف كثور في متجر للخزف الصيني.

بينما كان يترسَّخ اعتقاد بانون بأن طول عمر إدارة ترامب يعتمد على نتائج الانتخابات النصفية، كان كوشنر يعتقد بأنّ حظوظ والد زوجته، وحظوظه الشخصية أيضًا، تعتمد على التحضير لحملة العام 2020، والمشاركة فيها. كان عليك فقط أن تصل إلى هناك، لكي تحافظ على تقدُّم ترامب إلى الأمام.

فهم جاريد أن الإلهاء وصرف الانتباه مفتاح تسيير والد زوجته. وهذا ما كان يدركه أيضاً أفراد أسرة ترامب، وطاقم منظّمته، وجميع مَن في «المتدرّب»[9]، والآن كلّ من في البيت الأبيض. فضلاً عن ذلك كان كوشنر يرى أنه سيكون أكثر قدرةً على إقناع ترامب بالانخراط في السياسة الخارجية، إذا تمكّن من تقليص اهتمامه بقضاياه السياسية والقانونية الأكثر إلحاحًا. وقد أصبح ذلك أيضًا، جانبًا إيجابيًّا لإيمان كوشنر، بأنه قادر في الواقع أن يكون شريك والد زوجته، وأنّه، أكثر من أي شخص آخر في البيت الأبيض، قادر على فهم رغبات ترامب الحقيقية واستثمار أجندته. بل إنه ذهب أبعد من ذلك، وبمكرٍ فاعتقد أنه قادر أن يجعل من أجندته الشخصية أجندة ترامب.

* * *

في أوائل العام 2018، وبينما كان كوشنر يصقل استراتيجيته لتحويل تركيز ترامب عن مشكلاته الحالية، بدا متأثراً بالنصيحة التي تلقّاها من كيسنجر، الذي عمل مستشارًا للأمن القومي ووزيرًا للخارجية في إدارة نيكسون. كانت رحلات نيكسون

الخارجية قد صرفت انتباهه عن مشكلاته القانونية. وقد لاحظ كيسنجر أن ذلك صرف انتباه وسائل الإعلام أيضًا.

خلال غداء في بدمينستر، بُعَيد حلول رأس السنة الجديدة، قال كوشنر لوالد زوجته إن عليه أن يعيد النظر كلّيًّا في نهجه حيال كوريا الشمالية، ثم راح يفنّد النتائج الإيجابية: لن يغيّر ترامب بذلك الرأي العام العالمي حيال رئاسته فحسب، بل سيتمكّن من تمريغ أنوف الكثير من كارهيه. كانت استراتيجية التصدّي وحلّ أكثر الأوضاع تقلّباً في العالم، استراتيجية مضمونة العواقب من حيث تأثيرها في العلاقات العامة.

سيكون الأمر أشبه بذهاب نيكسون إلى الصين، هذا ما قاله كوشنر للرئيس، إنه تطور تاريخي كبير. وهو الذي تخلّده كتب التاريخ؛ إنها عبارة ترامب المفضلة والجاهزة.

أكد كوشنر لوالد زوجته أنه يستطيع إعلان النصر في حملته ضد كوريا الشمالية، وإعلان السلام. كان كوشنر قد سمع، أو على الأقل، هذا ما قاله لوالد زوجته، أنّ كيم، لم يكن جاهزًا لعقد اتفاق فحسب، بل إنه، شخصيًّا، معجب بترامب. كان الإطراء يتدفّق عبر القنوات الخفيّة.

طوال ذلك الغداء المؤلّف من الهامبرغر، حُيّدت جانبًا حملة ترامب التي استمرّت عامًا كاملًا في مواجهة كوريا الشمالية، وشيطنتها، واستفزازها. كانت تلك الحملة مبادرة شخصية لا يدعمها أحد في البيت الأبيض.

* * *

كان بانون يعتقد أنّ كوشنر وترامب، مخدوعان بالصينيين. وكان يراقب رحلات قطار كيم من بيونج يانج الكورية إلى بكين الصينية. وقد خلص إلى أن الدولة التابعة للصين ستزوّد ترامب بفرصة رائعة في العلاقات العامة. لكنّ هذا من شأنه أن يمنح الصين المزيد من النفوذ. بعد التفاوض على صفقة مصافحة واهية مع كيم، سيكون ترامب رهينةً للصينيين، لأنّه سيحتاج إليهم من أجل إلزام الكوريين الشماليين الوفاء بوعودهم التي قطعوها.

اندلعت أخبار القمة المقترحة مع كيم في أوائل آذار/مارس. فشعر أعضاء

فريق ترامب للسياسة الخارجية، وهم تيلرسون، وماتيس، وماكماستر، وحتى بومبيو الموالي بكل إخلاص، بالارتياح إثر توقُّف الرئيس عن إصدار تهديدات متهورة. لكنهم سرعان ما ارتبكوا وأصابهم الهلع، حين لاحظوا أن ترامب قد بدّل موقفه الازدرائي ليحلّ محلّه موقفٌ مستعدّ لتقديم الكثير من التنازلات. وبغياب مراجعة سياسية، وعدم وجود تغيير حقيقي في المواقف الكورية الشمالية، غير الموسيقى الخلفية، وافق ترامب على تغيير جذري في موقف البلاد تجاه كوريا الشمالية.

كان ماتيس هو الذي قيل إنه حدد نظرية «ذيل الكلب»[10] العكسية. ففي العام ، شنّت إدارة كلينتون غارات جوية على معسكرات أسامة بن لادن المزعومة، فكانت هجوماً لا طائل منه، بحسب اتهامات النقاد، إذ كان هدفها يقتصر على جذب الانتباه بعيدًا عن فضيحة مونيكا لوينسكي. وقد شكّلت حدثًا يعكس بشكل مخيف مؤامرة فِلم عُرِضَ مؤخَّرًا، عنوانه: ذيل الكلب. قد تعمل المناورة مع كوريا الشمالية بشكل جيد: ستقدم سلامًا مزيّفاً يصرف انتباه وسائل الإعلام والمعارضة، ويشتّته. لكن ذلك لم يكن كل شيء. فقد خلص فريق ترامب للسياسة الخارجية أيضًا، إلى الآتي: رغم أن تغييراً حقيقيًّا لن يطرأ على قدرات كوريا الشمالية على التهديد، فإن ذلك قد يؤدّي إلى تحويل نظام عدائي إلى نظام أقلّ عدائية على ما يبدو. وسيقلب الأمور رأسًا على عقب، لكنّه سيشكّل انتصارًا كبيرًا للدبلوماسية.

بدأت نظرية جديدة بالظهور في البيت الأبيض، وهي نظرية بدا أن كوشنر كان يعمل عليها. كان الخوف من احتمال ذهاب ترامب إلى الحرب، وقيامه، في إحدى نوبات الغضب أو جنون العظمة، بإطلاق العنان لقوة الجيش الأميركي الهائلة، خوفاً في غير محلّه. كانت الحرب الحديثة تعتمد على البيانات. ويستدعي الذهاب إلى الحرب شجرة قرارات تشتمل على نقاط بيانات أكثر تعقيدًا. وهذا لا يعني ساعات طويلة فحسب، بل يعني أشهرًا عدّة من الاجتماعات، وعروضًا توضيحية كثيرة. لكن ترامب لم يكن لديه صبر على مثل هذه الاجتماعات. منذ أن بدأ يهاجم كوريا الشمالية، لم يتمكّن أحد من حمله على قضاء أكثر من بضع دقائق لمراجعة الجدول المحضّر بعناية والذي يفند توقّعات ما قد يحدث في حالة القيام بتحركات عسكرية ضد كوريا الشمالية.

لم تكن القضية أنّه قد يتصرَّف بتهوُّر ورعونة، لأنّه لم يفهم عواقب القيام

بذلك. كانت القضية أنّه لا يستطيع فهم الخيارات الفعلية التي يتعيّن اتخاذها من أجل التصرف. في الواقع، لم يتمكّن حتى من البقاء في الغرفة لفترة كافية، بغية تحديد مسار العمل. كان ترامب، يرى أن ضباب الحرب سوف يباغته قبل إعطاء الأمر الأول.

* * *

في الأسابيع التي سبقت الرحلة الكبرى إلى سنغافورة، أصبحت المخاوف بشأن صعوبة إحاطة الرئيس بالتطوّرات والمعلومات مصدر قلقٍ بالغ، وموضوعًا لكوميديا من الطراز الرفيع. لم يكن يدرك أي شيء هناك، أكان جغرافيًّا أم اقتصاديًّا أم عسكريًّا أم تاريخيًّا. حتى أنه قد لا يستطيع تحديد شبه الجزيرة الكورية على الخريطة!

لكن، مع اقتراب الرحلة، كان ترامب يزداد ثقة وحيوية. كان يتصرف كقائد. كان يؤدي دوره ببراعة. ثم بدا أنه لا يشعر بمثقال ذرة من التردُّد بشأن الطريقة التي سيتعامل بها مع نفسه، على الرغم من إدراك البيت الأبيض بأكمله لحقيقة أن ترامب لم يكن يعلم شيئًا عن الوضع الحالي.

أما ماتيس، فقد كانت مشاعره تتصارع بين الارتياب والاشمئزاز. فقد بدأ يقول أمام الناس، إنه يشك في تمكّنه من تقديم أي مساهمة في العملية، سواء من حيث كيفيّة كبح جماح الرئيس، أو كيفيّة تحريكه.

كان ترامب يعد بـ «نزع السلاح النووي»، في حين كان البيت الأبيض ومسؤولو السياسة الخارجية يُبطئون السير خلفه ويحاولون توضيح عدم وجود خطّة عملية لتحقيق هذه الغاية، وعدم توفُّر شروط حالة نزع السلاح النووي في وقت ما من المستقبل. بعد ذلك، وفي تحدٍّ سافر لمعايير كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية الأساسية والافتراضات المتعلّقة بهما، أو ربّما بهدف إغاظة مجتمع السياسة الخارجية ولاسيما ماتيس الذي كان يُتعبه ويثير غضبه باطّراد، بدأ ترامب فجأة في الحديث عن انسحاب الوحدات العسكرية الأميركية من شبه الجزيرة الكورية. هكذا، وربما مقابل لا شيء، قد يعطي الصين وكوريا الشمالية ما تريدانه أكثر من أي شيء: التغيير التحويلي الذي من شأنه أن يزيل الولايات المتحدة من معادلة القوة في

المنطقة. ولكن سرعان ما أصبح إيقاف هذه الكارثة الهدف الرئيسي لفريق السياسة الخارجية. فالقمة الناجحة، هي تلك التي لن تسمح للصين وكوريا الشمالية بتحقيق النصر الكامل.

شكلت تلك واحدة من أكثر اللحظات غرابة على الإطلاق، في تاريخ السياسة الخارجية الأميركية. فجأةً، بدا رئيس الولايات المتحدة المشاكس وكأنه داعية سلام. قريبًا سيعانق عدوه القاتل، وقد يدير له الخد الآخر. كما بدت وسائل الإعلام، التي انتقدت ترامب بمرارة بسبب موقفه العدائي، في حيرة من أمرها، وقرّرت أن عليها تهنئته بسبب لغته الجديدة والمفاجئة، في التسامح والصبر والهدوء والمودة.

* * *

وصل الرئيس إلى سنغافورة في العاشر من حزيران/يونيو. رافقه مايك بومبيو وجون بولتون وجون كيلي وستيفن ميلر وسارا هاكابي ساندرز، ومساعد مستشار مجلس الأمن القومي مات بوتينجر. كان ترامب قد دعا هانيتي للحضور، لأنه سيكون أشبه بالصحفي الرسمي للقمة. ما إن بدأت الرحلة، حتى كانت احتفالية بالكامل. لم تشُبها إلاّ شكاوى ترامب بشأن الاضطرار إلى مقابلة رئيس وزراء سنغافورة، لي هسين لونغ، في اليوم التالي لوصوله.

«كما تعلمون، لدينا اجتماع مثير للاهتمام غدًا»، قالها ترامب في تصريحاته العلنية لرئيس الوزراء لي. «لدينا اجتماع مثير للاهتمام على نحو خاص غدًا، وأعتقد أنه سيكون اجتماعاً ناجحاً».

صرّح بومبيو للصحفيين، قائلاً: «الرئيس مستعدّ جيدًا لموعد الغد مع الرئيس كيم»، على الرغم من أنه قال لأصدقائه سرًّا إنّ ترامب قد تجنّب الإجابة عن أيّ سؤال لم يكن سطحيًّا وبسيطًا.

في الثاني عشر من حزيران/يونيو، اجتمع الرئيس ترامب والرئيس كيم، بُعَيد الساعة التاسعة صباحًا.

«أشعر أنني بحالة جيدة حقًّا»، صرّح الرئيس في أثناء التقاط صورة تذكارية مع كيم قبل لقائهما. «سيكون نقاشنا عظيمًا، وأعتقد أننا سنحصد، نجاحًا هائلًا.

سيكون ذلك ناجحًا بشكل هائل. وهذا شرف لي. وستجمعنا علاقة رائعة، ليس لديّ أدنى شك».

قال كيم على لسان مترجمه: «حسنًا، لم يكن من السهل الوصول إلى هنا. كان الماضي يقيّد أقدامنا بما يشبه السلاسل، وكانت الآراء المسبقة والممارسات القديمة بمثابة عقبات في طريقنا إلى الأمام. لكننا تغلّبنا عليها جميعًا، وها نحن هنا اليوم».

التقيا لمدة ثمانٍ وثلاثين دقيقة.

لم تكن قمة تتحوَّل فيها العلاقة بين دولتين إلى اتفاق نهائي بعد مناقشة أدق تفاصيله. بدلًا من ذلك، سجّل الاجتماع بداية العلاقة المقلوبة الجديدة بين رجلين، لا يتحدّث أي منهما لغة الآخر. قبل القمة، كانا عدوّين لدودين. بعد الاجتماع، سيتحولان إلى صديقين مخلصين يتبادلان الاحترام. وقد جرى الاستغناء عن أي مناقشة جوهرية للسياسة، حتى بين المساعدين. كل ما ابتغاه كلا الرجلين التصديق على علاقتهما الجديدة، وإثبات صفتهما كقائدين نهائيين.

«باهر»، قالها بانون، مستحسنًا حضور ترامب. «إنه يتمتّع بحضور قيادي كامل. هذا أمر لا يعرف شيئًا عنه، ولا يمكن إطلاعه على شيء بشأنه، لأنه لا يستطيع فهم استيعاب ما يُقال له. لذلك توقّف الجميع عن المحاولة. يقولون له إن النووي أسوأ من كل شيء، ويأملون في أن يفهم. لكنه يملك حضور القائد. «إنه يؤدي الدور».

كانت، أيضًا، لحظة أُلقيتْ فيها من النافذة كل الادعاءات القائلة بأن السياسة الخارجية عمليةٌ منظمة، ومؤسَّسة، تقوم على نظرية السبب والنتيجة، وتركيز الخبراء. وهي اللحظة ذاتها التي بدا فيها أنّ ترامب قد فقد جيم ماتيس الذي شكّل الجسر الأخير للفكر المنظّم في الإدارة.

بدأ ماتيس بالاعتقاد أنه وجد في ترامب القبطان كويغ[11].

الفصل الحادي عشر
هانيتي

بحلول الأسبوع الثاني من شهر حزيران/يونيو، كان عناصر من وكالة إنفاذ قوانين الهجرة والجمارك يقومون بإبعاد الأطفال عن أمهاتهنّ. تحوّلت الصور المتداولة عن إجراءات الفصل التي قام بها عناصر الوكالة المذكورة إلى حالة يومية في عهد ترامب.

وفي سياق محاولاته لشرح مزايا سياسة ترامب الجديدة التي تقضي بفصل الأهل عن أطفالهم عند عبور الأُسَر الحدود الجنوبية للولايات المتحدة الأميركية، أشار بانون قائلًا: «في العام 2015، عُثر على الطفل السوري الكردي إيلان البالغ من العمر ثلاث سنوات على الشاطئ اليوناني بعد أن جرفته الأمواج، وانتشرت صورته على المستوى العالمي. غير أن تلك اللحظة لم تثر موجة من الاشمئزاز لمطالبة العالم بمزيد من التزام الأخلاقيات، بل إن العالم طالب عندها بوضع حد لمسألة الهجرة التي بدأت تخرج عن السيطرة. وكل من صوّت لترامب، سيجدد ذلك التصويت من خلال كل صورة تمثل مهاجرين مكسيكيين، أطفالًا أو بالغين، معًا أو كلًّا على حدة».

وتوقع بانون أن تعود مسألة الهجرة التي كانت طاغية في العام 2016، بمنافع كثيرة على ترامب خلال انتخابات التجديد النصفية للعام 2018. فالهجرة لم تكن المكوّن الأساسي للتيار الترامبوي فحسب، بل شكلت أيضًا الركيزة الأساسية على الصعيد الفكري التي يمكن لأي شخص غبي أن يفهمها. في هذا السياق، علّق بانون قائلًا: «هناك ما يقارب سبعة مليارات نسمة في العالم، ستة مليارات منهم

يرغبون في الانتقال إلى الولايات المتحدة وأوروبا، ليعيشوا فيهما. وما عليكم سوى أن تقوموا بالحسابات».

وبحسب الدراسات البحثية الداخلية، تحوّلت مسألة الهجرة إلى موضوع يعوَّل عليه، يُعرض في وقت الذروة على قناة فوكس نيوز. فالإعلانات الترويجية على شبكة فوكس للروايات المخيفة المتعلقة بالهجرة، قادرة على جذب الجمهور المتململ، وإبقائه متسمّرًا أمام شاشات التلفزيون. وقد لوحظ خفض نسبة الانتقال من قناة إلى أخرى خلال عرض المقاطع الخاصة بالهجرة. كذلك ساعد شون هانيتي على تسجيل أرقام مشاهدات قياسية بفضل الحرب المقدَّسة التي شنّها ضد الهجرة.

وفي حين أن بانون كان يؤمن، سواء على الصعيد الشخص أو العلني، أن ترامب الذي نجح في الصمود خلال المرحلة الأولى من ولايته، قد يشعر بالتململ من الرئاسة بحلول العام 2020. وقد علق قائلًا: «انظر إليه يا رجل». فإذا أخفق ترامب في ممارسة مهماته سنة 2020، فإن بانون، الذي كانت الكوارث والمآسي اليومية والفرص الضائعة أمام رئاسة ترامب تعيد تفعيل دوره، يرى نفسه مرشّحاً للرئاسة عن الحركة الشعبوية القومية المناهضة للهجرة بشكل جذري. ويرى أيضاً في شون هانيتي مرشحًا محتملًا إلى جانبه.

من جهته، أكد هانيتي الذي كان يميل إلى التهكم، ولم يحاول يومًا إخفاء طموحاته الشخصية العظيمة، أن هذا السيناريو مثير للسخرية، مشيرًا إلى أنه سيحتل المرتبة الأولى، متوقعًا أن يأتي بانون في المرتبة الثانية «إذا حالفه الحظ».

* * *

يعتبر هانيتي حاليًّا من أغنى الرجال العاملين في حقل الأخبار التلفزيونية. ففي العام 2017، أكد روجر أيلز، رب عمله السابق والرجل الذي تسبَّب في سحبه من وظيفة في قطاع التلفزيون مردودها 40 ألف دولار سنويًّا، أن ثروة هانيتي تقدَّر بمبلغ يراوح بين 300 مليون دولار أميركي و400 مليون. فمنذ أن بدأ هانيتي بكسب مبالغ كبيرة، استثمر أمواله في قطاع تأجير العقارات في شتى أنحاء البلاد. وأضاف أيلز قائلًا: «إن بمقدور هانيتي أن يمتلك كل قطعة أرض سيّئة في أميركا». غير أن بانون، الذي لا يمكن أن يغض الطرف عن أي دعابة بديهية، علّق قائلًا: «وكم يبلغ

عدد الأشخاص غير الشرعيين المقيمين في العقارات التي يؤجّرها هانيتي؟».

على غرار معظم العاملين في قناة فوكس نيوز، كان هانيتي يمارس عمله على مدى أكثر من 20 سنة، مُظهرًا الكثير من الولاء والامتنان لأيلز، مدركًا إدراكًا لا لبس فيه أن أيلز هو العقل المدبّر لكل العمليات، والوسيط المثبّت لروح العصر السياسي المحافظ من دون منازع. خلال جنازة أيلز في بالم بيتش في أيار/مايو 2(، كان هانيتي، الذي قام بنقل عدد من زملاء أيلز وأصدقائه بطائرته الخاصة، ينوي العودة إلى دياره، بعد أن تأخّر على حضور مباريات واحد من أولاده بسبب طول كلمات الثناء خلال الجنازة. ولدى خروجه من المكان للتحدث على الهاتف مع ابنه الخائب الأمل، قال له: «إنني في غاية الأسف. إنني في غاية الأسف. ولكن قل لي شيئًا، هل أنت راضٍ عن حياتك؟ حسنًا، إننا ندين بذلك كله للسيد أيلز. ولهذا السبب، علي البقاء حتى انتهاء مراسم الجنازة».

وبعد طرد أيلز من شبكة فوكس في تموز/يوليو 2016 نتيجة اتهامه بالتحرُّش الجنسي، كانت الشبكة بحاجة إلى رسالة موحَّدة جديدة، وإلى سبب للاستمرار. فعلى مدى عقدين من الزمن، نجح أيلز في خلق الرسائل، والأنماط والعديد من الشخصيات التي تبنّاها الحزب الجمهوري. فتحوّلت شبكة فوكس، بالتالي، إلى علامة جمهورية، تعتمد إضفاء الطابع الدرامي على السياسة ودرّ الربح منها بطريقة لم يسبق لها مثيل. تشكّل قناة فوكس نيوز التي تبلغ أرباحها السنوية 1,5 مليار دولار أميركي، الجزء الأكثر إدراراً للربح من إمبراطورية روبرت مردوخ. ولكن مع غياب أيلز المعني بخلق السيناريوهات وتنمية المواهب، كان لا بد من إدخال تعديلات مهمة. فقد حذر أيلز على مدى سنوات طويلة من خطر أن تتحول القناة إلى المتحدث بلسان البيت الأبيض: فأهمية فوكس وتفوُّقها إنما هما ناجمان عن كونها تمسك بدفة القيادة وليست تابعة لأحد. والواقع أن الحزب الجمهوري والرؤساء التابعين له كانوا يدينون لقناة فوكس. غير أن فوكس تدين حاليًّا لترامب، العقل المدبر لتوجهات العصر الجديد.

بعد إبعاد أيلز، واجهت عائلة مردوخ، التي تسلّمت زمام الأمور في قناة فوكس، صراعات يومية بشأن الإدارة الفعلية: هل هي من حق الأب أم من حق واحد من أبنائه؟ وفي حين أن روبرت، الذي اعتُبر الصحفي الأكثر شراسةً ونجاحًا بعد أن قضى أربعة وستين عامًا من العمل في مجال الصحافة، لم يفقد ذرة من اهتمامه في

الأخبار التلفزيونية، تميّز ولداه لاشلان وجيمس بكونهما من السياسيين المعتدلين الطامحين إلى إرساء مبادئ المجتمع الليبرالي؛ ذلك أن سياسة شبكة فوكس كانت تسبّب لهما الحرج في أغلب الأحيان. غير أن أفراد الأسرة برمّتهم كانوا ينعمون بالأرباح النقدية التي تحقّقها القناة. ولم يجدوا بدًّا، وإن في الوقت الراهن، من التزام البرمجة التي تتبعها فوكس. لكن ما طرأ من فراغ على مستوى القيادة، مقترناً بالازدواجية في الأعمال خلال الأشهر القليلة التي تلت رحيل أيلز، دفع اثنين من أبرز وأهم المذيعين، هما ميغين كيلي وبيل أوريلي، إلى ترك عملهما في القناة. فقد أصبحت كيلي منبوذةً من قبل بعض الأسماء اللامعة والمديرين في القناة، لأنها تحدثت بالسوء عن أيلز، في حين أُرغم أوريلي على ترك عمله، بسبب فضيحة التحرّش الجنسي التي كان هو بطلها.

على الرغم من وجود عدد كبير من المساعدين المخلصين لأيلز، فإنهم لم يستطيعوا أن يديروا العمليات اليومية؛ فلم يكن لهؤلاء ما يميزهم سوى إخلاصهم الذي ليس هو المعيار الوحيد لنجاح مؤسسة كانوا قد تعوّدوا فيها تنفيذ توجيهات أيلز من دون أن يكون لأي منهم رؤية خاصة به. وعُهد وقت ذروة المشاهدة، الذي يحقّق لفوكس أرباحًا قيمتها مليار دولار، إلى هانيتي، اللاعب الأضعف بعد أوريلي وكيلي، وتاكر كارلسون، وهو مذيع بديل من الدرجة الثانية، ولورا إينغراهام، وهي مقدّمة برامج إذاعية محافظة لم تحقق يومًا نجاحًا على التلفزيون، ولكنهم اختاروها بعد محاولة فاشلة في تقديم برنامج مسابقات ترفيهي.

كان ازدراء هانيتي لمردوخ وولديه نابعًا من ثقته المطلقة بأنهم يجدونه تافهًا. وظن في بادئ الامر أنهم سيطردونه عندما تسنح لهم الفرصة بذلك. لكنّه كان شديد التفاؤل؛ ورأى أن مستقبله سيكون مع ترامب. حتى أنه راح يقول للناس، فور تولّي ترامب منصبه الجديد، إنه بقي في قناة فوكس فقط كي «يحارب من أجل دونالد جي ترامب». ذلك نهج قائم على البرمجة ومدعوم بتحذيراتٍ شبه مهووسة بشرور الهجرة غير المشروعة، يتضمّن نوعاً من الولاء المذل لدونالد ترامب، وقد حوّل هذا النهج هانيتي إلى مدرٍّ للذهب التلفزيوني.

انتقل كارلسون، وهو محرر سابق في إحدى المجلات، للعمل في فوكس، بعد مروره بالسي. إن. إن، والإم إس بي، حيث كافح ليقوم بدور الشاب المحافظ المتمسك بالأفكار التقليدية الذي لا يخلع أبدًا ربطة العنق. ولكن، مع إطلاق القنوات الليبرالية

حملة إسكات رموزها المحافظة، وصل كارلسون إلى نهاية متوقعة. ولدى انتقاله للعمل في شبكة فوكس، حيث وجد أيلز فيه المحافظ الذي يمكن أن يحبه الليبراليون، واللاعب الذي قد يأتي بمنفعة على الشبكة من دون أن يكون دوره أساسيًّا، مهَّد كارلسون الطريق أمام كبار النجوم الذين يلقون استحسانًا لدى المحافظين المتشددين، حيث كان ينتقل في كل أسبوع من نيويورك إلى واشنطن لتقديم البرامج التي تبث في نهاية الأسبوع، ولا تلقى نسبة مشاهدة عالية.

بعيدًا عن الكاميرا، كان كارلسون رجلًا مرحاً ولطيفاً، يسم نفسه بالليبرالية. كان يستمتع بالتسكع مع جماعات واشنطن الودودة حيث كان يتناول الغداء يومياً في ميتروبوليتون كلوب، القريب من البيت الأبيض، والذي يعد من أكثر النوادي رثاثة في المدينة. وعلى مر السنوات، تمكّن كارلسون من توطيد علاقته بترامب، حيث كان يحرص على أن يؤدي دور المرشد الخفيف الظل لغرابة عالم ترامب وجنونه، في كل مرة كانا يتحدثان فيها معًا على انفراد. وقد وجد كارلسون، الذي يشارف الخمسين من العمر ويواجه مشكلات ضريبية ومالية، فرصته لتحقيق النجاح في وقت الذروة، بعد أن ورث موقع كيلي على قائمة البرامج التي تبث وقت ذروة المشاهدة. وأدرك كارلسون أن النضال في سبيل دونالد جي ترامب والدفاع عن «أميركا أولاً»، إنما هو ضربة حظ ستمهّد له الطريق كي يسجّل نسب مشاهدة عالية. بيد أن مثابرته الصُلبة وحرصه الشديد على تعلُّم مجموعة جديدة من الإيماءات أو تعابير الوجه، وهو يشكّك تماماً بحماقة اليسار ونفاقه قد أسهما، في تحوُّله، على مشارف نهاية حياته المهنية، إلى الشخصية المحافظة المثالية التي يكرهها الليبراليون.

ولا شك في أن إينغراهام، التي كانت من المتحدثين الرئيسيين خلال المؤتمر الوطني الجمهوري للعام 2016، الأكثر بؤسًا بين الثلاثة. ما جعل ترامب نفسه يقول: «لم تتمكن يومًا من تحقيق أي نجاح بارز على التلفزيون. ما يدفعني إلى التساؤل عن سبب ذلك. والجواب هو أن الناس لا يحبّونها. لا مشكلة لديّ معها لكنني لا أحبها». وذهب أبعد من ذلك، حيث أعرب عن تذمُّره أمام مردوخ وهانيتي قائلًا: «أريد منكما أن تختارا لي شخصًا أفضل منها». فمكانتها في الشبكة كانت متوقفة من نواحٍ عدة، على جمهور تعداده شخص واحد.

تحوّلت شبكة فوكس التي كانت دوماً مترابطة، ولاسيما في عهد أيلز، من حيث موضوعاتها ورسائلها المتناسقة في مختلف البرامج، إلى شبكةٍ تتراجع داخليًّا،

حيث اختلطت الرسائل وعمّت الفوضى. بيد أن المذيعين الثلاثة، الذين كانت تبث برامجهم في الفترة المسائية، لم يعانوا من أي تشوش، وصبّوا جُلّ اهتمامهم على رسالة ترامب.

ولم تعد فوكس محور التركيز، بل أصبح ترامب هو العلامة الفارقة لتلك الشبكة.

واللافت هو أن خطة الترويج التلفزيوني لترامب كانت عبقرية. ففي الوقت الذي كانت تسعى فيه الكوادر، من النخبة، ووسائل الإعلام، ومناصري مفهوم الدولة العميقة والمؤامرة الليبرالية الكبرى، إلى إسقاط ترامب، وجدت شبكة فوكس في ذلك وسيلة لتحقيق أعلى نسب مشاهدة، من خلال الدفاع عن ترامب ودعم نزواته، ولاسيما النزوات المتعلقة بالهجرة، حتى لا يشيح الرئيس بوجهه عنها.

وأدرك مذيعو البرامج التي تُبثّ في وقت الذروة على شبكة فوكس، في قرارة أنفسهم، أن خسارة ترامب ستضع الحياة المهنية لكل منهم على المحك. أدركوا أيضاً الأمر الآتي: إذا ارتأت شبكة فوكس أن تتخذ مسارًا مختلفًا، كما افترضوا أنها ستفعل، فإن ذلك سيحتّم طردهم. وهكذا وجدوا أن حياتهم المهنية باتت مرتبطة بدونالد ترامب، وليس بشبكة فوكس.

فشكّل الثلاثة، إلى جانب القاضية جانين، ولو دوبس، العقل المدبر لمستشاري الرئيس ومشجعيه. علماً أنهم كانوا قد ظلّوا حتى تاريخه بعيدين عن الأضواء. والجديد في الموضوع هو أن فريق شبكة فوكس قد تحوّل إلى قناة عامة تحقّق الترابط بين قاعدة ترامب (جهور شبكة فوكس) والبيت الأبيض. كذلك جرى إيصال كثير من رسائل بانون، المناصر لحزب ترامب من خلال جدول البرامج التي تبث في وقت ذروة المشاهدة على شبكة فوكس، وبدعمها؛ وخصوصاً الرسالة المتعلقة بالهجرة التي كان يجري التطرق إليها بشكل متناسق ومُختصر. ولا شك في أن الاتصالات المتواصلة بين هانيتي وترامب قد ساعدت على تغذية تلك الرسائل وتعزيزها باستمرار.

وقد حاول اثنان من مساعدي بانون في البيت الأبيض، هما ستيفن ميلر وجولي هان، اللذان يُعدَّان العقل المخطِّط لحملة ترامب المناهضة للهجرة، أن يمارسا

الضغوط على ترامب من خلال هانيتي. فدور هان كان مقسّمًا بين السياسة وشؤون الاتصالات، حيث كانت معنية بالتواصل المباشر مع هانيتي ليس لاطلاعه على موقف البيت الأبيض فحسب، بل لاطلاعه أيضًا على موقف كل من بانون وميلر وهان، ليتمكن من إيصاله إلى ترامب بأسلوبه الخاص.

* * *

يتواصل هانيتي والرئيس معاً، بمعدَّل ست مرّات في اليوم أو سبعاً. ويدوم الاتصال أحيانًا أكثر من ثلاثين دقيقة. حاول جون كيلي الذي أذهله أن يقضي الرئيس أحيانًا حوالى ثلاث ساعات في التحدُّث إلى هانيتي، أن يحدّ من هذه الاتصالات. لكن تبيّن أنّ لهانيتي تأثيرًا مهدّئًا على ترامب؛ فهو مصدر إلهاء له، ومستمع جيد لشكاوى ترامب التي لا تنتهي بشأن الجميع تقريبًا. كما أن هانيتي قد تعوّد أن يزوّد ترامب بتقرير متواصل عن معدّلات المشاهدة على التلفزيون، وهو واحد من الأمور النادرة التي من شأنها أن تثير اهتمام ترامب. وكما هي الحال دائمًا، يتجاوب ترامب بشدة مع أيّ كلمة أو عمل من شأنهما أن يحسّنا هذه النسب.

وكان هانيتي ينظر إلى تلك الأحاديث اليومية على أنها فرصة مهنية، كذلك اعتبرها واجبًا وطنيًّا. لقد تقبّل عدم ثبات ترامب وتقلُّباته. وألِف الدور الذي يقوم به، والذي يحول دون فقدان ذلك الرجل صوابه.

وبتواضع مهيب، يفسّرُ هانيتي لمجموعة من العاملين في فوكس حواراته مع الرئيس، قائلاً: «أنا أهدئه».

لكنَّ لبانون رأياً مختلفاً إذ يقول: «إنّ نظريات هانيتي أكثر جنونًا من نظريات ترامب. مما يجعل ترامب يبدو وكأنه هو صوت العقل والمنطق».

كان هانيتي يضغط على الرئيس ليُقدِم على أفعال وينطق بأقوال من شأنها أن تذاع في نشرات الأخبار لترفع من نسب مشاهدة برنامجه، ومختلف البرامج الأخرى تقريبًا، كما هي الحال عادة. ويُرجّح أن تكون عودة تغريدات ترامب بشأن الجدار من أفعال هانيتي. أن يتصرّف السياسي بطريقة ترضي ناخبيه، لهي سياسة قديمة بالطبع. لكن هذه المقاربة الجديدة التي يوجّه مقدّم برنامج تلفزيوني فيها الرئيس ليفعل أيّ شيء من شأنه أن يلفت انتباه المشاهدين ويجذبهم، دفعت اللعبة خطوة أخرى إلى

الأمام.

كانت هذه المعادلة في جزء منها معادلة أيلز، القائمة على أن يفعل السياسيون ما يتطلّبه التلفزيون، وتحديدًا ما يثير اهتمام مشاهدي التلفزيون المستهدفين. لكن هانيتي سيّر ترامب كما لم يُسيَّر أيّ رئيس من قبل. ودرج هانيتي على القول: «ترامب هو النجم». ويعتقد هانيتي، وهو صاحب «مقولة دع ترامب يكن أكثر ترامبوية»، أنّ عمله، في التلفزيون وفي السياسة على حدّ سواء، يقضي بأن يبرز للعلن أداء ترامب، وأن يشجّعه على تقديم أقصى ما لديه. كانت معظم حواراتهما تدور حول الصورة التي عُرض بها على التلفزيون، وحول تصريح معيّن أدلى به ترامب أو تغريدة نشرها، أو أي تهكّم أو زمجرة على الملأ. وبدا ترامب الذي نادرًا ما يواظب على شيء ما، تلميذًا صبورًا مولعًا بكل ما يُلعب بشكل جيّد.

وهكذا، تعوّد الرئيس أن يصغي إلى هانيتي، لاعتقاده أن القسم الإعلامي لديه عاجز عن تقديم أيّ نصيحة مفيدة إليه. إنهم «مجموعة من الجهلة». كما أن مظهرهم مريع. لم يخفِ هانيتي سعادته من ازدراء ترامب لفريقه الخاص. لقد توجّب على القسم الإعلامي أن يقف حاجزًا بين هانيتي والرئيس، إلّا أن العكس هو ما كان يحدث. فقد وقف هانيتي حاجزًا بين الرئيس وفريقه الخاص من الإعلاميين. وانضم إلى هانيتي في ذلك بانون الذي وجد نفسه يعمل كمدير ظل للقسم الإعلامي (وفي سائر المجالات). استمتع الرجلان بمراقبة ما كان فريق العمل يُضطّر إلى تحمّله من ترامب وإساءاته. وإن يكن ترامب قد أساء إلى الصحافة، فإنه قد أساء أكثر إلى فريق عمله من الصحفيين، إذ تعوّد أن ينتقد سلوكهم، ومظهرهم وشعرهم وشغفهم في الدفاع عنه. سأل بانون على سبيل الدعابة: «هل يمكن أن تجعل حياتك تعتمد على كيليان كونواي، ومرسيدس شلاب، أو ابنة هاكابي؟ يا لها من عقول مفكّرة».

وفي شهر حزيران/يونيو، استغل هانيتي الفرصة ليدفع شخصاً من اختياره إلى أعلى الهرم في القسم الإعلامي. إنّه بيل شاين الذي ألحّ هانيتي لأكثر من عام على ترامب كي يستخدمه، وهو الساعد الأيمن لأيلز ومنتج برنامج هانيتي. قضى هذا الرجل البالغ من العمر أربعًا وخمسين سنة، القسم الأكبر من مسيرته المهنية في فوكس، وفي تنفيذ أوامر أيلز. وهو من ضمن الذين أُجبروا أيضًا على ترك العمل خلال فضائح التحرّش الجنسي في فوكس سنة 2017. أما هانيتي فاستطاع أن يقنع الرئيس بأن شاين، الذي انضم رسميًّا إلى فريق العمل في البيت الأبيض بتاريخ 5

تموز/يوليو، سيكون منتجًا جيدًا له كما كان لهانيتي، بل يمكنه عمليًّا أن يدير فوكس من البيت الأبيض، لاسيما وأن ترامب كان يشكو باستمرار: «إضاءة، إضاءة، أحتاج إلى إضاءة أفضل». وهكذا، فإن شاين سيصبح خطّ إمداد مباشراً من مقصورة القيادة. ولقد شكّل تسلّم شاين لهذا العمل في الجناح الغربي، بحسب ما صرّح به هانيتي، تجسيدًا لنموذج عمل الشبكة الجديد: فوكس هي شبكة ترامب.

لم يبقَ سوى.... الجدار. إنها الحاجة الأخيرة.

كان الجدار العلامة الفارقة الرئيسية. فقد طرح ترامب في مراحل مختلفة نظريات بديلة من الجدار: سياج عالٍ جميل، أو أبراج إطلاق نار آلية ومراكز حراسة منزوعة السلاح، أو حتى جدار خفي، أيّ حقل طاقة يُحدث صدمة كذاك المستخدم للكلاب. أما هانيتي، فرأى أنّ الجدار لا بد من أن يكون موجودًا بشكل فعليّ وملموس، إذ إنه يشكّلَ في رأيه مصدر راحة لقاعدة ترامب. لا بد للجدار من أن يُبنى من الأسمنت، لا أن يكون هراءً افتراضيًا، على حدّ تعبير هانيتي. لا بد من أن يكون تعبيرًا ماديًّا لعودة عظمة أميركا مجددًا.

وجاء الشعار بسيطًا: إذا لم يكن الجدار، فلن يكون ترامب. إنّ وقف الهجرة هو قضية ترامب. والهجرة هي مصدر حماسته. لا يمكن أن تكون حازمًا ومتشددًا بما يكفي بشأن الهجرة. وكلما ازددت حزمًا وتشددًا، زادت حظوظ الفوز لديك في نوفمبر/تشرين الثاني.

* * *

لم يكن هانيتي مخطئًا. وكان روبرت مردوخ وأبناءه بالكاد يستطيعون تقبّله. ولقد جعل هانيتي من نفسه جزءًا من تأثير ترامب الأشمل في عائلة مردوخ. فقد أسهم ترامب في إفساد السنوات الأخيرة من حياة هذا الرجل البالغ من العمر ثمانيَ وسبعين سنة، جاعلاً من هذه الشخصية البارزة في عالم السياسة، المنتمية إلى حزب المحافظين، مضطرّةً أن تتملّق ترامب الذي كانت ترى فيه دجالًا وأحمق. وهكذا، فإن هذه الشخصية البارزة، مردوخ، تحمَّلَ لوم أبنائه على دوره غير المقصود في صعود نجم ترامب.

لطالما اعتبر مردوخ كلًّا من ترامب وهانيتي رسومًا كاريكاتورية في

صحيفة شعبية. إنهما من نوع الشخصيات التي تكثرُ في صحفه (بقي يفكر من منظور الصحيفة وليس من منظور التلفزيون)؛ وهما مصدر تسلية للجماهير. لكنهما ليسا الشخصين المناسبين في عالم مردوخ لتولّي السلطة، والإمساك بزمامها. فالسلطة يتولاها رجال يدركون مصالحهم الأعم، والمصالح الأوسع نطاقًا للرجال الآخرين الذين يمسكون بزمام السلطة، ولا يجازفون على الدوام بسلطتهم. أما النخبة التي يسخر منها ترامب ويزدريها، فهم المحافظون، وهم تحديدًا الأشخاص الذين يحترمهم مردوخ.

فالتقلّب وعدم الثبات هما عدوّان للسلطة. ورأى مردوخ في ترامب وهانيتي مؤدّيَيْن أو مهرجَيْن. كان هانيتي مفيدًا له، في حين أن ترامب، قبل انتخابه، لم يتعدَّ كونه مادة تتناولها جريدة النيويورك بوست التي يملكها.

غالبًا ما يتسلى أصحاب النفوذ بالإنجازات الأقل أهمية التي يحققها رجال أقل منهم شأنًا، يرغبون في الوصول إلى السلطة.كان ترامب وهانيتي في نظر مردوخ وأيلز، حالةً مشتركة يشكّكان في إمكانياتها، ومقياسًا للمدى الذي يمكن الوصول إليه مع كثير من الطموح والقليل من الطاقة الذهنية وقوة العقل.

في العام 2016، رفض مردوخ التفكير في إمكانية أن يصل ترامب إلى سدّة الرئاسة. وأوعز إلى أيلز أن يركّز في التغطية على حملة كلينتون، المرشحة التي يُتوقّع أن تصبح رئيسة للبلاد. لكن، وبعد انتخاب ترامب، وجد مردوخ، الرجل العملي دومًا، نفسه مجبرًا على إقامة علاقة مع الرئيس الجديد الذي من ناحيته بالكاد استطاع أن يصدّق أن مردوخ أخذه أخيرًا على محمل الجدّ.

قال مردوخ لأحد الشركاء بعد دخول ترامب إلى البيت الأبيض، وهو يمسك بالهاتف في حين أن صوت الرئيس يتردد في الأجواء: «أنا عاجز عن جعل هذا الوغد يضع سماعة الهاتف من يده».

في هذه الأثناء، وبالنظر إلى قدرته على الوصول السهل إلى ترامب، وإلى ارتفاع نسب المشاهدة في فوكس، سمح مردوخ الذي يدير الشبكة نظريًّا بنفسه، لأبرز المذيعين وأشهرهم في القناة، أن يكرّسوا أنفسهم لترامب. ولاقت هذه الخطوة معارضة شديدة من ابنه جيمس الذي ثارت حفيظته من ترامب نفسه أولاً، ومن

إظهاره على الشاشة وقت الذروة. ثانياً، تصاعدت المواجهات بين الأب وابنه الذي كان يُكثر من تعاطي الكحول (ونادرًا ما كان ترامب يفوّت فرصة الإشارة إلى هذه المسألة قائلًا: «إنّ ابنه سكّير»). أما كاثرين، زوجة جيمس، فجاهرت بكراهيتها لفوكس نيوز ولجزء كبير من سياسة شركة مردوخ بالطبع. وخاض الأب وابنه مشاجرات كلامية حول هانيتي وترامب. وصرّح أصغر أبناء مردوخ أنّ أفراد الأسرة قد أصبحوا ضالعين. سيتذكّر العالم أنّ مستقبل شركتهم على المحك.

لكن مردوخ أصبح للأسف مقيّدًا بشبكته التي تعتمد على ترامب، وبالأرباح التي لا تنفك تتزايد. ورأى بعض المحيطين بمردوخ أنّ احتياجات الأعمال والمصالح السياسية ربّما سبّبت له، ولأول مرة في تاريخه المهني، نوعًا من أزمة الضمير. فهو لا يستطيع التخلي عن ترامب، لكنه لا يستطيع أيضًا أن يلتزم مشروعه. وهو لا يكف عن لومه بما سبّبه من اتساع للشرخ بينه وبين ابنه جيمس، انتهى بمأساة شكسبيرية: في محصّلة فوكس النهائية، كان ترامب يمزق أواصر أسرة مردوخ.

لم يرَ مردوخ سبيلًا لحل خلافاته الأُسَرية، إذ كان بالكاد يتحدث إلى ابنه جيمس الذي أُعدّ منذ فترة طويلة ليرث الثروة؛ فبدأ بالتخطيط لبيع شركته بعد مرور ستة أشهر على انتخاب ترامب رئيسًا. وشمل اتفاقه مع ديزني الذي أُعلن عنه في كانون الأول/ديسمبر من العام 2017، معظم موجودات الشركة، باستثناء محطة فوكس نيوز التي لم ترغب ديزني في شرائها، وشبكة فوكس ومحطات التلفزيون المحلية التي من شأنها أن تسبب مشكلات مع الجهات الناظمة. وترك جيمس الشركة فيما تولّى لاشلان، الابن البكر لمردوخ إدارة الموجودات المتبقية، بانتظار بيعها بدورها.

لكن قلّة هي الشركات التي يمكن أن تشتري فوكس. واعتقدت أسرة مردوخ أنها لن تجد مشتريًا، إذا بقي شان هانيتي جزءًا أساسيًّا من الصفقة. لم تكن مؤامرة هانيتي الترويجية سخيفة فحسب بل غير مقبولة. فبمناصرته العلنية لسياسة ترامب، انتهك مرارًا وتكرارًا قرارات هيئة الاتصالات الفيدرالية. وفي حال سقوط ترامب، فإن قيمة هانيتي وقيمة الشبكة ستنخفضان أيضًا.

في أيار/مايو من العام 2018، حاولت فوكس أن تتحرك ضد شخصية تلفزيونية هي كيمبرلي غيلفويل، المرتبطة عاطفيًا بدونالد ترامب جونيور، ومن قبله

بأنطوني سكاراموتشي، مدير الاتصالات في البيت الأبيض في عهد ترامب والذي لم يصمد طويلًا في منصبه (تعوّدت غيلفويل أن تقول بفصاحة إنها غالبًا ما اعتقدت أن ترامب يتودّد إليها ويتحرش بها). وخضعت غيلفويل للتحقيق بتهمة توزيع صور أعضاء ذكورية بين زملائها في العمل، فضلًا عن مسائل سلوكية أخرى، قُبَيل طردها من الشركة. ورأى لاشلان مردوخ في ذلك فرصة متاحة. فهو يعتقد أن شان هانيتي يمكن أن يكون متورّطًا في مسائل مخلّة بالآداب وُجدت على هاتف غيلفويل، الأمر الذي من شأنه أن يمنح مردوخ الابن الفرصة التي تلزمه كي يقنع أباه بطرد هانيتي.

إلا أن هانيتي بقي في مكانه. ويعتقد المطلعون على شؤون فوكس أن ترامب تدخّل لدى مردوخ لمصلحة هانيتي. ومهما يكن الأمر فإنّ هانيتي يبقى نجم القناة الذي يرفع نسب المشاهدة، حتى وإن كانت أسرة مردوخ تشمئزّ لمجرد ذكر اسمه.

* * *

خشي هانيتي وبانون أن تصرّ شبكة فوكس على خفض التركيز في الهجرة، بغض النظر عن تأثير الموضوع في نسب المشاهدة؛ فقد سمع كلاهما كلامًا عن أن مردوخ قال إنّ الكيل قد طفح. فمردوخ الاسترالي الأصل يؤمن بالفوائد الاقتصادية المطلقة لسوق عمل عالمية، وهو بحسب تعبير بانون الذي تعوّد أن يهزأ به أمام ترامب، من أنصار العولمة. واقع الأمر أن مؤسس الصحيفة المحافظ هذا، الذي جمع ثروته من تعزيز كراهية الأجانب لدى الطبقة العاملة في أمم عدة، هو أحد رجال دافوس.

ولعل الأهم هو أن هانيتي وبانون قد شكّكا في امتلاك ترامب شجاعة الإصرار على مسألة الهجرة، أو لاحظا على الأقل أنه يغضب بشأن تفاصيل المسألة. إنّ تحوّل الجدار إلى جدار غير مرئي، أو جدارٍ في المستقبل البعيد، قد يجعل منه جدارًا نظريًّا إلى الأبد. لم يشكّكا في مشاعر ترامب حيال هذه المسألة، إذ بدا أنه يشعر بكراهية وبشكّ عميقين حيال المهاجرين، سواء أكانت هجرتهم شرعية أم لا، كما أنهما لم يعتقدا بأن ترامب قد يبحث عن حلّ وسط يناسب مختلف الأطراف. لكن التفاصيل تُشعره بالملل، كما هي الحال في جميع الموضوعات. بالتالي، تجده يتأثر بالشخص الأخير الذي يأتيه بمزيج مختلف من المعلومات. وركّزت ابنته وصهره

بشكل خاص جهودهما المشتركة في ترامب. كذلك فعلت قيادة الكونغرس، بغية تعديل تفاصيل سياسة الهجرة التي اعتمدها، والتخفيف من حدّتها.

وتحوّل ذلك إلى جهد مستمر بذله هانيتي، وإلى نوع من القداس يردده في اتصالاته اليومية مع ترامب. راح هانيتي يعيد مرارًا وتكرارًا كلامه، ويشدّد على سياسة عدم التسامح؛ لكنه قارب الموضوع طبعًا على شكل مديح متدفق لترامب، فهو الوحيد الذي يملك الجُرأة على وقف تدفّق المهاجرين عبر الحدود، وهو الوحيد الذي يتمتع بالشجاعة ليبني الجدار.

وطالب ترامب فجأة، وباندفاع، بإصدار أمر رئاسي جديد لتمويل الجدار، ووقف سلسلة الهجرة، ومنع الحق الشرعي بالجنسية للمولودين في البلاد، قائلًا: «افعلوا هذا كله». وعندما قيل له إنّ الأمر لن يحظى بموافقة مكتب الاستشارات القانونية، أجاب: «إذا وقّعت هذا الأمر فسيعرف الناس موقفي. ولن يُلقى باللوم عليّ بخصوص القوانين».

* * *

ومع حلول منتصف شهر حزيران/يونيو، راحت حيل التشجيع لدى هانيتي تنفد، وبدأ ترامب ينقلب عليه. كان يتعيّن عليه أن يلقي باللوم على البيت الأبيض لعدم كفاءته، ذلك أنه لم يضع خطة في قضية الهجرة، واتصف عمله بعدم التنظيم على صعيد فصل الأطفال عن أسرهم ضمن تطبيقه للإجراءات غير المتسامحة، كما فُقد بعض الأطفال، وبُنيت مرافق كانت أشبه بالخيام، وأصبح مشهد «تخزين» الأطفال والقاصرين في ما يشبه المستودعات أمراً قابلاً للحدوث. لكنه بدلًا من ذلك ألقى باللوم على هانيتي.

وأقنعته إيفانكا مجددًا بضرورة العودة عن القساوة التي ستنعكس عليه سلبًا. وقد جرى إقناعه بسهولة، وسيُقنع بذلك مجدّداً فيما بعد، بأن القسوة الشديدة في موضوع الهجرة هي التي جعلت منه رئيسًا وهي التي ستبقيه كذلك. لكنه رأى، لاسيما وهو يصغي إلى ابنته، أن هانيتي قد أقحمه في صفقة فاشلة.

وعلى قدر ما أغدق هانيتي من المديح على الرئيس والتزم مساندته وتحمّس له، أصبح ترامب يزدريه. وهذه مسألة اعتيادية نسبيًّا؛ فهو سيشعر عاجلًا أم آجلًا

بالازدراء حيال أيّ شخص يُظهر له الكثير من الولاء والتفاني. وقد حلّل بانون ذلك قائلًا: «بما أنه يكره نفسه، فقد وصل به الأمر إلى حدّ كراهية أيّ شخص يبدو أنه يحبه. فإذا بدا له أنك تحترمه، سوف يعتقد أنك فعلت شيئًا قبيحًا وتحاول أن تعوّض... بالتالي أنت غبي». ويعتقد آخرون أن هذا هو مبدأ ترامب في العمل. فهو يطالب الأشخاص المحيطين به بإظهار الخنوع، ثم يحرجهم ويلحق بهم العار جرّاء ضعفهم.

وهناك مسألة المال. فترامب يحتقر أيّ شخص يستفيد من وجوده معه من دون أن يشاركه في الفائدة المالية. فالفضل في نسب المشاهدة العالية التي يسجّلها هانيتي يعود في نظر ترامب إلى شخصه؛ هذا يعني أنه قد خُدع.

وفي محيط ترامب، كان هانيتي رجلًا مسلّيًا وكريمًا. فهو غالبًا ما يعرض على الآخرين استخدام طائرته الخاصة. أضف إلى ذلك أنه ضخّ شيئًا من الطاقة والإيجابية في معسكر ترامب المثقل غالبًا بالأعباء. لكن في الوقت عينه، يرى الجميع تقريبًا، بما في ذلك أكثر الشخصيات تأثرًا بترامب في عالم ترامب، أن هانيتي شخص أحمق وغير سوي. حتى أن ترامب نفسه صرخ على التلفزيون قائلاً: «لا أتبعك شان، لا أتبعك».

وكان بانون، المولع بهانيتي وبطائرته، يتعجّب باستمرار من الاتجاه الغريب الذي تتخذه حوارات هانيتي الذاتية التي تعكس بعض نظريات المؤامرة الأكثر تطرّفًا المنتشرة على الإنترنت. ويدمدم، وهو يشاهد بث البرنامج المسائي: «ما هذا الجنون يا صديقي؟».

وأصبحت النكتة المتداولة في البيت الأبيض أنّ شان هانيتي هو حاليًّا عبقري ترامب الدائم، على غرار كارل روف، الذي كان دماغ بوش وستيف بانون الذي عمل كعقل ترامب في مرحلة لاحقة. انتهى الأمر بترامب مع رجل أكثر غباء وحماقة منه. إلا أنّ هذا بدا مناسبًا. فترامب يبغض التلميح إلى أن عليه الاعتماد على ذكاء شخص آخر أو حنكته وفطنته. ولا يتحمّل إمكانية أن يكون هناك فعلًا شخص أكثر ذكاء منه. ومع وجود هانيتي إلى جانبه، يمكنه أن يكون واثقًا أن أحدًا لن يظن أنه يعتمد على شخص أشد ذكاء منه. (واقع الأمر أن هذه الحالة شكّلت مادة نقاش داخلي مستمر: من هو الأكثر غباءً: ترامب أم هانيتي؟).

لكن، وبعد أن وقّع ترامب أمراً رئاسيًّا في 20 حزيران/يونيو ينقض سياسة الفصل الأُسَري، دخل في حالة رعب جديدة، وراح على أثرها يلقي باللوم على الجميع، باستثناء ابنته. لقد اعتبر أنهم جعلوه يبدو ضعيفًا.

وفي 26 حزيران/يونيو، تبدّلت الوثيقة مجدَّدًا، عندما نقضت المحكمة العليا القرارات السابقة، وأيّدت حظر السفر الرئاسي، وهو حظر السفر نفسه الذي أثار الكثير من الجدل وبدا غريبًا للغاية في الأيام الأولى من إدارته. ورأى ترامب الذي تملّكه الغضب أنه لو لم يوقّع الأمر الرئاسي بشأن الفصل الأُسَري، لسجّل انتصارًا مزدوجًا، إذ قال لأحد مساعديه: «لوضعت اللمسة السحرية. لمستي أنا».

في الواقع، وعلى الرغم من أنّ القضية التي تتضمن حظر السفر، كما بات معروفاً، هي آخر القضايا التي تتّخذ فيها المحكمة قرارًا قبل عطلتها الصيفية، فإن أحدًا في البيت الأبيض لم يكن مستعدًا للقرار. وحتى بعد أن أُعلن الأمر كانتصار، مرّ يوم بأكمله قبل إصدار بيان صحفي. وقد سبقت ذلك فورة من الرسائل الإلكترونية الممتلئة بالشجارات في قسم الاتصالات، حول من ينبغي أن يكتب البيان.

وفي 27 حزيران/يونيو، تملّكت الإثارة ترامب المُتعَب من الهجرة، بعد تسلّمه قرار تقاعد القاضي أنطوني كينيدي من المحكمة العليا. وهذا ما فسح المجال أمام قاضٍ محافظ جديد ليشغل المنصب. وتحوّلت الهجرة بين ليلة وضحاها إلى مسألة منسية، فيما أضحى هانيتي مصدر إزعاج. اشتكى الرئيس لشخص اتصل به في المساء قائلاً: «المكسيكيون، المكسيكيون، المكسيكيون. هناك أمور أخرى في العالم. يجب على أحدهم أن يقول هذا لشان».

الفصل الثاني عشر
سفر ترامب إلى الخارج

لم يتوانَ البيت الأبيض، الذي بات الآن يألف التهاون وعدم الاكتراث، عن إضافة محطتين إلى الرحلة المقررة منذ فترة بعيدة، للمشاركة في قمة دول حلف شمالي الأطلسي بتاريخ 11-12 تموز/يوليو في بروكسيل، وذلك نزولًا عند إلحاح ترامب المفاجئ: المحطة الأولى في بريطانيا للقاء الملكة، والثانية في هيلسينكي لعقد قمة سريعة مع بوتين.

في صباح العاشر من تموز/يوليو، صرّح الرئيس في حديث سريع مع ممثلي وسائل الإعلام قبل أن تقلّه الطائرة المتوجهة إلى بروكسيل قائلًا: «عليَّ أن أشارك في قمة حلف الناتو، وأمرَّ لزيارة المملكة المتحدة؛ يا له من وضع مثير للاضطراب! وعليَّ أيضًا أن أقابل بوتين! ولكن مقابلة بوتين قد تكون الأقل وطأة».

غير أن بانون لم يكن قلقًا سوى من المحطة البريطانية، حيث استخدم كل قنوات التواصل المتاحة لإيصال الرسالة وتحذير الرئيس من الكارثة المتوقعة؛ لاحتمال أن يتجمع أكثر من مليون شخص في الشوارع للاستهزاء بترامب. فقبل انطلاق ترامب في رحلته، طُلب إليه وبإلحاح تفادي المرور في لندن، بسبب الاحتجاجات المتوقعة. وتبيّن أن الاجتماع الرسمي مع الملكة، التي كان ترامب يتطلع إلى لقائها، لم يكن على المستوى المطلوب، حيث سيصادف وجود أفراد الأسرة المالكة الآخرين خارج المدينة. وما لبث جاريد وإيفانكا، اللذان كانا أكثر حساسية إزاء الرسائل المضمرة، أن أدركا حقيقة الإهانة الملكية، فقرّرا الاعتذار عن الرحلة.

غير أن ترامب كان يرغب، إلى جانب لقاء الملكة، أن يمارس لعبة الغولف. أراد أيضاً أن يقدّم إلى ملعب ترامب أبردين، المسمّى على اسمه في اسكوتلندا، دعمًا إعلاميًّا. وكان البيت الأبيض يشجّعه باستمرار على البقاء خارج المدينة، أو حتى خارج المملكة، «في مكان بعيد جدًا حيث يبقى منشغلًا»، بحسب ما أشار جون كيلي بنبرة حاسمة.

ولكن بانون كان يخشى عليه من تلقّي صدمة. «قد ينفضح أمره. ونحن لا نريده أن يتعرض للإذلال». فبانون الذي درج على التنقل في تسعينات القرن العشرين ما بين الولايات المتحدة ولندن بصفته مستثمرًا مصرفيًا، يعرف الكثير عن ازدراء الطبقة البريطانية الارستقراطية التي قد تجد في دونالد ترامب خير وسيلة للتعبير عنه. أضف إلى ذلك غضب الحزب اليساري في بريطانيا الذي لن يجد هدفًا أكثر دسامة من ترامب.

ولبانون أسبابه الخاصة في عدم رغبته في تعرُّض ترامب للإخفاق في أوروبا. فخلال الأشهر الأخيرة، تمكّن بانون من توسيع نطاق طموحاته الشعبوية، مروّجًا لترامب، باعتباره يحمل راية الجناح اليميني في أوروبا. وإذا كانت بروكسيل تمثّل رمز أوروبا المتحدة المتسمة بالعولمة، على الرغم من أنها ليست مدينة نابضة بالحياة، فإن ترامب كان رمز الجناح اليميني الأوروبي الجديد المتَّسم بالتلاحم. وفي أي حال، كانت تلك رسالة بانون أو تُرَّهاته. وما فعله من أجل ترامب يمكن أن يفعله من أجل الأحزاب اليمنية المتخلفة أكثر من أي وقت مضى.

ما يعني أن «فقدان ترامب هيبته» خلال زيارته إلى إحدى الدول الأوروبية قد يضر بأعمال بانون. والحق يقال إن أعمال بانون، المتمثلة في تصدير معجزة ترامب، والتي شكّلت خير دليل على أن الأحزاب اليمينية المهمَّشة قادرة، من خلال الوعي الشعبوي الذي يتحلّى به بانون، أن تتولى مقاليد السلطة، كانت تسير على أفضل ما يرام.

ويُزعم، أو على الأقل كان بانون يزعم، أنه العنصر السري وراء بريكست أو الانسحاب المفترض للمملكة المتحدة من الاتحاد الأوروبي. ففي أوائل العام ، أطلق بانون، في محاولة منه لمساعدة صديقه نايجل فاراج وحزبه المعروف بحزب استقلال المملكة المتحدة، موقع بريتبارت الإخباري الخاص بالشؤون البريطانية. فقد

كان حزب استقلال المملكة المتحدة ونايجل فاراج بحاجة إلى منبر، وأكد بانون لفاراج أن «موقع بريتبارت سيُحدث الفرق».

في ربيع العام 2018، استطاع بانون أن يقوم بدور الشخص الذي يحرّك الخيوط في إيطاليا، حيث كان الجميع على يقين مطلق أن القاعدة الانتخابية المنقسمة إلى فصائل، ستضمن بقاء هيمنة تحالف الوسط المقوض وغير المجدي. ولكن بانون تمكّن من التودُّد إلى ماتيو سالفيني، زعيم حزب الرابطة اليميني المتطرف (الذي أصبح يُعرف حاليًّا باسم حزب رابطة الشمال). وبعد إعلان نتائج الانتخابات الإيطالية في آذار/مارس التي لم تمنح الأغلبية لأي حزب، سارع بانون ليكون عرّاب عملية التفاوض على اتفاق ائتلاف بين الرابطة وحركة النجوم الخمسة (حزب شعبوي يساري يميل إلى الجبهة اليمينية). ولم تكن صيغة الاتفاق التي وضعها بانون تنص على أن يطالب سالفيني أو لويجي دي مايو بموقع رئاسة الوزراء، بل ينبغي للطرفين الموافقة على شخص ثالث ضعيف الشخصية ليشغل هذا المنصب. ووجد بانون في هذا الاتفاق اتحادًا مثاليًّا بين اليسار المتطرّف واليمين المتطرّف.

لكن، مع اقتراب موعد سفر ترامب للمشاركة في اجتماع دول حلف شمالي الأطلسي، وجد بانون نفسه مرغمًا أن يشجّع ترامب على الظهور في صورة الرجل الأميركي القوي، لا أن يتصرف كطفل يعاني نوبة غضب مزاجية؛ إذ كان يخشى أن يجعل ذلك عملاء بانون الأوروبيين يجفلون منه.

* * *

وصل الرئيس الأميركي والسيدة الأولى إلى مدينة بروكسيل الباردة مساء العاشر من تموز/يوليو. ولم يكد صباح اليوم التالي ينبثق حتى توالت الشكاوى من جانب ترامب: لم يذق طعم النوم، وأحدهم وضع قميصه في غير محله، والطعام لم يكن معدًّا بالشكل الصحيح. كذلك أنه لم يكن يتبادل الكلام مع زوجته على الإطلاق.

صبيحة ذلك النهار، تناول ترامب طعام الفطور مع أمين عام حلف شمالي الأطلسي، ينس ستولتنبرغ وإلى جانبه أعضاء الوفد المرافق، وزير الخارجية مايك بومبيو، ووزير الدفاع جيمس ماتيس، ورئيس أركان البيت الأبيض جون كيلي وسفيرة الولايات المتحدة في حلف الناتو كاي بايلي هاتشيسون. فبادر ترامب بالكلام

مدليًا بأول تعليقاته الغريبة، متّهمًا الألمان بالتواطؤ مع الروس: «أظن أن من المؤسف أن تعقد المانيا مع روسيا اتفاقًا حول النفط والغاز. ففي حين يُفترض بنا توخّي الحذر من روسيا، أرى أن ألمانيا تدفع لها المليارات والمليارات من الدولارات سنويًّا... وعلينا الدفاع عنها في مواجهة روسيا.. ولكنها تدفع لها المليارات من الدولارات سنويًّا وهذا ليس عدلًا. فألمانيا خاضعة بالكامل لسيطرة روسيا».

كان ترامب يردّد مرارًا وتكرارًا أمام الوفد المرافق أن قمة حلف الناتو «تسبّب له الملل». فحلف الناتو هو فعليًّا بنية بيروقراطية معقّدة، تتَّسم بتوازن دقيق وغير متكافئ للمصالح. ولا شك في أن إلحاح ترامب على تعطيل ذلك الاجتماع ينبع من تململه من التفاصيل الصغيرة المتعلقة بالشؤون السياسية والقضايا العملانية، كالأوراق البيضاء، ومذكّرات المعلومات الأساسية، والسياسات الائتلافية التي لا تنتهي. ووجد نفسه مرغمًا على بذل جهد كبير ليبدّل مسار المحادثات وجعلها أكثر تركيزًا في الأمور الواسعة النطاق بدلًا من الأمور المحدودة النطاق، لاسيما وأن النهج القائم على دراسة كل بند على حدة قد أثار غضبه، واعتبره أشبه بمؤامرة تحاك ضده، لاسيما بعد أن شك في أن يكون الآخرون على علم بعدم قدرته على استيعاب التفاصيل.

ولم يتردد في التعبير عن تذمُّره من ذلك قائلًا: «إنهم يحاولون جعلي أغفو وأنا أتناول الحساء. إنهم يرغبون في رؤية هذا المشهد».

وشكّلت اجتماعات فرق العمل أحد الأوجه الأخرى التي أثارت سخطه في قمة حلف الناتو الأخرى. ففي حين أن الاجتماعات الثنائية مع قادة الدول كانت تثير حماسته، بصرف النظر عن جنسية الرئيس أو طبيعة الموضوعات المطروحة، كانت اللقاءات الجماعية تثير قلقه. إذ كان يخشى أن يتفق الجميع عليه، ويشتبه في كون الجميع يحيك مؤامرات ضده.

لم يجدِ سحره أو تملُّقه المعسول نفعًا مع أنجيلا ميركيل، الخصم الأقرب إليه (لم يكن ذلك رأي ترامب، بل رأي المحيطين به). فخلال لقاءاتهما السابقة، حاول أن يفرط في مدحها، غير أن ذلك قد أدى إلى نتيجة معاكسة لتلك التي كان يبتغيها، حيث نفرت ميركل منه بشكل جلي. لهذا، كان عليه أن يعود إلى مقاربته الأساسية: إن لم يحقق المديح المفرط النتيجة المنشودة، ولم يتمكن من التوصُّل إلى اتفاق من خلال

ذلك، فليذهب في هذه الحالة الجميع إلى الجحيم. وراح يعبّر عن ذلك من خلال التشديد على حرف الجيم عند مناداتها «أنجيلا ميركل»، بنبرة مشوبة هذه المرة بالتهكُّم والسخرية.

لم يكن ترامب يحب أن يشاطر المسرح مع مجموعة من الأقران المزعومين. لكن، إذا وجد نفسه مرغمًا على ذلك، كان يؤمن بأن مثل هذا الوضع يتطلب منه خطف الأضواء من الباقين. فهذه الطريقة المعيارية، التي يتّبعها لتمييز نفسه، كانت تنعكس سلبًا على تعبيره الكلامي ولغة جسده. وهذا ما قاله لأحد الأصدقاء بينما كان يشرح له استراتيجيته خلال المناقشات الرئاسية الأولية للمرشح الجمهوري السابع عشر: «عليك أن تتعامل مع الجميع، وكأن رائحة مقزّزة تفوح منهم».

خلال انعقاد القمة، وضع نصب عينيه هدفًا محدَّدًا يتمثل في إقناع الدول الأعضاء في حلف الناتو برفع نسبة مساهمتها المالية، الأمر الذي طالما تذمّر المحافظون منه. فالتحالفات والمساعدات المالية لم تضمن سوى وقوع الولايات المتحدة ضحية الغش. كان لو دوبس 101 السبب في ذلك بحسب بانون، حين قال: «إنها البلاغة المكتسبة في المرحلة الابتدائية. ليس الأمر معقدًا: كان حريصًا على مشاهدة برنامج لو دوبس على مدى 30 سنة. فهو البرنامج الوحيد الذي يتابعه من بدايته وحتى نهايته».

بالمقابل، رأى الآخرون جانبًا أكثر غرابة وظلمة. كان ترامب يسعى إلى تقويض حلف الناتو بشكل خاص، وأوروبا بشكل عام. إذ كان يتصور أنّه قد تمكّن من نقل محور القوة من أوروبا إلى روسيا، بفضل بعض التفاهمات السرية. ومصلحة روسيا تقتضي السعي إلى إضعاف أوروبا، بل هذا ما تطلبه.

وعلى الرغم من أن ترامب لم يكن يدمن الكحول، فإن أداءه في قمة حلف الناتو كان يوحي وكأنه قد شرب حتى الثمالة؛ إذ ألغى لقاءاته مع رؤساء كل من رومانيا وأذربيجان. وأوكرانيا وجورجيا، وتأخّر في الوصول إلى إحدى الجلسات الرئيسية من دون سابق إنذار. كذلك أدلى بتصريحات علنية وسرية صادمة، بما في ذلك التهديد بالانفصال عن حلف يرقى إلى تسع وستين سنة. وعلى مستوى السياسة، لم يتمكن من الذهاب أبعد من النقطة الوحيدة التي بقيت عالقة في ذهنه، على الرغم من أن الجميع قد تخطوها، وهي أن على الدول الأوروبية أن تدفع أكثر. واللافت هو

أن انزعاجه من معارضتهم طلبه ما لبث أن تحوَّل إلى نوع من العداء، معتبرًا حلف الناتو أرضًا معادية: فحلف الناتو، الذي كان يبذل كل ما في وسعه تجنّب الوقوع في الفخ، كان يمثل العدو.

أوقعه كل ذلك في خلاف مع مستشاريه المعنيين بالشؤون الخارجية، ولاسيما وزير الدفاع ماتيسن الذي، على الرغم من الجهد الذي بذله أثناء القمة ليكون الصوت الأميركي المطمئن، قال لنظرائه الأوروبيين إنه قد بلغ نقطة الانهيار.

* * *

وفي حين كان ترامب يحاول العرقلة أو التصرف بغرابة أثناء قمة حلف الناتو، اتفق بانون مع هانيتي على الذهاب إلى لندن، وأمل أن يجد له مكانًا على طائرة هانيتي الخاصة. كان بانون يدرك أن تقرّبه من هانيتي سوف يمكّنه من التقرب من ترامب. فبرنامج هانيتي الإذاعي اليومي، الذي قُرّر أن يُبَثّ خلال الرحلة من أوروبا، كان مقدّراً له أن يكون أفضل من التحدث المباشر مع الرئيس، لأن شخصًا آخر سيتكلم وعليه هو أن يصغي إليه. ما يعني أن صوت بانون سيصل إلى ترامب من خلال برنامج هانيتي.

كان مستوى الأحاديث التي يجريها بانون مع الرئيس تتطلّب منه إظهار مهاراته في ألعاب الخفة. فكلما سُئِل عن موضوع، لم تشِ إجابته بأنه تحدث إلى ترامب، لكن لم تشِ أيضاً بأنه لم يتحدّث. وفي حال إجابته أنه لم يتحدث، فمن البديهي تأويل ذلك بالنظر إلى المعايير السرية العالية التي كان حريصًا على التزامها. ولكن، على الرغم من أنه لم يكن يتحدث بشكل مباشر مع ترامب، كان بانون واثقًا أن الرئيس يصغي إلى كل ما يريد قوله. ما يعني أنه كان يمثل، أو يوحي بحذاقة لعملائه بأنه قادر على التأثير في ترامب.

وعلى مستوى الحملات الانتخابية، كان بانون يؤمن بأن الانتخابات النصفية في تشرين الثاني/نوفمبر إيجابية لا محالة. فقد رسم في رأسه أكثر من خمسين أو ستين خطة للسباق الانتخابي للكونغرس، مع الحرص على التزام الوقت الحقيقي للتحركات ضمن المناطق المترجّحة. فإذا نجح في حمل ترامب على الانتباه والتركيز وحثه على زيارة المناطق الرئيسية مرة أو أكثر خلال شهري أيلول/سبتمبر وتشرين

الأول/أكتوبر، فسوف يتمكّن الجمهوريون من البقاء في البيت الأبيض.

وعلى الرغم من أن حدسه كان أقوى مما يظن، عادت تراود بانون فكرة دخول البيت الأبيض من مصراعيه، حتى بدت له تلك الفكرة وكأنها... محتّمة.. إلا أنه كان مخطئًا هذه المرة.

أدرك بانون أنّ ترامب لن يتمكّن أبدًا من إعادته كجائزة ترضية إذا ما فاز الجمهوريون بالأغلبية في مجلس النواب. فهذا يعني أنّ على ترامب أن يقرّ بأن بانون هو السبب في فوزه بمجلس النواب. ولا يمكنه أن يعيده إذا خسر الأغلبية في المجلس، لأنّ في هذه الخطوة اعترافاً بحاجته إلى بانون.

بقي ترامب يلقي باللوم على بانون، لأنه جعله يدعم «المتحرّش بالأطفال» روي مور في ألاباما، وهو المرشّح الذي دعمه بانون إلّا أن الحظّ لم يحالفه للدخول إلى مجلس الشيوخ. (وتحديدًا بحسب تعبير ترامب، أقنعه بانون أن يدعم «المتحرش بالأطفال الفاشل»). تبيّن أن مور تعوّد أن يجول في المجمعات التجارية في ألاباما بحثًا عن المراهقات، وقد أدى الكشف عن هذه الفضيحة إلى إخفاقه في الانتخابات.

إذن، ما من سيناريو يسمح بالتوفيق بين بانون وترامب بشكل عادل. إلا أن بانون بقي يتخيّل سيناريوهات يجري الاعتراف فيها بأنه معلم في التكتيك السياسي، وصاحب رؤية القضية القومية - الشعبوية على الصعيد العالمي، وأنه الشخص الذي جعل ترامب يرجوه ليعود.

في لندن، حيث نزل بأمان في جناح من فندق براون في مايفار، تبلغ تكلفة الإقامة فيه 4500 دولار في الليلة الواحدة، مارس بانون لعبة القط والفأر. فراح يتحرك بحرص شديد بين الصحفيين المرابطين أمام فندقه، محتسبًا بدقة مع من ينبغي أن يظهر ومن ينبغي أن يتجنّبه. وبما أنه يعلم أن ترامب يراقب تحركاته باستمرار، لم يشأ أن يُشاهدَ مع أيّ شخص من شأنه أن يفاقم المشكلات معه.

* * *

شكل جناح بانون في الفندق مركز نشاط اليمين المتطرّف في أوروبا خلال ذلك الأسبوع. وقضت مؤامرته المخطّط لها منذ مدة باقتحام الانتخابات البرلمانية

الأوروبية في أيار/مايو من العام 2019. فالاتحاد الأوروبي الذي تعارضه أحزاب اليمين الأوروبية بنسب متفاوتة، يخضع لسلطة البرلمان الأوروبي. بالتالي، لمَ لا نسيطر على الاتحاد الأوروبي ونصلحه، أو نحطّمه بهذه الطريقة؟ هذا هو المخطط السياسي لبانون. كان يعلم أن الإقبال على الانتخابات البرلمانية الأوروبية ضعيف على الدوام: ما من أحد يحضر للتصويت. هذا يعني أن من السهل التحكّم بها. وقد أعلن قائلاً: «يسهل التحكّم بهذه الانتخابات أكثر من أيّ انتخابات أخرى في العالم، ومع أقل تكلفة عن كل صوت».

لكن، إذا اعتبر بانون أنه قد حقق نجاحًا باهرًا في ايطاليا ورأى في أرقام فيكتور أوربان المحبطة في المجر قوة صاعدة، فهذه مجرد بداية. لم تكن إيطاليا والمجر تاريخيًّا من قادة أوروبا، وهو الآن يحتاج إلى فرنسا.

حوّل بانون العديد من الغرف الإضافية في براون إلى مركز مؤتمرات للجبهة الوطنية الفرنسية. وقد أتى لويس إليوت، الزوج والشريك لمارين لوبين التي ورثت الجبهة عن والدها ذي الميول النازية، إلى لندن مع وفد مرافق. وبأسلوب المستثمر المصرفي، راح بانون يراجع الوضع المالي للجبهة بالتفصيل، وكأنه يستعد لإعلان الحزب.

أما المشكلة، فهي أن أكبر المستثمرين في الجبهة، إنما هم رجال عصابات روس يشكّلون على الأرجح واجهة لبوتين. ويعمد الروس، منذ سنوات عدة، إلى تمويل لوبين وحزبها. لم تكن المظاهر، ولا حتى الوقائع السياسية المخيفة، مظاهر مناسبة. فإذا جرت الاستعانة بالجبهة للسيطرة على الانتخابات الأوروبية سنة 201، فهذا يعني أن بوتين، أو حتى رجالًا من روسيا أسوأ من بوتين، سيصبحون قوة كبيرة ومهمة في السياسة الأوروبية الداخلية.

في العالم الغامض للجهود المفترضة التي يبذلها الروس للتأثير في الغرب، إليكم حقيقة مجردة: يموّل الروس فعلًا أحزاب المعارضة. فقد رضي كثير من أحزاب اليمين الأوروبية عن مساعدة الروس. وهذا الدعم ليس مخفيًّا. وعلى الرغم من أنّ هذا التمويل لا يمكن أن يوصف بغير الشرعي، فإنه يطرح سؤالًا جليًّا: إذا كان الروس يدعمون الجبهة الوطنية وأيّ حزب يميني آخر يطلب المساعدة، فلم لا يدعمون حزب ترامب الذي يدعم بدوره الجبهة الوطنية، ممثلًا بشخص ستيف

بانون؟ إنها حلقة تميل باتجاه روسيا.

كان موقف بانون من التواطؤ الروسي بسيطًا، وهو أن كل ما حدث لا يعنيه. فهو، ويُسِرُّ أحيانًا أنه هو وحده، لم يتواصل يومًا مع الروس خلال الحملة، أو خلال فترة الانتقال. بيد أنه على تناغم تام مع الأهداف الروسية التي تقوم على استخدام اليمين الأوروبي لتقويض الهيمنة الأوروبية. لكن أقل ما يمكن أن يُقال في التورط الروسي المكشوف حتى في نظر بانون أنه «لا يبدو أمرًا جيدًا».

وأصبح هدفه الآن أن يردّ الدين للروس، إذ أقرضوا الجبهة الوطنية 13 مليون دولار، وأن يستبدل بأصحاب ديون الحزب داعمين أكثر قبولًا. (والغريب في الأمر أنه التفت إلى اليهود من اليمين المتطرف وداعمي إسرائيل، وسعى إلى جعلهم يملكون ما يُعدّ حزبًا من أحزاب النازية الجديدة). ولتحقيق هدفه هذا. كان لا بد له من فهم مالية الجبهة التي تتَّسم بالفوضى. وبدا أن معرفة وفد الجبهة لعملياتها معرفة سطحية، فأعضاؤه لا يعرفون مَن يقبض المال، ومقابل أيّ خدمات، وكيفية حدوث ذلك.

قال بانون المصرفي الذي أصبح محط الأنظار المختلفة: «يجب أن أعرف التدفُّقات المالية الداخلة والخارجة كلها. علينا أن نراجع هذه المسائل خطوة بخطوة».

كافح بانون كي يكبت انزعاجه وإحباطه من زبائنه. ولا عجب في ذلك. ففيما هو يتكلم، راح هؤلاء الذين يُفترض بهم أنهم سيكونون في المستقبل من وزراء اليمين المتطرف في فرنسا يحدّق بعضهم إلى بعض بقلق وعدم فهم واضحين. فإذا كان هذا مستقبل أوروبا، فإن زمنها سيكون قصيراً وطابعها على غرار روريتانيا[12].

وبدا أنّ نايجل فاراج، الموجود في براون أيضًا للقاء بانون ويبحث حاليًّا عن كأس شراب يحتسيها في الصباح، يتحدى أيضًا قدرة بانون على التحكّم بنفسه وضبط أعصابه. يعتقد بانون أنه قد أدّى دورًا رئيسيًّا في توسيع نفوذ حزب استقلال المملكة المتحدة ودعم فاراج. لكن بعد فوز بريكست، تبرّأ فاراج من الحزب وأعاد الدعم إلى ما هو أدنى من 10%. (صاح بانون بنبرة غير مصدّقة: «ماذا تعني بقولك إنك تستقيل؟ إنها البداية فحسب!»). وقد أكّدت التجربة لبنانون كسل اليمين الأوروبي وبطأه الناجمين، من وجهة نظره، عن قلة العائدات المادية للسياسة في أوروبا.

ويقول بانون ممازحًا إنّ السياسة في روسيا مفيدة ماديًّا. ذلك أن مردودها، في الواقع، أفضل مما هو عليه في الولايات المتحدة؛ وهذا ما جعل الروس يسيطرون.

* * *

وسرعان ما تكشّفت كارثة ترامب في بريطانيا، كما تنبأ بانون الذي سرعان ما ذكّر الجميع بتنبّؤه.

وسلّطت وسائل الإعلام الضوء على بالون ضخم حلّق في أجواء لندن: ترامب كطفل برتقالي اللون يرتدي حِفاظاً. وأثارت التهمة بأنه تصرّف كطفل نقطة حساسة لدى ترامب جعلته يتوقّف عندها. «أنا لست طفلًا! هل تعتقد أنني طفل؟ أنت الطفل وليس أنا!».

قدِم ترامب إلى لندن حاملًا معه رسالة داعمة للبريكست، من دون أن يدرك حدّ السكين الذي تقف عليه المملكة المتّحدة بسببه. ولعله لا يأبه: فالجدل القائم حول البريكست يعيل صبره وهو يرفضه بازدراء. من الواضح أنّ هذا صحيح. ومن الواضح أيضاً أنّ إنكلترا، على ما قال، لا ترغب في أن تكون جزءًا من أوروبا وترامب ذكر إنكلترا، لأنه لا يميّز بينها وبين ما بقي من المملكة المتحدة. واستند هنا إلى تشرشل، وإلى الحرب العالمية الثانية، و«العلاقة المميّزة» بين بريطانيا والولايات المتحدة. وأعلن أن إنكلترا ينبغي أن تكون الولاية الحادية والخمسين، وهو لا يمزح بالضرورة.

في 12 تموز/يوليو، وقبل الساعة الثانية بعد الظهر، وصل ترامب إلى لندن، حيث استقبله صديقه النيويوركي القديم وودي جونسون. وجونسون هو سفير ترامب إلى البلاط الملكي، ووريث شركة جونسون أند جونسون، ومالك نيويورك جيتس، ورجل المجتمع والحفلات الذي يثير الكثير من السخرية في نيويورك. (قال بانون «لا تجعلني أفقد أعصابي. فعلى لائحة الأشخاص غير الأكفاء الطويلة، لديك هنا الشخص الأقل كفاءة»). ومع وصول ترامب وجونسون إلى وينفيلد هاوس، مقر إقامة السفير على طرف ريجنت بارك، كانت أغنية فريق البيتلز «We can work it out» تصدح في منافسة مع هتافات المحتجّين وسخريتهم.

وتوجّه ترامب مباشرة لإجراء مقابلة مع صحيفة الصن Sun الشعبية التي يملكها مردوخ. وقد وضع الحوار كل من جاريد وإيفانكا، بناءً على طلب مردوخ. وعدت الصحيفة بمقابلة إيجابية، تتجنّب فيها الحديث عن بريكست، وتركّز بشكل كبير في العلاقة المميّزة بين البلدين. لكن مزاج ترامب الذي وصل من بروكسيل كان خليطًا ترامبويًّا من الروح التنافسية والرضا الذاتي والأرق.

جاء هذا الحوار مع صحيفة الصن طائشًا وغير منقّح، وربّما كان أطول من أيّ حوار آخر أجراه ترامب يومًا، علمًا أنّ لائحة المنافسة تطول هنا. بدا مسرورًا بعرض مختلف الأمور وعدم إخفاء أيّ شيء. حتى أن ترامب بدا على أنه حليف الشيطان، المرتاح تمامًا لسلطته التي لا تُجادل، الثرثار الاستثنائي الذي نادرًا ما يتكلم في الموضوع. إنه لا يخضع لأحد.

وأثناء المقابلة، خاض ترامب من دون مبالاة أكثر الموضوعات المتفجّرة في السياسة البريطانية الحديثة. وكانت كل نقطة أثارها جوهرية، وإن كانت صادمة؛ فقد صرّح بالآتي:

إذا وافقت المملكة المتحدة على صفقة بريكست التي تحبّذها حكومة تيريزا ماي، وبدا هنا وكأنه يهز كتفيه استخفافًا، فلن تكون هناك صفقة تجارية. سينهي هذا علاقة تجارية مهمة مع الولايات المتحدة.

كان ليتفاوض مع الاتحاد الأوروبي بشكل مختلف عما فعلته ماي. قال لها ذلك؛ لكنها لم تنصت إليه. كان مستعدًا للرحيل. «أعطيتها رأيي بشأن ما ينبغي أن تفعله وكيف عليها أن تفاوض. لكنها لم تأخذ برأيي. لا بأس... لكن ما يجري مؤسف جدًّا».

وصفقة بريكست التي تقترحها رئيسة الوزراء الآن، إنّما هي «صفقة مختلفة جدًا عما صوّت عليه الشعب. ليست الصفقة التي وردت في الاستفتاء». (في الواقع، لم ترد أيّ صفقة في الاستفتاء غير الانسحاب غير المحدَّد من الاتحاد الأوروبي). والصفقة كما هي مقترحة الآن «ستؤثر بالتأكيد في التجارة مع الولايات المتحدة... تأثيراً سلبيًّا لسوء الحظ».

بعدئذ، كال المديح لبوريس جونسون، أحد خصوم ماي البارزين في حزب

المحافظين والذي استقال لتوه من منصبه كوزير خارجية في حكومتها بسبب خطة بريكست الأكثر حذرًا التي وضعتها هذه الحكومة. وفي تعليق له على التكهّنات التي تشير إلى أن جونسون سيشنّ قريبًا معركة ضد ماي على رئاسة الحزب، قال ترامب: «أعتقد أنه سيكون رئيس وزراء عظيماً. أعتقد أنه يملك ما يؤهله لذلك».

أما الإنفاق على الدفاع، أو الإنفاق العسكري البريطاني، فينبغي مضاعفته.

ورأى أنّ الهجرة إلى أوروبا «عار وفضيحة... فقد غيّرت نسيج أوروبا. لن تبقى أبدًا كما كانت... وأنا لا أعني هذا بالمعنى الإيجابي... أعتقد أنكم تفقدون حضارتكم وثقافتكم».

وعن صادق خان، عمدة لندن، وهو أعلى منصب يشغله مسلم في المملكة المتحدة، قال: «قام بعمل فظيع. انظروا جيدًا إلى ما يحدث في لندن. أعتقد أنه لم يحسن عمله... كل هذه الهجرة... كل هذه الجرائم التي جُلبت. إنه ليس مناسبًا لحكومة مهمة جدًّا». إذن، تابع قائلًا: «عندما يُشعِرونك بأنك غير مرحّب بك، فلمَ تبقى؟».

وأردف: «لا تسمع اسم إنكلترا بقدر ما ينبغي أن تسمعه. أنا أفتقد اسم إنكلترا».

لم يكن ترامب يتحدث من دون أيّ لباقة دبلوماسية فحسب، بل لعله كان يتحدث مع نفسه، متخلّصًا من الشكاوى التي تندرج ضمن لائحة عاطفية طويلة، ما قد يجعله يحظى بنوم هانىء.

* * *

أزاح كل هذا عن صدره، ورمى بذلك قنبلة على العلاقة بين المملكة المتحدة والولايات المتحدة، وعلى السياسة الداخلية البريطانية المضطربة أصلًا. وقد بدا منفصلًا تمامًا عن الحدث الذي سيشارك فيه بعد وقت وجيز: فرئيسة الوزراء تيريزا ماي تقيم حفل عشاء رسميًّا على شرفه.

وإلى قصر بلاينهايم، منزل أجداد أسرة شرشل ومكان ولادة وينستون، وصل الرئيس والسيدة الأولى على متن the Beast - الوحش، وهي سيارة الليموزين

الرئاسية التي أحضرت جوًّا للجولة الرئاسية. وقد استقبلتهما على السجادة الحمراء السيدة ماي، في ثوب أحمر اللون وحذاء أحمر أيضًا، رفقة زوجها، في حين عزف الحرس الملكي، وهو فرقة ترتدي بزات ذات سترات حمراء وتعتمر قبعات من الفرو، مجموعة من الألحان، منها أميزينغ غرايس، على مزامير القُرب.

وجدت ماي ورئاسة الحكومة صعوبة في ملء القاعة بكبار السياسيين ورجال الأعمال البريطانيين، الذين شكّك معظمهم في فائدة التعامل عن قرب مع ترامب. ونُشرت المقابلة مع صحيفة ذا سان خلال العشاء الذي امتد لثلاث ساعات، وانتشر، خلال الأمسية، ما تضمنته من أحاديث في أوساط ضيوف كثيرين من الضيوف. وبدا ترامب نفسه غافلًا عن المسألة أو غير معني بها، إذ كان دمثًا واجتماعيًّا وودودًا تمامًا مع رئيسة الوزراء.

وفي طريق العودة من العشاء، جرى اطلاعه على المقابلة، فبدا غير مصدّق، بل مصدومًا ورافضًا للأمر أيضًا: فالمقابلة لا علاقة لها أبدًا بما قاله. علّق قائلًا لمساعديه إنّ المقابلة ملفَّقة ومختلقة، قبل أن يعلن «أخبار كاذبة».

سمع مردوخ هذا التعليق في نيويورك، فعلّق ساخرًا: «لقد انسحب عقليًّا من الموضوع».

وعندما عرضت الصن شريط المقابلة المسجّل بناء على توجيهات مردوخ لتؤكّد صحّة ما نشرته، بالكاد رفّ لترامب جفن.

زائف. غير صحيح. كاذب تمامًا. مختلق بالكامل.

* * *

كان هذا سيئًا من كل النواحي. فهو فاجعة من وجهة نظر الحنكة السياسية. فاجعة للغاية، وغير قابل للتعليل وغريب إلى حدّ أن المقابلة قد استُبعدت. عليك أن تبتسم وتتحمّل ترامب، ثم تفترض أنّ كلامه لا يرتبط بالسياسات والأعمال الأساسية.

من المؤكد أن بانون كان مقتنعًا بذلك بالتأكيد. وقد تعوّد أن يتجاهل ترامب، على اعتبار أنّ الرجل سلسلة من نوبات الغضب التي لا بد من أن تمرّ كعاصفة

مؤقتة. وفي حين أنّ حصيلة رحلة ترامب إلى أوروبا كانت لتثير التساؤلات بشأن كفاءة أيّ زعيم آخر في العالم وقواه العقلية، أصرّ بانون على شرح جدواها وفائدتها.

انتقلت السلطة، عبر الخبرة والدراية، إلى مجموعة مختارة، هي جماعة دافوس. فمن وجهة نظر بانون، تمكّنت هذه المجموعة على المستوى التاريخي من الاستيلاء على الثروة؛ فهي تتحكّم بالمؤسسات الفكرية والاقتصادية والدبلوماسية. وقد مثّل ترامب، سواء أدرك ذلك أم لم يدرك، فوضى فكرية واقتصادية ودبلوماسية، الأمر الذي يتعارض مع سلطة الخبرة والمؤسسات، ما يجعل منه بالتالي مصدر إلهام للقضية الشعبوية.

في أيّ حال، هذا هو دونالد ترامب: مجنون معادٍ للمؤسسات. لكن كيف يمكن توقّع ما يمكن لرجل مجنون أن يفعله؟

* * *

وفي صبيحة 13 تموز/يوليو، غادر ترامب متوجّهًا إلى ساندهيرست، الأكاديمية العسكرية الملكية ليحضر مع رئيسة الوزراء تمرينًا مشتركًا بين القوات الخاصة البريطانية والأميركية. وقد انتقلا معًا إلى شيكرز، وهو مقر الإقامة الريفي لرؤساء الوزراء البريطانيين، بغية تناول الغداء وعقد اجتماع رسمي وعقد مؤتمر صحافي. قطع ترامب وماي المسافة بالمروحية، ما حال لحسن الحظ، وبحسب المساعدين، دون إثارة أيّ حوارات بينهما، بالنظر إلى الصخب الشديد.

تساءل كثير من المراقبين عن كيفية تمكُّن ترامب من معالجة تداعيات إحدى أكثر المقابلات غرابة وافتقارًا إلى الدبلوماسية في تاريخ الدبلوماسية العالمية. لكنه بدا مستبشرًا ومتفائلًا تمامًا، إن لم يكن غير مدرك لملاحظاته السابقة. وقد أعلن للصحفيين، لدى وصوله إلى شيكرز: «سنتحدث في التجارة، سنتحدث في المسائل العسكرية. لقد تخلّصنا للتو من بعض المسائل الإرهابية. العلاقة قوية جدًّا، جدًّا.... جيدة جدًّا، جدًّا».

وخلال المؤتمر الصحفي مع ماي، بعد الغداء والاجتماع، هاجم ترامب وسائل الإعلام، وأنكر مجدَّدًا ما ورد على لسانه في المقابلة مع صحيفة الصن:

«أنا لم أنتقد رئيسة الوزراء. فأنا أكنّ لها وافر الاحترام. لسوء الحظ، كل الذي كتب لم يكن ما قلته بالضبط، لكنهم نقلوا عن لساني، ولا بأس عمومًا بذلك. لكن تلك الصحيفة لم تورد ما قلته عن رئيسة الوزراء. وأنا قلت الكثير من الأمور. لحسن الحظ أننا نميل في أيامنا هذه إلى التسجيل لذلك هي متوفّرة، إن رغبتم في الاستمتاع بمشاهدتها. لكننا نسجّل عندما نتعامل مع الصحفيين. هذا ما يُسمى الأخبار الكاذبة. تعلمون أننا نحلّ الكثير من المشكلات مع أداة التسجيل القديمة الجيدة».

بعدئذ، رفض أيّ إشارة إلى أنه ألحق ضررًا بالعلاقة القائمة بين الولايات المتحدة والمملكة المتحدة. كانت رئيسة الوزراء تنظر بصبر وتسامح مؤلمين. وتحوّل المشهد في فِلم الحب الحقيقي، «لوف أكتشولي» حيث يعمد رئيس الوزراء الذي يؤدي دوره هيو غرانت، إلى إهانة الرئيس الأميركي الممل، وسرعان ما يتحوّل الرئيس إلى ميم إنترنت[13].

* * *

بعدئذ، حان موعد قصر ويندسور، ولقائه مع الملكة.

واللافت أنّ الملكة، البالغة من العمر اثنين وتسعين عامًا، التقت ترامب وحدها. فزوجها الأمير فيليب الذي ينضم إليها عادة في اجتماعاتها مع رؤساء الدول كان غائبًا مع أفراد الأسرة الملكية الآخرين.

في الواقع، ناورت الأسرة بشكل حاذق لتتجنّب زيارة رسمية للرئيس الأميركي. فالأمير تشارلز الذي يجري حملة لتلميع صورته كملك المستقبل، لم يشأ أن يتحمّل عبء صورة له مع دونالد ترامب. وبدت فكرة لقاء الرئيس منفّرة أكثر لابنَيْه أيّ الأميرين البريطانيين. لا، لندعه للملكة، فحتى دونالد ترامب لا يمكن أن يقلّل من قدرها.

قام الرئيس والملكة بجولة مختصرة وغريبة على الأرض، واستعرضا الحرس الملكي، مع قدر قليل من الكلام، ومع رئيس يتململ حيث من المفترض أن يقف، بالنظر إلى كرهه الشديد لاتّباع التعليمات. انتقلا لاحقًا إلى القصر لاحتساء

الشاي.

جرى هذا من دون أيّ حدث يعكّر الجو العام. لكن، أثناء احتساء الشاي، وفي تحذير ظاهر للرئيس الأميركي وإهانة محتسبة للرئيس الروسي الذي سيتوجّه ترامب بعد فترة وجيزة للقائه، وجّه روبرت ميلر تهمة اختراق الديمقراطيين سنة 2016 إلى اثني عشر مواطنًا روسيًّا.

الفصل الثالث عشر
ترامب وبوتين

شكلت الجهود، التي بذلها المشرفون على حملة ترامب الانتخابية لشراء 33 ألف رسالة إلكترونية مفقودة عائدة إلى هيلاري كلينتون، العناصر التي ارتكز عليها تحقيق مولر. فالمشرفون على حملة ترامب الانتخابية لم يجدوا بُدًّا من التواصل مع القراصنة في الاتحاد الروسي ليتمكّنوا من شراء ما يحتاجون إليه من سوق الإنترنت المظلمة.

من جانبه، اعتبر بانون ما يجري أشبه بدائرة مكتملة مثيرة للسخرية. ففي العام 2015، موّل موقع بريتبارت البحوث التي أُجريتْ في سياق إعداد كتاب بيتر شويزر «أموال كلينتون» (الذي جرى تحويله فيما بعد إلى فِلم وثائقي)، وذلك في محاولة لتعقُّب مصدر المبالغ الضخمة التي جرى تحويلها إلى مشروعات هيلاري وبيل كلينتون. ولاشك في أن مطالبة شويزر وعدد كبير من المجموعات اليمينية بحق استخدام قانون حرية الحصول على المعلومات بخصوص الرسائل الإلكترونية العائدة إلى هيلاري كلينتون، قد أسهمت في تسليط الضوء على ممارساتها عبر البريد الإلكتروني.

ودفعت الفضيحة التي نجمت عن ذلك مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى فتح تحقيق في المسألة، خصوصاً بعد أن أعيد فتحها قبل أسابيع قليلة من انتخابات العام 2016، ما اعتبر بمثابة ضربة قاضية لحملة كلينتون الانتخابية. ولكن، على الرغم من تسليمها معظم رسائلها الإلكترونية، بقي مصير ما يزيد على 33 ألف رسالة إلكترونية وصفتها كلينتون بالشخصية، مجهولًا. كان بانون، وعدد كبير من

الجمهورين، يشتبهون في أن تلك الرسائل تخفي بين ثناياها خارطة الطريق لمصدر الأموال التي كان بيل وهيلاري يستخدمانها لتمويل مؤسسة كلينتون، حيث كانوا يشتبهون في كونها قد استغلّت منصبها خلال ولاية أوباما للتعامل بالتبرعات النقدية. وفي تموز/يوليو 2016، وجّه ترامب رسالة واضحة إلى القراصنة الروس، لمساعدته في العثور على تلك الرسائل.

في تلك المرحلة، كان بانون قد قضى قرابة السنة في البحث عن الرسائل المفقودة بالتعاون مع بريتبارت، حيث تمكّنا بعد غوصهما في دهاليز القرصنة العالمية من العثور على سماسرة وعدد كبير من الباعة المتعطشين لبيع بضائعهم. ولكن المشكلة هي توافُر مجموعات ونسخ مختلفة من الرسائل الإلكترونية، ما دفع بانون إلى التعليق قائلًا: «كان الأمر أشبه بشراء الطوب من مستودع كتب مدرسة تكساس (المبنى الذي أطلق هارفرد أزويلد منه النار على جون إف كينيدي). لا تخبر الرجل الذي يعمل في الفرن الحراري لمعالجة الطوب أن المبنى لا يزال قائمًا».

ولدى انضمامه إلى حملة ترامب الانتخابية في آب/أغسطس 2016، كان بانون يدرك أن رسائل كلينتون التي تنطوي على درجة عالية من الأهمية غير موجودة، أو لا تتوفر على الأقل نسخة منها يمكن التعويل عليها. غير أن عددًا لا يستهان به من المتملّقين وأصحاب المصالح المعنيين بالحملة الانتخابية، بمن فيهم أشخاص من أسرة المرشح، كانوا لا يزالون يحاولون التزلّف إلى ترامب عبر محاولتهم الحصول على الرسائل الإلكترونية التي كان من شأنها، بحسب اعتقاد ترامب، أن تلحق ضررًا كبيرًا بكلينتون.

غير أن تلك الجهود المضنية أثبتت لبانون مدى الفوضى القائمة في حملة ترامب الانتخابية، وضعف قضية التواطؤ التي تولّى مولر التحقيق فيها. فجلّ ما كان بوسع مولر القيام به هو رفع دعوى بحق عناصر هوجاء من مناصري ترامب، حاولوا سدى العثور على شيء لا وجود له. فالتحقيق سيظهر مدى حماقة الحملة الانتخابية، وحماقة المرشح عن المقعد الرئاسي فقط.

* * *

وجاء القرار الاتهامي الصادر عن مكتب المستشار الخاص بحق اثني عشر

عميلًا من الاستخبارات الروسية، والذي جرى الاعلان عنه خلال زيارة الرئيس للملكة البريطانية، قبل ثلاثة أيام من الموعد المقرر لمغادرة ترامب اسكوتلندا، حيث قضى إجازة ومارس لعبة الغولف، والتوجُّه إلى هيلسينكي لعقد قمة مع فلاديمير بوتين، رئيس الاتحاد الروسي.

ذكر القرار الاتهامي صراحة الآتي: في السابع والعشرين من تموز/يوليو 20، حاول قراصنة روس اختراق خادم البريد الإلكتروني الخاص بهيلاري كلينتون، أي في اليوم نفسه الذي ناشد ترامب فيه الروس للقيام بذلك. (أشار بانون مرارًا وتكرارًا إلى إنه دوّن هذه الجملة، داعيًا الروس إلى المساعدة بشأن رسائل كلينتون الإلكترونية، مؤكّدًا ان ترامب لم يكن يدرك تمامًا ما يقوله). وحاول هؤلاء القراصنة، بعد ذلك، اختراق حملة كلينتون، عبر اختراقهم البريد الإلكتروني الخاص برئيس حملة كلينتون جون بوديستا، واختراق اللجنة الوطنية الديمقراطية. وقاموا في مرحلة لاحقة بتسريب المواد التي نجحوا في الاستيلاء عليها، ما تسبّب في إحراج حملة كلينتون والديمقراطيين.

وصف القرار الاتهامي ما حدث على أنه عملية استخبارات سيبيرية متبادلة. والمقصود بذلك أن المخابرات الأميركية كانت على علم بما يفعله الروس، ولكنها اختارت ألا تردعهم، لأن الروس سيدركون عندها، بحسب نظرية التجسُّس التقليدية، أن أمرهم قد افتُضح.

وبحسب القرار الاتهامي، كان القراصنة على اتصال بشخص تربطه علاقات وطيدة بأعضاء رفيعي المستوى من الحملة الانتخابية. وبنتيجة الاستدلال، تبيَّن أن المقصود هو روجر ستون، الذي كان يمثّل على أفضل وجه الطابع غير السوي لحملة ترامب الانتخابية؛ فهذا الرجل المفعم بالحيوية يجمع بين الشخصية الباحثة عن الشهرة، والمهارة العالية في فن الأداء، وحب المغامرات الجنسية، وحياكة المؤتمرات، إلى درجة أن أحداً لم يكن يتعامل معه بجدية، بمن فيهم ترامب نفسه.

وفي محاولة منه لتحليل ما يملكه مولر بالضبط، علّق بانون قائلًا: «إذا كان ستون هو كل ما يملكه مولر، فهذا يعني أنه لا يملك شيئًا».

لكن تبيّن أيضًا أن الغموض ظل سائداً نتيجة القرار الاتهامي الصادر عن

المستشار الخاص، لأنه كان على وشك أن يلزم الصمت. فمع انتصاف فصل الصيف، لم يكن مولر، الذي يميل نحو الامتثال إلى القوانين، ينوي الإقدام على أي خطوة يمكن أن تترك أثرًا على الانتخابات المقررة في شهر تشرين الثاني/نوفمبر. أضف إلى ذلك أن فريق مولر المؤلَف من عدد قليل من الأعضاء، كان يتعيّن عليه الاستعداد لجلسات محاكمة بول مانافورت التي حُدّدت بالتعاقب في آب/أغسطس وأيلول/سبتمبر، باعتبارها المرة الأولى التي يشاركون فيها في دعوى جنائية ومساءلة علنية على هذا القدر من الأهمية.

واللافت هو أن الموسم قد اخُتتم قبل ساعات من لقاء ترامب وبوتين، ما دفع بانون إلى القول إن ذلك يذكّره بأسلوب رجال الشرطة الذين يرفعون درجة حرارة الضغط في ما يختص بالمسائل التي يعالجونها، ثم يراقبون رد الفعل.

* * *

اقتصر اللقاء على ترامب وبوتين والمترجمين. فبدا أشبه بنقاش مباشر بين رجلين أو رئيسين يجلسان إلى طاولة في هيلسينكي، المكان المفضَّل لعقد القمم الروسية- الأميركية.

كان ترامب متشددًا بشأن عدم رغبته في رؤية أي شخص آخر في القاعة. ولكن مايك بومبيو، وهو أحد الأشخاص القلائل الذين يكنّ لهم الرئيس نوعًا من الاحترام، أخبره أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك، حيث ينبغي على الأقل أن يكون وزير الخارجية برفقته. ولكن ترامب ضرب كلامه عرض الحائط قائلًا: «أخشى من التسريبات.... والمسربين». ويُعتقد بأنه كان يقصد بذلك الكلام بومبيو نفسه.

كان إطار عمل السياسة الخارجية، الذي يشمل بومبيو، وبولتون مستشار الأمن القومي، وكوشنر الذي يمسك بمجموعة من الملفات الخارجية المهمّة، على شفير الانهيار المهني. أيعقل أن يجتمع الرئيسان الأميركي والروسي بمفردهما؟ إنها سابقة خطيرة وتنطوي على جانب من الجنون، خصوصاً في ظل التحقيق القائم ضد الحكومة الروسية. ولكن الاضطراب الذي حدث على المستوى البيروقراطي ساعد المشرفين على السياسة الخارجية في إعادة ضبط مواقعهم؛ هذا هو طبع ترامب، وما باليد حيلة.

واستنتج مايك بومبيو وجون بولتون أن الخطة التي وضعها ترامب في رأسه مبنية على «الكلام المعسول».

وغالبًا ما كان ترامب يتبجّح بقدرته على الإقناع. فيتفاخر قائلًا: «ما من أحد يمكنه أن يتملّق شخصًا مثلي». وكانت هذه الاستراتيجية معروفة في محيط ترامب باستراتيجية المستأجر الرئيسي. وكان جاريد وإيفانكا من كبار مؤيدي هذا التفسير لسلوك ترامب. ففي عالم العقارات، يمكن أن تفعل أيّ شيء لتقنع علامات تجارية كبيرة باستئجار المساحات التي تملكها بالتجزئة. ويشتهر ترامب بعناده في ملاحقة المستأجرين من النجوم. فإن قال زبون كبير ودسم إنه كان يعاشر زوجة ترامب، فسيقول له ترامب، اسمع دعني أحضر لكما بعض الشمبانيا. وإلى أن يحصل على التوقيع وعلى دفعة أولى كإيداع من المستأجر، فلن يتوانى عن تقديم التنازلات مهما تبلغ درجة إذلال الذات. بعدئذ، ينسى التودُّد كله.

انظروا كيف نجحت هذه المقاربة في سنغافورة مع كيم جونغ إن! فقد تملّق ترامب كيم الذي تملّق ترامب بدوره. وتغيّر المزاج العام حتى وإن لم يتغيّر شيء. وتحوّلت العدائية العلنية إلى مصلحة عامة، بل إلى رقة وليونة، وإن كانت مع أسلحة نووية. إنه انتصار، أليس كذلك؟ وهذا كله بفضل الكلام الجيد.

لو خرج ترامب من اجتماعه مع بوتين وسار يدًا بيد مع الدب الروسي لشكّل هذا انتصارًا أيضًا. كان ترامب قد استخدم سحره ودبلوماسيته الخاصة لينتصر على الوحش بمفرده. بدا أنّ هذا لا يحتاج إلى تفكير في نظر ترامب. إنه المثال الأفضل على إحدى الحكم التي يُؤْثرها في عالم الأعمال: «اختر الفاكهة المتدلّية الأقرب إليك». لو أطرى كل من ترامب وبوتين أحدهما الآخر، فاحتمال أن يتبادلا التهديد أو أن يقدّم كل منهما المطالب إلى الآخر سيصبح أقل. جلّ ما يحتاج إليه ترامب الآن هو مصافحة. ويمكنه لاحقًا أن يقلّل من حماسته.

* * *

في 13 تموز/يوليو وكان يوم جمعة، وقبل انعقاد قمة هيلسينكي بثلاثة أيام، وصل الرئيس وفريق عمله في وقت متأخر من ذلك اليوم إلى منتجع تورنبيري

للغولف الذي يملكه ترامب في اسكوتلندا، بعد أن مروا في طريقهم من المطار بمراعي الأبقار والمواطنين المرحّبين، من دون محتجّين.

حمل مايك بومبيو وجون بولتون معهما تقارير وملفّات دسمة. فقد كُرّست نهاية الأسبوع هذه للإعداد للقمة، على أن تتخلّل ذلك جولات من الغولف. وانضم إلى هذه الرحلة جون كيلي، وسارا هاكابي ساندرز، وبيل شاين، والعديد من المساعدين الآخرين.

كان نهار السبت مشمسًا، ولم يكن هناك على جدول الأعمال سوى الغولف. إلا أنّ عددًا قليلًا من المحتجين تمكّنوا من الوصول إلى تورنبري. وراحت مجموعة صغيرة منهم تصيح خلال جولة الغولف التي أقامها الرئيس بعد الظهر: «لا لترامب، لا للكو كلوكس كلان، لا للولايات المتحدة العنصرية».

ترامب الذي شجّعته وحمّسته اجتماعاته مع دول حلف الناتو وفي المملكة المتحدة، والذي عنّف المحتجين بشدة، لم يكن في مزاج يسمح له بالإعداد للقائه مع بوتين. حتى أنه لم يتكبّد عناء التحضير بشكل سطحي كما تعوّد أن يفعل، ذاك التحضير المقتّع بحسب الشائعات. ولخّص بومبيو وبولتون التقارير الضخمة الموضوعة في الصناديق في صفحة واحدة. ولم يركّز الرئيس عليها.

لا بأس، إنه على ما يرام. ولمَ لا يكون كذلك؟ عندما اجتمع بكيم كان عاجزًا عن تحديد موقع كوريا الشمالية على الخارطةِ إلا أنّ هذا لا يُهم. إنه مسؤول، رجل قوي يسعى من أجل السلام.

قال لمستشاريه: لا تحاولوا فرض قالب معيّن عليّ. وما انفك يكرر قائلًا، وكأنه أسلوب علاجي: أحتاج أن أكون منفتحًا. أطلعه بومبيو وبولتون سريعًا على نقاط المحادثات الرئيسية خلال القمة التي ستُعقد بعد ساعات فقط من دون أن يُعدّ لها.

وفي اليوم التالي، لعب الغولف ثم راحت تمطر.

* * *

وصل الرئيس وفريقه إلى هيلسينكي في الساعة التاسعة من مساء ذلك الأحد،

قبل ساعة ونصف من غروب الشمس؛ ثم توجهوا إلى فندق هيلتون. وأثناء وجودهم على متن الطائرة، فازت فرنسا على كرواتيا في كأس العالم الذي تستضيفه روسيا في ستاد لوزنيكي، في مباراة حضرها الرئيس بوتين شخصيًّا.

وكُرّس صباح يوم الاثنين في 16 تموز/يوليو للقاءات الرسمية والاستقبالات مع الرئيس الفنلندي. لكن ترامب وجد الوقت ليغرّد بشأن التهم التي وجّهها مولر و«الاتهامات الملفقة» التي تلاحقه.

وصل بوتين إلى هيلسينكي في وقت متأخر عما هو متوقّع، وقد تعوّد أن يصل متأخرًا؛ فأبقى ترامب منتظرًا لما يُقارب الساعة. بعد الانتظار، توجّه ترامب وفريقه إلى القصر الرئاسي الفنلندي قرابة الساعة الثانية بعد الظهر. جلس ترامب وبوتين معًا، والتقطت لهما الصور، وخصّصا بضع دقائق للملاحظات والتعليقات العلنية، حيث هنأ ترامب الرئيس الروسي على نجاح كأس العالم. بعدئذ، أُغلقت الأبواب وبدأت الجلسة الثنائية على انفراد.

استمر الاجتماع لأكثر من ساعتين بقليل. وانضم المستشارون والدبلوماسيون الروس والأميركيون إلى الرئيسين لساعة إضافية أو نحو الساعة. وأخيرًا، توجّه ترامب وبوتين إلى قاعة ليعقدا بعد اجتماعهما مؤتمرًا صحفيًّا، حيث رأى العالم، وتحديدًا فريق ترامب، شخصية مختلفة تمامًا.

وسرعان ما أصبح وصف بانون لترامب الوصف الشائع في محيط الرئيس: «بدا كالكلب المطيع». حتى أنّ جاريد ردَّد الوصف من دون أن يعلم على الأرجح أنّ بانون هو من أطلقه.

سؤال وحيد شغل الجميع في عالم ترامب وهو: ما الذي يمكن أن يكون قد جرى في الداخل؟

دخل ترامب وبوتين إلى الاجتماع كندّين وخرجا منه كضحية ومنتصر. كيف تحوّل برنامج «الحديث الجيّد» الذي يعتمده ترامب إلى مثل هذا الإذلال الواضح؟ لا بد أن بوتين قد حاصر الرئيس ببعض المعلومات غير السارة والشنيعة، ولعلها مسائل تهدّد حياته! لكن ما هي هذه الضغوط؟ وما نوعها؟ ما الذي يملكه بوتين؟ وانضم إلى النقاش كل من يعمل في البيت الأبيض تقريبًا.

تساءل الموظفون الفضوليون: «ماذا يمكن أن تكون ورقة الضغط هذه؟».

تحقق بانون من جميع الاحتمالات.

تسجيل شائن مع المومسات؟ قال بانون: «لو كان مثل هذا الشيء حقيقيًّا وظهر إلى العلن، فأنا واثق من أنه سيقول بكل بساطة وجرأة إنّ الصورة طبق الأصل من دونالد ترامب الابن، وليست صوره هو. مزوّر. مزوّر. ولن يعرقله الأمر».

دونالد ترامب الابن حاول شراء الرسائل الإلكترونية؟ «إنه لا يأبه لأمر دونالد الابن. أتمزحون؟».

الدليل على أن القلة الروسية الحاكمة قد أنقذته هي أنّ أثرياء روساً قد اشتروا عقارات ترامب بأسعار مضخّمة. «لا أحد يأبه للأمر. ترامب يعلم هذا. ولن يزعجه الأمر أو يؤثر به».

لعل الأمر كارثي أكثر من مجرد مناورة ابتزاز، ربما شنّ بوتين هجومًا مدروسًا على ذكاء ترامب.

«انسوا أمر الإقرار الضريبي. ماذا لو كانت لديه سجلاته الجامعية؟» كانت هذه نغمة شائعة في البيت الأبيض. يعتقد كثير من أصدقاء ترامب أنّ جذور ما يشعر به من خزي وعدم أمان فكري هو فصوله الدراسية في الجامعة.

ماذا لو حوّل بوتين الاجتماع من حديث جيّد إلى امتحان في الجغرافيا السياسية؟ وتساءل بانون كم يمكن لبوتين أن يكون قاسيًا؟ هل طلب إلى ترامب أن يحدد له موقع شبه جزيرة القرم على الخارطة؟ «يا إلهي، أرجو ألا يكون قد سأله عن العلاقة بين شبه جزيرة القرم وأوكرانيا. لا تطرح عليه مثل هذا السؤال، أرجوك!».

رأى بانون أنّه أمام رئيسين نرجسيين، من النوع الذي يؤمن بعبادة الزعيم أو القائد، يقفان على مسرح العالم. فكلاهما يتمتع بمواهب شعبوية، إلا أنّ كلًّا منهما يعمل في نهاية المطاف من أجل مصلحته الخاصة. ويبقى بوتين الأذكى بين الاثنين.

بقي دونالد ترامب يلاطف فلاديمير بوتين لسنوات لكن من بعيد، مستنجدًا به

على الدوام في رسائل نصيّة متحمّسة جدًا. وبقي بوتين متحفظًا، مظهرًا بوضوح أن ثمة نظام تصنيف أو نظاماً تراتبيًّا. وعندما حضر ترامب إلى موسكو سنة 2013 تصحبه ملكة الجمال، في الفترة التي يُفترض فيها أنّ الشريط الشائن قد سُجّل، جعله بوتين يعتقد أنهما قد يلتقيان، وأنه قد يحضر مسابقة الجمال التي ينظمها. إلا أنّ بوتين تجاهله. لم يفعل ذلك بفظاظة، فهو أسلس من أن يفعل. كانت الرسالة، نعم، يمكن أن نلتقي يومًا ما، لكن ليس الآن. وطرح بانون نظرية أن ترامب ربما لم يكن مهتمًا بالمساعدة الروسية أثناء حملته الانتخابية؛ ولعله رغب ببساطة في لفت الانتباه الروسي، وفي كسب الاهتمام الروسي، وفي نيل اعتراف وتقدير من بوتين.

الآن، في هيلسينكي، وبعد ساعتين معًا في غرفة واحدة، نال أخيرًا ترامب نظريًّا ما أراده. إنه نظير بوتين.

لكن لمَ يبدو مثل كلب مطيع؟

* * *

مما لا شك فيه أنّ هذا المؤتمر الصحفي يُعدّ من أفظع العروض وأشدّها ضررًا في تاريخ رؤساء الجمهورية.

فلم يكتفِ ترامب بالتعثّر في المواجهة مع الزعيم الروسي عبر تقديم أداء أشبه باجتماع كينيدي الأول الفاشل الشهير مع خروتشوف، بل، على العكس من ذلك؛ لم يبذل أيّ جهد ليواجه بكبرياء، وبدا شديد المراعاة، ومفرطًا في المجاملة وخنوعًا. بدا فعلًا أشبه بشخصية رواية «مانشوريان كانديديت» خاضعًا تمامًا لمن يحرّكه.

في المؤتمر الصحفي، عرض بوتين بكل جرأة معالجة قضية المواطنين الروس الذين وجّه إليهم مولر الاتهامات. ووافق على أن يجري استجوابهم، شرط أن تسمح الولايات المتحدة بالمقابل لروسيا باستجواب المواطنين الأميركيين الذين تعتبرهم أعداء لها. وأشار بوتين إلى أن الرئيس الأميركي، الذي وقف إلى جانبه غير مدرك ومفرغًا، تلقى الأمر بإيجابية.

وفي محاولة لكسب التأييد، عمد ترامب إلى تبرئة بوتين بأسلوبه اللامبالي وكلامه غير المتناسق.

جاء فريق عملي إليّ وقال إنهم الروس. ها هو الرئيس بوتين هنا وقد قال للتو إنّ روسيا لا علاقة لها بالأمر. سأقول ما يأتي: لا أرى سببًا يجعل روسيا تتورّط؛ لكنني أودّ أن أرى الخادم فعلًا. لكن لدي... لديّ ملء الثقة بالطرفين. أعتقد أنّ المسألة ستطول لبعض الوقت، لكنني لا أعتقد أنها ستستمر من دون أن نكتشف ما حلّ بالخادم. ما الذي حلّ بخوادم السيد الباكستاني الذي عمل لدى اللجنة الوطنية الديمقراطية؟ أين هي تلك الخوادم؟ إنها مفقودة. أين هي؟ ما الذي حلّ برسائل هيلاري كلينتون الإلكترونية؟ ثلاثة وثلاثون ألف رسالة... اختفت، اختفت فحسب. أعتقد أنها ما كانت لتختفي بهذه السهولة في روسيا. أعتقد أنها لفضيحة وعار ألا نتمكّن من استعادة رسائل هيلاري كلينتون الإلكترونية الثلاثة وثلاثين ألفًا.

من جهته، تعامل بوتين مع ترامب بطريقة بسيطة. الشريط الفاضح؟ مراقبة؟ لمَ؟ فترامب لم يكن شخصًا ذا شأن عندما زار روسيا سنة 2013، بل مجرد مدير لشركة بناء. قال بوتين، فيما وقف ترامب ذابلًا إلى جانبه: إنه لم يكن رجلًا يدير منتجعًا فخمًا وكازينو، ونجمًا مشهورًا على التلفزيون، بل مجرد رجل أعمال عادي وغير مميّز. فما الداعي إلى الاهتمام بدونالد ترامب؟

لمَ لم يعمد بيل شاين إلى إنهاء المؤتمر الصحفي؟ كيف أمكن لمؤتمر صحفي أن يستمر كل هذا الوقت؟ كيف سُمح لترامب بأن يتابع الكلام، وكل تعليق يتفوّه به أسوأ مما سبقه، مورّطًا نفسه أكثر فأكثر؟ وفي هذه الأثناء، وقف بوتين إلى جانبه، يراقبه كقط ابتلع طائر الكناريّ من دون أن يأبه لفعلته.

قال بانون: «انقلب الحظ ضدنا. الأمر أشبه بفِلم ليتل بيغ هورن».

لكن بانون اعترف أيضًا بأن معلمًا قد تلاعب بترامب، إذ قال: «يا إلهي، بوتين صعب المراس».

* * *

وعندما انتهت أخيرًا إهانة ترامب العلنية، بدا وكأنه لا يدرك ما جرى. وتوجّه مباشرة من المؤتمر الصحفي إلى غرفة صغيرة في القصر الرئاسي جرى

تحويلها إلى استديو تلفزيوني، فيما سارت في أثره ميلانيا وشاين وجون كيلي.

وافق ترامب على إجراء مقابلة تلفزيونية بعد اللقاء مع تاكر كارلسون من فوكس. وقد حاز كارلسون الذي أتى إلى هيلسينكي كي يغطّي أعمال القمة، الموافقة على هذه المقابلة، بعد أن اتصل بترامب مباشرة عبر هاتفه الخلوي الخاص. لكن شين هانيتي، زميل كارلسون الذي رافق ترامب في جولته الأوروبية، تملّكه غضب شديد. فاتصل بترامب بعد أن حثّه بانون على ذلك قائلًا: «أنت شين بانون! عليك أن تجري المقابلة مع دونالد ترامب!» وراح يرجوه. وهكذا، أجرى ترامب، المستعد دومًا لتبنّي خنوع أيّ شخص وتملّكه، ولاستغلال أيّ فرصة تسنح لدعاية وديّة، مقابلتين متعاقبتين للشبكة الإخبارية نفسها في الاستديو المؤقت نفسه، حيث احتشد الجميع.

بالكاد اتسع المكان للحاضرين. فإلى جانب ترامب وميلانيا وشاين وكيلي، حضر كارلسون وهانيتي وطاقم التصوير ومنتجان تنفيذيان. بدا ترامب غير متأثر بالمؤتمر الصحفي الكارثي فيما استطاع كيلي، بشق الأنفس، أن يكتم غضبه وغيظه؛ فراح يزمجر ويدفع الناس ليبعدهم عن طريقه، بما في ذلك كارلسون. أما ميلاني التي نادرًا ما يقترب منها أي من أفراد فريق عمل ترامب، أو أي من محيطه، والتي بالتأكيد لم يعانقها أي منهم، فظهر جليًّا أنها نفرت من عناق هانيتي.

وبدا أن هانيتي، وعلى غرار ترامب، لم يدرك مغزى المؤتمر الصحفي. فجرت المقابلة وكأنها مغازلة، حيث أدّى ترامب دور الشخص الصعب المنال فيما تملّقه هانيتي بشكل لا يُطاق.

وقال المنتج التنفيذي لكارلسون، وهو يشاهد أداء هانيتي: «أنا مِثْلي، لكنّني لم أغازل أيّ رجل بهذا القدر».

بدأ ترامب المقابلة مع هانيتي بالتعليق على خطأ ارتكبه هانيتي، عندما تحدث عن عدد دول حلف الناتو في سؤاله الأول (وقد فوجىء الجميع أن ترامب يعرف في الواقع الرقم الصحيح). وقال لهانيتي المصدوم: «ما كان تاكر ليُخطئ في ذلك. إنه يعرف عدد الدول المشاركة في حلف الناتو. هل تابعت برنامجه يومًا؟ أنا أشاهده كل ليلة. سأدعك تعيد طرح السؤال، فافعل».

بعدئذ، وفي مقابلته مع كارلسون، عاد ترامب، الذي لم يدرك بعد أن العالم الحرّ قد أدانه وشعر بالصدمة حيال خنوعه وخضوعه لبوتين، إلى الحديث عن الناتو. قال إنه سيتردد بشكل عام حيال الدفاع عن حلفائه في الناتو، وبالتالي تخلّى فعليًّا عن الهدف من إنشاء الناتو وقيام نظام ما بعد الحرب.

بدا كارلسون غير مصدّق، حيث أشار بقوله: «إن العضوية في الناتو تُلزم أيّ عضو في الحلف بالدفاع عن أيّ عضو آخر يتعرّض للهجوم».

فأجابه ترامب الذي أشار إلى أن الجبل الأسود عضو في الناتو، إنه بالتأكيد لن يقاتل من أجل الجبل الأسود.

* * *

وساءت الأمور أكثر في رحلة العودة جوًّا إلى الولايات المتحدة.

في بادئ الأمر، سعى ترامب بحماسة إلى نيل إقرار بصوابيته، لكن التغطية الكارثية لمؤتمره الصحفي بدأت تنهال عليه. فشتّان ما بين رؤيته وإدراكه لما جرى وموقف العالم، إذ بلغ التباين أقصاه. وترامب؛ الذي لا يبقى أبدًا وحيدًا بشكل طوعي، والذي لا يمكن له أبدًا وقطعيًّا أن يبقى وحيدًا ومستيقظًا من دون أن يشغّل التلفزيون، انسحب إلى حجرة نومه بهدوء وصمت.

ومع تحليق الطائرة الرئاسية نحو الغرب، رفض كل المحاولات المبذولة لإقناعه بضرورة اطلاع مستشاريه على فحوى اجتماعه مع بوتين. لقد تحاور على مدى ساعتين مع الرئيس الروسي على انفراد، ولم يتمكّن أيّ فرد في الحكومة الأميركية من معرفة ما دار بين الرجلين من كلام، فيما يُفترض أنّ الحكومة الروسية مطّلعة على كل التفاصيل.

وصل الرئيس وفريقه إلى الولايات المتحدة بعد الساعة التاسعة مساءً من يوم الاثنين ذاك. ترجّل الرئيس من الطائرة، وتبعه بيل شاين وجون بولتون. وبقي ترامب على موقفه رافضًا التحدّث إلى أيّ كان.

وفي اليوم التالي، اجتمع الرئيس مع أعضاء الكونغرس للتحدّث بشأن

الإصلاح الضريبي، محبطًا أيّ جهود تُبذل لجعله يتحدّث عن قمة هيلسينكي.

بقي بومبيو وبولتون وماتيس وسائر القيادات المعنية بالسياسة الخارجية الأميركية غافلين عما جرت مناقشته. لم يكن أحد على اطلاع. ألم يستمع الرئيس إلى ما قيل، ألم يفهمه، ألا يتذكّره؟ في هذه الأثناء، راح الروس يسرّبون بعض التفاصيل عما بدا أنه مجموعة من الاتفاقات جرى التوصّل إليها خلال القمة. وقد تضمّنت دعمًا للاستفتاء في شرقي أوكرانيا، ما من شأنه أن يثير الاستغراب والاستهجان، ووعدًا بأن يدلي مسؤولون أميركيون بشهادتهم في تحقيق قضائي روسي.

أبدى كثيرون في البيت الأبيض تقديرًا مصدومًا لجرأة بوتين: هل تقدّم فعلًا بمثل هذه الاقتراحات الخيالية، بل جعل الرئيس يوافق عليها؟ وفي هذه اللحظة العبثية الطابع، أيقنت الحكومة الأميركية كلها بشكل قاطع أن رئيسها لم يكن يفقه شيئًا، بل كان أكثر من ذلك، مثيراً للشفقة. ولا يمكننا أن نغالي في وصف الذهول المطلق في الحكومة، والذعر المتصاعد في صفوف حزب الجمهوريين.

* * *

ونهار الثلاثاء في 17 تموز/يوليو، أوكلت إلى نائب الرئيس بنس مهمة التوجّه إلى المكتب البيضاوي، وإبلاغ الرئيس أن عليه التراجع عن ملاحظاته في هيلسينكي. وأكّد بنس أنّ المسألة لا تتعلق بالديمقراطيين وحدهم، بل إنّ التشوّش والتخبّط شمل الجمهوريين أيضًا، وإن البيت الأبيض سيشهد استقالات جماعية.

في الواقع، اعتقد لواندوفسكي وهانيتي أن ساعات قليلة تفصلهم عن تصويت مجلس النواب الأميركي على الإقالة.

واتصل ديريك هارفي، كبير موظفي الأغلبية في لجنة الاستخبارات التابعة لمجلس النواب على عجل بالبيت الأبيض، ليبلغهم أنّ ستة من النواب الجمهوريين قد يصوّتون على استدعاء المترجم الفوري الذي عمل للجانب الأميركي خلال لقاء بوتين-ترامب، كي يدلي بشهادته.

أخيرًا، وبعد اجتماع آخر عُقد مع أعضاء الكونغرس عصر ذلك اليوم، أجاب ترامب عن أسئلة الصحافة، وتمكّن من العودة إلى الساحة مجددًا. ووقف على مقربة

منه كل من جون كيلي، وإيفانكا ترامب، وبيل شاين، وجون بولتون، ومايك بنس، وستيف منوشين.

صرّح الرئيس بجمود: «سأبدأ بالقول إنني أثق بوكالات الاستخبارات الأميركية العظيمة وأدعمها. وأتقبّل استنتاج أجهزة الاستخبارات في بلادنا التي تحدّثت عن تدخّل روسي في انتخابات العام 2016». وأصرّ على «عدم وجود أيّ مؤامرة».

في وقت سابق، كان ترامب مجتمعًا مع إيفانكا، حتى أنه لم يستطع أن يجد طريقة للتنصّل منها. دعت إيفانكا أنطوني سكاراموتشي، بالمتسكع، وهو مدير المصرف الاستثماري في نيويورك الذي عمل في تموز/يوليو من العام 2017 مدة أحد عشر يومًا فقط كرئيس للبلاغات في البيت الأبيض، في ما يشبه المسرحية الهزلية التي تضجّ بالثمالة والصراخ على الإعلام. اقترحت إيفانكا وسكاراموتشي على ترامب أن ينكر ببساطة ما قاله، ويلقي باللوم على خطأ في التعبير. وبعد أن أشارت إيفانكا إلى أنّ أباها غالبًا ما يخطئ في التعبير، ويعاني من «كسل في أنماط التعبير»، جازفت بالقول إنّ هذا التبرير على الأقل قابل للتصديق.

اعتمد ترامب هذه الخطة، وأضاف قائلاً: «الآن، ينبغي أن يكون الأمر واضحًا. ظننت أنه واضح، لكنني أودّ أن أوضح إذا لم يكن كذلك. لقد قلت، في جملة أساسية من ملاحظاتي كلمة «يجعل» بدلًا من «لا يجعل»». كان ينبغي أن تكون الجملة «لا أرى سببًا لا يجعل روسيا متورّطة». لذا أعود وأكرّر إنني قلت كلمة «يجعل» بدلًا من كلمة «لا يجعل». وأردف قائلًا: «إنه نوع من نفي النفي».

وفيما كان ترامب في خضم ملاحظاته وتعليقاته، التي نقلها التلفزيون الوطني مباشرة، انطفأت الأنوار. تابع ترامب المندهش والحائر كلامه فيما أظلم وجهه لوقت وجيز. واتهمت إيفانكا لاحقًا جون كيلي بإطفاء الأضواء عن عمد. وأصرّت على القول إنّ هذا العمل لم يكن حادثة أو إشارة من الرب، بل إنه جون كيلي يطالب الرئيس بالسكوت.

وعبّر بانون عن دهشته مجددًا. «عندما تتمكّن إيفانكا وموتش من إقناع القائد الأعلى للولايات المتحدة بأن الشعب سيصدّق أنه يعاني من نفي النفي، فقد خرجا من

عالم المنطق».

* * *

جرى على عجل ترتيب لعقد اجتماع لمجلس الوزراء في اليوم التالي. وكان الاجتماع مفتوحًا لوسائل الإعلام والهدف من ذلك إثبات أنّ العمل جارٍ كالمعتاد في البيت الأبيض. قدّمت إيفانكا المداخلة الرئيسية، وطرحت مجموعة من الأفكار لبرامج العمل الجديدة. بعدئذ، علّق الرئيس قائلًا: «واو! لو كانت هذه إيفانكا «سميث»، لقالت وسائل الإعلام إنها عظيمة!».

وردًا عن سؤال عقب انتهاء الاجتماع، قال ترامب إنه لا يعتقد بأنّ الروس سيستهدفون الانتخابات الأميركية بعد الآن. وبعد فترة وجيزة، صدر بيان توضيحي: عندما قال الرئيس «لا» فهو يعني لا، لن يجيب عن أيّ سؤال.

لم يشارك جان ماتيس في اجتماع مجلس الوزراء، رغم وجوده العلني في المدينة، وهو المشكك جهارًا، والقلِق بشدة، والذي أصبح بعد هيلسينكي متردّدًا بشأن البقاء في موقعه أكثر من أيّ وقت مضى، منذ أن انضم إلى إدارة ترامب. وسرت شائعات في كل مكان. ويبدو أن العديد منها قد سرّبها أشخاص مقرّبون جدًّا من وزير الدفاع، مفادها أنه سيقدّم استقالته احتجاجاً في غضون ساعات.

لكن، وإن بدا الوضع سيئًا، فهو سيسوء أكثر مع إعلان ترامب بشكل مفاجئ أنه سيدعو بوتين إلى البيت الأبيض.

تأجج الغضب والسخط. وراح يبحث عن شخص ليلقي باللوم عليه وهو الذي تعوّد أن يرد بالأذية والغضب الشديد. وبدا ماتيس بتلميحاته المشؤومة إلى الاستقالة هدفًا مثاليًّا. وفجأة، راح ترامب يصيح بمساعديه متحدثًا عن ماتيس وتسامحه حيال المتحوّلين جنسيًّا. «يريد أن يُشرك المخنثين في العمليات. وراح ترامب يقلّده بصوته المتأنق: «تعلّم إطلاق النار، وسأجعلك تشارك في عملية».

وسرعان ما حاول البيت الأبيض أن يُقدّر رد الفعل إذا ما أُجبر ماتيس على ترك منصبه. فهو بنظر الحزبين الراشد الوحيد في البيت الأبيض.وأبلغهم أعضاء بارزون في رئاسة الكونغرس أنّ طرد وزير الدفاع سيجعل مجزرة ليلة السبت تبدو

كأمسية هانئة.

قال بانون الذي ازداد قلقه أكثر من أيّ وقت مضى بشأن صحة ترامب العقلية: «إن خسر ماتيس فسوف يخسر الرئاسة». فماتيس هو صلة الوصل بين الحزبين، ومن دونه قد لا يصمد الوسط فعلاً.

وبعد إقناعه بضرورة صرف انتباهه عن ماتيس، ركّز الرئيس تاليًا في كيلي الذي لمّح هو أيضًا إلى استقالته بعد هيلسينكي. وجاء من بعده دور دان كوتس، مدير وكالة الاستخبارات الوطنية، الذي استهدفته نيران الرئيس.

كان كوتس بعيدًا عن المدينة، يشارك في مؤتمر حول قضايا الأمن العالمي في أسبن. وأثناء حوار معه على المسرح، جرى ابلاغه أنّ ترامب دعا لتوه بوتين لزيارة البيت الأبيض. ولم يتمكّن كوتس، الذي جحظت عيناه من، إخفاء ذهوله، ولم يحاول حتى أن يخفي رد فعله. وسأل: «هلا كرّرت ما قلت؟»، وعندما انفجر الحضور بالضحك، تابع كلامه قائلًا: «حسناً... سيكون هذا مميّزًا».

وما هي إلا دقائق حتى عرضت معظم شاشات التلفزيون رد فعل كوتس التلقائي والعفوي. واستشاط ترامب غيظًا: «إنه يسخر مني تمامًا!».

وما زاد زلة كوتس سوءًا أنّ خبر هذه الحادثة سبق الإلهاء المدروس الذي أُعدّ له في البيت الأبيض وأحبطه: كان من المفترض أن يوقّع الرئيس، وابنته إلى جانبه، أمرًا رئاسيًّا جديدًا يقضي بإنشاء مجلس العامل الأميركي كجزء من برنامج ابنته للتدريب على العمل. وفي هذه الأثناء، سيوقّع الرئيس أمرًا رئاسيًّا جديدًا يعيّن بموجبه جاريد كوشنر رئيسًا لمجلس العمل. لكن القنوات التلفزيونية غابت!

وأقسم ترامب أن يطرد كوتس، إلا أنّ كيلي اعترض على الفور وقال له: إن طردت كوتس فعشرة رجال آخرون سيقدمون استقالاتهم. وإذا لم يعزلك الكونغرس بسبب طردك لكوتس، فسيؤنبك، ويحجب الثقة عنك بالتأكيد.

بدأ ترامب يبحث بجنون عن المدافعين عنه من رجال الإعلام؛ لكنه لم يجد أحدًا. أين كيلياني؟ راح يسأل. أين سارة؟ أين أيّ يكن؟

وعاش البيت الأبيض حالة ذعر أخرى، خشية أن يحثّ هانيتي ترامب على طرد كوتس، الأمر الذي من شأنه أن يحدد مصيره. وقبل إجراء المقابلة مع شبكة السي.بي. إس CBS في قاعة روزفيلت، كادت تنشب معركة بين كيلي وشاين وسارا هاكابي ساندرز ومرسيدس شلاب حول من سيتولّى إبلاغ الرئيس أنّ عليه الدفاع عن كوتس. ووقع الخيار على كيلي.

وعلى الهواء، بدا الرئيس تواقًا إلى إرضاء الجمهور. جلس على كرسي واضعًا يديه بين ساقيه فبدا كحبة قريدس عملاقة، وانحنى نحو جيف غلور الذي يجري المقابلة معه. لعله بدأ أخيرًا يدرك خطأه والخطر المحدق به، فبدا منكسر الروح ومتلهفًا إلى إعطاء الإجابات الصحيحة.

غلور: قلت إنك توافق الاستخبارات الأميركية الرأي بشأن تدخّل روسيا في انتخابات العام 2016.

ترامب: نعم. وقد قلت ذلك من قبل يا جيف. قلت هذا مرارًا وتكرارًا من قبل، وأقول إنّ هذا صحيح، نعم.

غلور: لكنك لم تدنْ بوتين تحديدًا. هل تحمّله المسؤولية شخصيًّا؟

ترامب: حسناً، إنني أفعل، لأنه مسؤول عن البلاد. تمامًا كما أعتبر نفسي مسؤولًا عن الأمور التي تحدث في هذا البلد. إذن، مما لا شك فيه أنني أحمّله المسؤولية بصفته رئيس البلاد، نعم.

غلور: ماذا قلت له؟

ترامب: أؤكد وبشدة أنه لا يمكنه التدخل بأي شكل كان.

ومع استمرار البرنامج، أُصيب كيلي بصدمة عظيمة، وراح يدمدم لنفسه قائلاً: «لن ينجو هذه المرة. لا يمكن السيطرة على هذا الرجل. لا يمكن لأحد أن

يتحمّل المزيد من هذا».

إلا أنّ أحدًا لم يستقل في ذلك اليوم أو في اليوم التالي أو في اليوم الثالث. فإذا كان ترامب لم يستطع «النجاة بفعلته» تمامًا؛ فهذا يعني أن لا أحد من الدائرة المحيطة استطاع أن يجد جواباً مقنعاً عن السؤال الجوهري: ما الذي سنفعله حيال هذه الفوضى؟

وأعلن بانون في تصريح له قائلاً: «إما أن تكون مع ترامب وإما أن تكون ضده». وهذا التعليق لم يحلّ الأمور، إلا أنه لخّص الوضع كله بطريقة ما.

وفي العشرين من تموز/يوليو، وهو يوم جمعة، توجّه الرئيس إلى بدمنستر حيث لعب الغولف يوم السبت. أما نهار الأحد، فغرّد على تويتر قائلاً إن التدخّل الروسي في انتخابات العام 2016 «خدعة كبيرة».

* * *

بعد قمة بوتين بوقت ليس طويلاً، بدأت مجموعة ضيقة من الجمهوريين ضمَّت ممثلين عن مكتب زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ، تتحدّث عن رئيس مجلس النواب، وبعض أبرز مموّلي الحزب، ولاسيما بول سينغر وشارلز كوش. وعلى الرغم من أنّ هذه المجموعة تكاد تكون تحرّكًا منظّمًا ضد الرئيس فإنها قد شكّلت نواة للجنة استطلاع. بيد أن الأهداف الرئيسية لهذه المجموعة كانت تقويم نقاط الضعف ونقاط القوة لدى الرئيس، والتطلّع نحو العام 2020، وإمكانية وجود تحدٍّ رئيسي.

الفصل الرابع عشر
100 يوم

بحلول نهار الأحد 29 تموز/يوليو، لم يكن قد بقي سوى 100 يوم على الانتخابات النصفية.

دعا راينس بريبوس، الذي تولّى منصب كبير موظفي البيت الأبيض خلال الأشهر الستة الأولى من ولاية ترامب، بانون لتناول العشاء برفقته في النادي الريفي الذي يملكه في ضواحي فرجينيا. كانت قد مضت سنة منذ أن ترك بريبوس عمله في البيت الأبيض، بعد أن أقاله الرئيس في تغريدة نشرها، بينما كان بريبوس يهمّ بالنزول من الطائرة الرئيسية بعد أن حطّت على مدرج المطار. ولم يفلح منذ ذلك الحين في العثور على منصب يوازي، من حيث مكانته، منصب كبير موظفي البيت الأبيض السابق. وإذ تقرّر في تلك المرحلة أن يشارك في إحدى عمليات حملة ترامب، بدا بريبوس متردداً في القبول، ومتوقّعًا المزيد من ردود الفعل العنيفة التي ستستهدفه وتستهدف كل من له أي صلة بالرئيس.

وكان بانون يشجّعه أن يوافق على تولّي المهمة، إلّا أن بريبوس علق قائلًا: «لست أدري... فميتش ماكونيل رجل في غاية الذكاء، ويتفوق علينا بأربعين مقعداً في مجلس النواب. وبول ريان يتمتع أيضًا بدرجة عالية من الذكاء، ويعتقد أن المقاعد الأربعين أمر يدعو إلى التفاؤل».

توازي عادة فترة المئة يوم في الشؤون السياسية دهرًا. غير أن العديد من الجمهوريين كانوا يشعرون وكأن الوقت قد كفّ عن الدوران. وبدا الأمر وكأن

الحملة الانتخابية برمّتها قائمة على دونالد الابن وصديقته كيمبرلي غيلفويل، نجمة شبكة فوكس السابقة، اللذين كانا يجوبان الشوارع دعمًا لترامب، حيث تمكّن دونالد الابن من الحصول على اعترافات شخصية من القاعدة، لم يتسنَ له الحصول عليها من والده.

فالحزب كان متشككًا إلى درجة كبيرة، على الرغم من رضوخه نظريًّا لإرادة ترامب.

دفع هذا الأمر جاسون ميلر، مراسل السي. إن. إن لدى البيت الأبيض، وهو واحد من مناصري ترامب الذين لا يعرفون الكلل أبدًا، إلى القول لبنانيون: «لقد انتهى الأمر».

في هذه الأثناء، كان البيت الأبيض يشهد رحيلًا غير مسبوق ودونما انقطاع للعاملين فيه؛ فالاستنزاف اليومي على مستوى موظّفي الرتب العالية كان قاسيًا، حيث كان مارك شورت، مدير الشؤون التشريعية، آخر الراحلين. فمنصب مدير الشؤون التشريعية للحزب يمسك بزمام الأمور في كل من مجلس النواب والكونغرس، ويعدّ من المناصب التي تنطوي على أهمية كبرى في الحقل السياسي. إذ يكون الشخص الذي يتولّى هذا المنصب مسؤولًا عن تحفيز عملية القيام بتنفيذ الوعود التي قطعها الحزب على نفسه تجاه مؤيديه، كما أن عليه أن يتحلّى بدرجة عالية من الكفاءة والاندفاع. كل تلك الأسباب كانت تضمن له النجاح، وتؤمّن له مستقبلًا مهنيًّا مدرًّا للأموال. ورغم كل ذلك، فإن شورت كان ينتظر ساعة تنحّيه عن هذا المنصب بفارغ الصبر.

في الظروف العادية، يشهد البيت الأبيض دفقًا للسِيَر الذاتية عقب رحيل شخص في مكانة شورت. غير أن عدد السِيَر الذاتية الواردة من اشخاص يتوقون إلى اعتلاء هذا المنصب... بقي صفرًا. ووقع الاختيار في نهاية المطاف على نائبة كون، وهي عضو غير بارز في جماعة الضغط، لتشغل هذا المنصب.

لم يكن قد مضى سوى أسابيع على تسلُّمه منصبًا، حتى اشتعل بيل شاين غضبًا، وراح يخبر الجميع أن شروط العمل التي وقّع عليها كانت مختلفة تمامًا. فالمكان يفتقر إلى التنظيم والتخطيط، وإلى عدد كافٍ من الموظفين لأداء المهمات. ما

يعني أن عليه القيام بكل شيء بنفسه. وفضلاً عن ذلك، كان عليه أن يعمل بدوام كامل لجهة التعامل مع ترامب الذي كان صعب المراس أكثر من أي نجم تعامل معه خلال عمله في شبكة فوكس. فقد أكد شاين أن ترامب كان أصعب مراسًا من بيل أوريلي، المعروف بأنه الرجل الأصعب مراسًا في عالم التلفزيون (وفي تاريخ التلفزيون بحسب روجر أيلز الذي شغل منصب مدير شبكة فوكس لفترة طويلة). ولكن ترامب، بحسب رأي شاين، يحتاج إلى درجة عالية من التملُّق، والطمأنات والاهتمام بمظهره.

من جهته، لم يكن ترامب راضيًا عن شاين، حيث قال متذمّرًا: «أكد لي هانيتي أن شاين يتحلّى بالكفاءة. ولكنه أخطأ في ذلك. وأخطأ أيضًا عندما قال لي إن شاين هو شبيه أيلز، لأنه لا يشبهه على الإطلاق».

بعد مضي سنة ونصف السنة على تولّي ترامب الرئاسة، كانت الصورة تدل على أن أحدًا لم يعد يعمل في البيت الأبيض. وعلى الرغم من أن الانتخابات النصفية الأكثر تأثيرًا في هذا الجيل، كانت مقررة بعد مئة يوم، فإن أحداً لم يبادر إلى نشر رسالة البيت الأبيض؛ حتى كيليان كونواي اختفى أثرها («برنامج حماية الشهود» وفقًا لبانون). والأسوأ من ذلك هو عدم وجود أي رسالة. فجايسون ميلر المدافع الشرس عن الرئيس على شاشة السي. إن. إن كان يدوّن نقاط الحوار الخاصة به خلال ظهوره الإعلاني.

ولكن بانون كان قد عاد ليشارك مشاركة فعالة في الحملة الانتخابية. فالمعارك الطاحنة يجب أن تبقى مشتعلة بشكل دائم، حتى وإن كانت آفاقك قاتمة، عليك أن تؤمن بأن النتيجة ستكون إيجابية لا محالة. تلك هي طبيعة الحملات الانتخابية. كانت الأعمال في غرفة العمليات الحربية المخصّصة له في السفارة تسير على قدم وساق، حيث بذل بانون ما في وسعه من أجل التزام طريقة التفكير التي اتبعها في آب/أغسطس 2016، يوم طُلب إليه تسلُّم الحملة الانتخابية المشرفة على الانهيار. غير أن الميزة الوحيدة التي تمكّن من استغلالها في ذلك الوقت الحاسم كانت تتمثل في كون خصمه ينام قرير العين مطمئن البال واثقًا أن كلينتون ستتربع على عرش الرئاسة. لكنّه يواجه اليوم خصمًا يضع إصبعه على الزناد، ويتحيّن الفرص لحشد المزيد من الموارد. فمن الصعب هذه المرة أن يتمكّن أحد من أن يأخذ الطرف الآخر على حين غرة، مهما حدث، والغطرسة لم يعد لها وجود. أدرك بانون أن الديمقراطيين يعتبرون أن وجودهم قد أصبح على المحك؛ وإذا أخفقوا هذه المرة فإنه

سيُقضى عليهم.

في البيت الأبيض، كانت تسود أجواء من التكاسل، والإيمان بالقضاء والقدر، إلى جانب العزوف عن تحمُّل مسؤولية النتيجة المفجعة التي بدت وكأنها حتمية. ففي حين أن نمط تفكير الديمقراطيين قد اختلف عما كان عليه عام 2016، بقي نمط تفكير فريق عمل ترامب على حاله، الأمر الذي جعلهم يفترضون أنهم سيخسرون المعركة، وأن لا مفر من الخسارة.

ولم يكن غائباً عن بال أحد أن دونالد الابن، الذي كان باعتبار الجميع الحلقة الأضعف في مسيرة أسرة ترامب الممتدة والواسعة، كان المناصر الأول لوالده (وقد أثار هذا التغيُّر قلق الرئيس الذي كان يتحلّى بنظرة واقعية؛ فعلق قائلًا: «هذا الفتى في غاية الغباء»). كان ابنه، الذي بدا وكأنه يستمتع بالشهرة الجديدة التي اكتسبها، يردّد أمام الجميع أنه لا يبالي بالخسارة، مؤكدًا أن العزل لن يكون سيئًا؛ وذهب دونالد الابن إلى أبعد من ذلك حين صرح وهو يلكم صدره، قائلًا: «فليحاولوا أن يفعلوا ذلك. أتحدّى الجميع وأنا سعيد بما يجري. إنه أفضل حدث على الإطلاق، لأن الديمقراطيين سيندمون كل الندم».

دفع هذا الأمر بانون أن يقول لبريبيوس: «آمل ألّا يصدق الناس تلك السخافات. فإذا حمل الديمقراطيون المعاول، وقرروا نبش القبور، فإن ترامب الذي يخال الآن نفسه الملك لير لن يتمكّن من الصمود أمام الجلسات، والتحقيقات ومذكّرات الجلب اليومية».

* * *

ولما كان بانون يقضي معظم الوقت في نيويورك، عمد بعض المحيطين به وبعض الوجوه الإعلامية الذين توطدت صداقتهم به بعد تركه البيت الأبيض، إلى حثّه على التخلّي عن ترامب. لكنّه كان يخشى على مساره المهني أن ينهار بعد أن أعاد رسم خطه البياني من جديد. فقد انتقل من مقاعد المشاركين في العملية السياسية، الجالسين على الهامش، ليصبح صاحب نفوذ سياسي وشخصية سياسية مرموقة، حتى ولو انهارت مملكة ترامب. في هذ السياق، علّق بانون في محاولة منه لتأكيد مدى حماسته لترامب قائلًا: «إنني مجرد عضو في الحزب، وقرّرت البقاء إلى جانب

ترامب الذي يشكّل جزءًا من هذا الحزب».

والغريب في الأمر هو أن الإحساس المتنامي بالتململ الذي كان بانون، وباقي أعضاء الحزب يشعرون به، وهو الذي تحوّل إلى عملية استنفاد الرصيد السياسي بسرعة قياسية، ما لبث أن اقترن بنوع من إدمان عبقرية ترامب الجامحة. فمخيلته، أو غرائزه، أو وقاحته، تتخطّى حدود التصرف السياسي التقليدي. ولم يتمكن بعد أي من رجال السياسة التقليديين، لاسيما وأن الحياة السياسية هي مسرح رجال السياسة التقليديين، من إيجاد طريقة تمكّنه من استباق سلوك ترامب المربك أو التصدّي له. على هذا الصعيد، لفت بانون قائلًا: «إنه صراع شاق، ولكن ترامب موجود في نهاية المطاف، ولم يتمكّن حتى الآن أي من رجال السياسة من إيجاد طريقة مناسبة للتعامل معه».

كان ذلك ينطبق على الجمهوريين والديمقراطيين على حد سواء. فالجمهوريون، بما في ذلك اللجنة الوطنية للحزب الجمهوري ورئاسة الكونغرس، لم يظهروا إلى حد ما اهتمامًا بالحملة النصفية، حيث اعتبروا الانتخابات المقرّرة في تشرين الثاني/نوفمبر لا تعني الحزب الجمهوري، بل تعني دونالد ترامب وحده. وسيكتفي الحزب تالياً بتنفيذ ما هو مطلوب منه، في انتظار أن يصنع ترامب معجزة... بطريقة أو بأخرى.

قرّر الحزب الجمهوري تخصيص ما يزيد على 500 مليون دولار أميركي لانتخابات مجلس النواب (بلغت قيمة المبلغ الذي أُنفِق في نهاية المطاف 690 مليون دولار أميركي). غير أن ذلك كان منفصلًا عن حملة ترامب، أو الحملة الفعلية بحسب وجهة نظره، والتي تركّز في المهرجانات الانتخابية المحببة إلى قلب ترامب، والتي تُعدّ السبب الرئيسي وفقًا لاستنتاجاته، في فوزه بالانتخابات عام 2016.

ولا شك في أن حرص ترامب على أداء دور الرئيس من حيث أسلوبه، ونبرته ومحاولاته اليومية للفت الانتباه، كان يتمحور، في اللاوعي، حول تعبئة المدرجات أكثر من تمحوره حول الفوز بالأصوات. وتعزّز ذلك بفضل مواعظ بانون ونصائحه المستمرة وتأكيده أن الانتخابات يجب أن تكون مركزة عليه فقط. وخلال العد التنازلي لمئة يوم ويومين اثنين، ظهر بانون في برنامج هانيتي على قناة فوكس. ووجّه الرجلان معًا نداءً مباشرًا إلى الرئيس: لا أحد يستطيع إنقاذك إلا نفسك.

وأعلن بانون أن مصير ترامب بين أيدي البائسين الذين لا يمكن حثهم على التوجُّه إلى مراكز الاقتراع، إلا من خلال الترويج العاطفي. وحده ترامب قادر على تحقيق ذلك.

* * *

ساد شعور بالاستسلام بين صفوف الجمهوريين. فاحتمال الخسارة يشكّل الأساس المنطقي الوحيد للفوز. في هذا الإطار، علّق بانون قائلًا: «إذا لم نتمكن من الفوز، فإن الوضع سيكون كارثيًّا إلى درجة أننا لن نتمكّن من التفكير في الأمر. فالحرب الضروس القائمة بين ميتش ماك كونيل، والمؤسسة، والجهات المانحة ستؤدي إلى سفك الدماء، ولن يبقى أحد على قيد الحياة».

غير أن هذا الأساس المنطقي ينطبق بالمقدار نفسه على الديمقراطيين. فالحزب الذي خسر الانتخابات النصفية سينهار ويستنفده الصراع الداخلي. وكان بانون يأمل، باعتباره مسؤولًا عن صندوق الاحتياط السياسي، أن يستفيد من كلا الطرفين في الحرب الأهلية.

في حال خسارة الحزب الجمهوري الغالبية في مجلس النواب، فإن ترامب نفسه سيكون حتمًا المسؤول عن تلك الخسارة. ولكنه، كعادته، سيلقي باللوم على قيادة الحزب الجمهوري، مستخدمًا تعابيره الصاعقة والبذيئة. فقد عُرف ترامب بين أعدائه أنه فائز بفارق الأصوات الانتخابية بالتباين. فقد كان كوري بليس، الجمهوري المسؤول عن تيسير الجهود التي يبذلها الحزب للحفاظ على مكانته في مجلس النواب، يقول للجميع إنه لا يخشى الخسارة في مجلس النواب، بل إن كل ما يخشاه أن يبقى دونالد ترامب في البيت الأبيض. وفي ظل اليقين المطلق من أن ترامب لن يتحمّل الملامة أو يقر بفضل الديمقراطيين، فإن اللوم كان سيقع على الجمهوريين في الكونغرس، والجهات الداعمة ذات الصلة.

ووجد بانون نفسه مرغمًا على تذكير أصدقائه الجمهوريين بشكل مستمر بأن ترامب ليس في الحقيقة جمهوريًّا، وأن انضمامه إلى الحزب مجرد علاقة مصلحة، ومن الممكن أن تُفض في أي لحظة. وأردف بانون، قائلًا: «إذا كنتم تعتقدون بأن ترامب يشكّل الآن خطرًا، فاعلموا أنّه إذا ما تعرض للأذى، فلن يُعرَف لشرّه حدود».

تشكّل الخسارة في مجلس النواب لبانون الخطة المثالية. والجزء الجيد من الخلاف المرير بين بانون وترامب. وبصرف النظر عن كون الجميع على خلاف معه، يتعلق باستعداد ترامب للسماح لقيادة الحزب الجمهوري بإحلال برنامجها محل برنامجه. إذ غالبًا ما كانت ثورة ترامب وبانون الشعبوية تتعسَّر بالسياسات الجمهورية المعيارية. وفي حال الخسارة، فإن بانون سيضطر إلى تغيير اتجاه حربه لتصبح ضد الحزب الجمهوري. فالجمهوريون بالاسم، لم يدافعوا عن ترامب كما ينبغي. وفي حال الخسارة في مجلس النواب، فإن الجمهوريين سيتحمّلون بشكل خاص مسؤولية العزل الذي سينتج من ذلك.

إذا انقلب مجلس النواب، وهُدّد ترامب بالعزل، فسيتنشّط الجناح البائس من الحزب، ويتصاعد نجمه (علمًا أنّ طبيعة هذا النشاط تنطوي حتى في نظر بانون على احتمالات مرعبة). وما الذي يمكن أن يثير الوحش أكثر من القضاء على زعيمه؟ كان بانون مستعدًّا لإثارته تبعًا لمزاجه. واستطاع أن يرى كيف يمكن لاستشهاد دونالد ترامب أن يصبح إيجابية بحتة لنفسه وللحركة الشعبوية. سيتحوّل ترامب إلى رمز قوي، إلى ضحية وشهيد. وفي نهاية الأمر قد تكون النتيجة أفضل مما لو بقي ترامب الشخص المثير للغضب في الحركة، وحامل اللواء الذي لا يمكن التنبؤ بتصرُّفاته.

ولكن في حال إخفاق الديمقراطيين في كسب مجلس النواب، فإن ذلك سيؤدي إلى كثير من الفوائد التي ستصبّ في مصلحة بانون. ولا بدّ كنتيجة طبيعية أن تحدث محاسبة مصيرية لدونالد ترامب بعد النفور العالمي منه على امتداد النطاق الليبرالي العريض، والذي كان كفيلًا بتوحيد الديمقراطيين بعد انتخابات العام 2016. وقد سارعوا إلى إلقاء اللوم عليه، واتهامه بسرقة الانتخابات؛ ولم يلوموا أنفسهم على خسارتها، وهو أمر أقرب إلى المنطق. لكن إذا لم يتمكنوا من التغلّب عليه الآن، بالمال والاستقامة والقوات الميدانية عدا عن عائق هيلاري كلينتون، فلا بد لهم من أن يتقبّلوا فكرة أنّ المشكلة تكمن في هوية الحزب الديمقراطي نفسه. وفي هذا السيناريو أيضًا، تكون الإدارة في مواجهة حتمية مع المستوى المتدني للحزب نفسه. فالجناح اليساري الذي يبحث عن معنى وقيادة جديدين، سيعتنق، من وجهة نظر بانون، صيغته المتشددة من الشعبوية.

وهنا تظهر فرصة بانون، في قدرته على الاستقطاب وفي إعادة التموضع،

اللذين يشكّلان مصدر تسليته أيضًا. في الواقع، وجد بانون نفسه منجذبًا تارةً نحو اليسار، وأخرى نحو اليمين على حدّ سواء. كانت رؤيته التي لا يزال يتعيّن عليه أن يشارك اليسار فيها يستطيع بها أن يكون واحداً من قادة اليسار الطبيعيين. وشكّلت إيطاليا دليله على صحة هذا المفهوم. فقد استطاع أن يجمع رابطة الشمال وحركة النجوم الخمسة. فالحزبان يكنّان كراهية عميقة لنفوذ الشركات والمؤسسات، وأصحاب النفوذ من النخبة، والوضع القائم الحرج، والكفاءة ذات الاكتفاء الذاتي، ما جعلهما يتحدان. أما الباقي، فمجرد تفاصيل.

منذ أن غادر بانون البيت الأبيض في أغسطس/آب من العام 2017، وبعد أن خرج من بريتبارت في بداية العام 2018، أولى وسائل الإعلام الليبرالية اهتمامًا كبيرًا، حتى وإن عمد بعضها إلى احتقاره وإذلاله بشكل خاص. فقد أجرى مقابلة ضمن برنامج 60 دقيقة - 60 Minutes أثارت الكثير من النقاشات. وكانت لديه لائحته من المراسلين والمنتجين الليبراليين الموثوق بهم: كوستا في الواشنطن بوست، غايب شيرمان في فانيتي فير، ماغي هابرمان في التايمز، إيرا روزن في 60 دقيقة، وأي شخص يتصل به من ذا دايلي بيست، على ما يبدو.

سمع بانون أن لورين باول، زوجة ستيف جوبز التي بدأت تستخدم ثروتها الطائلة في بناء شركة إعلامية تقدمية، هي من «أشدّ المعجبين» به. وسمع أن إحدى الشخصيات في المسلسل الجاسوسي المقبل مايل 22 - 22 Mile، الذي يؤدّي مارك ويلبرغ دور البطولة فيه، مستوحاة منه. وهو يظهر في الوثائقي فهرنهايت 11/9 Fahrenheit 9/11 لمايكل مور الذي سيُعرض قريبًا. وقد رافقه فريق العمل الوثائقي على مدار الساعة، وهو يجوب العالم.

كان بانون يتطلّع بشكل خاص إلى الوثائقي الذي يعدّه أيرول موريس، والذي ينبغي أن يكون فعليًّا عنه، أيْ إنه مقابلة تمتد على مدى 110 دقائق، وتتمحوّر حول موضوع واحد. ركّز أحد أفلام موريس الوثائقية الأكثر شهرة The Fog of War على روبرت ماكنامارا حصريًّا، وزير الدفاع في عهدَيْ كينيدي وجونسون، وهو شخصية مأساوية وتاريخية من شخصيات حرب فييتنام. سيؤكد فِلم موريس الجديد تلقائيًا أنّ بانون شخصية تاريخية بقدر ماكنامارا. والفِلم الذي حمل في البدء اسم المجزرة الأميركية - American Carnage بعد خطاب التنصيب المظلم الذي كتبه بانون، تبدّلت تسميته الآن ليحمل اسم الدراما الأميركية - American Dharma،

خوفًا من الإساءة إلى الجمهور الليبرالي حتى قبل أن يشاهد الفِلم. ويُفترض أن يُعرض الفلم في مهرجانات البندقية وتورنتو ونيويورك للأفلام في الخريف؛ الأمر الذي يدفع وجهات نظر بانون نحو وسط القلب الليبرالي النازف.

وفيما كان بانون يلاطف وسائل الإعلام الرئيسية واليسارية، ويغازلها، راح يعمل جاهدًا على حملة دعائية للجناح الأيمن، والجناح الأيمن المتطرف. ومن الأعمال المتنوعة التي اهتم بها بانون صناعة الأفلام. فقد أنتج حوالى ثمانية عشر فِلماً، معظمها من الأفلام الوثائقية المحافظة، فضلًا عن ثلاثة أفلام هوليودية طويلة. كان ترامب في الحرب - Trump @ War عملًا عدائيًّا، تفجيريًّا، وغالبًا سرياليًّا. وهو وابل من اللكمات والصراخ وإطلاق النار والمواجهات المريرة على أحد الحواجز. اعتقد بانون أنّ اليسار كان ليصنع بكل سرور هذا الفلم عن هجمات اليمين الشرسة على الأشخاص الجيدين من اليسار؛ لكن، بدلًا من ذلك، نرى في فِلمه أن اليسار يهاجم من دون رحمة الأشخاص الجيدين في اليمين.

كان يُفترض بهذا الفِلم أن يشهد بعد إطلاقه في شهر أيلول/سبتمبر، انتشارًا كبيرًا بفضل عشرات الملايين من عمليات التحميل. لكن الهدف منه أيضًا هو مشاهد واحد. وبالفعل، عندما عُرض فِلم بانون على ترامب في وقت لاحق من فصل الصيف، امتدحه كثيرًا بقوله: «إنه رجل موهوب جدًا. عليكم أن تعترفوا بأنه رجل موهوب جدًّا. يمكنه فعلًا أن يجذب الانتباه».

في منتصف شهر تموز/يوليو، وفي الأيام التي تلت هزيمة ترامب في هيلسينكي، رأى بانون فرصة أخرى ليصبح محط الاهتمام. كان يُفترض به أن يظهر كضيف مفاجأة في مسيرة الموسيقى والثقافة في حديقة سنترال بارك في نيويورك. شككت إلكسندرا بريات، مستشارة العلاقات العامة العنيدة لديه، في فوائد المشاركة في هذا الحدث، وسعت بجد إلى لجعله يعدل عن الظهور أمام الجمهور في مانهاتن.

لكن بانون رفض أن يتراجع. «سأقول إنكم مجموعة من الكاذبين. تستثمرون قلوبكم وأرواحكم في الاقتصاد المؤقت، ولن تمتلكوا أيّ شيء. أنتم مجموعة من العبيد، من دون ملكية، من دون عائدات، من دون مساواة، وحساب التوفير لديكم فارغ».

بعدئذ، أضاف قائلاً: «إن المشكلة في الخطاب هي أن الساحة هي نيويورك، وكل هؤلاء الأشخاص إما أغنياء وإما واثقون من أنهم سيصبحون أغنياء. يريدون أن يكونوا المالكين. بريات تصلي كي أخفق».

وهذا ما جرى.

* * *

بعد هيلسينكي، اعتمد ترامب نغمة جديدة حول ما ينبغي تغييره في إدارته. ولعل هذا دليل على أنّ تقدّمه أقل عشوائية مما يبدو عليه، وأنّ هناك على الأقل رغبة متأصلة في البقاء والنجاة، إن لم تكن هناك استراتيجية واضحة.

وعاد موضوع ستيف بانون الممنوع إلى الظهور في أحاديثه. وهذا لا يعني أنّه ينظر بإيجابية إلى مسألة إعادته إلى العمل. فبانون رجل فاشل وخائن وكتلة من الفوضى. لكن هجومه على الاستراتيجي السابق لديه، ودفعه الناس إلى الموافقة على انتقاداته، يمكّنانه بعدئذ أن يخالفهم الرأي. نعم، إنّ بانون سافل ومسرّب معلومات، لكنّه على الأقل ليس غبيًّا، كمسرّبي المعلومات الآخرين في البيت الأبيض.

إنّ المعني جزئيًّا بعملية إعادة تقويم بانون هو جاريد، وبراد بارسكيل وكيل جاريد. وكانت نيّة جاريد أن يدير هو بنفسه حملة إعادة الانتخاب. أما خطة ترامب بشأن جاريد، فهي ألّا يعود إلى نيويورك بعد الانتخابات النصفية. وأشاع ترامب هذه الخطة بين الأشخاص الذين قد ينقلونها إلى جاريد. يمكنه بدلًا من ذلك أن يبقى في واشنطن العاصمة، ويتولّى مسؤولية الحملة الانتخابية في العام 2020. قاوم ترامب هذا، لأنه لا يحب أن يفكر في المستقبل، فهو يعتقد أن وضع الكثير من الخطط إنما يجلب عليه الحظ السيىء. لكن السبب الآخر وراء موقف ترامب السلبي الجديد حيال صهره هو سيل مفاجئ من الشائعات عن إمكانية إدانة جاريد. ويبدو أن المسؤول عن نشر كثير من تلك الشائعات هو بانون. كما أن ترامب نفسه، الذي ناقش بحرية إمكانية إدانة صهره وعلى نطاق واسع، قد أدّى دورًا في جعل هذه الشائعات تنتشر مجددًا. لكن هذا لا يهم: الشائعات هي شائعات.

إذن، وبمباركة من ترامب، طرح وسطاء البيت الأبيض السؤال الآتي: هل يمكن لبانون أن يفكر في العودة؟

ونقل وسطاء بانون جوابه: «بالتأكيد لا».

إلا أن ترامب لم يستطع أن يتخلّى عن الفكرة. وتساءل: ماذا لو تولى بانون الحملة؟ وعبارة «ماذا لو» هنا لا تتعلّق بما يعنيه هذا لبانون، بل ما يعنيه لترامب. هل هذا يعني أنه، في اعتقاده، غير قادر على الفوز من دون بانون؟ أن الأمر سيبدو وكأن ترامب استطاع أن يكون سمحًا وكريمًا فأعاد بانون؟

وبرز سؤال آخر: إذا طلب الرئيس بانون، فهل سيلبّي دعوته؟

سيحضر بانون... شرط أن تجري الزيارة في مكان إقامة الرئيس وليس في المكتب البيضاوي. وقال تحديدًا: «سأصل إلى هناك في الصباح الباكر، وأتوجّه إلى مكان الإقامة ونتحدّث بعد أن تشاهد التلفزيون».

عرف بانون ما سيقوله تحديدًا لترامب إذا ما جرى الاجتماع: «إذا أبعدت أقاربكم اللعينين وبارسكال، فسأدير الحملة. وما من وعود أخرى».

بعد أن علم بموافقة بانون المشروطة على فكرة الزيارة، بدا ترامب على وشك أن يدعوه. وقال لصديق في نيويورك: «سوف أتصل به». لكنه عاد وقال على الفور للصديق نفسه: «سمع جاريد عنه أمورًا سيئة». وناقش لاحقًا الموضوع مع هانيتي وسأله: هل عليّ أن أتصل به؟

في النهاية، لم يجرِ الاتصال. وأدرك بانون أنّ ترامب غير قادر أن يعترف علنًا أنه في ورطة كبيرة، ويحتاج إلى مساعدة. قال بانون: «أعرف هذا الرجل. لا يمكنه نفسيًّا أن يحتمل الارتهان والاتكال. في الواقع، لن أتمكّن من إنقاذه، لأنه إذا بدا أنني أنقذه أو عُزِيَ إليّ أمر إنقاذه، فسينهار أمام الجميع».

«ثمّة أحداث خارجية»، أقصد القوى المجهولة التي تكاد تكون غامضة، وقد تكون النجوم واصطفافها هي، بحسب اعتقاد بانون، التي تحدّد نتيجة الانتخابات النصفية. ومع تراجع الولاء للحزب، ومع تزايد شكوك السياسيين كافّة وريبتهم بالنتيجة، ومع صرف طبقة المانحين من كلا الطرفين للأموال بهدف إغراق أسواق وسائل الإعلام، يُرجَّح أن يكون ما حدث في الأسابيع الأخيرة من الحملة حاسمًا. ويصحّ هذا بشكل خاص في مرحلة ترامب؛ ذلك أن آخر الأحداث هو الذي يطغى

على كل ما حدث قبله. ومع سياسة حافة الهاوية التي يعتمدها وحب الظهور لديه، وهما أمران يفاقمان الدراما، قد لا يعود من المهم على الإطلاق الحديث في الفوائد أو في نواحي العجز السابقة. حتى أنّ النجاح المدهش لسياسة ترامب الاقتصادية، حيث سُجّل أدنى معدّل للبطالة منذ سنوات، بات لا يعني الكثير. لم تقدّم الانتخابات أي خبرة إضافية في تاريخ الدولة، بل كانت مجرد لحظة عابرة في الزمن. ومما لا شكّ فيه أنّ هذا هو درس العام 2016. لقد نجح ترامب على الأرجح في الوصول إلى البيت الأبيض، لأنّ جيمس كومي قرّر إعادة البحث في قضية رسائل هيلاري كلينتون الإلكترونية في آخر لحظة.

ما الذي قد يحدث؟ هذه هي اللعبة على حد تقدير بانون. إذن، ما هي الحيل التي يخبئها دونالد ترامب أو تخفيها الآلهة في جعبتها؟ تخيّل بانون كثرة الأحداث الخارجية التي يمكن أن تحدث قبل 6 تشرين الثاني/نوفمبر.

قد يعود رجال المصرف الاستثماري من هامبتونز في أيلول/سبتمبر. ومع أرباحهم الكبيرة التي حقّقوها للعام، سيبدأون بالتساؤل عن المخرج من النزاع المتعاظم مع الصين. فالتهديدات أمر، والحرب الاقتصادية تحت مبدأ «إما قاتل وإما مقتول». أمر آخر. إذا أضحت مؤشرات السوق سلبية، وبدأت بابتلاع الأرباح، فقد نشهد انهيارًا في سوق الأسهم. ويمكن لتصحيح كبير في الأسواق المالية أن يحطّم ثقة ترامب، ويدفعه إلى التصرُّف بشكل عصبي ومتهور.

احتمال ثان: إذا لم يحصل ترامب على التمويل الذي يريده للجدار في العام الضريبي الذي بدأ في الأول من تشرين الأول/أكتوبر، فقد يُعطّل عمل الحكومة، هذه المرة، وقبل أسابيع من الانتخابات، قد يقبل حدوث فوضى حتى أنه قد يستمتع بها. في شهر شباط/فبراير، وبعد أن قبل بمرارة تسويته الأخيرة المهينة، أقسم ألّا يدع أيّ موازنة تمرّ من دون تمويل للجدار. والآن، ومع نهاية شهر تموز/يوليو، لا يزال يكرر التهديد نفسه: ما من جدار، ما من موازنة. إذا رضي بغير هذا فستتذكر القاعدة ذلك.

احتمال ثالث: إنّ تعيين بريت كافانو قاضياً في المحكمة العليا، والذي سيجري في أيلول/سبتمبر، سيمنح القاعدة مادة دسمة للحرب الثقافية. فكافانو المحافظ سينقل المحكمة بشكل حاسم إلى اليمين. وقد أمِل الجمهوريون أن يُطلق الديمقراطيون

حملة معارضة شرسة، مزبدة وغير مجدية في نهاية الأمر.

احتمال رابع: قد يطلق بوب ودورد، الذي قضى على نيكسون وتولّى نقل الأحداث من خلف الكواليس في كل إدارة منذ فضيحة ووترغيت، وهو الصوت الأخلص للإدارة في واشنطن، حكمًا على رئاسة ترامب يشكّل ضربة قاضية لها. في الواقع، جرى توقيت إصدار الكتاب في منتصف شهر أيلول/سبتمبر، وذلك بالتحديد لعرقلة الانتخابات النصفية، والمساهمة في تعريض رئاسة ترامب لخطر جديّ.

احتمال خامس: قد يُقدم ترامب على طرد سيشنز أو روزنشتاين أو مولر، أو الثلاثة معًا. وربما حاول أن ينسف «المسألة الروسية»؛ وهذا أمر من شأنه أن يكون لمصلحته، أو يلحق به ضررًا مميتًا.

قال بانون في أواخر شهر تموز/يوليو: «ماذا لو اتخذت المسألة طابعًا جنونيًّا؟».

الفصل الخامس عشر
مانافورت

في 31 تموز/يوليو، استدعى روبرت مولر، المستشار السياسي، بول مانافورت، العضو السابق في مجموعة الضغط الدولية الذي تولّى مؤخرًا رئاسة حملة ترامب للانتخابات الرئاسية، إلى المنطقة الشرقية لولاية فيرجينيا، للمثول أمام المحكمة، التي وجّهت إليه ثماني عشرة تهمة تتعلق بالتهرب من دفع الضرائب وسواها من جرائم الاحتيال المالي.

ولن يمضي وقت طويل قبل أن يستدعي مولر المستشار مانافورت للمثول أمام محكمة مقاطعة واشنطن ومواجهة تهم أخرى تتعلق بالتآمر، وتبييض الأموال ومحاولة التأثير في الشهود. وفي حين اقترح المدعون العامّون دمج مختلف التهم الموجهة إليه ومحاكمته في العاصمة، رفض الفريق القانوني التابع لمانافورت، الذي كان يتوهم أنه يتمتّع بالنفوذ خلافًا للواقع، هذا الاقتراح. فباشرت بالتالي الحكومة بتطبيق خطة تقضي بإجراء محاكمات متتالية، بغية مضاعفة فرص إدانته، في محاولة منها للضغط على مانافورت للشهادة ضد ترامب، ما يضمن عمليًّا إفلاسه الشخصي.

كان بانون ينظر إلى مانافورت على أنه شخص غامض ومضحك. ومع افتتاح جلسات المحاكمة، بدأت تراوده أحلام اليقظة عن رواية مسرحية يؤدّي فيها مانافورت دور الشخصية الأساسية، شخصية مفيدة ومسلية لترامب، وتشكّل في الوقت عينه خطرًا عليه، خطرًا قد يكون مميتًا.

وبينما كان يجلس في أحد أيام الصيف إلى مائدة الطعام في السفارة، راح يستعيد ذكرياته قائلًا: «سأخبركم كيف التقيت بول مانافورت.. كنت جالسًا في متنزّه براينت بارك في نيويورك أقرأ الجريدة، في 11 أو 12 آب/أغسطس 2016؛ وإذا بي أُفاجَأ بالمقال المثير الذي نشرته ماغي هابرمان في صحيفة التايمز عن التداعي الكلي والمستمر لحملة ترامب. فاتصلت بريبيكا ميرسر وسألتها قائلًا: «هل كنت على علم بأن الأمور سيئة إلى هذا الحد؟»، فأجابت قائلة: «دعني أجرِ بعض الاتصالات». وبعد مضي خمس دقائق، اتصلت بي من جديد قائلة: «الأمر أسوأ ممّا تتصوّر. لقد دخلنا في دوامة الموت. أخبرني ماك كونيل وريان أن اللجنة الوطنية للحزب الجمهوري قررّت التخلي عن ترامب وتخصيص كل الأموال لانتخابات مجلس النواب ومجلس الشيوخ. وكأن المقصود من ذلك توجيه رسالة إلى الجهات المانحة بأن ترامب قد انتهى أمره». وأخذ بوب (بوب ميرسر، والد ريبيكا) الهاتف وقال لي: «سيلقون اللوم كله علينا. سيقولون إن بريتبارت، وبانون، وآل ميرسر، قد فرضوا هذا الرجل على الجمهوريين. ولهذا السبب ليس بينهم أمثال روبيو أو جيب بوش أو حتى تيد كروز». واستطرد بوب قائلًا: «لا يمكنك احتمال ما هو أسوأ يا ستيف، يمكنك أن تدير الأمور، وتبذل ما بوسعك لجعل نسبة الخسارة بمعدل 5 أو 6؛ لكنك لن تصمد إذا بلغت العشرين». فأجبته: «اسمع، أتعلم شيئًا؟ ما زلت أعتقد أن بإمكاننا الفوز في هذه المعركة».

في هذه المرحلة، جرى الاتصال بوودي جونسون. وسافر بوب وريبيكا لحضور حفل جمع التبرّعات المقرر إقامته نهار السبت في هامبتون، حيث كانا يعلمان أن ترامب سيشارك فيه. فقد أرادا التحدث مع ترامب قبل الحفل ليتمكّنا من تحريضه ضدي. وعلى أثر ذلك تتسلّم كيليان دفة قيادة الحملة. كان منوشين حاضرًا أيضًا، ولكنهم تمكّنوا من استبعاده. فسألته ريبيكا التي كانت تفتقر إلى حسن التصرف، قائلة: «من أنت؟» أجابها قائلًا: «أنا ستيف منوشين، والمساهمات التي أقوم بها ضخمة». فأجابته ريبيكا قائلة: «حسنًا، أظنك تسيء التصرف؛ إذ لا أحد يتبرع بمبالغ ضخمة». والحق يقال إن وودي كان قد وجّه الدعوات إلى ما يزيد على ألف شخص. لا شك في أن جميع الحاضرين في هامبتون يقرأون صحيفة نيويورك تايمز، ويعلمون أن المشاركة في ذلك الحفل إنما تدل على الإخفاق المطلق، حيث أن عدد الحضور لم يتجاوز الخمسين شخصًا، ثلاثون منهم مفلسون. عندما دخل ترامب المكان ولم يجد سوى حفنة من الأشخاص الجديرين بالازدراء، فقد صوابه، ورفض

أن يصافح أحدًا، مكتفيًا بالحملقة إليهم قبل أن يغادر المكان.

في وقت لاحق من ذلك المساء، هاتفت ترامب (من نيويورك) لمدة ثلاث ساعات تقريبًا. كنت أنا الكاهن الذي يعترف له بخطاياه قائلًا: «الحملة الانتخابية على مشارف الانهيار. ومانافورت هو المسؤول عن ذلك. مانافورت.. مانافورت السافل... اللعنة على مانافورت. اللعنة على مانافورت. اللعنة على مانافورت.». فقلت له: «اسمع، يمكننا أن نجد حلًا.. أنا واثق بذلك». واتفقنا على تناول طعام الفطور معاً في صباح اليوم التالي. فقال لي: «سألعب الغولف عند الثامنة. يمكننا أن نتناول الفطور معًا عند السابعة». وبالفعل، وصلت إلى برج ترامب عند الساعة السابعة إلا ربعاً. كان المكان فارغًا تمامًا إلا من ذلك الرجل الأسود الواقف عند منصة الحرس. فتحدث إلي قائلًا: «آسف، الدخول غير متاح لأحد في هذه الساعة». فأجبته قائلًا: «أعلم ذلك، ولكنني أتيت لتناول وجبة الفطور مع السيد ترامب». فقال لي: «أتيت إلى المكان الخطأ. هذا برج ترامب، يمكنك أن تجد المنزل عند الزاوية.. ولكنني لست واثقًا إن كنت ستجد السيد ترامب في منزله». فسألته: «لِمَ؟». أجابني وهو يحدق إلى بنظرات ساخطة وكأنه على وشك أن يرميني خارجًا: «إذا كنت على موعد معه على الفطور، فيفترض بك أن تعرف أين يمكنك أن تجده».

اتصلت بترامب على الفور، وعلا صوته في الطرف الآخر من الهاتف قائلًا: «أين أنت؟»، أجبته قائلًا: «إنني جالس في بهو برج ترامب». فسألني صارخًا: «وما الذي تفعله هناك بحق السماء؟ اتفقنا أن نتناول طعام الفطور معًا». فأجبته قائلًا: «حسبت أننا سنتناول طعام الفطور في برج ترامب». «كلا، إنني في بيدمنستر». لم أكن قد سمعت عن بيدمنستر من قبل. فسألته: «ما هو هذا المكان؟» أجابني قائلًا: «ملعب الغولف الخاص بي. إنه أفضل ملعب غولف على الإطلاق. يمكنك المجيء عند الظهر». وراح يشرح لي بالتفصيل كيف يمكنني الوصول إلى ذلك المكان، لأنه، وبصراحة، لا يملك أدنى فكرة عن مزايا الهاتف الجوال. كان أشبه بأبي البالغ من العمر 96 سنة. فقضى أكثر من عشر دقائق على الهاتف يتحدث إليّ بشكل مفصَّل قائلًا: «تجتاز الجسر، ثم المخرج الرئيسي، حيث تصل إلى مفرق طرق، انعطف بعدها...». حاولت إسكاته قائلًا: «أعطني العنوان فحسب». «...بعد اجتيازك طريق راتلسايك، ستعبر الكنيسة، ولكن لا تتجه نحو اليمين. تابع طريقك بشكل مستقيم، ثم اتجه يمينًا...». كان أشبه برجل قادم من أرض توقّف الزمن فيها عن الدوران. أقسم

بأنه لا يملك أي فكرة عن كيفية استخدام الهاتف الجوال.

قال السيد بانون للسيد ترامب: «لقد طلبت سائقاً ليقلني، اصعد معي» فأجابه: «آه صحيح، أنت ذاهب إلى «ذي لنش»، اذهب إلى النادي. كنت جالسًا في السيارة أفكّر في نفسي: «ذي لنش.. ذي لنش. ظننت أنه أحضرني إلى هنا لنتناول طعام الغداء معًا. لم أكن أعلم أنه طلب إليّ الحضور إلى ذي لنش». وصلنا إلى ذلك المكان الأشبه بمستعمرة، وخرج شبان من المبنى وتوجهوا نحوي قائلين: «وصلت باكرًا يا سيد بانون. لم يصل السيد أيلز والمحافظ بعد». فقلت في نفسي: «تبًّا لي، أحضرني إلى هنا لأخضع لجلسة استماع». ودخلت إلى مقصورة في حديقة، ووجدتهم يجهّزون طاولة لستة أشخاص. فاشتعلت نيران الغضب في داخلي لاسيما بعد أن رأيتهم يرصفون النقانق على المشواة. إذ شعرت وكأننا في حفل شواء في برنامج الواقع «جيرسي شور». النقانق... ولم تكن لذيذة الطعم. وأدركت في ما بعد أنه لا يحب أن يأكل سوى سجق الفراكفوتر والهامبرغر من مقهى ناتان. تملكتني موجة عارمة من الغضب. طلب إليّ حضوري إلى هنا ليستجوبني.. لن أسمح له بذلك. لست في حاجة إلى ذلك. لن أسمح له بأن يسخر مني. أمام أيلز، كم كان الأمر مثيرًا للإحراج!

وصل بعدها أيلز، وقال لي: «ما الذي تفعله هنا بحق السماء؟ لا تقل لي إنه أحضرك إلى هنا تحضيراً للمناظرة (كانت المناظرة مقررة في 26 أيلول/سبتمبر). أدركت في تلك اللحظة أن لا أحد يملك أدنى فكرة عن سبب وجودي في ذلك المكان. فأجبته قائلًا: «أحسبه ضاق ذرعًا من سماع قصصك عن الحرب ويريد أن يلمس شيئًا عمليًّا». نجحت في النيل من أيلز. وصل بعدها رودي، ثم الفتى السمين كريستي؛ فبدوا لي أشبه بالمهرجين الثلاثة. ولم يمضِ وقت طويل حتى ظهر ترامب مرتديًا بذلة كليفلندا، المؤلفة من الحذاء الرياضي الأبيض اللون، والسروال الأبيض، والحزام الأبيض، فضلًا عن القبعة الحمراء. كانت درجة الحرارة تقارب 35 درجة مئوية والرطوبة تتخطى الـ 95 درجة، فيما بدا ترامب أشبه بفتى في الثامنة عشرة يتصبّب عرقًا كما لم أره من قبل. لكنّه تناول قطعتين من النقانق فور وصوله. لا يزال ترامب ذلك الفتى من كوينز الذي يتصرّف كفتى في الثامنة عشرة من العمر، ويحتاج إلى تناول النقانق. فتحدّث إلينا قائلاً: «اسمعوا، علي أن أستحم. بالمناسبة، سينضم ستيف إلى الفريق». وبعد مضي ثلاثين دقيقة عاد وجلس برفقتنا.

ولم تكد تمر بضع دقائق حتى دخل بول مانافورت. يا رب السماوات! كان

يرتدي بنطلوناً أبيض شفّافًا يمكّنك من رؤية ملابسه الداخلية بوضوح، تعلوه سترة زُين جيبها بوشاح. كان أشبه بثورستون هاول الثالث في برنامج «جزيرة غيليغان». كانت تلك المرة الثانية التي أرى مانافورت فيها، إذ كنت قد رأيته للمرة الأولى نهار الأحد على شاشة التلفزيون في بث مباشر من ساوث هامبتون. فتلك المحطة الشعبوية كانت تبثّ يومها برامجها مباشرة من ساوث هامبتون. في مطلق الأحوال، جلسنا معًا، وعاد ترامب وانضم إلينا ووجّه حديثه مباشرة إلى مانافورت.

لم أرَ يومًا شخصًا يهاجم شخصًا آخر علنًا بهذه القسوة، كما فعل ترامب ببول مانافورت، حيث قال له: «أنت مريع.. ولست قادرًا على الدفاع عني..أنت فاشل». كان كلامه جارحًا. فحاولت أن أقوم بدور المصلح فيما جلس الباقون لا يصدقون ما يسمعون، أو يرون. «أتظنّ أنني طفل؟ أتظن أنني طفل غبي؟ أتظن أن عليك التحدث إليّ عبر التلفزيون؟ أتظن أنني طفل؟ أسمعك عبر شاشة التلفزيون تقول ما تظن أنه يفترض بي أن أفعله. هل أخبرك شيئًا؟ تبدو مريعًا على شاشة التلفزيون». وتابع هجومه على مانافورت. وتطرّق هذه المرة إلى المقال الذي نُشر في صحيفة التايمز. فقلت له: «أظنهم يختلقون الأكاذيب». فأجابني قائلًا: «حقًّا؟» أجبته: «بالتأكيد». فعلّق قائلًا: «هذا صحيح». وراح يتبجّح بالكلام عن المسؤولين، وعن استطلاعات الرأي، قائلًا بنبرة عالية: «يأخذون مالك ويختلقون تلك الأرقام.. إنهم منافقون».

لم يكن مانافورت يشعر بالارتياح منذ لحظة وصوله. لم يكن الهدف من هذا اللقاء التحضير للمناظرة. كان رودي وأيلز وكريستي يقضون وقتًا ممتعًا، ولكن لن يجري التحضير للمناظرة. فالفوضى هي سيدة الموقف. وترامب لم يخبرهم أنني أتيت لأتولى إدارة الحملة وأنني سأكون جزءًا من الفريق. ولما احتدمت الأمور، ابتعدت عن المجموعة قليلًا وطلبت إليه إعلان الخبر، وأنني لن أتخلى عن مانافورت، بل سأحتفظ به كرئيس مشارك، لأننا لسنا بحاجة إلى سماع المزيد من الروايات عن حجم المأزق الذي وقعنا فيه.

عدت مباشرة إلى المدينة وتوجّهت إلى الطابق الرابع عشر في برج ترامب. سمح لي هذه المرة الحارس بالدخول. كان ذلك نهار الأحد عند الساعة الخامسة أو السادسة. كانت تلك المرة الأولى في حياتي التي أدخل فيها المقر العام لحملة انتخابية. كنت أخال أنني سأجد نفسي في مشهد من فِلم «المرشح» أو مسلسل «الجناح الغربي». كنت أتصوّر أنني سأقابل أشخاصًا فائقي الذكاء، أشخاصًا يتجولون هنا

وهناك حاملين البيانات المطبوعة... وغرفًا تعج بالناس..وحركة مستمرة وناشطة. ولكنني وجدت المكان فارغًا.. أقصد بذلك أنه كان فارغًا... مقفلًا.. لا أحد فيه.

قمت بجولة في الطابق الرابع عشر، فوجدت المكاتب فارغة ومظلمة. وبينما كنت أتسكّع في ذلك الجُحر الذي تأوي إليه الأرانب، وصلت إلى القاعة المخصصة للاستجابة السريعة، حيث وجدت أندي سورابيان جالسًا بمفرده. فسألته قائلًا: «أين الجميع؟» فأجابني سائلًا: «ما الذي تقصده؟»، فأجبته: «أليس هذا المقر العام، أم لعل المقر العام الفعلي في واشنطن؟» أجابني على الفور، قائلًا: «لا..لا.. هذا هو المقر العام». فسألته بنبرة مشوبة بالشكّ: «هل أنت واثق بذلك؟ أين الجميع إذن؟» رد على سؤالي، قائلًا: «الماكينة الانتخابية لا تعمل خلال عُطل نهاية الأسبوع. ستجد الجميع في مكاتبهم غدًا عند العاشرة صباحًا». فقلت له صارخًا: «لم يبقَ سوى 88 يومًا على الانتخابات! صحيح أنني لا أعرف الكثير، ولكن الماكينات الانتخابية تعمل سبعة أيام في الأسبوع من دون أي إجازات». فنظر إلي قائلًا: «هذه ليست ماكينة انتخابية بالمعنى الصحيح. هذه هي الحقيقة».

وأدركت في تلك اللحظة أن صحيفة نيويورك تايمز لم تخدش سوى السطح. إذ لا شيء يجري هنا. فالأمر لا يتعلق بحملة انتخابية غير منظمة، بل لا وجود للحملة الانتخابية على الإطلاق. قلت في نفسي: «إنه الجنون بعينه». ولكن بسبب ذلك، قررت ألّا أنظر إلى الجانب السلبي، بل قدّرت أن أعمل على تغطية الجانب السلبي وأظهر للناس أن الأمر مجرد مزحة. لم أكن واثقًا إن كان بإمكاننا تسجيل خمس نقاط أو ست. صحيح أن ترامب يقول إنه على علم بكل الأمور، ولكنني لا أملك أدنى فكرة عما يسمعه، لأنه يتكلم فقط.

رنّ جرس هاتفي، وإذا بمانافورت يتصل بي سائلًا: «أين أنت؟»، أجبته قائلًا: «إنني في مقر الماكينة الانتخابية. أصحيح أن ليس ثمّة مَن يعمل خلال عطلة نهاية الأسبوع؟»، فسألني مندهشًا: «ما الذي تتحدّث عنه؟» أجبته قائلًا: «لا أحد هنا». قال لي «حقًّا؟». قلت له «المكان مظلم». فأجابني قائلًا: «لا أعرف شيئًا. فأنا أتوجّه إلى هامبتون مساء كل نهار خميس. وكنت أظن أن الجميع يعملون خلال عطلة نهاية الأسبوع». ثم أردف قائلًا: «هل يمكنك الصعود لمقابلتي؟». فسألته: «ما الذي تقصده بالصعود لمقابلتك؟ إنني في برج ترامب». فأجابني: «نعم، اصعد لمقابلتي. إنني في الطابق الثالث والأربعين». ثم راح يشرح لي كيف أسلك الممر الطويل

المعقّد للصعود من القسم المخصص للأعمال إلى القسم المخصص للإقامة، تمامًا كما حاول ترامب أن يدلّني على الطريق إلى بيدمنستر. فقلت له: «ألا يمكنني التوجه إلى الجانب الآخر من المبنى؟». فأجابني: «أجل، أجل، يمكنك أن تفعل ذلك».

صعدت إلى الطابق الثالث والأربعين ودخلت شقّته المنسّقة بشكل حسن؛ فوجدت سيدة متقدّمة في السن ترتدي ثوباً أبيض، وهي ممددة على الأريكة. عندما هاتف ابنة مانافورت سنة 2017، علمنا أن بول يحب مشاهدة مجموعة من الرجال يضاجعون زوجته؛ فقد سألت ابنته أختها في إحدى الرسائل الإلكترونية إن كانت والدتها قد خضعت لفحص بغية الكشف عن الأمراض المنقولة جنسيًّا. تلك المرأة الممدَّدة على الأريكة هي الوالدة.

تحدّث مانافورت إليّ قائلًا: «يُقال إنك تجيد التعامل مع وسائل الاعلام، وآمل أن تجد طريقة لحل هذه المسألة. انظر إلى هذا». كان عنوان المقال الذي سلّمني إياه، والمتوقع أن يُنشر في صحيفة التايمز، يقول: «إن مانافورت يتقاضى 14 مليون دولار من أجل الحملة الانتخابية في الخارج. قلت له: «14 مليون دولار؟ ماذا؟ من أين لك 14 مليون دولار؟ كيف؟ ولمَ؟» فأجابني قائلًا: «من أوكرانيا». فقلت له: «ما هذا الهراء؟ أوكرانيا؟». فقال لي: «اسمع، اسمع. تمالك نفسك. لقد تكبّدت الكثير من النفقات». فسألته: «هل كنت على علم بنشر الخبر منذ فترة طويلة؟». أجابني: «لست أدري. منذ شهرين تقريبًا». فسألته مستفسرًا: «هل قالوا لك متى سيجري نشر الخبر؟» أجابني: «لست أدري... لست أدري... قالوا إنه قد يجري التداول به هذا المساء». فصرخت قائلًا: «هذا المساء! هل يعلم ترامب بالأمر؟»؛ فأجابني قائلًا: «ربما عرف القليل عن الموضوع، ولكنه لا يعرف التفاصيل». فقلت له: «اسمع يا صاح، عليك أن تذهب لرؤيته في الحال. قلت لك إنك ستكون الرئيس الشريك وأنا الرئيس التنفيذي الأعلى. ما يعني أنك لا تملك أي سلطة. ولكنني لن أزجك في موقف محرج. تبدو لي رجلًا جيدًا.. ولكن هذا الخبر... سيفقده صوابه عند سماع هذا الخبر. كنتَ على علم بهذا الخبر منذ شهرين. لمَ لم تخبر أحدًا؟» أجابني: «لقد نصحني المحامي بألّا أفعل». فقلت له: «عليك أن تستعين بمحامٍ آخر. لم أسمع في حياتي بمثل هذا الغباء». أجابني: «نعم، سأبحث عن محامٍ جديد». قلت له: «لن تستطيع يا صديقي أن تنجو من هذه الورطة».

وذهب بعد ذلك لمقابلته؛ فاتصل ترامب بي قائلًا: «14 مليون دولار! 14

مليون دولار! من أجل نفقاته».

وهكذا تعرّفت إلى بول مانافورت.

* * *

أخبر بانون هذه القصة ليس على سبيل النقد اللاذع لترامب ومانافورت، بل كمبرر لهما. وقد أراد أن يقول إننا أمام أشخاص علقوا في شباك مولر، أشخاص لم يدركوا أيّ نهاية باتت وشيكة. أحاط ترامب نفسه بالعاجز وغير الكفء؛ وفي الحقيقة، كان لا بد لترامب من أن يحيط نفسه بالعاجز وغير الكفء، لأنه عاجز وغير كفء. لا يمكنه أن يكون ملكًا إلا في أرض العميان. وإذا ظننت أنّ بول مانافورت أشبه بركيزة، فقد اقتنعت بالأوهام نفسها التي يبدو أن بول مانافورت قد أقنع نفسه بها.

لكن المدّعين العامّين لا يأبهون لمستوى الأشخاص الذين يلاحقونهم وحسن النيّة الفكرية لديهم، بل يهتمون عندما تتحوّل أوهامك عمن أنت أو ما تظن أن من المفترض أن تكون عليه، إلى عمل. ولا يمكن في هذا السياق إعطاء مثال أفضل من مانافورت.

* * *

عُيّن مانافورت لإدارة حملة ترامب بناءً على اقتراح من توم باراك، صديق ترامب القديم، وشريكه في الأعمال أحيانًا. وباراك متخصّص في الاستثمارات العقارية المثقلة بالديون. وهو ليس عمومًا من النوع الذي ترغب في أن تراه يعمل كواحد من كبار المستشارين في حملة رئاسية، بالنظر إلى كثرة مصالحه الاقتصادية في دول تتَّبع نظام الزعيم الأوحد، وتسعى إلى تقليص نفوذ واشنطن. بعد الانتخابات، وعندما طلب إليه ترامب أن يتولّى رئاسة موظّفي البيت الأبيض، رفض باراك العرض مقرًّا بتضارب مصالحه والمخاطر المحيطة بها. لكنه وافق على إدارة تنصيب ترامب في العام 2017، جامعًا من الأموال أكثر مما جمع أيّ تنصيب آخر من قبل، وهي أموال يعتقد بانون أنّ قسمًا كبيرًا منها مصدرُهُ قنوات تلك الدول الخاضعة لزعيم أوحد، ولديه مصالح فيها.

اقترح باراك اسم مانافورت، ذلك أن حملة ترامب كانت في حالة تخبّط يائس في ربيع العام 2016، لأسباب أقلّها أنها تسير من دون أيّ شخص يتمتع بخبرة في مجال الحملات الرئاسية. وعرف باراك مانافورت معرفة جزئية، لأنه أسس شركة استشارية عملت في دول يملك باراك فيها أعمالًا أيضًا. وعلى الرغم من أن تجربة مانافورت السياسية عفّ عليها الزمن، فإنه كان متحمّسًا وحاضراً ومستعدًا للعمل بالمجان، وهي توصية استثنائية في نظر ترامب. ومن مزاياه الأخرى أنه يملك شقة في برج ترامب.

بدت علاقات مانافورت واتفاقيات أعماله كلها مشبوهة ومريبة للغاية. وبات من الصعب أن ترى كيف لها أن تكون مشروعة. فبحسب ادعاء مولر، تكاد تكون معظم الأموال التي وصلت إلى يديْ مانافورت خلال العقد الماضي، والتي بلغت عشرات الملايين من الدولارات، إما مسروقة وإما مبيّضة، وإما مكتسبة بطريقة احتيالية. وهذا ليس الأسوأ في الأمر: فكثير من شركائه، بل شركائه كافة تقريبًا، يعملون في منطقة لا تخضع للقانون، ويكثر فيها الفساد والنهب والاستبداد، فضلًا عن الفوضى والقتل.

ومانافورت كسول حتى النخاع، بمعنى أنه لا يحضر إلى العمل، في الوقت الذي سيعمل في موقع يتطلب الحضور 24 ساعة في اليوم وسبعة أيام في الأسبوع، ويتسبب بضغط شديد، ولا يحظى فيه بدعم كبير الأمر الذي يعني أنه سيضطر إلى العمل في عين العاصفة، وإلى اتخاذ قرارات حساسة بشكل مستمر.

من وجهة نظر فريق عمل ترامب، لا يمكن لأيّ شخص، صاحب نيات أو مشروعات سيئة (أو أيّ شخص لديه خيارات أخرى في هذه المسألة)، أن يستخدم هذا الرجل. لكن المدّعي العام يرى أنّ ما من أحد يستطيع أن يستخدم هذا الرجل إلا لدعم مؤامرة إجرامية.

* * *

وفضلاً عن ذلك كله، كان مانافورت وتمامًا كما في الأفلام، ملاحقاً؛ يلاحقه شخص ينتمي إلى الأقلية الثرية الأكثر وحشية في العالم، وهو روسي سرق منه الملايين.

يُعدّ تقديم المشورة إلى حكومات فاسدة، غير مستقرة، حكومات الرجل الواحد مصدراً يدرّ الكثير من الأموال على الاستشاريين الأميركيين، الفعليين والغامضين منهم. إذا ساعدت في بقاء رجل فاسد في السلطة، فالأموال التي يمكن أن تجنيها لا حدود لها. قد ظهرت فرصة مانافورت لكسب المال بسهولة والتمتع بهامش عريض، في أوكرانيا. وكلما جرى تقديمه إلى مسؤولين حكوميين كبار، وإلى نظرائهم في القطاع الصناعي، أو إلى العملاء والمصرفيين والتابعين والمجرمين الذين يتنقلون بينهم، أتيحت أمامه فرصة عائدات جديدة.

وفي مثل هذا الإطار، التقى بول مانافورت أوليغ ديريباسكا المعروف باسم «السيد دي»، ويحتل ديريباسكا المركز الأول في الترتيب الهرمي لرجال الأعمال الروس بسبب ثرائه وقسوته، أو أسطورة قساوته على الأقل، وقربه من بوتين. ويرفع رجال الأعمال الروس الآخرون وغيرهم من الرجال من ذوي السمعة المشبوهة عالميًّا عيونهم عندما يُذكر السيد دي. لا يميل شركاؤه إلى إنكار الشائعات التي تلاحقه، لكنهم يبرّرون أفعاله وسلوكياته بأنها ظرفية. قُتل؟ قد يجيبون بكلمة، ربما، لكن حدث ذلك خلال «حروب الألومنيوم» في تسعينات القرن العشرين.

في منتصف الألفين، استخدم السيد دي ومانافورت، واحداً من الرجالات البارزين في الطرف المدعوم من روسيا في السياسة الأوكرانية، وأدّى عندئذ دوراً إضافيًّا في جهود ديريباسكا للسيطرة على السلطة السياسية في أوكرانيا. دامت تلك العلاقة ست سنوات أو سبع، إلى أن ورّطه مانافورت، على غرار أوشن 11، في استثمار خديعة مكّنته من أن يختلس منه ما لا يقل عن تسعة عشر مليون دولار أميركي، ما جعل السيد دي يطالب بالثأر. ولاحق ديريباسكا ورجاله من دون هوادة مانافورت وملايين السيد دي التسعة عشر في المحاكم، وفي جزر الكايمان وفي نيويورك وعبر محاسبة قانونية للأثر الطويل من المعاملات الورقية التي تثبت غدر مانافورت، محاسبة تُشارك فيها أو لم يتشارك رجال السيد دي مع المسؤولين في الولايات المتحدة (حاول السيد دي الذي رُفض طلبه لنيل تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة بسبب نشاطاته الإجرامية المشبوهة، أن يتودّد إلى وكالات إنفاذ القانون في الولايات المتحدة).

في تلك الأثناء، حاول مانافورت أن يسدّد ديونه. وفي آذار/مارس من العام 2016، وافق، وهو الأبعد ما يكون عن الإفلاس، أن يصبح مسؤولًا عن حملة دونالد

ترامب الرئاسية بلا مقابل. ومن وجهة نظر ترامب، بدا هذا ثمنًا عادلًا للإسهام في إدارة سباق على الرئاسة كان مقتنعًا تمام الاقتناع بأنه لن يربحه، بغض النظر عن هوية من يديره. لكن من وجهة نظر مانافورت، وفّر له الانضمام إلى حملة ترامب فرصة ذهبية ليتخلّص من ملاحقة السيد دي له. وبالفعل، ما إن تسلّم مانافورت مهماته، حتى عرض على السيد دي فرصة الوصول إلى حملة ترامب والحصول على معلومات من الداخل مقابل تسديد دينه.

أن يكون هناك خط مباشر يصل دونالد ترامب ببول مانافورت وأوليغ ديريباسكا وصولًا إلى فلاديمير بوتين لهو إما مصادفة غريبة غير متوقعة، وإما ليس كذلك أبدًا. وإما أنّ مانافورت وديريباسكا وسيطان يصلان ترامب ببوتين، وإما أنّ مانافورت وديريباسكا وجدا أنفسهما في هرائهما المجنون داخل هراء مجنون آخر أكبر، في مايشبه مزحة القصّة المصوّرة.

* * *

في المخيلة الليبرالية، اتّصلت النقاط بعضها ببعض اتصالاً واضحاً حيث باتت المؤامرة مؤكدة، وهذا ليس بالأمر المفاجئ.

استبعد جاريد كوشنر على سبيل المثال تلك الفكرة. فمنذ أن تولّى الإدارة العملية لحملة حميه الرئاسية، وهو يقول للناس: «لا تأخذوا كلام ترامب بشكل حرفي جدًا. فالأمور ليست كما تبدو عليه في كثير من الأوقات. مؤامرة؟ هل تمزحون؟».

قال كوشنر إنّ مانافورت مغفّل، لكنه ليس متآمرًا. وعلى الرغم من أنّ أوليغ ديريباسكا يبدو شريراً مثل جيمس بوند، ويملك عقارات على كل قطعة أرض فخمة جدًا في كل مدينة متلألئة، ويخوتًا فخمة مجهّزة دومًا بجميلات مستكينات، ويقيم كل عام أجمل الحفلات في دافوس إلا أنه مجرد رجل أعمال حريص. شخص دقيق في عاداته، متكتّم في شخصيته، يكره المخاطرة، وبالتالي هو آخر شخص يمكن أن يتجاوز الخطوط المرسومة للسلطة السياسية في روسيا وحاجات شركة «روسال» أكبر شركة ألومنيوم في العالم، بل ثاني أكبر شركة.

في إحدى أمسيات العام 2017، وأثناء تناوله العشاء مع بعض معارفه في نيويورك خلال أسبوع الأمم المتحدة، وهي المرة الوحيدة في العام، التي يُسمح له

فيها بالقدوم إلى نيويورك، في حين أن عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي يتتبعونه، سُئل ديريباسكا بصراحة إن كان ثمة علاقة غير معلنة بين ترامب وبوتين. فأعلن: «لا، الأمور لا تسير على هذا النحو في روسيا». مشيرًا بشكل غير مباشر إلى أنّ تفاصيل السلطة في محيط بوتين تتجاوز قدرة السياسيين والمدّعين العامّين والصحفيين الأميركيين على الفهم.

وطُرح عليه السؤال الآتي: «هل حصلت حملة ترامب على مساعدة من الحكومة الروسية، أم من أشخاص، أم من كيانات ومؤسسات مرتبطة بها؟».

- لا. لكنني لا أعرف بشأن هذا.

- ومانافورت؟

- ليس رجلًا جيدًا.

- هل حاول أن يستغل موقعه في الحملة ليعالج مشكلاته معك؟

- لم يعالج مشكلاته معي.

- لكن هل حاول؟

- لم ينجح في ذلك.

وفي ربيع العام 2018، وبعد إدانة مانافورت، أضافت إدارة ترامب عقوبات قاسية جديدة على ديريباسكا وشركته. وثمة مَن اعتبر هذه الخطوة تحذيرًا من البيت الأبيض له، كي يبتعد عن قضية مانافورت ومحاكمته، أو لعلها محاولة من وزارة العدل لمساومته، والحصول على مساعدته في قضية مانافورت، أو لعلها مجرد طريقة عشوائية للظهور بمظهر القاسي في التعامل مع روسيا. ومهما يكن الدافع، فقد بدا أنّها خطوة لم يفكّر فيها أحد مليًّا، لأنّها أدّت على الفور إلى ارتفاع حاد في أسعار الألومنيوم.

أخبر ديريباسكا أحد أصدقائه أنه أصبح «عبأً على الدولة»، وأنه يخشى على حياته. وقد اعتُبر كلامه هذا إشارة إلى أنه بالفعل صلة وصل أساسية بين ترامب

وبوتين ولا بد من إزالته، أو كان يريد أن يبيّن أنه ليس صديقًا لبوتين، بل على العكس من ذلك، أو لعلّ الأمر كلّه مجرد مسرحية روسية ومحفّزٍ لمفاوضات، على أمل أن تفضي إلى رفع العقوبات عنه (وقد رُفعت بالفعل في نهاية الأمر).

في أيّ حال، بقي السؤال الأساسي، هو: هل هذا الارتباط بين بعض أكثر رجال العالم فسادًا وخطورة هو أمر عشوائي، أم أنه مؤامرة من النوع الوقح للغاية!!؟

* * *

مع تقدّم محاكمة مانافورت، بدا ترامب الذي كان في البيت الأبيض، ثم انتقل بعدئذ لقضاء عطلة الصيف في بدمينستر وهو مكان يزداد غضبه فيه، وكأنه يواجه شعورًا بأن خصومه يطبقون عليه. في 1 آب/أغسطس، انتقد المدّعي العام، وطالب مجددًا أن يضع جيف سيشنز حدًّا لتحقيقات مولر. في 12 آب/أغسطس، عمدت أوماروزا مانيغو نيومان، التي شاركت في برنامج ترامب القديم «ذا أبرنتس»، والتي عملت كمساعدة في البيت الأبيض، إلى اتّهام ترامب بأنه دعاها «بالزنجيَّة» في موقع تصوير البرنامج، ما أثار نقاشًا على المستوى الوطني حول ما إذا كان الرئيس: هل هو عنصري؟ من ناحيته، ابتلع ترامب الطعم ووصف مانيغو نيومان «بالكلبة» «وبالمنحطة الكثيرة البكاء». وفي 13 آب/أغسطس، وتحت ضغط ترامب، طرد مكتب التحقيقات الفيدرالي بيتر سترزوك، العميل الذي أظهرت رسائله خلال التحقيق في قضية الروس، أنه مرتعب شخصيًا من فكرة فوز ترامب. (اتهم ترامب سترزوك مراراً بأنه متآمر على الدولة). في 15 آب/أغسطس، ألغى ترامب التصريح الأمني لجون برانين، مدير وكالة الاستخبارات المركزية في عهد أوباما، الذي أضحى أشد منتقدي ترامب حدة وإثارة للإزعاج. وفي 16 آب/أغسطس، اجتمعت مئات الصحف لتدين حملات ترامب المستمرة على وسائل الإعلام ووصف ترامب لها بأنها «عدوة الشعب».

لقد ازداد الشهر السيّىء على ترامب سوءاً. ففي 21 آب/أغسطس، أُدين مانافورت بثماني قضايا نشاطات اقتصادية احتيالية مختلفة في المحكمة الفيدرالية بفرجينيا. (لم تستطع هيئة المحلّفين أن تتوصّل إلى حكم في عشر قضايا أخرى). لم يجرِ التداول بجرائم كبرى في المحكمة، بل كان ما جرى التداول به مجرد مسائل

اعتيادية عن جشع مانافورت والعمليات المالية الاحتيالية التي تورّط فيها. لم تكن تلك جرائم سياسية، بل عمليات غش في الضرائب، بغية شراء سترة دفاعيّة من جلد النعام. قد تسخر جماعة ترامب من دناءة أعمال مانافورت الجنائية، لكن المدعين العامين بعيونهم اللامعة، يعلمون أنه كلما كانت الجريمة بسيطة، كان العقاب حتميًّا.

لكن ترامب رأى جانبًا إيجابيًّا في هذه المسألة: فمانافورت لم يعقد صفقة مع المدّعين العامّين الذي يعملون ضمن فريق مولر.

وجد كثيرون في فريق ترامب سهولة في التغاضي عن إسهامات مانافورت في الحملة. وبدا أنهم مقتنعون تمامًا بأنه ليس لديه ما يقوله. وقد عُدّ مانافورت حاليًّا مزحة إضافية في لائحة من لوائح نكات حملة ترامب ورئاسته. عندما تسقط من حلقة ترامب، لا تعود لك صلة بها، وتجري على الفور مراجعة التاريخ حيث تبدو أنك لم تكن يوماً على علاقة فعلية بتلك الحلقة. (شبّه بعض العاملين في البيت الأبيض هذا بولع ستالين في إزالة وجوه بعض الأصدقاء المقرّبين من الصور). في الواقع، بدا من ناحية أخرى، أنّ كل شخص يعمل مع ترامب، يميل إلى الاعتقاد بأن أيّ شخص آخر يعمل مع ترامب هو بحدّ ذاته مزحة.

كانت وجهة نظر المدّعين العامّين من فريق عمل مولر بشأن مانافورت مختلفة. فقد اعتبروا أنه ينتظر عفوًا من الرئيس. وبالنظر إلى الحكم بالسجن الذي ينتظر مانافورت بعد إدانة المحكمة له في فرجينيا، واحتمال صدور حكم إضافي بالسجن في محاكمته الثانية إن لم تسر الأمور على ما يرام، بدا أنّ قرار العفو هو التفسير الوحيد لصمته. لكن المدّعين العامّين اعتقدوا أيضًا أنّ العفو إذا ما جرى، فإنه لن يُمنح إلا بعد الانتخابات النصفية. إذا تمكّن الجمهوريون من الحفاظ بطريقة ما على الأغلبية في مجلس النواب، فإن الثمن السياسي للعفو سيكون مقبولًا بعض الشيء لترامب.

ومع استعداد فريق المحامين لمحاكمة مانافورت الثانية، ضيّق أندرو ويزمان الخناق أكثر على مدير حملة ترامب السابق. وتواصل ويزمان الذي بقيت خشيته من التبعات محدودة، مع سايروس فانس الابن، نائب عام منطقة مانهاتن، وأشار إلى أنه قد يرغب في توجيه التهم إلى مانافورت في القضايا العشر التي لم تصل فيها هيئة المحلفين الفيدرالية إلى قرار، وذلك في حال صدور عفو رئاسي. إذا جرت محاكمة

مانافورت في محكمة الولاية فلا يمكن للرئيس في هذه الحالة أن يُصدر عفوًا عن حكم إدانة صادر عنها.

وعشيّة محاكمته الثانية، استسلم مانافورت، ووافق على عقد صفقة تقضي بأن يتعاون، على أن تُدمج العقوبة، حيث لا تتجاوز العشر سنوات في القضيتين. لكن مانافورت استمر في اللعب على طريقته. فقد كان يمكنه أن يعتمد على نيات ميلر الحسنة لينال حكمًا مخفّضًا، أو أن يتكل على حسن نيّة ترامب لينال العفو. لكن من الصعب عليه أن يحظى بالأمرين معًا. غير أن مانافورت كان ينوي، على ما يبدو، نَيل الأمرين معاً. وفي تصرّف يُعتبر كارثيًا، وقع مانافورت في المحظور بعد أن اتهمه المدّعون العامّون بالكذب، وتراجعوا عن الصفقة. كان عليه محاولة استرضاء المدّعي العام قليلًا، إذا لم يصدر الرئيس قرار العفو عنه.

الفصل السادس عشر
بيكر، وكوهن، ويسلبرغ

تحدّث دونالد ترامب وهو يجلس إلى مائدة العشاء في البيت الأبيض، في إحدى ليالي صيف العام 2017، قائلًا: «رئيس التحرير». ثم عاد وكرّرها قائلًا: «رئيس التحرير»، قل إنه مسرور باللقب المتغطرس.

أجابه ديلان هوارد قائلًا: «أجل، سيدي الرئيس». كان هوارد أسترالي الأصل من ضواحي ميلبورن، ارتقى بنجاح في حياته المهنية من مجرد صحافي في صحيفة شعبية، ليعتلي أبرز وظيفة في حقل التحرير في مؤسسة أميركان ميديا، وهي المؤسسة الأم لمجلة ناشيونال إينكويرير المتخصّصة في نشر فضائح المشاهير. وها هو اليوم يتناول الطعام إلى مائدة رئيس جمهورية الولايات المتحدة. ففي محاولة جديدة لطمس المعايير المدنية، دعا ترامب دايفيد بيكر، المدير التنفيذي الأعلى لمؤسسة أميركان ميديا، وملك عالم الصحافة المبنية على إفشاء الأسرار مقابل المال؛ كذلك دعا هوارد وسواهما من الموظفين، للعشاء في البيت الأبيض.

سأل ترامب هوارد قائلًا: «كم يبلغ حجم مبيعات الصحيفة عندما تكون صورتي على الغلاف بدلًا من صورة أحد المشاهير؟». كان ترامب يقصد بالمشاهير جينيفر أنيستون، براد وأنجيلينا، أو نجوم تلفزيون الواقع الذين يحقّقون نسب مشاهدة عالية.

أجاب هوارد في محاولة منه لإرضاء ترامب: «15% أو 20% أكثر». فسأله ترامب بعد مضي دقائق قليلة وكأنه يريد تأكيد كلامه: «هذا يعني أن صورتي

تزيد نسبة المبيعات بمعدَّل 50% أكثر من أي نجم سينمائي؟».

«قلت لك منذ قليل: 15% إلى 20% أكثر».

أجاب الرئيس: «فلنقل 40%».

بدأت أهمية الرقم، بصرف النظر عن قيمته، بالانخفاض في نظر شركة النشر. فمع تراجع حجم الأعمال في محالّ بيع الصحف في الولايات المتحدة الأميركية، حيث تراجعت نسبة مبيعات صحيفة إينكويرير بمعدّل 90% منذ سبعينات القرن العشرين، وقاربت نسبة محال بيع الصحف والمجلات التي أقفلت أبوابها، أو اختارت بيع منتجات أخرى، خلال العقد المنصرم، 60%، سارعت مؤسسة أميركان ميديا إلى إدخال تغييرات مهمة على أوجه مختلفة من أعمالها، معتمدة النهج «القائم على الزبون» بدلًا من المبيعات على صناديق الدفع. وفي محاولة منها لإثارة الإعجاب من خلال نهجها الجديد في الأعمال، عقدت المؤسسة شراكات مع المشاهير وفق استراتيجيات الاتصالات والتوسيم الأوسع نطاقًا.

مؤخَّرًا تمثّلت النسخة المنمّقة للشراكة ما بين عالم المشاهير ووسائل الإعلام في ما فعلته شركة هيرست، التي تنشر المجلات المخصَّصة للنساء، مع أوبرا وينفري من خلال إصدار مجلة أوبرا على اعتبارها نشاطاً مشتركاً، أو «امتداداً للعلامة التجارية». كذلك لم تتردد، في ظل سعيها إلى استقطاب الاستثمارات من المملكة العربية السعودية، في اللجوء إلى مقاربة أقلّ بريقًا، تمثلت في إصدار مجلة لمرة واحدة أثنت فيها على فضائل المملكة العربية السعودية، وما توفّره من فرص مذهلة للسفر والأعمال.

واستطاع بيكر، الذي كان يعمل محاسبًا في الحقل الصحفي، تحويل مجلة إنكويرير من مجلة شعبية تباع في الأسواق الهابطة إلى مجلة تُعنى بنشر أخبار المشاهير والشائعات، وتباع في الأسواق الأعلى مرتبة، مضيفًا العديد من العناوين إلى العناوين الثابتة، وباذلًا أقصى جهوده بالتعاون مع حلفائه، لإنقاذ الشركة من حالات إفلاس كثيرة (ثمّة من ادّعى أنه كان السبب في قيادة الشركة نحو الإفلاس). غير أن بيكر وهوارد لم يكونا من الأشخاص المتعمّقين بشؤون التسويق والتوسيم؛

بل كانا ينتميان إلى فئة الشبان القساة، المعتدين بأنفسهم، المتمسكين بالمعتقدات البالية، الذين لا يأبهون لكيفية كسب المال، تمامًا مثل دامون رينيون.

أدرك بيكر، وأيّده هوارد، أن بإمكانهما أن يكسبا المال، في هذا العصر الجديد من الشراكات مع المشاهير، عبر الإسهام في حمايتهم بدلًا من نشر فضائح النجوم. وعلى غرار الشرائط الجنسية، تحوّلت مجموعة واسعة، من المواد البذيئة التي جرى اختراقها والسوق المزدهرة للاعترافات والانتقام، إلى عوامل رئيسية في الحياة المهنية لعدد كبير من المشاهير؛ وهي عوامل تبنّتها مؤسسة أميركان ميديا. واستمر فريق مجلة إنكويرير في جمع المعلومات والفضائح، ولكن لدوافع مناسبة. وقد امتنع عن نشرها، في ظل الحفاظ على العلاقات المفيدة للطرفين، كعملية Catch and kill، أي شراء الأخبار وعدم نشرها.

فمجلة إنكويرير مثلًا كانت تربطها علاقة عمل وثيقة بالمنتج السينمائي هارفي واينستين، الذي عمل على تأمين صفقة إنتاج لمؤسسة أميركان ميديا مقابل موافقتها على عدم نشرها أي روايات عن ادعاءات التحرُّش والاعتداء الجنسي التي ستتسبب آخر المطاف في إدانته.

وتعاملت المؤسسة أيضًا مع أرنولد شوارزنغر لاعب كمال الأجسام السابق، والحاكم السابق لولاية كاليفورنيا، المتّهم بالتحرش الجنسي المتكرر، والذي استغل نفوذه لمساعدة المؤسسة على شراء عدد من المجلات الرياضية مقابل امتناعها عن نشر فضائحه. ولكن الشريك الأبرز والأوسع شهرة الذي تعاملت المؤسسة معه كان على الأرجح دونالد ترامب.

كان ترامب وبيكر يواجهان نوعًا من الانكفاء. فقد كان ترامب يسعى خلال القسم الأكبر من حياته المهنية إلى عقد الصداقات مع عمالقة الوسط الإعلامي. ولكن معظمهم، أمثال روبرت مردوخ، قد تعامل معه بازدراء. من جانبه، كان بيكر أيضًا يحاول عقد صداقات مع مشاهير الصف الأول، إلا أنهم كانوا يتجنبونه باستمرار. فتوصل في نهاية المطاف كلٌّ من ترامب وبيكر إلى نوع من الاتفاق لاسيما وأن السمعة السيئة كانت تجمعهما.

كان الرجلان يتشاركان في وجهة نظر مماثلة حول وسائل الإعلام. فهي في

نظرهما مجرد أداة لكسب الثروات، والنفوذ والسلطة. ومن ينظر إليها من منظار مختلف يكون أبله. في أوائل تسعينات القرن العشرين، وبينما كان بيكر يشغل منصب مدير الشركة الأميركية للمجلات التي تملكها شركة النشر الفرنسية هاشيت، والمعنية بإصدار مجلات مثل «إل» و«كار إند درايفر» و«ويمينز داي»، أيّد فكرة جون إف كينيدي بشأن إنشاء مجلة ثقافية شعبية تتطرق إلى الموضوعات السياسية، مسمّاة «جورج». فقد وجد بيكر في هذه المجلة فكرة تجارية عبقرية، لأنّها مجلة للمشاهير ومدير تحريرها من المشاهير. إلا أن هذه العلاقة ما لبثت أن تدهورت بعد أن تبيّن لبيكر أن كينيدي رجل غبي بامتياز ويستحق هذا اللقب، لأنه كان مؤمنًا بأن مجلة «جورج» هي للشؤون السياسية فقط.

لم يكن بيكر يتصوّر نفسه رجل أعمال فحسب، بل شخصية إعلامية بارزة شأنه في ذلك شأن ترامب. وكلما كتب أحدهم لمحة أو مقالًا عنه، كان يتصل بالمسؤول التنفيذي الأعلى ويمارس الضغط عليه لتحسين صورته في الإعلام، تمامًا كما كان يفعل ترامب.

كان للرجلين خططٌ مشتركة. إذ لطالما كان يراود بيكر حلم على طريقة والتر ميتي، بأن يصبح يومًا ما مالك صحيفة التايم؛ فوعده ترامب بأن يساعده على شرائها. وقبل وقت قصير من انتخابه رئيسًا للجمهورية، كان ترامب، الذي توقَّع الخسارة في الانتخابات، يضع الخطط لإنشاء قناة ترامب. وطلب إلى بيكر المشاركة في هذه الصفقة. فعمد روجر أيلز، مؤسس قناة فوكس نيوز، الذي كان ترامب يناقش معه مستقبله في الحقل الإعلامي خريف العام 2016، إلى الاتصال ببيكر، وقال له: «إن ترامب أشبه بموزع الماء الغبي.. والغبي يحتاج إلى شخص أكثر غباء منه ليوزع الماء عنه».

* * *

خلال زيجاته الثلاث، واجه ترامب مشكلة أساسية، وعلى درجة عالية من الأهمية، تمثّلت في تعدُّد علاقاته النسائية. وشكّلت مسألة التعامل مع النساء اللواتي خيب ترامب آمالهنّ، أو عنفهنّ أو أذلهنّ من الأمور المُسلَّم بها.

كانت تلك النقطة مصدر فخر له، ويتعامل معها على طريقة سيناترا، حيث

اختصر حياته الجنسية بعبارتي «مجموعة الجرذ» و«أمسك بها من فرجها»، كما أن قدرته على التعامل مع التهديدات التي قد تُطلقها في وجهه أي امرأة، كانت تشكّل أيضًا مصدر اعتزاز له. فقد درج ترامب على التبجّح، قائلًا: «رجالي يجيدون معالجة الأمور».

يتمثّل الخطر الأكبر الذي قد تثيره إحدى النساء في الكشف عن فضائحه علنًا. إذ يحق لها أن تقاضيه على أفعاله؛ ولكن محامي ترامب يجيدون التعامل مع هذه الحالات والتوصل إلى تسويات سريعة. ويمكنها أيضًا أن تنشر موادّ فاضحة؛ وفي هذه الحالة سيلجأ مايكل كوهن ومارك كازويتس، المحاميان الشخصيان لترامب، حتمًا إلى بيكر.

قبل التطور السريع الذي شهدته خدمة الإنترنت، حيث أصبحت متاحة للجميع، نجح بيكر، الذي حاز حصة الأسد من الصحف الشعبية التي تباع في المتاجر الكبرى (بما في ذلك غلوب، إين توتش، أوكي!، ستار و Us Weekly)، في التحكم بشكل فعال بسوق الادعاءات الجنسية للمشاهير. فالمطبوعات التي كان يصدرها لم تكن من المطبوعات القليلة التي تنشر هذه الروايات فحسب، بل كان بيكر أيضًا من الزبائن الذين يدفعون بسخاء وبشكل موثوق ثمن الفضائح والشائعات. ولكن، خلال العقد المنصرم، ومع هيمنة الإنترنت حيث يمكن نشر أي شيء، شهدت السوق تغيُّرًا جذريًّا. ولم يعد لحراس البوابات من أثر، بحيث أصبحت الفضائح تتدفق بحرية. ولعل الحقل الذي شهد تطوُّرًا سريعًا هو حقل التجارة المنتظمة بإذلال المشاهير.

من جانبه، أثبت المحامي كيث إم ديفيدسون في لوس أنجلوس، مدى خبرته في هذا العالم الجديد. إذ كان ديفيدسون يجسد في الحياة الواقعية شخصية راي دونوفان، مُصلح شؤون المشاهير الذي أصبح أحد الممثلين الرئيسين للشرائط الجنسية المعروضة للبيع، بما في ذلك الشرائط العائدة إلى شخصيتين بارزتين في عالم الفن، وهما باريس هيلتون وهالك هوغان. ومن خلال تجارة الاعترافات والأسرار المعزّزة للحياة المهنية، أسهمت مجموعة من زبائن ديفيدسون، الذين كانوا على ما يبدو يحاولون التنكيل بعضهم ببعض، في تمهيد الطريق لإثبات إصابة الممثل التلفزيوني شارلي شين بالإيدز. التقى هوارد وديفيدسون للمرة الأولى سنة 2010 بشأن قضية تتعلق بليندس يلوهان، غير أن متابعة مجلة إينكويرير لقصة شين ساهمت في توثيق أواصر الصداقة بينهما. لم يكن ديفيدسون من النوع الذي يؤمن

الفضائح والشائعات ويتفاوض مع الأشخاص الذين يملكون هذه الفضائح والشائعات فحسب، بل أصبح مصدر المعلومات الثابت لهوارد، والوسيط المتكامل للصحف الشعبية.

كان يقف عند هذا المنعطف الخطر، إلى جانب هوارد وديفيدسون، مايكل كوهن، محامي ترامب، ومصدر المعلومات لكل من الرجلين، وبيكر رئيس مؤسسة أميركان ميديا، ومستشارهم وشريكهم في الأعمال. من البديهي أن يعرف اللاعبون الرئيسيون في الأسواق المحدودة كل شيء بعضهم عن بعض، ما يخفّف من حدة الاحتكاك، ويسهّل عقد الصفقات. فالجميع متفاهمون، ويدركون ما هو المنطقي في هذه الأمور، وبمن عليهم أن يتصلوا. خلال الفترة التي سبقت انتخابات العام 2016، اختير ديفيدسون ليمثل كارين ماكدوغال، التي اختيرت كأفضل امرأة مثيرة في مجلات بلاي بوي عن العام 1998، وممثلة الأفلام الإباحية ستورمي دانييلز، وكلتاهما ادّعتا بأنهما كانتا على علاقة جنسية بترامب.

في أواخر ربيع العام 2015، اتصل ديفيدسون بهوارد حول قضية ماكدوغال. وأخبره بأن ادعاءاتها المتعلّقة بالعلاقة التي كانت تربطها بترامب قابلة للتصديق. فسارع هوارد إلى إخبار بيكر، الذي طُلب إليه أن يركب الطائرة المتوجهة إلى لوس أنجلوس على وجه السرعة، ومقابلة ديفيدسون وماكدوغال. يعتبر ذلك الإجراء ممارسة روتينية في عالم الصحف الشعبية، إذ يتعيّن على هوارد استخلاص المعلومات وتقييم الأدلة المباشرة، بما في ذلك الرسائل الإلكترونية، والنصوص، والصور ومقاطع الفيديو. غير أن بيكر اتصل على غير عادة بكوهن لإطلاعه على المسـألة، وطُلب إلى هوارد إبقاء كوهن مطّلعاً على المستجدات.

ولكن المشكلة هي أن ماكدوغال، التي كانت على استعداد تام للمشاركة في تفاصيل العلاقة، أبت أن تظهر الدليل القاطع على ضلوعها فيها. فهاتفها الذي يتضمن نظريًّا، رسائل نصية من ترامب، كان في الحفظ والصون، كذلك لم يتمكن أي شخص من العثور على الأصدقاء المقربين منها الذين عهدت إليهم بالدليل، أو على بيان بإيراداتها. بعبارة أخرى، لم تكن تتوفر أي مواد حسية كافية لنشر رواية عنها.

غير أن ماكدوغال تلقّت مبلغًا من المال مقابل روايتها؛ ففي عالم يهيمن عليه مبدأ Catch and kill، أي شراء الأخبار وعدم نشرها، وضعت مجلة إنكويرير

يدها على شيء، يمكن وصفه بالمصطلحات المستخدمة في عالم المنشورات، على أنه غير موجود، ما يعني أنه لا حاجة للقضاء عليه. والغريب في الأمر هو أنهم دفعوا المال لشخص لم يكن ينوي نشر الخبر في العلن، وذلك كي لا تنشر الخبر في العلن.

كان الاتفاق الأساسي في غاية الوضوح. فقد اتفق بيكر وترامب على أنه في حال حدوث فضيحة، يستطيع بيكر استخدام مصادر مجلة إنكويرير لحماية صديقه ترامب. ولكن هوارد، الخبير في شؤون الفضائح، لم تكن تتوفر بين يديه العناصر اللازمة الموثوقة والصالحة التي يمكن الاعتماد عليها لتنفيذ عملية الإطاحة.

وتساءل هوارد أمام بعض الأصدقاء إن كانت تلك العملية من تخطيط كوهن وبيكر. هل كان بيكر وكوهن، اللذان سخّرهما ترامب بلا مقابل، يتآمران معًا لتعزيز مكانتهما أو نفوذهما لديه؟

صحيح أن ماكدوغال كانت على علاقة بترامب. لكن لم يعد واضحًا الآن من كان يدير دفة اللعب، أو من كان صاحب النفوذ ضمن هذه المجموعة من الحثالة. لم تكن النساء فقط من يسعينَ إلى النيل من ترامب، بل أيضًا رجاله، الذين يُعتقد أنهم أسهموا في تهديد طموحاته الرئاسية ليضعوا بعدها أنفسهم في موضع يسمح لهم بحل المشكلة، ونيل التقدير على ما فعلوه.

باختصار، كان ترامب يحظى بحماية أشخاص يبحثون، ولأغراض شخصية، عن المشكلات التي يتعين عليهم حمايته منها. وليس من المستغرب أن يكون أكثر أتباعه ولاء له منافقين أيضًا.

خلال تعاملها مع ماكدوغال، أو القضية التي أشرف ديفيدسون على تنظيمها وأقرّها كوهن وبيكر وترامب، وافقت مجلة إنكويرير على شراء قصتها مقابل 150 ألف دولار أميركي، وهو السعر الذي حدّده كازويتز من دون طرح أي سؤال مقابل شكوى التحرش ضد ترامب، إلا أنها لم تقم بنشرها. فضلاً عن ذلك، تلقّت ماكدوغال مبلغًا من المال لتكتب مقالات صحفية لمجلة إينكويرير. كذلك وضعت مؤسسة أميركان ميديا صورتها على غلاف إحدى المجلات الرياضية الصادرة عنها. ولكن المؤسسة أخفقت آخر المطاف في الوفاء بشروط الصفقة. كما أن الاتفاق الذي جرى

ترتيبه مع ترامب انهار كليًّا وبطريقة احتيالية. ولم تتمكن مؤسسة أميركان ميديا من استرجاع ال- 150 ألف دولار أميركي من ترامب أو كوهن.

في وقت لاحق من العام 2018، عندما مثل ديلان هوارد، الذي يتمتع بحصانة جزئية، أمام المدّعين العامين للشهادة، أظهر رسالة إلكترونية من بيكر يقول فيها: «ديلان ليس على علم بالأمر». والمقصود بالأمر الاتفاق الخفي بين كوهن وبيكر وترامب. وبحسب أحد الحاضرين في القاعة، انفجر هوارد بالبكاء، وقد أدرك أنه كان مجرد أداة تعيسة استخدمها كوهن وبيكر لإرضاء دونالد ترامب أو التلاعب به، أو الأمرين معًا.

* * *

حاول كازويتز، وهو عضو من فريق محامي ترامب الشخصيين، وشريك في مكتب محاماة مرموق في نيويورك، الحفاظ على مكانته كمحامٍ مستقل. في المقابل، كان كوهن يجد متعة كبيرة في أداء دور المصلح لمشكلات ترامب. وغالبًا ما كان يستشهد بتوم هاغن، محامي أسرة كورليون في فِلم العراب قائلًا: «إنني مختص بإدارة أعمال عميل واحد فقط لا غير».

إن معرفة كوهن كيفية سير الأمور كانت كفيلة بإبهاجه، وخصّ «مَن يودع الأموال ويسحبها من المصرف المُفضَّل، على حدّ تعبيره».

قال أن ليس عليك أن تفهم الصفقة وحدها، بل الصفقة وما يحيط بها. الجميع يعملون بهذه الطريقة، ما عدا المغفّلين؛ بالتالي، هذا ما عليك أن تفعله. في الواقع، عليك أن تذهب أبعد. في الوقت عينه، بدت قلة قليلة في منظمة ترامب، بمن فيها ترامب نفسه، واثقة أنّ كوهن يعرف ما يفعله. وغالبًا ما كان ترامب يبدي انزعاجه من حماقة كوهن وقدراته العقلية المحدودة. أما كوهن فراح من ناحيته يسجّل الأحاديث مع ترامب، خشية أن يتملّص من اتفاقياتهما.

مما لا شك فيه أنّ مشكلة كارين ماكدوغال أولًا، ثم مشكلة ستورمي دانييلز، اللتين وقعت معالجتهما على عاتق كوهن قد تحوّلتا إلى إخفاق ذريع، كل منهما بطريقتها الخاصة. في الحقيقة، خشي كازوفيتز أن تُداهم مكاتبه، كما حدث مع كوهن، فدافع عن نفسه أمام الأصدقاء عبر ذكر عدد النساء اللواتي تولى حلّ

المشكلات معهن بالنيابة عن ترامب، الذي لم يرف له جفن.

وكان إخفاق قضية ستورمي دانييلز أسوأ على ترامب، وبالتالي على كوهن، من قضية ماكدوغال. عندما تواصل ديفيدسون مع كوهن بشأن التوصّل إلى اتفاق مع دانييلز، حاول كوهن أن يعقد صفقة على غرار صفقة ماكدوغال عبر «الإنكوليرير». لكن بيكر خشي من تعقّب المال وإمكانية اعتبار الدفعات مساهمات غير مشروعة في الحملة. أدرك أيضاً أن من المتعذر أن تستخدم مؤسسة أميركان ميديا كوربوريشين (AMI) نجمة أفلام إباحية لكتابة المقالات. وبدلًا من ذلك، فاوض ديفيدسون على دفع مبلغ 130 ألف دولار مقابل صمت دانييلز. واتفق كوهن وترامب وألين ويسلبرغ، المدير المالي لمنظمة ترامب، على حيلة تقضي بأن يدفع كوهن المال، ثم يستعيده لاحقًا، عبر ما يوصف بدفعات مقابل خدمات قانونية.

وفي وقت لاحق، عندما افتُضحت الخطة، لفتت ميزة صفقة كوهن-ترامب بعض المسؤولين عن الحملة والمديرين في منظمة ترامب، وهي أنّ الرجلين يحبان أن يعملا كوسيطين. ولم يبدُ منطقيًّا لترامب أن يحاول شراء صمت شخص لن يبقى على الأرجح صامتًا أكثر من أن ينال فقط عقابه بسبب تهمة خيانة أخرى.

في بداية العام 2018، رفعت دانييلز التي استعانت بمايكل أفيناتي ليمثّلها، دعوى على كل من ديفيدسون وترامب. وأفيناتي، هذا المحامي ذو الماضي الحافل بالإفلاس، والامتيازات الضريبية والادعاءات المتعلقة بحسابات مختلطة، هو نوع جديد من الباحثين عن التعويضات، شخص يمكّنه فهمه المتقدّم لوسائل الإعلام من بناء منصة عامّة مذهلة. وفي ملاحقته المستمرة لترامب على التلفزيون، مثيرًا إعجابه أكثر من سواه، وجّه إصبع الاتهام إلى كوهن، وديفيدسون وبيكر وهوارد.

ما كشفه أفيناتي لم يكن مجرد سلسلة من العلاقات المالية والنفاق، بل كان صندوقًا محتملًا من الأسرار والشؤون القذرة التي تديرها عصابة يرجّح أن ينقلب أفرادها بعضهم على بعض ومن دون بذل جهد كبير. في الواقع، تتبّع أفيناتي الدفعات المسدَّدة إلى كل من دانييلز وماكدوغال. ووجد خطّاً مباشرًا يربطها بمنظمة ترامب. وعند نهاية هذا الخط يقف الرجل الذي رتّب الدفعات، وهو ألين ويسلبرغ، إحدى شخصيات حكاية ترامب الحقيقية.

انتظر أصدقاء ترامب أن يجري كشف ويسلبرغ، صديق ترامب البالغ من العمر اثنين وسبعين عامًا، وهو يهودي تقليدي قضى حياته المهنية كلها في العمل لدى آل ترامب، حيث عمل أولًا لحساب فريد ترامب، ثم لدى دونالد. شغل منصب كبير موظفي الشؤون المالية في عملية إفلاس كازينو ترامب، والمدير المالي لمنظمة ترامب، وعضو مجلس الأمناء الذي تولّى إدارة ممتلكات ترامب وموجوداته خلال رئاسته. أدار ويسلبرغ نفقات الأسرة الشخصية، كما كان يُعدّ حوالات منظمة ترامب ويحملها إليه ليوقّعها. كان أشبه بالمحاسب في فِلم the untouchables (الممنوع لمسهم).

وفي إطلالات تلفزيونية متكررة بدأت في مستهل العام 2018، راح أفيناتي يقصف جبهة ترامب بلا كلل. ويصوّب ناحية المال الذي دفعه كوهن إلى دانييلز. لكن القصة سلكت منعطفًا مختلفًا بعد مداهمة مكتب التحقيقات الفيدرالي لمكتب كوهن في شهر نيسان/إبريل، التي أعقبها تولّي المدّعين العامّين وموظف معتمد من المحكمة التحقُّق من سجلات كوهن، عازلين أيّ مواد تندرج ضمن إطار السريّة التي تربط المحامي بزبونه؛ معتمدين ما بقي منها أدلة، مع اعتبار معظم أعمال كوهن خارج نطاق القانون على أحسن تقدير. ومع الغوص في عمل كوهن على تراخيص سيارات الأجرة، اكتشف المدّعون العامّون احتيالًا ضريبيًا ضخمًا يتجاوز حتى دوره في انتهاك قوانين تمويل الحملات الانتخابية. كان كوهن مهدَّدًا بحكم يقضي بسجنه مئتي عام. أما زوجته التي وقّعت الإقرار الضريبي المشترك، فمهدَّدة بالسجن لفترة طويلة أيضًا. وينطبق هذا أيضًا على والدها، وهو شريك كوهن في مجال سيارات الأجرة.

في 21 آب/أغسطس، أيّ في اليوم الذي أُدين فيه بول مانافورت في فرجينيا، أقرّ كوهن، الذي وافق المدّعون العامّون على عدم ملاحقة أفراد أسرته، بذنبه في خمس قضايا تهرّب ضريبي، وقضية بيانات كاذبة لمصرف، وقضيتي انتهاك لقوانين تمويل الحملات الانتخابية، ما شكّل ضربة مزدوجة قاضية في نشرات الأخبار. وهو في اعترافه هذا، ورّط ترامب مباشرة في انتهاك قوانين تمويل الحملات الانتخابية.

في 24 آب/أغسطس، أوردت صحيفة وول ستريت جورنال أنّ ديفيد بيكر قد عقد صفقة ليدلي بشهادته. وفي اليوم نفسه، أفادت الجورنال أنّ ويسلبرغ وافق أيضًا على صفقة حصانة، وأدلى بشهادته قبل بضعة أسابيع.

* * *

قال ترامب: «اليهود ينقلبون دومًا».

في الأيام التي تلت إقرار كوهن بذنبه، أخذ يتحدث عن شركة بيكر وكوهن وويسلبرغ للمحاماة. وراح يكرّر الكلام عن الفظائع التي يُرجَّح أن يواجهها يهودي ملتزم في السجن، كلام يرسم صورة حيّة لزميل نازي، كثير الوشم، يشاركه الزنزانة.

وبالنظر إلى أن ترامب لا يكنّ الكثير من الاحترام لشركائه المقرّبين، فليس من الصعب أن نتصورهم مستعدين للشهادة ضده. لعل ترامب أطلق عليهم تسميات من مثل «جماعتي» أو «رجالي». لكن كوهن كان «اليهودي الأحمق الوحيد»، فيما وجد ترامب لذة بعد أكثر من أربعين سنة، في تشويه اسم المستشار المالي ويسلبرغ، بلفظه ويسلمان، ويسلشتاين، ويسلويتز. وغالبًا ما كان ترامب يسخر من بيكر ويسمّيه «بيكر الصغير»، فيما شكّل شارباه هدفًا لملاحظاته الساخرة والبذيئة. (والغريب هو أن ثمة شبه بين بيكر ووالد ترامب الذي كان لديه شاربان). لكن حتى عندما ظهر التضارب المباشر بين مصالح بيكر ومصالح ترامب بشكل جليّ، رأى مديرو AMI أن بيكر وترامب ما زالا على تواصل؛ وأن بيكر، العاجز على ما يبدو، ما زال يتودد إلى ترامب، في حين أن ترامب ما انفك يسعى أن يبقيه تحت سيطرته.

وفيما كان كوهن ومانافورت يقرّان بجرائمهما أو يدانان بسببها، فُتحت جبهة جديدة كبيرة في المعركة القانونية ضد الرئيس، أو حرب وزارة العدل عليه بحسب وجهة نظر ترامب. وفي الدائرة الجنوبية لنيويورك، حيث تنحّى جيوفري بيرمان، المدّعي العام الفيدرالي الذي عيّنه ترامب، عن قضية كوهن، جرى التوصّل إلى تفاهم مع المستشار الخاص. ومارست المحكمة اختصاصها وصلاحيتها في ملاحقة الأثر المالي لترامب. وراح المحيطون بترامب يقولون إنّ ترامب هو العرض الجانبي في حين أن الدائرة الجنوبية هي الحدث الرئيسي.

وفي إشارة إضافية إلى الخطر الذي يتعرّض له الرئيس، نشرت النيويورك تايمز في 18 آب/أغسطس مقالًا مفصّلًا عن تعاون مستشار البيت الأبيض دونالد مكغان الموسّع مع تحقيقات مولر، وهو مستوى من التعاون يجهله ترامب. وشكك

البعض في أن التسريبات التي أدّت إلى هذا المقال أتت إما من مكغان الذي حاول أن يحمي نفسه بالتعاون مع المدّعين العامين، والذي يتطلع الآن إلى تحقيق الأمر نفسه مع وسائل الإعلام، وإما من وكلاء عنه. راح مكغان، ولشهور عديدة، يتحدث عن موعد مغادرته البيت الأبيض، وعن كيفية تلك المغادرة. لكنه وعد كجندي جيد بأن يستمرّ في العمل إلى حين العثور على بديل منه.

في 29 آب/أغسطس، ومن دون إبلاغ مكغان، وفي لحظة أصبحت فيها مشكلات الرئيس القانونية أكثر حدّة، غرّد ترامب على تويتر، قائلًا إنّ مكغان سيترك عمله في الخريف. وكتب ترامب. «عملت مع دون لفترة طويلة، وإنني أقدّر خدماته فعلًا!».

أما الجلسات الخاصة، فقد تعوّد ترامب أن يصف فيها مستشار البيت الأبيض بشكل مختلف. قال: «إن مكغان جرذ قذر».

* * *

ما الدرجة التي بلغها سوء الوضع؟

كان آب/أغسطس أحد أصعب الشهور في فترة الرئاسة التي بدا كل شهر فيها قاتمًا أكثر مما سبقه. وإذا سقط كوهن ومانافورت في اليوم نفسه، فما المصيبة الجديدة التي قد تنتظرنا؟

إن انضمام بيكر والناشيونال إنكويرر إلى هذه الحكاية يؤكّد القلق المتزايد لدى بعض المساعدين والعديد من الجمهوريين في الكونغرس، الذين قالوا إنّ الدائرة المحيطة بترامب لا تفتقر إلى الخبرة والموهبة فحسب، بل هي أكبر تجمّع للحثالة المخزية والمحتالين والمخادعين والنصّابين في تاريخ السياسة الوطنية.

ومع انتهاء فصل الصيف، قضى ترامب الأيام الأخيرة من عطلته في بيدمنستر. كان مزاجه متقلبًا كالمعتاد، لكن قدرته على الصمود والتحمّل، ولعلها أكثر ميزة يُستهان بها لديه، بدت غير منتقصة. فأمامه جدول أعمال حافل من التجمّعات الجماهيرية الكبيرة؛ ما يعني أنه سيتنقّل ويسافر من مكان إلى آخر طوال الوقت تقريبًا حتى الانتخابات النصفية. وتدعه التجمعات الصاخبة والحرّة، التي أصبحت

اليوم تخضع لطقوس محدَّدة وتقوم على طرح أسئلة يجيب عنها، مسرورًا ومكتفيًا بشكل خاص؛ وهو، بالمقابل، يدع تلك التجمعات الجماهيرية على سجيتها من دون أن يخصص وقتًا محددًا ينبغي التزامه، ولا يختمها حتى يشعر بسعادة تامة.

وعلى الرغم من كل الأدلة والآراء المخالفة، بدا مقتنعًا بأن الجمهوريين سيفوزون بالأغلبية في مجلس النواب وفي مجلس الشيوخ على حد سواء. كانت ثقة عمياء وسعيدة.

في هذه الأثناء، والتزامًا منه باتفاقية وزارة العدل، بدا مؤكدًا أنّ مولر لن يُقدم على أيّ خطوة من شأنها أن تترك أثرًا في الانتخابات القادمة، إلّا أنّ فريقه استمر في العمل بصمت ومن بعيد.

واحترامًا منه لوقف النار المعتمد من جانب مولر، أسكت البيت الأبيض جولياني. وكان هذا من فعل مكغان بشكل أساسي. فقد عمل مكغان بالتعاون مع محاميه بيل بورك على ترشيح بريت كافانو للمحكمة العليا. ورأيا أنّ جولياني يُبرز المواجهة الدستورية المحتملة بين ترامب ومولر، أو يثيرها؛ ما قد تؤثر في التصويت على ترشيح كافانو ووصوله إلى المحكمة العليا.

رأى مولر وأعضاء فريق عمله، الذين اجتازوا هذه المسافة في التحقيقات، والذين استمروا في العمل على الرغم من التهديدات العديدة التي أطلقها ترامب بشأن وضع حد لتحقيقاتهم، أنهم سيتجاوزون شهر تشرين الثاني/نوفمبر بسلام، وأنّ انتصار الديمقراطيين سيؤمّن لهم الحماية. كما جرت الموافقة على طلب ميزانية المستشار الخاص ما يعني أنهم تجاوزوا العراقيل البيروقراطية. (لعل ترامب لم يدرك أن الميزانية سلاح يمكنه أن يستخدمه ضد المستشار الخاص، ويبدو أنّ أحدًا لم يطلعه على هذا الأمر). في الواقع، وعلى الرغم من تهديدات ترامب الكثيرة، فإنه لم يتخذ أيّ خطوة فعلية للتدخّل في عمل المستشار الخاص ومهمته.

وفيما كان مولر يعمل، وجد العديد من محامي الحكومة، من خارج مكتب المستشار الخاص، أن فكرة الحصول على قطعة من القضية الآخذة في التوسّع ضد الرئيس لا تقاوم. إن كنت مدّعيًا عامًّا ولست معنيًّا بالتحقيقات بشأن دونالد ترامب، هذا يعني أنك قد تخسر فرصة مهمة في حياتك المهنية.

واستمر فريق مولر، الذي بدأ تحقيقاته منذ أكثر من خمسة عشر شهرًا، في تمرير الأدلة التي يجمعها، إلى مدّعين عامّين آخرين، ليس لضمان بقاء جهوده على المدى الطويل فحسب، بل لوجود الكثير من السبل والقنوات للهجوم. إنّ ترامب ضعيف لأنه هاوٍ ترشّح لمنصب رفيع في عالم معقّد تديره قواعد انتخاب بيزنطية. إنّ ترامب ضعيف لأنه عاجز عن ضبط الأشخاص العديدين المحيطين به، والذين يفتقرون إلى الكفاءة والانضباط. إنّ ترامب ضعيف لأنه عاجز عن التزام الصمت وعن الامتناع عن التغريد على تويتر. وترامب ضعيف لأنه، وعلى مدى أربعين عامًا، يبدو أكثر فأكثر أنه كان يدير مؤسسة شبه إجرامية. (قال بانون ضاحكًا «أعتقد أننا نستطيع أن نُسقط كلمة «شبه»).

ولا يقتصر الأمر على الرئيس وحده. فهناك أسرته التي ارتبطت إدارته بها ارتباطًا وثيقًا. وما برح جون كيلي يخبر الناس أنّ جاريد ودونالد الابن سيدانان قريبًا.

وبدأ سايروس فانس، المدّعي العام في دائرة مانهاتن، بالبحث عن تسجيل نقاط سياسية عبر ملاحقة أُسرتَيْ ترامب وكوشنر، في محاولة منه للتكفير عن عدم مواصلة التحقيق في قضية هارفي واينستين المتهم بالاعتداء الجنسي، وفي قضية إيفانكا ترامب ودونالد ترامب الابن لدورهما في عمليات بيع قد تكون احتيالية في أحد فنادق ترامب بنيويورك. وعمّم فريقه لائحة طويلة على مجموعة من القنوات المتلهّفة لمثل تلك الأمور:

1. تسلُّم ملكية مسروقة من مقرصني أجهزة كمبيوتر.

2. جرائم مالية، بما في ذلك تبييض أموال وتزوير سجلات أعمال.

3. رشى وجرائم فساد أخرى.

4. سوء استخدام السلطة، أو عرقلتها.

5. انتهاك قوانين استقطاب الدعم المعتمدة في مدينة نيويورك.

6. احتيال ضريبي.

وبدأت المطاردة.

* * *

عاش كثير ممن ارتبطوا ارتباطًا وثيقًا بترامب، بدءًا بمكغان وصولًا إلى كيلي، فضلاً عن موظّفي الاتصالات وستيف بانون، واقع ترامب المزدوج بشكل مكثّف وحاد. فقد تقبّلوا فكرة أن تتمكّن القوى التي تلاحق الرئيس من إسقاطه، إلا أنهم تعجّبوا واستمتعوا أحيانًا بالواقع اللافت، وهو أنه لم يسقط بعد. ما يوصلنا إلى إمكانية مذهلة وهي أنه قد لا يسقط أبدًا، وإن لم يكن لهذه الإمكانية أيّ تفسير منطقي.

ثمة رباطة جأش غريبة هنا، نتجت جزئيًا من حقيقة أنّ العديدين في محيط الرئيس الضيق لا يأبهون كثيرًا لما يحدث له، فهم لن يحزنوا أو يتفاجأوا إذا ما سقط؛ لكنها نتجت أيضًا من واقع أنهم لا يستطيعون التنبّؤ بما قد يحدث. نظر كثيرون في البيت الأبيض إلى أنفسهم على أنهم متفرجون يشاهدون المسرحية، وليسوا شخصيات رئيسية فيها. والأمور لا تسير وفق منطق محدد، فلمَ القلق؟ أما وجهة نظر جون كيلي، على سبيل المثال، فكانت قدرية بامتياز. فلو أراد الله رأس ترامب لأخذه، فهو موجود بالتأكيد ليأخذه. وإن لم يأخذه، فثمة سبب لذلك. إذن، تقبّلوا الأمر.

قال سام نانبرغ: «إنه محظوظ جدًّا. حظّه لا يُضاهى. لا أدري ما أقول، إنه محظوظ إلى حدّ لا يُصدّق. سينفد هذا الحظ على الأرجح... وقد لا ينفد».

ولا تزال حجة الدفاع عن ترامب، وهي الحجة الوحيدة بشكل ما، أنه انتخب رئيسًا. كان واضحًا مَن هو وما كان عليه، لكنه انتُخب رئيسًا رغم ذلك. هذا ما قرره الناخبون. القضية ضد ترامب غير مشروعة، بل مزوّرة، ليس لأنه لم يفعل ما اتُّهم به، بل لأن أحدًا لم يتّهمه بفعل لا يعلم معظم الناس أصلًا أنه فعله. (هل صدمت أفعال مايكل كوهن وديفيد بيكر الشنيعة أحدًا؟). يمكننا، بالمصطلحات الغائية المتداخلة، يمكن أن نقول إنّ الآخرين تمكّنوا من إخفاء خداعهم وعدم نزاهتهم.لكن ترامب بقي واضحًا تحت مجهر الجميع.

في الواقع، أصبح الدليل الدامغ أو القاطع، تلك العقبة الكبيرة اللازمة لإسقاط رئيس، أكبر كثيراً على نحو مفاجئ. فإدانة هذا الرئيس وإطاحته لا تتطلبان منك إلّا أن تثبت أن ترامب هو ترامب. ويمكن القول إنّ الجدال غير المجدي في قضية مع

الروس أو سواها، بقي محدودًا. وقد بدا أن من غير العدل أن تؤدّي هذه التجاوزات التي يتّصف بها ترامب شخصيًّا إلى سقوطه.

لكن المقرّبين من الرئيس يدركون بوضوح أن القانون حرفي، وأنك تستطيع بالتأكيد أن تبني قضية قوية على أساس أنه انتهك حرفية القانون بشكل متكرر. أما الدفاع الحقيقي، والاستراتيجية القانونية الحقيقية، فهما الإيمان بخصائص ترامب السحرية. إن ترامب فريد وفقًا لتقويم بانون. «لا يمكن لأيّ شخص آخر أن ينجو من هذا الهراء»، على حد تعبير بانون.

ولم تكن المجموعة المتخصّصة من القادة الجمهوريين وكبار المانحين، التي أصبحت تحمل اسم «معًا من أجل الدفاع عن الديمقراطية»، سوى هيئة رديفة للحزب تفكّر في تحدّي رئيسها. ومع بداية الخريف، بدأت المجموعة بإجراء استطلاعات حول شعبية ترامب الذي ما زالت فضائحه تُعدّ مسائل داخلية حتى الساعة، الأمر الذي أسهم في حفاظه على دعم كبير من القاعدة الشعبية. لكن هذه بالتحديد هي مشكلة ترامب: إنّ البلد بأكمله غير متنبّه حتى الآن لقضية فساد الرئيس التي تتّضح يومًا بعد يوم.

الفصل السابع عشر
ماكين، وودوارد، وآخر مجهول

اعتبر ترامب الورم الدماغي الذي أصاب جون ماكين، والذي شُخّص في صيف العام 2017، شيئاً يبرهن على انتصاره. كان يقول، وهو يرفع حاجبيه: «هل ترون؟ هل ترون ما يمكن أن يحدث؟» ثم يقوم بتقليد رأس ينفجر.

وبينما كان مرض ماكين يتطوَّر، بدأ ترامب بالتعبير عن انزعاجه من أن ماكين «يقاوم»، أو أنه لم يكن صاحب «روح رياضية بما يكفي» لكي يستقيل من منصبه، ويسمح لحاكم ولاية أريزونا الجمهوري بتعيين سيناتور أكثر محاباةً لترامب. كان غالبًا ما ينقل ازدراءه تجاه ماكين إلى ابنته، ميغان، والتي كانت مشاركة دائمة في برنامج الإي بي سي «ذا فيو» (The View) ومناهضةً صارمةً لترامب. كان مهووسًا بازدياد وزنها. كان يسمّيها «كعكة الدونات»، ويقول: «كانت عندما تسمع باسمي تبدو دائماً وكأنها على وشك البكاء. إنها كأبيها. يا لها من أسرة قوية جدًّا جدًّا. بوو هوو بوو هوو».

في المقابل، استغل ماكين فرصة مرضه المميت لكي يرسم حدًّا فاصلًا بين قيمه الأميركية والجمهورية وقيم ترامب. وفي إهانة سياسية ملحمية، لم يقم ماكين بدعوة ترامب إلى الجنازة التي كان يُخطط لها بنفسه. بعد يومين من وفاة ماكين، في الخامس والعشرين من شهر آب/أغسطس، قامت أسرته بنشر رسالة الوداع التي كتبها، والتي كانت تصريحًا قويًّا عن مبادئ المؤسسة وتوبيخًا مباشرًا لترامب.

اتّخذت علاقة ترامب، برئيس موظفيه الجنرال البحري السابق جون كيلي،

منعطفًا مريرًا؛ حتى أنها أصبحت الآن حربًا باردةً مفتوحةً بينهما، حيث ابتعد كل منهما عن الآخر مُعتبرًا إيّاه مجنونًا. فقد اعتبر كيلي الذي يجمعه تاريخه العسكري بماكين، الطيار الحربي السابق وسجين الحرب، أن تعليقات ترامب معادية للجيش وغير وطنية أيضًا.

في أحد الأيام، وبينما كان ترامب يقوم بإيماءة الرأس المنفجر، قال كيلي: «إن جون ماكين بطل أميركي». ثم أدار ظهره وخرج من المكتب البيضاوي.

كانت جنازة ماكين جنازة رسميةً للغاية، لا تفوقها إلا الجنازة التي تُقام لرئيس البلاد. وأُقيمت في الأوّل من شهر أيلول/سبتمبر في كاتدرائية واشنطن الوطنية، وحضرها باراك أوباما، وبيل كلينتون، وجورج دبليو بوش؛ ذلك أن ماكين كان قد دعا كلًّا منهم بشكل شخصي. وكانت كلّ من تلك الدعوات تؤكد استثناء ترامب. قالت ميغان ماكين في كلمة تأبينها لوالدها: «لا داعي لجعل أميركا جون ماكين عظيمةً مرة أخرى، لأنّ أميركا كانت دائمًا عظيمة»، الأمر الذي ولّدَ جولة تصفيق غير معتادة في جنازة.

اجتذبت الجنازة كل شخصيات كلا الحزبين. وكان جميع الحاضرين هناك تقريبًا، باستثناء ممثلي أسرة ترامب، يوجهون أصابع الاتهام إلى ترامب ضمنياً. أراد كثير من الجمهوريين الحاضرين في الجنازة أن يظهروا موقفهم بوضوح: الجمهوريون المؤيدون للعولمة، وجمهوريو الحرب الباردة من ذوي العقول العسكرية، وجمهوريو الأمن الوطني، وجمهوريو الحفاظ على النظام العالمي. حتى ولو لم يكونوا على دراية بكيفية محاربة ترامب ومقاومته، أو كانوا غير مستعدين بعد للقيام بذلك، فقد كان بإمكانهم هنا رفع أيديهم في جنازة جون ماكين.

وبدوره حاول ترامب أن يغطّي على الجنازة عبر موقع تويتر، ثم ذهب للعب الغولف.

* * *

بحلول عطلة نهاية أسبوع عيد العمال[14] كانت مؤسسات الحكم في واشنطن ووسائل الإعلام الرئيسية، وهما إلى حد بعيد جهة واحدة وتشكّلان الشيء نفسه، كما

يجادل كثير من مؤيدي ترامب، تنتظران بلهفة صدور كتاب بوب وودورد «خوف»[15] حول السنة الأولى من تولّي ترامب للمنصب. كان ناشر الكتاب قد حظر نشره قبل الموعد المحدد في الحادي عشر من شهر أيلول/سبتمبر. لكن الإعلانات التشويقية المُسرّبة عنه سببّت رواجًا هائلًا له. وبالدرجة نفسها سبّبت ذعرًا كبيرًا في البيت الأبيض. فبقدر ما كان الكتاب سينشر إفادة وودورد المؤثرة حول ترامب، كان كثيرون في مؤسسة الحزب الجمهوري مؤمنين بأن من الممكن الاعتماد على وودورد ليعكس وجهات نظرهم، وحتى أن يمنحها الصدقية.

لقد صنع وودورد وشريكه كارل برنستين النموذج الحديث للصحافيين السياسيين عبر تقريرهما عن فضيحة ووترغيت. فقد جعلتهما كتبهما اللاحقة عن ووترغيت، والفلم الشهير عن ملاحقتهما لريتشارد نيكسون، مشهورَيْن على مستوىً عالمي. أما وودورد المرتبط دائمًا بجريدة الواشنطن بوست، فقد استمر يؤلّف المزيد من الكتب التي تصدّرت قائمة المبيعات. وراح يجني أموالًا أكثر من أي مراسلٍ صحفيّ آخر عمل في الواشنطن بوست عبر التاريخ. وفي سن الخامسة والسبعين كان وودورد أحد صروح المدينة، أو على الأقل أحد رواسخها المؤسساتية.

قضى وودورد، منذ ووترغيت، أغلب مسيرته المهنية في التحليل الدقيق للبيروقراطية السياسية المعروفة باسم المستنقع. وفي أوقات معيّنة، أصبح وكأنه صوتها. بطريقة ما، كان هذا هو الدرس النهائي لووترغيت. ففي فترات التوتر السياسي الحاد، تقوم البيروقراطية السياسية برعاية نفسها وحماية نفسها؛ وكل ما يترتّب على الصحفي الذكي فعله هو الإصغاء إليها. وكلّما كان التوتر حادًّا، ازداد نشاط المسرّبين وضخامة القصة المسرَّبة. الآن، وأكثر من أي وقت مضى، ومع وجود دخيل برتبة مبتدئ في البيت الأبيض، كان المستنقع، كما سمّاه ترامب ساخرًا، يقاوم.

كان الجزء المحدّد من بيروقراطية المستنقع، الذي زوّد وودورد على مر العديد من السنين بكثير من السباقات الصحفية، هو الجزء الأكثر عمقًا ورسوخًا منه، وهو نظام الأمن القومي الواسع. عند نشر كتاب وودورد الجديد، أصبح من الواضح بشكل مباشر أن أحد مصادره الرئيسية كان هـ. ر. ماكماستر، الجنرال ذا النجوم الثلاث الذي انضم إلى إدارة ترامب في 27 شباط/فبراير سنة 2017 كمستشار للأمن

القومي ليحل محل مايكل فلين. كانت خسارة فلين، الضحية الأولى لتحقيق روسيا، لحظةً محبطةً مُبكرة لترامب. وقد وافق على اختيار موظفيه لبديل فلين من دون دراسة الأمر بعناية. في المقابلة الأولية، ولّد ماكماستر، الجنرال المحب للتفاصيل والموجَّه بالخطط والذي يعتمد على العروض التوضيحية في أداء مهمّاته، شعوراً بالملل لدى الرئيس. وبما أن ترامب قد أراد الانتهاء من الموضوع فحسب وتجنُّب مقابلة لاحقة للمتابعة، فقد وافق على تعيين ماكماستر.

لم تتحسّن العلاقة بين الاثنين قَط. أصبح ماكماستر هدفًا لسخرية ترامب واستهزائه. فالجنرال استفزّ جميع حواس ترامب الناقدة، بمظهر الجنرال وجديته وافتخاره وقصر قامته.

في إحدى المرّات، سخر ترامب من ماكماستر الذي كان على الدوام يخربش على دفتر ملاحظات أسود صغير خلال الاجتماعات، حيث قال له: «ما الذي تكتبه هناك، يا أيها السيد المسجّل للملاحظات؟ هل أنت السكرتيرة؟».

في مرحلة متأخّرة من عملية البحث لتأليف كتابه، تواصل وودورد مع بانون. لم يكن، في نظر بانون شخصاً يمثّل مؤسسة واشنطن بشكل مثالي أكثر من وودورد. هنا كان وودورد هو العدو. ولكن، بعد دقائق فقط من الحديث، بدأ يفهم ما كان لدى وودورد: فقط استطاع الوصول إلى دفتر ملاحظات ماكماستر الأسود الصغير، وهو تسجيل أحداث مفصّل إلى درجة تفصيله الأحداث أحياناً دقيقةً بدقيقة، لكل اجتماع حضره ماكماستر خلال شهوره العشرة في البيت الأبيض. وهنا قرر بانون أنه بحاجة إلى الاتّجاه نحو الحد من الأضرار.

فهم بانون أن كتاب وودورد يُجهَّز ليكون انتقام 'فريق أميركا'، وهو عصبة الذين أطلقوا على أنفسهم صفة البالغين، أو المحترفين أو المقاومين (كما كانوا أحيانًا يقرّون)، وهم الذين يعملون في البيت الأبيض لدى ترامب، والذين أصبحوا يرون أنفسهم وطنيين يحمون البلاد من الرئيس الذي عملوا لديه. في أوقات مختلفة، كانت العُصبة تضم بالإضافة إلى ماكماستر، جيم ماتيس، وريكس تيلرسون، ونيكي هالي، وغاري كوهن، ودينا باول، ومات بوتينجر من مجلس الأمن القومي، والمتحدّث باسم مجلس الأمن القومي مايكل أنتون؛ وفي مرحلة معيّنة ضمّت جون كيلي. وقد أقصت العُصبة أغلب الأشخاص الذين كانوا جزءًا فعالًا من حملة ترامب الانتخابية لتولّي

منصب الرئاسة، أو آخرين، مثل مايك مولفاني مدير مكتب الإدارة والموازنة، ممّن كان لديهم صلات وثيقة بحزب الشاي. كان كوهن ديمقراطيًا، وكان ماتيس على الأقل شبه ديمقراطيّ، وكان والد بوتينجر محاميًا ليبراليًّا معروفًا في نيويورك. أما الباقون، وجميعهم جمهوريون، فقد كانوا أقرب إلى حزب جون ماكين وجورج بوش الجمهوري من الحزب الذي أصبح الآن حزب دونالد ترامب. وكان كل منهم يمثّل نقيضًا بالضّبط لآراء ترامب الوطنية والمعادية للتجارة الحرة، والتي تنادي بـ «أميركا أولاً». هؤلاء كانوا الديمقراطيين المناصرين للعولمة الذين تمكّنوا، في ظل فوضى الطاقم غير المستعد لكي يصنع بين ليلة وضحاها فريقًا من المستشارين الرئاسيين، من التسلُّل إلى البيت الأبيض الوطني هذا.

وإن هم حاولوا إخفاء قناعاتهم أو تغطيتها خلال الفترة التي قضوها في البيت الأبيض، فقد أصبحوا الآن أكثر من أي وقت مضى، يريدون أن تُعرف تلك الآراء عنهم. وهم أيضًا ومن دون استثناء كنّوا لترامب الضغينة الشخصية والمهنية لأنه لوّثهم. والآن، بما أنهم قد أصبحوا خارج الإدارة، أصبحت رسالتهم إلى وودورد أنهم قد دافعوا عن الأمة ضد ترامب، وحاولوا أن يغيّروا اتجاه سياساته، أو على الأقل حاولوا إيجاد خطط لتشتيت انتباهه، إذا كان يتجه نحو التطرف أو الجنون.

قد لا يكون ترامب قاسياً على مؤيدي العولمة من حوله أكثر مما كان قاسياً على الوطنيين. لكن ذلك لم يكن يعبّر عن شيء ذي شأن. وقد مثّلت سخريته من ماكماستر تسلية يومية لملء وقته؛ وكان ريكس تيلرسون «كلب الأسرة»؛ وفضلاً عن ذلك، اتهم غاري كوهن بأنه مثلي الجنس؛ ونشر شائعات حول حياة دينا باول الشخصية. وفي حين أن مؤيدي ترامب المتطرفين لم يكن لديهم خيار سوى تبرير قساوته، وحتى مدحها أحيانًا، عندما كانت موجهة نحو شخص آخر، فإن أولئك الأقل إيمانًا به تبنّوا استياءً ثابتًا منخفض المستوى من نوع «ليس عليّ تحمل هذا»، و«أنا أقوم بهذا من أجل وطني فقط». (ففي الوقت الذي سخر فيه ترامب منهم، كانوا يسخرون منه. فعلى سبيل المثال كان غاري كوهن يرد على اتصالات ترامب، فيما كان يلعب الغولف في نادي سيبوناك الخاص للغولف في ساوثمبتون، ممسكًا بالهاتف لكي يسمع الآخرون انتقادات ترامب اللاذعة، وهو يقوم بإيماءات رجل مجنون).

أما بانون فقد رأى في الرد الحكومي المؤسسي البليد على ترامب، وتحمُّل المزيد من رجل غير مستساغٍ بهذا الشكل العلني - دليلًا آخر على ضعف البنية

المؤسسية وجبنها. وقد وفّر سلوك مؤيدي العولمة، المدعوّين بالمحترفين، المزيد من الأدلة، على أنهم ليسوا أهلاً للثقة. فهؤلاء الأشخاص لم يكونوا قادرين على مواجهة شخص يكرهونه ويكرههم بكل وضوح.

وحتى مع خروج أعضاء هذه المجموعة بشكلٍ متتالٍ من البيت الأبيض، لم يبدُ أنهم كانوا يمتلكون أي رغبة أو قدرة أو شجاعة على معارضة ترامب بشكل علني. فغاري كوهن لم يتمكّن من الحصول على عمل جديد جرّاء ارتباطه بترامب ارتباطاً رئيسيّاً، وعلى الرغم من أنه قد ظلّ مستمرًّا في انتقاد غرابة ترامب سرًّا، فإنه كان حريصاً جدًّا على سمعته، الأمر الذي منعه من أن يعبّر علنًا عن انزعاجه وقرفه. كانت دينا باول تستشيط غضبًا من الشائعات التي كان ترامب ينشرها حولها. ولكنها، في الوقت نفسه، كانت تأمل في الحصول على منصب سفير في الأمم المتحدة. لذلك لزمت الصمت، ولم تقل شيئًا. أما نيكي هالي التي كانت تفكّر في الخروج، فقد استمرت في صقل علاقتها مع جاريد وإيفانكا، فيما كانت تفكر سرًّا بالترشح للانتخابات الأولية ضد ترامب (وبالفعل كانت تأمل أن يكون ترامب قد رحل؛ وبالتالي، لن يكون التحدّي في الانتخابات الأولية آخر المطاف ضروريًّا لجعلها تصل إلى البيت الأبيض).

لكن وودورد وكتابه قد أمّنا الآن غطاءً لإيصال رسالة قوية، فحواها: فريق أميركا مثّل المقاومة الجماعية لسلوك ترامب المتطرّف والمهووس وغير المُطّلع.

كان لا بدّ من جهد منسّق ومتواصل لإيصال مثل تلك الرسالة. كان يجري التحقق من استعداد كل شخص للحديث مع وودورد، مقارنةً باستعداد أشخاص آخرين للحديث معه. كان هذا جزءًا من طريقة وودورد المعيارية لتأسيس كتلة من المصادر الداخلية. فقد ولَّد شكلًا من أشكال المجموعات الداخلية. وقد تضمّن ذلك أيضًا اقتراح أنك إذا أخفقت في المشاركة، فأنت لن تخسر فرصتك في أن تكون جزءًا من المجموعة الداخلية، فحسب، بل إنك ستخسر مكانك في التاريخ. بالفعل، كنت ستصبح أحد مغفّلي التاريخ. لكنّ مصادر وودورد عرضت الآن شيئًا أعظم من النميمة أو من رواية الأحداث من أجل المنفعة الشخصية. لقد وجد أمامه عددًا من الموظفين في البيت الأبيض يحاولون إبعاد أنفسهم عن ذلك المكان الذي أسهموا بأنفسهم في صناعته. كانوا يريدون إسقاطه. وكان كثير من المشاركين الرئيسيّين في إدارة ترامب يعلنون أنها إدارة فاشلة، ولكن من دون أن يكون لهم أي ذنب في كونها كذلك.

ومن خلال نشره قبل سبعة وخمسين يومًا من انتخابات التجديد النصفي، أصبح كتاب وودورد حدثًا سياسيًّا، حدثًا أمِلَ الكثيرون بوضوح أن يفعل ما فعله كتاب وودورد الأول، قبل أربع وأربعين سنة: المساهمة في إسقاط الرئيس.

داخل البيت الأبيض، لم تصل هذه الرسالة فقط إلى ترامب، بل أصبح فجأة غير قادر على التوقف عن الحديث عن ريتشارد نيكسون، وعن كمّ الإساءة التي تعرض لها ظلمًا. أعلن ترامب أن نيكسون كان أعظم رئيس، وأنّ حقيقة اجتماع لاعبي المؤسسة بعضهم مع بعض ليطيحوا نيكسون كانت دليلًا على أنه كان الأعظم. غلطته كانت الأشرطة المسجلة، التي كان عليه أن يحرقها. وعاد ترامب ليردّد ما كان يقوله: «ترامب، كان ليحرق تلك الأشرطة».

* * *

مع بدء دورة الحملة الانتخابية الخريفية، ومع التخطيط لأن يقضي ترامب أربعة أيام أو خمسة من الأسبوع في جولاته، كان المزاج العام بين الموظفين الكبار في البيت الأبيض ينطوي على شيء من القتامة، ولم يكن مبهجًا. حتى أنه قد وصل إلى انحدارٍ جديد.

لم يكن الأمر أنهم يتعرضون لهجوم زملاء سابقين فحسب، بل كانوا قد تُرِكوا وحدهم، ليواجهوا مأزقًا وجوديًّا، لكونهم موظفين في إدارة ترامب. وحتى لو أرادوا الخروج وترك عملهم، كما فعل أغلبهم، لما وجدوا مكاناً يذهبون إليه. إن المشهد الداخلي من كتاب وودورد، الذي كان هؤلاء يشكّلون مصادره، وبغض النظر عن مستوى الفضيلة الذي باتوا يدعونه الآن، قد بيّن أنهم فاقدون صدقيّتهم إلى الأبد، لأنهم عملوا في البيت الأبيض بإدارة ترامب؛ ممّا ولّد لديهم مشكلة في بناء الثقة بالنفس. والباحث في هذا الموضوع المهمّ على المستوى الشخصي لكل الذين عملوا في البيت الأبيض والذين قد يرغبون في العمل في مكان آخر، كان يتوقّف عند شرعية ترامب الهشة. فقد حاولوا جميعًا، بعضهم بخجل وبعضهم الآخر بصراحة، أن يصرّوا عليها: لقد جرى انتخابه، أليس كذلك؟ لكن تبيّن، أن كون المرء قد انتُخب رئيساً لا يجعله رئيسًا شرعيًّا، على الأقل ليس في عيون المؤسسة، التي لا تزال تبدو الحَكَم النهائي في محاكمات كهذه.

«إن وودورد جزء من جهود الإطاحة» قالها بانون ذات صباح مبكر من شهر أيلول/سبتمبر، وهو كان يجلس إلى طاولة العشاء في السفارة. لم يكن ليستطيع إخفاء إعجابه بالطريقة التي تلاعب بها زملاؤه السابقون بوودورد، والطريقة التي تلاعب فيها وودورد بهم.

وتبيّن أن الجميع، بمن فيهم بانون، قد فهموا السبب الذي قد يجعل الناس الذين عملوا لدى ترامب، سواء بشكل تلقائي أو حتمي، ينقلبون عليه. لقد اتضحت لبانون كل الأسباب التجريبية التي قد تجعل الناس يظنون أن ترامب غير صالح. وعرف أيضًا أن جزءًا من مهارة أن تكون رئيسًا، وهو جزءٌ قد يُذكّر ترامب أنه ينقصه أكثر من الجميع، هو ألّا تدع نفسك تتعرَّض للطرد من المنصب.

ولكنّ بانون آمن أيضًا بالآتي: إذا كان بإمكانك تجاوز شخصية ترامب المنفّرة وعيوبه الثقافية، ومسائل صحّته الذهنية الفاضحة، فيجب عليك أن ترى أن ترامب يتعرّض لهجوم وحشي تشنّه القوى الفعّالة ليُطرد من المنصب جرّاء قيامه بالكثير مما جرى انتخابه ليقوم به. ففي الواقع، كانت الترامبوية تنجح.

كان الاتحاد الأوروبي على وشك الاستسلام لأغلب طلبات الولايات المتحدة. وكانت المكسيك تستعد لقبول تحوُّل ترامب حول نافتا - (NAFTA) «اتفاقية التجارة الحرة لأميركا الشمالية». ومن المؤكد أن كندا كانت ستحذو حذوها. والصين؟ كانت في حالة ذعر شامل. ذلك أن تهديدات ترامب بفرض 500 مليار دولار أميركي من الرسوم الجمركية كانت تفعل ما فعله حشد ريغان العسكري في الاتحاد السوفيتي. قد يكون هذا، إذا تمكّن ترامب من التشبّث به، نهاية الحتمية الصينية.

هنا، كما اعتقد بانون، بدت المؤشّرات الحقيقية لجهود إسقاط الرئيس. فالمؤسسة لم ترد رحيل ترامب لأنه كان رئيسًا فاشلًا، بل لأنه كان رئيسًا ناجحًا. كان ترامب رئيس حرب باردة، وكانت الصين عدوّه، وليس بمقدوره أن يكون أكثر وضوحًا في هذا الموضوع. إذا كان ترامب غير مطلع وغير جدير بالثقة حيال كل شيء آخر، فقد كان لديه اعتقاد راسخ واحد، بل فكرة واحدة فهمها بحق، هي أن الصين سيئة. كان هذا أساس السياسات الجديدة القوية التي ستضع الولايات المتحدة على قدم المساواة مع الصين. ففي حال نجاح تلك السياسات، فقد تطيح الصين،

وتعطل بالتالي مستقبلاً اقتصاديًّا كان من شأنه معاقبة الطبقة العاملة الأميركية، وشلّها. وهذا ما بنى كل من غاري كوهن وغولدمان ساكس وأغلب فريق أميركا مستقبلهم عليه.

بات بانون، الذي وجد أنه في موقف صعب، على يقين مما يحدث. ذلك أن كوهن وماكماستر وتيلرسون وبيروقراطية مجلس الأمن القومي، كانوا يخونون وطنهم. وأمس، الذي كانوا هم يدافعون عنه، هم وكل الذين تحدّثوا إلى وودورد، من دون أن يخجل أي منهم، هو الذي أوصل إلى الوضع الحالي اليوم. أضف إلى ذلك الجبان بول راين وميتش ماكونيل وحلفاءَهما في الصناديق الاستثمارية، الذين كانوا يقيّمون نقاط ضعف الرئيس، ويفكرون: هل سيتحركون ضدّه؟ ومتى يتحرّكون؟ ومع مَنْ؟

انسَ أن ترامب كان أحمق، وكان واضحاً أنه قد دعا كل ما كان آتٍ في طريقه إليه. لقد كان هناك انقلاب يحدث.

* * *

في الخامس من شهر أيلول/سبتمبر، أي يوم الأربعاء التالي لعيد العمال، وتزامناً مع موعد نشر كتاب وودورد القريب جدًّا، وتناسباً مع الأيام التالية تمامًا لجنازة جون ماكين، نشرت صحيفة النيويورك تايمز مقالًا لكاتب مجهول ادعى أنه «مسؤول كبير» في إدارة ترامب.

> يواجه الرئيس ترامب اختبارًا لرئاسته، لم يواجهه أي زعيم أميركي مُعاصر.
>
> فليس تحقيق المُستشار الخاص وحده ما يلوح في الأفق، أو أن البلاد منقسمة بمرارة حول قيادة السيد ترامب، أو أنّ حزبه قد يخسر مجلس النواب لمعارضة مصمّمة على إسقاطه.
>
> المعضلة التي لم يتمكّن كلّيّاً من فهمها، هي أن كثيراً من كبار المسؤولين في إدارته يعملون بجد من الداخل لإحباط أجزاء من جدول أعماله، وضبط أسوأ ميوله.

حريٌّ بي أن أعلم. فأنا واحدٌ منهم.

أظهرت المقالة ترامب، الرجل الذي يعرفه الجميع تقريبًا، عصبيًّا وغير مركّز وغير صبور، وربّما ذا عقل غير سليم. ولكن بدا أن المقالة تشير إلى قلق أكبر فحواه: «على الرغم من أنه قد انتُخب كجمهوري، فإنه لا يظهر إلا القليل من الألفة نحو مُثل عليا لطالما تطلّع إليها المحافظون، ممثّلة في العقول الحرة والأسواق الحرة والناس الأحرار. في أفضل الحالات، ذكر هذه المُثل في نصوص مكتوبة. وفي أسوأ الحالات هاجمها صراحةً».

تابعت المقالة لتناقش، كما سيورد كتاب وودورد، أن أجزاء مهمة من السلطة التنفيذية كانت تحاول بشكل نشط تقويض سياسات ترامب وإرادته. وقد عُرض ذلك كنهاية وردية، أو ما سمّاه الكاتب «الراحة الباردة». لكنّ ذلك ربّما عُرِض كدليل على عدم كفاءة الإدارة. ذلك أن رئاسة ترامب، كما اقترح الكاتب، كانت تقلب نظام الحكم على نفسها. وبوضوح، انتهت المقالة بإشارة إلى جون ماكين ورسالته الوداعية.

خلال أربعٍ وعشرين ساعة، كان واضحاً أن هناك شيئًا يحدث في الإدارة الأميركية لم يحدثْ من قبل. جزءٌ من الحكومة كان في حالة ثورة مدنية مفتوحة على الجزء الآخر، بمساعدة أكثر الوسائل الإعلامية تأثيرًا في البلاد.

نادرًا ما جرى تحليل مصدر مقالة صحفية بهذا القدر من الدقة. ماذا يعني «مسؤول كبير» بالضبط؟ مساعد من مساعدي الرئيس؟ وزير أو معاون وزير؟ رئيس وكالة كبرى؟ وفي ردّ غامض على سؤال حول كاتب المقالة، ذكرت التايمز أنها، حتى هي، قد لا تكون على علم بكاتب المقالة. (قال المحرر ردًا على استفسار: «قُدم إلينا الكاتب عبر وسيط نعرفه ونثق به»). ثار ترامب ضد آل السولزبيرغر (Sulzbergers) الذين يحاولون النيل منه، وهي استعارة يستخدمها اليمين عادة لتذكير الناس بالخلفية اليهودية للأسرة التي تتحكم بالتايمز.

أصبحت التخمينات حول الكاتب في البيت الأبيض لعبة أُحجيّات، تركزت فيها أغلب التخمينات على مجلس الأمن القومي، وعلى جهد مشترك بين اثنين أو ثلاثة من مسؤولي المجلس الحاليين أو السابقين. ولكن ربّما كان أيضًا عادة من

المسؤولين الرفيعي المستوى في الإدارة ممّن لهم علاقةٌ قويّةٌ بأحد المحامين الذي يمكنه أن يؤدّي دور الوسيط مع جريدة التايمز، ولأسباب تتعلق بسرية العلاقة بين المحامي وموكله. فالمحامي قادر على حماية هوية الكاتب في حال إجراء تحقيق رسمي. بالإضافة إلى ذلك، يجب أن يكون هذا المحامي شخصًا تثق به التايمز. هذه النقطة مهمة إلى درجة تحرجها، خصوصاً إذا كانت التايمز، كما بدا ممكنًا، لا تعرف هوية الكاتب.

كان أحد أفضل التخمينات ماثيو بوتينجر الذي كان على تواصل مع مكتب الصين في مجلس الأمن القومي، والذي على الرغم من أنه ليس «مسؤولًا كبيرًا»، ربّما كان قادرًا على التعاون مع هـ. ر. ماكماستر ومايكل أنتون، المتحدث باسم ماكماستر، والذي كتب باسم مستعار مقالات عدة مقروءة بشكل واسع خلال حملة العام 2016 الانتخابية. (كانت مقالاته مؤيدة لترامب، لكن أنتون انحاز بعدها إلى جانب ماكماستر في حربه مع الرئيس). كان ستان بوتينجر والد ماثيو محامي نيويورك المعروف جدًّا في الدوائر الليبرالية ولدى التايمز، ولا يمكن اعتباره أقلّ من كونه المرافق لمناصرة حقوق المرأة غلوريا ستاينم - (Gloria Steinem)، منذ زمن طويل.

كان من الملحوظ أن عددًا كبيرًا من الأشخاص الذين يعملون في الإدارة يمكن أن يكونوا قد كتبوا المقال أو أسهموا فيه، على أننا لا يمكن أن نستبعد من ذلك إلّا قلّة فقط. «الخيانة»، وهي لفظة نادرًا ما تستخدم في السياسة الأميركية، ولم تستخدم في البيت الأبيض، والتي أُطلقت عدة مرات على الرئيس وابنه في إشارة إلى تعاملاتهما مع الروس، باتت الآن متداولة. كان يتداولها على وجه الخصوص الرئيس وأسرته ضد كاتب المقالة أو كُتّاب المقالة، مع تعهُّد الرئيس بانتقام سريع.

كان هناك شعور عميق في البيت الأبيض بأن الرسالة يمكن أن تكون لها عواقب هائلة. «هذه مونيكا في فندق ريتز»، قالها شخص قريب من نائب الرئيس، مشيراً إلى لحظة القبض على مونيكا لوينسكي في الشارع مكتب التحقيقات الفيدرالي، واحتجزها في فندق ريتز بواشنطن حتى اعترفت بعلاقتها مع الرئيس كلينتون، ما أدى إلى مثوله متهمًا أمام الكونغرس.

لا يمكن التغاضي عن أن جمهوريي المؤسسة قد بدوا في حالة أقل من

الصدمة؛ الأمر الذي يمكن تفسيره بشكل معقول على أنه تمرُّد علنيّ داخل البيت الأبيض. حتى أن ميتش ماكونيل، كان يحاول جاهدًا أن يتجاهل «المصدر المجهول»، أو حتى أن يعبّر عن قلقه بشأن ظهور المقالة؛ فقد بدا يكتم ضحكته. وفي اليوم نفسه الذي نُشرت فيه المقالة الافتتاحية، استخدم ماكونيل الجدل بخصوصها ليشير إلى نقطة أخرى، لعلها نقطة ذات صلة. وتحدّث عن هجمات ترامب المتجددة على نائبه العام، قائلاً: «إنني مؤيد كبير لجيف سيشنز. أعتقد أنه قام بعمل جيد، وآمل أن يبقى في مكانه».

والنقطة الأخرى، التي كانت ستثيرها المصادر الداخلية في البيت الأبيض خلال الأيام القادمة، كانت فاضحة بالدرجة نفسها؛ وهي أن الفوضى والخلاف اللذان أدّيا إلى نشر المقالة يُسهمان الآن في انعدام القدرة كلّياً على اكتشاف كاتب المقالة.

الفصل الثامن عشر
كافانو

بعد الإعلان عن ترشيح بريت كافانو في التاسع من شهر تموز/يوليو، بدا ترامب في الغالب سعيدًا بخياره. فكان يردّد دائمًا: «هو آمن جدًا، مع فائق احترامي له، كان اختيارنا له سليمًا». لكن ومع اقتراب نهاية الصيف، بدأ يعبّر عن تحفظاته في بعض اتصالاته الليلية. وكان ذلك مثالًا آخر على رئيس يشعر بأن «بيته الأبيض» كان يعمل ضده. شخصٌ ما كان يملأه بالشك. أحد الأصدقاء خمّن أن هذا الشخص قد يكون أخته ماريان ترامب باري، وهي قاضية فيدرالية خارج الخدمة الآن، على الرغم من أنها، هي وأخوها، لم يكونا قريبين بشكل واضح. لكن الرسالة المفاجئة، والمتكرّرة وبغضّ النظر عن مصدرها، أصبحت أمرًا مُزعجًا لترامب: لم يكن هناك أي بروتستانتي في المحكمة العليا. «هل كنت تعلم هذا؟» سأل ترامب أحد الأصدقاء.

القضاة الثمانية الذين يخدمون حاليًّا، هم إما يهودٌ وإما كاثوليكيون. كافانو كان أيضًا كاثوليكيًّا، كذلك شأن الخيار الثاني، القاضية إيمي كوني باريت. كان هناك بعض الارتباك حول نيل غورستش، وعُرضت على ترامب وجهات نظر متعارضة. ولكن ما كان مؤكدًا في الأمر هو أن غورستش قد نشأ كاثوليكيًّا، حتى أنّه درس في المدرسة الكاثوليكية نفسها التي درس فيها بريت كافانو.

تساءل ترامب: «ألا يمكننا أن نجد محامين ليسوا كاثوليكاً أو يهودًا؟، ألم يعد هناك محامون من الواسب[16]؟ (وأتاه الجواب: نعم - بوب مولر).

ما حيّر ترامب أنه لم يكن مدركًا لهذه الحقيقة الجديدة والمذهلة حول المحكمة العليا. فقد تغيّر سير التاريخ بشكل غير معقول. ومع ذلك لم يلحظ أحد الأمر، أو لم يخبره أحد بذلك.

قال ترامب متأمّلًا: «كان الجميع لديكم بروتستانتاً. وخلال بضع سنوات لم يعد هناك أي بروتستانتي. ألا يبدو هذا غريبًا؟». وأضاف، وهو التابع اسميًّا للكنيسة المشيخية، قائلًا: «لم يعد هناك أي بروتستانتي على الإطلاق. لكنني لا أستطيع أن أقول: أريد وضع بروتستانتي في المحكمة من أجل تمثيل أفضل. لا، لا تستطيع أن تقول ذلك. ولكن يجب أن أكون قادرًا على قول ذلك. يجب أن تكون قادرًا على أن تجعل الدين الرئيسي في هذه البلاد مُمَثّلًا في المحكمة العليا».

هل كان هذا شيئًا تسبّب به مكغان؟ تساءل ترامب، الذي أصبح الآن مرتابًا بشكل عميق من مستشار البيت الأبيض. ذلك أنه كان الشخص المسؤول عن ترشيحات البيت الأبيض للمحكمة العليا؛ كما كان أيضًا كاثوليكيًّا. هل كان مكغان يعبئ المحكمة؟ كافانو، شأنه شأن غورستش، وافق عليه مسبقاً المجتمع الفيدرالي. وكان ليونارد ليو رجل المجتمع الرئيسي، بحسب التقارير، عضوًا في الأوبوس داي (Opus Dei)، المنظمة السرّية الكاثوليكية اليمينية المتطرفة. وقال ترامب إنّه أُخبر بأن ليو كان على علاقة وطيدة جدًا مع الفاتيكان.

وكأنه يجمع اثنين إلى اثنين، وكأنه يلتقط بداية تشكّل فكرةٍ ببطء، بدأ ترامب بالتركيز في الإجهاض. فهو هنا كان في وضعٍ حرج: فكلما ذُكِرت المسألة، وبعد بضعة جُمل من النقاش فقط، كان غالبًا ما يبدأ بالتردد. وبات الآن، بخصوص الحق في الحياة يعود إلى آرائه السابقة المؤيدة لحريّة الخيار المُسبق. في أواخر شهر آب/ أغسطس، أي بعد أسابيع من ترشيح كافانو، أراد ترامب أن يعلم: هل كان هذا الشخص جزءًا من مؤامرة كاثوليكية لإبطال قانونية الإجهاض؟

بعد أن أصبح ترامب فجأة مدركًا واقع محكمة خالية من البروتستانت، أراد التيقُّن من أن بريت كافانو لم يكن على وشك جعل الإجهاض غير قانوني. قيل له إن كافانو كان «نصيًّا»، ما يعني أنه كان مهتمًّا اهتماماً رئيسيًّا بالحد من السلطة المتنامية باستمرار، وغير الدستورية، للولاية الإدارية وفقًا للمنظور النصّي القانوني. فالإجهاض كان بعيدًا جدًّا عن كونه قضيته الأولى.

ومع ذلك، وفيما تحضَّر أفراد طاقم البيت الأبيض لما افترضوا أنه سيكون تثبيتًا سيتنازعون عليه بقوة، شعر ترامب بأن جزءًا من القصّة لا يزال محجوباً عنه. هذا الإزعاج غذّى موضوعاً أكبر ظهر خلال ترشيح غورستتش: لمَ لا يُسمَح له باختيار أشخاص يعرفهم؟ كان يعرف الكثير من المحامين؛ لمَ لمْ يكن بإمكانه اختيار واحد منهم فحسب؟

* * *

اتفق جميع مراقبي رئاسة ترامب تقريبًا على أن تعيين نيل غورستتش وتثبيت هذا التعيين كانا من أكثر مناورات البيت الأبيض سلاسةً. فقد اتفقوا أيضًا على أن سلاسة هذه المناورة إلى هذه الدرجة تعزى إلى أن البيت الأبيض، وترامب بحد ذاته، لم يبذلا الجهد الكافي حيال هذه القضية.

خلال الحملة الانتخابية، قدّم المجتمع الفيدرالي قائمةً بالقضاة الذين اعُتبروا مقبولين لأي مقعد شاغر في المحكمة العليا. انحصرت كل الخيارات في خرّيجين من ذوي السمعة الحسنة، ومن أفضل كليات الحقوق. وقد جرى امتحانهم بشكل جيد؛ كانوا كلهم قضاة مؤيدين لوجهات النظر النصيّة، ولم يقوموا بدعم أي قرارات تؤيد الإجهاض. أصبحت القائمة نقطة حديث خالية من العيوب عن ترامب خلال الحملة الانتخابية. فإذا مُنِح الفرصة، فسوف يرشّح شخصًا من القائمة. (هذه المقاربة ناقضت بشكل حاد الجهد الاعتباطي الذي بُذل خلال الحملة الانتخابية للتوصل إلى قائمة مؤقتة للمرشحين المحتملين ليكونوا مستشارين للسياسة الخارجية. تلك القائمة جرى تحضيرها داخل الحملة، واحتوت على مجموعة عشوائية من غير المعروفين نسبيًّا، وخصوصًا كارتر بيج وجورج بابادوبولوس، وهما شخصان سيسهمان لاحقًا في توريط الحملة والبيت الأبيض المستقبلي في الأزمة الروسية.

ولكن مهما تكن قائمة المجتمع الفيدرالي جيّد أو مهما يكن اختيار غورستتش ناجحًا، فقد ثار ترامب. كانت تلك وظيفةً مغرية: لمَ لم يكن بإمكانه منحها لصديق؟ قد لا يكون هو نفسه محاميًا، لكنّه كان يعرف الكثير من المحامين. ففي نهاية المطاف، هو الذي كان يوظف المحامين ويطردهم لخمسين سنة تقريبًا. وفي نيويورك كان هذا إجراءً اعتياديًا في العمل: أنت تريد قضاة يدينون لك.

دُفع ترامب إلى ترشيح جولياني (وهو كاثوليكي آخر أيضًا للمصادفة) كأول اختيار له للمحكمة الدستورية العليا. لكن جرى بهدوء إقناعه بالعدول عن هذه الفكرة؛ فجولياني كان مؤيّدًا للإجهاض. آنذاك، جرى تقديم كافانو كأمر محسوم مثل غورستش. كان هناك مرشحون آخرون مثل باريت، لكن كافانو كان خيار مكغان، خيار المجتمع الفيدرالي، خيار المؤسسة. كان لدى الجميع خطة واضحة، هي الآتية: سيجري الإعلان عن كافانو خلال الصيف، ثم تبدأ الجلسات بعد عيد العمال. لم يكن هناك من توقيت أفضل. قبل أسابيع فقط من انتخابات التجديد النصفي، كان من شبه المؤكد أن الديمقراطيين سيبتلعون الطعم، ويبذلون جهدًا صاخبًا وعقيمًا لعرقلة اختيار الرئيس. وكان الرئيس سيدافع باقتدار عن مرشحه الصلب والمستقيم الذي كان مقبولًا من المؤسسة القانونية.

كان أيضًا سيفي بوعده المهم للقاعدة الانتخابية، حين يعيّن قاضياً محافظاً ومؤيداً للحق في الحياة في المحكمة العليا.

اعتُبر تثبيت كافانو، الذي كان من المقرر أن يُعلن في ذروة موسم انتخابات التجديد النصفي، العلاوة التي لا تُقدَّر بثمن. هنا كانت الرسالة الذهبية للناخبين المحافظين: مهما يكن ترامب مزعجًا لكم، يمكنكم الاعتماد عليه لتقديم محكمة أُعيد تأهيلها. ومع ذهاب القاضي كينيدي، فإن كافانو سيدفع المحكمة بحزم نحو اليمين. وسوف يكون هناك احتمال كبير أن يلي ذلك تعيينان آخران.

لكن الآن، وبعد أن تحوّل ترامب المتفائل إلى ترامب المشاكس. فقد أراد أن تكون لديه مساحة خيارات أوسع. أراد أن يضيف أشخاصًا من طرفه إلى القائمة، كي يُتاح له في اللحظة الحرجة أن يلجأ إلى أشخاص يمكنه الاعتماد عليهم. ويجب ألّا يغيب عن البال أن ترامب قد ضغط بهذا الاتجاه. فقد أراد «بطاقة خروج مجانية من السجن».

غدا هذا الأمر نقطة الاهتمام الأساسية لترامب. فبالنظر إلى مستويات انكشافه العالية، وملاحقة المدّعي الخاص، وإمكانية ذهاب مجلس نواب ديمقراطي نحو محاكمة الرئيس، كان في حاجة أن يعلم أن كافانو سوف يحميه. هل كان بإمكان مكغان والآخرين أن يضمنوا حماية كافانو له؟ وكما كان دائمًا واضحًا جدًّا في رغباته، ضغط بشكل أكبر: هل بإمكانهم الحصول منه على مثل هذا الالتزام؟

ما من مشكلة. فقد أخبر ترامب أن كافانو ناقش أهمية المنصب، وأن له استقلالية ومكانة خاصة، وأن الرئيس الحالي معفىً بشكل فعلي من المسؤولية القانونية الشخصية. (واقع الأمر أن كافانو الذي عمل لدى مدّعي كلينتون، كين ستار، كان في الطرف النقيض تمامًا خلال التحقيق مع كلينتون. وعلى الرغم من أنه بدا الآن يناصر سلطةً تنفيذيةً قوية، فإن التفاصيل كانت لا تزال تبدو ضبابيةً بعض الشيء). نعم، أكد مستشارو ترامب له مرارًا أن كل الأسئلة المرتبطة به، والتي قد تُطرح أمام المحكمة متناولةً مصالحه التجارية، وحصانته التنفيذية، واتهامه المحتمل، بدت في أمان تام مع كافانو.

* * *

كان ترشيح كافانو بمثابة إنذار بالخطر لأندرو وايسمان وفريق مولر. فإذا كان المدعي الخاص سيستمر ليوجه اتهامًا إلى الرئيس، فإن مسألة الحصانة الرئاسية ستسقط من دون شك أمام المحكمة الدستورية، وقد تصل إلى قرار ربما كان ذا عواقب مشابهة لقضية بوش ضد غور، أو للقضية المرتبطة بأشرطة تسجيل نيكسون. فالقرار كان بالفعل إما لتثبيت سيطرة ترامب على البيت الأبيض، أو إطاحته. وإذا وصلت المحكمة إلى مفترق الطرق ذاك، فماذا سيكون تأثير كافانو؟

منذ البداية تقريبًا، افترض فريق مولر أن مصير الرئيس، وعلى الأرجح مصير تحقيق المدعي الخاص، سوف تحدّده المحكمة العليا. ولكن الآن سوف ينظرُ في المسائل الدستورية التي تقع في صُلب القضية المحتملة، شخص يبدو أنه قد حسم رأيه بالفعل حول إمكانية خطأ الرئيس، وحكم بأن الرئيس لا يمكن أن يخطئ. بافتراض أن مجلس الشيوخ قد ثبّت تعيين كافانو، وهو أمر شبه مؤكد بالنظر إلى الأغلبية الجمهورية، فإن قاضي المحكمة الجديد قد يؤمّن بالضبط نوع الاستثناء الرئاسي الذي سيجعل من تحقيقهم بلا جدوى على الإطلاق.

وفيما سعى فريق ترامب إلى جعل كافانو خطة الرئيس غير القابلة للفشل، بحث وايسمان عن طرق لتجاوز القاضي الجديد، والذي كان من المحتمل أن يقدّم حمايته إلى الرئيس. عشية جلسات استماع كافانو، اكتشف فريق المُدّعي الخاص ما قد يحدث إذا طلبت وزارة العدل من كافانو أن يعلن عدم أهليته.

كانت الفضيلة جزءًا أساسيًّا في هذه المقاربة، على الرغم من أنها ليست القانون بالضرورة. إذا كنتَ قاضيًا ووجدت نفسك تقرّر مصير شخص قد تكون متحيزًا تجاهه، لنقل إنه قد قدم إليك معروفًا بأن جعلكَ قاضيًا، فما عليك إلّا أن تعلن عدم أهليتك. هذا ما يقوم به القضاة العادلون، وإذا لم يقوموا بذلك، فمن الممكن إلزامهم بتنحية أنفسهم عبر تقديم التماس للمحاكم العليا. ولكن، على الرغم من أن كل القضاة في المحاكم الفيدرالية كانوا يخضعون للمعايير نفسها المرتبطة بتضارب المصالح، فإن الأقلّ وضوحًا كان إمكانية تطبيق هذا المعيار على القضاة في المحكمة العليا، أو بالأحرى، ما إذا كان هناك شخص قادر على فرض ذاك المعيار عليهم.

إن مراجعة فريق المدّعي الخاص للقانون هنا لم تظهر مجالًا كبيرًا للتفاؤل، إذ أعلنت مذكرة بحث حُضّرت لفريق مولر الآتي: «إن قواعد المحكمة العليا لا تنص على أي شيء مرتبط بتقديم التماسات عدم الأهلية. وكما هو متوقع، فإن التماسات من هذا النوع نادرًا ما تُقدّم. ولم نجد أي سابقة على قبول أي التماس منها. ونحن لسنا على يقين بعدم وجود أمثلة على قيام حكومة الولايات المتحدة بتقديم التماس لإعلان عدم أهلية قاضٍ في محكمة عليا».

كانت المذكّرة باهتة في ما يخصّ أكثر مسائل القانون أهمية: «إن قواعد أخلاقيات المهنة التي تتحكم عمومًا بقرارات عدم أهلية القضاة الفيدراليين، وهي قواعد السلوك لقضاة الولايات المتحدة، الصادرة عن المؤتمر القضائي، لا تلزم بشروطها قضاة المحكمة العليا».

ومع ذلك، وهنا برزت الحجة المستمرة للمدعي الخاص، لم يكن هناك في القانون أي استثناء مطلق أو أي خيار إمبراطوري: «إن ميثاق عدم الأهلية الفيدرالي... بشروطه ينطبق على أي قاضي محكمة عليا أو قاضٍ، أو قاضي هيئة قضائية في الولايات المتحدة...وبالإضافة إلى ذلك، فإن قرارات المحكمة العليا واضحة في أن إعلان عدم الأهلية مسألة جوهرية للإنصاف ولظهور العدالة، الأمر الذي تنطوي تحته الإجراءات القانونية الواجبة».

لكن للأسف لم يكن هناك «أي آلية لاستئناف قرار قاضٍ في المحكمة العليا بإعلان عدم أهليته، كما لم يكن هناك أي طريقة لتوجيه السؤال إلى أي جمهور قضائي بعيداً عن قرار القاضي منفرداً».

اعتبر وايسمان أن محاولة الالتفاف على كافانو تبدو فاشلة. فإذا أصبح بريت كافانو قاضيًا في المحكمة العليا، فبإمكان وزارة العدل أن تطلب منه إعلان عدم أهليته، لما قد يكون قضية القرن. ولكن بإمكان كافانو ببساطة أن يرفض، وهذا سيكون نهاية الموضوع.

* * *

وفيما قام مكتب المدعي الخاص بدراسة خياراته في ضوء ترشيح كافانو، كانت الأقلية الديمقراطية تفعل الأمر نفسه في مجلس الشيوخ. وما توصّلت إليه هو أن من غير الممكن تعطيل ترشيح كافانو إلا عبر هجوم على استقامته الشخصية. في بريد إلكتروني من موظف في طاقم أحد السيناتورات، جرى تعداد بعض المسائل الكبرى التي قد تعرقل كافانو، وهي: «المخالفات المالية أو الجنسية، والمخدرات، والعنف، ومشكلات السيطرة على الغضب، والانتحال، وديون القمار».

خلال فصل الصيف، كان هناك تمتمة على مستويات منخفضة حول أخوية كافانو في جامعة يال، «ديلتا كابا إبسيلون». وفي الجيل السابق، لحقت بحملة جورج دبليو بوش الانتخابية للرئاسة تمتمات مشابهة؛ فهو أيضًا عضو في الأخوية نفسها. وقد لحقته شائعات حول إفراطه في احتساء الكحول، والسلوك الجنسي العنيف.

لكن حياة كافانو في المدرسة الثانوية هي التي جاءت لتطارده. فقد عمدت ديان فينشتاين، وهي سيناتورة من كاليفورنيا، وعضوة رئيسية في أقلّية بلجنة مجلس الشيوخ القضائية، إلى إخبار عدّة أصدقاء لها أنها قد تلقّت رسالة سرية تحتوي على ادعاءات حول سلوك كافانو في ليلة احتفال أقامته مدرسته الثانوية. كانت مُتّهِمة كافانو امرأة اسمها كريستين بلاسي، والتي كانت أحيانًا تستخدم اسمها بعد الزواج، فورد. وهي أستاذة في علم النفس بجامعة بالو ألتو، بدت موثوقة، وكان لديها خلفية صُلبة. لكنها كانت خائفة من الحديث علناً. بالإضافة إلى ذلك، كانت فينشتاين تتساءل: هل الحادثة الفردية التي وصفتها بلاسي فورد تهم أحدًا؟ هل يجوز اعتبار تلك الحادثة، بحد ذاتها، مُهمة أصلاً؟ ولأسابيع، أبقت فينشتاين الرسالة مخفية.

بدأت جلسات الاستماع لتثبيت كافانو في الرابع من شهر أيلول/سبتمبر. وبالطبع لم تسبب الجلسات أي قلق كبير لداعمي المرشح في بداية الأمر. لكنّ خصوم

كافانو كانوا يائسين. وبعد سلسلة من التسريبات عبر ديمقراطيّي الكونغرس، أصبحت بلاسي فورد، سواء كانت ترغب في ذلك أم لا، السلاح المختار ضد المرشح. وبعد إجبارها على رواية قصتها علنًا، وصفت تجربتها الوحيدة مع كافانو في مقالة نشرتها الواشنطن بوست في السادس عشر من شهر أيلول/سبتمبر.

القصة التي روتها وقعت أحداثها في ميريلاند صيف العام 1982، عندما التقت ذات ليلة مجموعة صغيرة من المراهقين في منزل أحدهم. كان عمر بلاسي فورد خمسة عشر عامًا عندئذٍ؛ وكان بريت كافانو ذو السبعة عشر عامًا شخصًا تعرفه معرفة عابرة من بعيد، شخصًا كانت تلتقيه مصادفة في دوائر مدرسة مقاطعة مونتغمري الخاصة. تلك الليلة، ووفقًا لبلاسي فورد، وبينما كانت متوجّهة إلى الطابق العلوي لتبحث عن حمام، قام كافانو الثمل مع صديق ثمل مثله بجرها، رغمًا عنها، إلى غرفة نوم ودفعاها إلى السرير وقفزا عليها ومزّقا ثيابها، وأغلق أحدهما فمها بيده لوقت طويل كافٍ لكي تُصاب بالهلع.

* * *

بدا أن ترامب لم يكتفِ بهذه القصة. «دفعها إلى السرير وهذا كل شيء؟». كم من الوقت ثبّتها؟ أراد ترامب أن يعرف. «هل وقع عليها فقط وحاول الحصول على قبلة، أم هل كان يضاجعها؟».

عندما قيل لترامب إن صديق كافانو مارك جودج، الذي ادعت بلاسي فورد أنه كان في الغرفة، قد ألّف كتابًا عن مغامراته التي قام بها عندما كان ثملًا في المدرسة الثانوية، ضرب ترامب جانب رأسه قائلًا: «أي نوع من الحمقى جلبتم لي إلى هنا؟».

ثم عاد إلى الإصرار على أن الأمور كانت ستسير على نحو أفضل كثيراً لو أنه هو من اختار المرشَّح. فقال: «أمر مُحرِج، وراءه صبيان المدارس الكاثوليكية». أطلقت تلك القصة العنان لذكرياته عن مغامراته عندما كان هو في السابعة عشرة، فأضاف: «لم يكتفِ بسرقة القُبَل، هذا أمرٌ مؤكّد».

فيما طغت قصة بلاسي فورد مباشرةً على الأخبار، تولّد لدى ترامب بشكل مفاجئ تمامًا شعور بالاحتقار الشديد حيال كافانو، فقال في إحدى المرّات: «يبدو

ضعيفًا. ليس قويًّا. على الأرجح أنه تعرَّض للتحرش الجنسي من كاهن».

فيما كان كافانو ينتقل إلى الدفاع بشكل متزايد، بدا الترشيح فجأةً عرضةً للخطر. رفض البيت الأبيض وفريق كافانو مقابلة محتملة مع شبكة السي بي أس، اعتقادًا منهم أن الترشيح لن يصمد تحت استجواب عدائي. لكن، مع وصوله إلى هذه النقطة، كان كافانو بحاجة أن يدافع عن نفسه بطريقةٍ ما، لذا وافق البيت الأبيض على وعده بمقابلة سريعة على محطة فوكس، مع تقديم الأسئلة مسبقًا.

خلال تلك المقابلة المعسولة التي جرت في الرابع والعشرين من شهر أيلول/ سبتمبر، قال كافانو الذي بدا مهزومًا ومشفقًا على نفسه أنه كان بتولًا في المدرسة الثانوية ولفترة طويلة بعدها. لم يكن بإمكان ترامب أن يصدق ما يسمعه ببساطة، وكان تعليقه: «توقف! من يقول شيئًا كهذا؟ قاضيَّ البتول. ليس لدى هذا الرجل أي كرامة! رجل؟ هل قلتُ رجل؟ لا أظنّ أنّه رجل».

بدا ترامب تواقًا إلى الحد من خسائره المضي. ولم يتوقّف عن إرسال تغريدة على تويتر معلنًا فيها التخلي عن مرشَّحه إلا بعد عدة تحذيرات شديدة من الأعضاء الكبار في طاقمه، تؤكد الأثر السيّىء الذي يرجّح أن يسبّبه التخلّي عن كافانو في القاعدة الانتخابية للجمهوريين في انتخابات التجديد النصفي، التي أصبحت على بعد أسابيع قليلة فقط.

والأمر الذي زاد الطين بلّة هو أن إيفانكا كانت تخبر والدها عن مدى سوء أداء كافانو مع النساء. وهكذا كان يسبّب أذىً كبيرًا لفرص الجمهوريين في انتخابات التجديد النصفي المقبلة. فبالكاد استطاع الديمقراطيون تصديق ما يجري. لكن بدا أن التيار الذي ولّدته أزمة كافانو كان يحوّل مساره، ليصبّ في مصلحتهم بالتأكيد.

تزايد غيظ ترامب إلى درجة أكبر، عندما علم أن جورج دبليو بوش، وهو من أكثر السياسيين الذين يحتقرهم ترامب، قد هبّ للدفاع عن كافانو، وأن كثيراً من الجمهوريين كانوا مؤمنين بأن بوش هو من كان يُبقي الترشيح على قيد الحياة. إذ علّق ترامب على ذلك: «يدافع السكارى بعضهم عن بعض. فإذا كان رجلَ بوش، فهو ليس رجل ترامب. من الهراء القول إن بإمكاننا الاعتماد عليه. الرجل البتول سوف يخونني».

* * *

خلال الأسبوع الذي يبدأ بالرابع والعشرين من شهر أيلول/سبتمبر، بدا أن شهادة بلاسي فورد معلَّقة في الهواء. هل ستحضر أم لا؟ خلق التشويق مستوى من الشك والتوتر بدا أنه يزعج ترامب على وجه الخصوص؛ كانت بلاسي فورد تسترعي كل اهتمام وانتباه.

كان ليفاندوفسكي وبوسي، بتحريض من بانون، يبلغان ترامب الآتي: إذا خسر كافانو، بل الأسوأ من ذلك إذا تخلى عنه، فهو لن يخسر مجلس النواب فحسب في شهر تشرين الثاني/نوفمبر، بل سيخسر مجلس الشيوخ أيضًا.

بدا أن ترامب قد وجد حلًّا جديدًا عبر التركيز على مايكل أفيناتي محامي ستورمي دانييلز، ورونان فارو، وهو صحفي ركّزت قصصه غالبًا في العنف الجنسي. قدّم كلّ منهما مدّعية على كافانو في اللحظات الأخيرة، فيما كانت بلاسي فورد تتردّد في استعدادها للإدلاء بشهادتها. أخبرت مدّعية أفيناتي قصة عن عصابة مراهقين تمارس الاغتصاب في ضواحي واشنطن العاصمة. أما مدّعية فارو فقد ذكرت أنها تعرّفت إلى كافانو في حفلة ثمالة في جامعة يال، وقالت إنه ربما كشف نفسه لها.

«إنه مثير للشفقة»، قالها ترامب، ثم استطرد إلى اعتبارات أخرى تخص فارو: هل هو ابن فرانك سيناترا، كما أعلنت أمه ميا فارو، أم أنه ابن وودي آلن؟ ليضيف في استطراد آخر أنه كان يعرف كلًا من فرانك ووودي.

وفيما تراكمت الاتهامات ضد كافانو، بدا أن ترامب يتعاطف بشكل أكبر مع مرشّحه، أو أنه أدرك أن الغضب الموجّه نحو كافانو كان موجّهًا نحوه أيضًا.

قال ترامب، وكأنه يشعر بالفخر: «إنهم يقصدون الهجوم علي».

ومرةً أخرى في المعركة، كان لابد من كبح جماح ترامب، لئلّا يقود الهجوم المضاد بنفسه. كانت جهوده القسرية في محاولة التصرُّف بحكمة نوعًا ما نكتةً مضحكةً لكثير من الأشخاص في البيت الأبيض. وكان موضوع «متى سوف ينفجر؟» وكأنه تجمعًا صامتًا في البيت الأبيض.

عندما وافقت بلاسي فورد على الإدلاء بشهادتها مرةً أخرى، وجرى تحديد موعد جلسة إدلائها بشهادتها يوم الخميس 27 أيلول/سبتمبر، عبّر ترامب عن مزيد من القلق حيال مقدرة كافانو على تدبير أموره في وضع عام متوتر. بدأ يُصدر تعليمات ويقدّم نصائح: «لا تعترف بشيء. أبدًا!». كان يريده عدائياً.

في الأيام والساعات التي سبقت الشهادة، كان ترامب يتّصل بأصدقائه، ويعيد ما أصبح الآن نغمته المفضّلة: عندما جرى اتهامه هو، خرج من الأمر بقوّته. بدا وكأنه يستفتي الجميع حول مدى قوة كافانو الفعلية.

كذلك كان ترامب ينهي حديثه بخلاصةٍ مفادها: «لا أظنه قويًّا إلى تلك الدرجة».

من خلال كل ذلك، بدا أن هناك اعترافاً ضمنيًّا من طرف الرئيس بأن ما قالته بلاسي فورد كان على الأرجح صحيحًا. فقد قال: «لو أنّ الأمر لم يكن صحيحًا، لكانت ادّعت أنه اغتصبها، أو شيئًا من هذا القبيل، وليس قبلة فحسب».

* * *

في صبيحة السابع والعشرين، شاهد ترامب شهادة بلاسي فورد في المسكن قبل نزوله إلى الجناح الغربي. كان يتحدّث على الهاتف مع أصدقائه كل الوقت تقريبًا. وظلّ يردّد «إنها جيدة». ظنّ أن كافانو عالقٌ في «ورطة كبيرة».

بعد ظهر ذلك اليوم، وبعد مشاهدته أداء كافانو، كان منزعجًا جدًّا من شهادته. بدا وكأنه قد تعرّض لإهانة شخصية جرّاء بكاء كافانو خلال شهادته. إذ قال لأحد المتّصلين: «أردت أن أصفعه، ذلك الطفل الباكي البتول».

لكنه أيضًا نسب الفضل إلى نفسه في عدم اعتراف كافانو بأي شيء. فقد قال للمتصل نفسه عن كافانو: «لا يمكنك حتى الاعتراف بمصافحة يد»؛ ثم استطرد الحديث عن صديقه ليزلي مونفيس، رئيس مجلس إدارة السي بي أس، والذي تعرَّض مؤخّرًا لهجوم بعد سلسلة من الاتهامات من حملة MeToo# قائلًا: «لقد اعترف بقبلة. وانتهى أمره. انسَ الأمر. عندما سمعت عن القبلة، فكرت أن أمره قد انتهى. الشخص الوحيد الذي نجا من شيء كهذا هو أنا. عَلمتُ أنني لا أستطيع الاعتراف

بأي شيء. حاول أن تفسّر، أنت ميت. اعتذر، أنت ميت. إذا اعترفت حتى بمعرفتك للفتاة، فأنت ميت».

ذلك المساء، وبعد مشاهدته للتغطية الإعلامية ومتابعة الآراء على قناة فوكس التي اعتبرت كافانو قويًّا، بدا أن آراء ترامب قد تبدَّلت. فقد أخبر صديقًا له: «كل رجل في البلاد يظن أن هذا قد يحدث له: تحاول تقبيل فتاة منذ ثلاثين سنة مضت، وتعود هي بعد ثلاثين سنة... بووم. وأي نوع من الأشخاص يتذكّر قبلة بعد أربعين سنة؟ ألا تزال منزعجة بعد مضيّ أربعين سنة؟ بالله عليك. بالله. عليك».

في اليوم التالي، تعرّض جيف فليك، وهو سيناتور في آخر ولايته من ولاية أريزونا، لمواجهة في المصعد مع مجموعة من مؤيدي بلاسي فورد وخصوم كافانو الغاضبين والدامعين، وهُدّد بالامتناع عن التصويت في صالح تثبيت كافانو في هذا الموقع، ما لم يقم مكتب التحقيقات الفيدرالي بإجراء تحقيق أوسع.

عبّر ترامب عن رأيه بالموضوع قائلًا: «فليك الهش». لكن، وعلى الرغم من النكسة، فإنه كان يثق إلى حدّ ما بأن ترشيح كافانو سيمر. «إنه تحقيق تافه كليًّا. تافه كليًّا».

قبل أربعة أيام من جلسة التصويت على التثبيت، وفيما كان مكتب التحقيقات الفيدرالي يقوم بجولة تحقيقه الأوسع، حضر ترامب تجمعًا في ميسيسبي. وبحلول هذا الوقت، كان شديد التبجّح.

‹لقد شربتُ زجاجة جعة واحدة›. صحيح؟ ‹لقد شربتُ زجاجة جعة واحدة›. حسنًا... أنت تظن أنها كانت...؟ لا! زجاجة واحدة. أوه، جيد. كيف عدتَ إلى المنزل؟ ‹لا أذكر›. كيف ذهبتَ إلى هناك؟ ‹لا أذكر›. أين المكان؟ ‹لا أذكر›. منذ كم سنة حدث ذلك؟ ‹لا أعلم›. لا أعلم. لا أعلم. لا أعلم. في أي حي حدث ذلك؟ ‹لا أعلم›. أين يقع المنزل؟ لا أعلم. في الطابق العلوي؟ الطابق السفلي؟ أين حدث ذلك؟ لا أعلم. لكنني شربتُ زجاجة جعة واحدة. ذلك هو الشيء الوحيد الذي أتذكّره. وتذهب حياة رجل أدراج الرياح. هكذا تتحطّم حياة رجل».

ركبت فظاظة ترامب الموجة: لا شيء الآن كان سيعطّل ترشيح كافانو.

* * *

في السادس من شهر تشرين الأول/أكتوبر، ثبّت بريت كافانو، ثبّته مجلس الشيوخ كاملًا: 50 صوتًا مقابل 48.

بعد التصويت، كان بانون يصيح عمليًّا من فرط السعادة. «لا تستخف أبداً بقدرة الديمقراطيين على المبالغة في لعب أوراقهم وتخريب الأمور على أنفسهم. كافانو هو الرئاسة». لم يكن الديمقراطيون عاجزين عن التصرف أمام الترشيح فحسب، بل إنّهم حوّلوا الأمر إلى مسألة حياة أو موت. لكن، بعد أن أصبح الفوز قاب قوسين أو أدنى، خسروا المعركة في الساعة الأخيرة.

يرى بانون أن ترامب قد سحب إلى طرفه الأشخاص الذين لم يصدقوا الديمقراطيين وبلاسي فورد، بالإضافة إلى أولئك الذين لم يعتقدوا أن مسألة كهذه، عمرها عقود ومدّتها لا تتجاوز الدقيقتين، لها أي علاقة بالموضوع الرئيسي. لكن بانون فهم أيضًا أن ترامب قد خسر، وبشكل لا يمكن عكسه، كل امرأةٍ في البلاد ذات تعليم جامعي.

ومع ذلك، حظي شون هانيتي بـ 5,8 ملايين مشاهد في ليلة شهادة بلاسي فورد-كافانو. وقد عبّر بانون عن الأمر، بقوله: «هذا عدد كبير من الهوبيت الحمقى».

كانت لحظة فاصلة وحاسمة لبنانون. فالديمقراطيون، الذين كانوا في حالة اندفاع، رأوا الانتخابات المقبلة لعبة مميتة. والآن كان الهوبيت يرون ذلك أيضًا.

إن جماعة بيلوسي، الذين كانوا متأكّدين من ستين مقعدًا إضافيًّا في مجلس النواب قبل أربعة أسابيع، أصبحوا الآن يخفضون تقديراتهم سرًّا إلى ثلاثين مقعدًا.

بالكاد صدّق بانون أن انتخابات التجديد النصفي تترجَّح عائدة إلى مصلحته. «وأخيرًا، اللعنة. وأخيرًا، أضفى كافانو صبغة وطنية على تلك الانتخابات».

تمنّى فقط لو أن التاريخ كان السادس من شهر تشرين الثاني/نوفمبر وليس السادس من شهر تشرين الأول/أكتوبر. وكان يأمل بشدة ألا يكون هناك المزيد من

الأحداث الخارجية.

الفصل التاسع عشر
الخاشقجي

في الثاني من تشرين الأول/أكتوبر 2018، وبُعَيد الساعة الواحدة، دخل جمال الخاشقجي، وهو مواطن سعودي مقيم في الولايات المتحدة وصحفي ولاعب بارز في الشؤون السياسية في منطقة الخليج العربي، ومصدر إزعاج لمحمد بن سلمان، ولي العهد والحاكم السعودي البالغ من العمر 32 سنة، إلى السفارة السعودية في اسطنبول. وفي لحظة دخوله، استقبلته كتيبة الإعدام التي أرسلها ولي العهد المتقلّب المزاج، والحليف الدولي الأقرب إلى جاريد كوشنر في سعيه ليكون الصوت المهيمن على السياسة الخارجية خلال فترة ولاية والد زوجته. بعد قتل الخاشقجي وتقطيع جثته، يُقال إنّها أذيبت في حمض الكبريت، أو أرسلت قِطعاً إلى خارج تركيا في حقيبة دبلوماسية.

غير أن كتيبة الإعدام السعودية التي قامت بمهمتها الموكلة إليها لم تكن على علم بأن أجهزة الاستخبارات التركية كانت حريصة على تسجيل اللحظات الأخيرة من حياة الخاشقجي. ففي الأيام التي تلت عملية الاغتيال، سمح الرئيس التركي رجب طيب أردوغان، بالتنسيق مع العدوين اللدودين للمملكة العربية السعودية: قطر وإيران، بتسريب بعض المعلومات عن التفاصيل المظلمة المحيطة باختفاء الخاشقجي ومقتله، في حين ظل السعوديون يصرّون على أن الخاشقجي خرج من السفارة سليمًا معافى.

لم يكترث ترامب للتقارير الأولى الصادرة حول اختفاء الخاشقجي وفرضية موته. ولكن مع ظهور المزيد من التفاصيل، أكد أنه لا يثق بالأتراك، ثم حث جاريد

«على الاتصال بصديقه»، ولي العهد.

فأفاده جاريد بأن «محمداً ما زال يجري التحقيقات في هذا الشأن. والمعلومات المتوافرة لديه حول القضية لا تزيد على المعلومات المتوفرة لدينا».

في الرابع من تشرين الأول/أكتوبر، نشرت صحيفة الواشنطن بوست مساحةً بيضاء محلّ عمود الخاشقجي الصحفي المعتاد، ووُجّهت الصحيفة أصابع الاتهام نحو الحاكم السعودي. كما أن الأتراك أكّدوا، في اليوم التالي، أن الخاشقجي دخل السفارة السعودية ولكنه لم يخرج منها.

وعلى غرار ما يحدث في أغلب الأحيان في عالم ترامب وتشعُّباته، فقد طغت العلاقة التي تربط ترامب وأسرته بقاتلٍ محتمل على النصر المهم والنادر الذي حقّقه ترامب من خلال فوز كافانو في التصويت التمهيدي.

فالمملكة العربية السعودية، ذات الأسرة المالكة المعقّدة والصعبة المراس، والتحالفات مع المنظمات الإرهابية، والقوانين والثقافة المجحفتين، والغنى الفائق بالنفط، والموقع المتميز في الشرق الوسط، كانت تحتم على الرؤساء الأميركيين أن يتمتعوا بالحنكة والليونة الدبلوماسية. غير أن إدارة ترامب التي كانت تفتقر إلى تلك المهارات، وجدت نفسها، قبل أربعة أسابيع من الانتخابات التي تنطوي على درجة عالية من التحدي، مرغمة أن تدافع علنًا عن عمل سافر من أعمال التعذيب والانتقام السياسي، لاسيّما وأن المزيد من التفاصيل المروعة كانت تظهر يومًا بعد يوم.

وقد شكّل ذلك مثالًا دراماتيكيًّا على ما يخشاه بانون من أحداث خارجية غير متوقعة. فقد تحوّلت مسألة الخاشقجي إلى نافذة مفتوحة تطل على الصفقات المشبوهة التي عقدها ترامب وأفراد أسرته مع المناطق الأكثر إثارة للشكوك في العالم، نافذة ليس بوسع أحد أن يقفلها.

* * *

ولم يكن يُخفى على أحد في دوائر السياسة الخارجية أنّ محمد بن سلمان

يعاني من مشكلة إدمان كوكايين، حيث من الممكن أن يختفي لعدة أيام أو أكثر منغمساً في صخبٍ يبعده عن يومياته أو في رحلات طويلة ومخيفة (على الأقل بالنسبة إلى الركاب الآخرين) على متن يخته الخاص. كذلك كان يقضي ساعات طويلة متسمّرًا أمام الشاشة منغمسًا في ألعاب الفيديو. وعلى غرار ترامب، وُصف محمد بن سلمان أيضًا بالطفل المشاكس؛ فهذا الشاب الذي يتعذر ضبطه كان مصمّمًا أن يقضي على كل من يعارض حكمه ضمن الأسرة المالكة الكبيرة، واللجوء إلى درجة معينة من الوحشية لتحقيق هذا الهدف، وحشية قد تكون أكثر شدة من تلك التي ألفتْها المملكة. وأدرك اللاعبون البارزون في السياسة الخارجية الأميركية والمجتمع الاستخباراتي أن السعوديين كانوا يرون في محمد بن سلمان ما يشبه التحفة الفنية، أو طوني مونتانا في فِلم «الوجه ذو الندبة» (Scarface).

غير أن الصعوبة الكبرى كانت تكمن في فهم العلاقة الوثيقة التي كانت تربط جاريد بذلك الرجل. فهما لم يكونا مقرَّبين فحسب، بل خصص كوشنر الكثير من الوقت والجهد وقدرًا كبيرًا من العملية السياسية، كي يروّج لولي العهد. إذ شملت حملات العلاقات العامة الواسعة النطاق التي أطلقها السعوديون في الولايات المتحدة كوشنر بصفته أحد الرعاة البارزين لها.

في الخامس والسادس من تشرين الأول/أكتوبر، وبينما كان الرئيس يلقي الخطابات متنقلًا في أرجاء البلاد في إطار السلسلة اليومية من النشاطات الضخمة في المُدرَّجات الصديقة، طُلب إلى كوشنر أن يجد طريقة ليبعد نفسه ويبعد صديقه محمد بن سلمان عن البلبلة التي أحاطت بقضية الخاشقجي. ومن خلال التواصل المستمر مع ولي العهد، أصبح كوشنر المسؤول عن إدارة الأزمات التي يواجهها بن سلمان. ولتحقيق هذه الغاية، كان عليه أيضًا أن يصبح المسرب الأكثر وفرةً لنظريات التآمر والتضليل السعودية في البيت الأبيض.

وهكذا روّجت مصادر في البيت الأبيض لنظرية المؤامرة التركية: فتوجيه أصابع الاتهام إلى محمد بن سلمان في قضية اختفاء الخاشقجي ليس سوى جزء من مخطط أردوغان لإعادة بناء الخلافة العثمانية، وتولّي زمام السلطة في مكة المكرمة بدلًا من السعوديين. وروّجت مصادر في البيت الأبيض أيضاً لمكيدة الإمارات العربية المتحدة: فالطائرة التي أقلت على متنها كتيبة الإعدام انطلقت من الرياض؛ ولكنّها حطّت في دُبَي قبل أن تتابع طريقها نحو اسطنبول. في الماضي، كان محمد

بن سلمان، ربيب محمد بن زايد، حاكم الإمارات العربية المتحدة، غير أن علاقتهما توتّرت مؤخرًا. ويرجع ذلك جزئيًّا إلى امتعاض محمد بن زايد من إدمان محمد بن سلمان الكوكايين. واشتملت النظرية التي رُوّج لها على أن محمد بن زايد قد طلب إلى عدد من القتلة الانضمام إلى كتيبة الإعدام في دبي، ليتمكّن من وضع اللوم على محمد بن سلمان في ما يتعلق بمقتل الخاشقجي.

وفي حديث له غير مسجّل مع أحد المراسلين الإعلاميين، دافع كوشنر عن جوهر القضية السعودية قائلًا: «لعب هذا الرجل (الخاشجقي) دور صلة الوصل مع بعض الفصائل في الأسرة المالكة وأسامة. نحن نعلم ذلك. صحفي؟ أر هذا الرجل إرهابي متنكّر في زي الصحفي».

* * *

من جانبه، وجد جيم ماتيس، وزير الدفاع الذي بلغ الاشمئزاز منه مبلغًا، في كارثة مقتل الخاشقجي، خير مثال على العلاقات غير المألوفة والمتعذّر تفسيرها، التي عقدها ترامب وأفراد أسرته مع أشخاص من مختلف أنحاء العالم، بدءًا ببوتين وصولًا إلى كم جونغ أون، مرورًا بالمسلسل التلفزيوني الطويل الذي تشهده دول الخليج، خصوصاً التفاعل العالي الخطورة بين محمد بن سلمان، ومحمد بن زايد، والقطري حمد بن جاسم صاحب النفوذ القوي. وفي حين كانت نزوات ترامب الغريبة مربكة، فإن أجندات كوشنر المتداخلة والمبهمة تثير في بعض الأحيان القلق والإحباط. وبات ماتيس واثقًا بأن غزوات كوشنر المستمرة كانت هوجاء أو جرمية الطابع، أو الاثنتين معًا. كما كان لمكتب التحقيقات الفيدرالي مخاوفه في هذا الشأن: فقد أخفق كوشنر في الحصول على التصاريح الأمنية العادية، ولم يحظَ سوى بتصريح أمني واحد في غاية السرية، وذلك نتيجة التدخل غير المعلن للرئيس نفسه (وهو ما ينكره كوشنر وزوجته بشدة).

بدت المشكلات المالية لأسرة كوشنر وعلاقاتها المشبوهة بدول منطقة الخليج العربي، نقطة الارتكاز للأحاديث التي تثار، ويُتحفّظ عليها في دوائر السياسة الخارجية. إذ لم يكن مقنعًا أن يتمكّن شخص متناقض إلى هذا الحد، يسعى، مستغلًا كونه زوج ابنة الرئيس، إلى جمع المال من الجهات نفسها المتورطة في مفاوضات وعلاقات معقّدة مع الحكومة الأميركية، أن يؤدي دورًا قياديًّا على مستوى تلك

القضايا نفسها، من دون أن يلقى أي معارضة دولية. فـ «علامة الشيطان» استحالت مرادفًا لاسم كوشنر، وإقرارًا مستهجنًا بأن أعماله أو توصياته قد تكون مرتبطة بالجهود التي تبذلها أسرته لإعادة تمويل شركتها المالكة للمبنى القائم على العنوان التالي: 666، الجادة الخامسة.

عام 2007، عشية الأزمة المالية العالمية، اشترى جاريد كوشنر مبنى المكاتب والمتاجر القائم في الجادة الخامسة، حيث جرت الصفقة أثناء وجود والده في السجن. وشكّلت عملية الشراء جزءًا من الخطة التي وضعتها أسرة كوشنر لنقل شركاتها من مدينة نيو جرسي المتواضعة إلى نيويورك مدينة الأضواء. اشترت أسرة كوشنر المبنى 666 في الجادة الخامسة مقابل 1,8 مليار دولار أميركي، بسعر للقدم المربّعة تعادل ضعف سعر القدم المربّعة المحدَّد للمباني في مانهاتن. ومنذ شرائه، لم يستقطب المبنى الذي كان يحتاج إلى تجديد بالكامل، مستأجرين من الطراز الرفيع، كذلك ترتب، مقابل أعمال إعادة البناء التي أجريت على مراحل مختلفة، دفعة نهائية كبرى على الرهن مقدارها 1,4 مليار، جرى الحصول عليها بموجب ضمانات احتياطات على أصول الأسرة الأخرى، وأصبحت مستحقة في العام 2019.

حاولت الأسرة قبل وقت طويل من الانتخابات، تأمين صفقة إعادة تمويل، ولكن من دون جدوى. فإنقاذ المبنى 666 من الغرق، إنما يشكل الفرق ما بين حفاظ الأسرة على موقعها كأسرة في غاية الثراء، أو العيش في ظروف مخزية. ولعل أكثر ما زاد الطين بلة هو أن القسم الأكبر من ثروة جاريد الشخصية كان مقيدًا بالأعمال التجارية الأُسَرية.

بلغت العلاقة القائمة بين جاريد وستيف بانون، والتي شهدت تدهورًا لافتًا بعد دخولهما البيت الأبيض، نقطة التوتر، عندما علم كوشنر بأن بانون قد بدأ بالعدّ التنازلي متحينًا لحظة انهيار مبنى 666 والأسرة بكاملها معه. ومما لا شك فيه أن المنصب الذي شغله كوشنر في البيت الأبيض جعل الجهود الرامية إلى تحقيق إعادة التمويل تواجه المزيد من التحديات. فكل شخص مقرض سيصبح عرضةً لدراسة أخلاقياته وسيلفت الانتباه. أضف إلى ذلك أن المقرضين، في حال توافرهم، سوف يستغلون المحنة التي تمر بها الأسرة ليحصلوا على صفقة مربحة، إلا إذا تبيّن أن لديهم منافع أخرى من الدخول في صفقة مع آل كوشنر. آنذاك فقط يوافقون على دفع

القيمة المطلوبة أو ما يفوقها.

ولما أصبح جاريد الشخصية الأبرز في السياسة الخارجية، سعت أسرة كوشنر إلى الحصول على التمويل من قطر، والمملكة العربية السعودية، والصين، وروسيا، وتركيا، فضلًا عن الإمارات العربية المتحدة ودول أخرى لا يجري فيها الفصل ما بين الأموال الخاصة ومصالح الدولة. وفي كل حالة من تلك الحالات، كان المستثمرون الأجانب يعتبرون أن الجانب المشرق من التعامل مع أسرة كوشنر يقوّضه الجانب السلبي المتمثل في تعرّضهم للاستهداف. ولكن الأسرة مارست الكثير من الضغوط، وناضلت للعثور على شريك ضمن حلقة المستثمرين العقاريين من أصحاب المليارات.

في آب/أغسطس 2018، تمكّنت الأسرة من إنقاذ نفسها بعقد صفقة لإنقاذ المبنى 666 مع شركة استثمار في تورونتو مسمّاة بروكفيلد لإدارة الأصول. كانت الشركة تفضّل الحفاظ على مستوى عالٍ من السرية، لاسيما أن قيمة موجوداتها، التي تشكّل واجهة لصناديق الثروات السيادية في مختلف أنحاء العالم (وقطر أحد مستثمريها الأساسيين) تبلغ حوالى 300 مليار دولار. وهكذا، على سبيل المثال، تموضعت، شركة بروكفيلد التي تتجنّب لفت الانتباه إليها، في موضعٍ أفضل من جهاز قطر للاستثمار الذي كان يمارس نشاطه دائماً بصورة علنية. ولم تكن تلك الحلقة البعيدة عن النزاهة، التي تحيكها شركة بروكفيلد مع صناديق الثروات السيادية وأسرة كوشنر، ترمي إلى استخدام أموال منطقة الشرق الأوسط لامتلاك شيء من النفوذ في البيت الأبيض في عهد ترامب فحسب، بل كانت شركة بروكفيلد تطمح من خلال تلك العلاقة إلى حث البيت الأبيض على بسط نفوذه في منطقة الشرق الأوسط، بما يتوافق مع مصالحها.

بعد الإعلان عن صفقة بروكفيلد في البيت الأبيض، فقد جون كيلي السيطرة على أعصابه، لاسيما وأن علاقته بجاريد وإيفانكا لم تكن يومًا جيدة. ولطالما حاول كل من الطرفين إطاحة الآخر. فانفجر كيلي غضبًا، واتهم كوشنر بأنه قد باع حكومة والد زوجته.

* * *

في منتصف شهر تشرين الأول/أكتوبر، وبعد مضي أسبوعين تقريبًا على مقتل الخاشقجي، أخذ كل جزء من أجزاء القضية يزداد سوءًا وعلانية. ووجد كل من السعوديين والبيت الأبيض صعوبة في التكيّف مع وقائع القضية. ففي حين أنكر السعوديون، ما هو واضح وضوح الشمس، ولجأوا إلى روايات مضادة متهوّرة، حاول البيت الأبيض تبرير القضية الجلية بمبرّرات غير منطقية.

والمستغرب هو أنّ مستشاري الرئيس تركوا ترامب يتخبط لتحقيق التوازن الكلامي. فقد بدا عند الحديث أو التغريد عن عملية الاغتيال، وكأنه يجادل نفسه، ويتوجّع بشكل ما، بصوت عالٍ، بسبب التضارب ما بين الواقعية السياسية والقيم الأخلاقية، إذ قدّم على مدى خمسة أيام متتالية مجموعة متنوعة من الآراء والمبررات.

فقد قال في تشرين الأول/أكتوبر: «إننا نولي الأمر اهتمامًا شديدًا، وسنشعر باستياء وغضب كبيرين إذا صحّ الأمر [بأن السعوديين أعطوا الأمر بقتل الرجل]. إنهم ينكرون ذلك حتى الساعة. ينكرون ذلك بشدة. فهل يمكن لهم أن يكونوا قد أقدموا على مثل هذا العمل؟ نعم». وبدا أنه قد اعترف بذلك على مضض، لا بل بشكل فظ.

وفي 15 تشرين الأول/أكتوبر: «تحدّثت للتو مع الملك السعودي الذي أنكر معرفته ما حدث لمواطنه السعودي، على حد تعبيره.... لا يمكنني أن أقرأ ما يجول في ذهنه... لكن بدا لي وكأنّ الفاعلين يمكن أن يكونوا قتلة خطّطوا وحدهم لهذا الاغتيال[17]. من يعلم؟... وبدا لي أيضًا أنه وولي العهد لا علم لهما بالموضوع».

في الواقع، لم يكن الملك السعودي قادراً على التفكير بوضوح، وهذا ما يعرفه الكثيرون ضمن هيئات السياسة الخارجية الأميركية. لذا من المرجّح ألّا يكون هذا الحوار قد حدث فعلًا.

فـي 16 تشرين الأول/أكتوبر، بقي ترامب يصارع ليجد مخرجًا من الموضوع أو خطّاً ثابتًا يلتزمه. «ها نحن مُجدّدًا أمام مسألة: أنت مذنب حتى تثبت براءتك. لا أحب هذا. لقد واجهنا المسألة نفسها مع القاضي كافانو، وهو بريء تمامًا».

وفي وقت لاحق من اليوم نفسه، قال: «بالمناسبة، ليس لديّ أيّ مصالح مالية في السعودية (أو في روسيا). وإنَّ أيّ إشارة خلاف ذلك هي مجرد المزيد من الأخبار الكاذبة والملفّقة (وثمة الكثير منها)!».

وفي ذلك اليوم نفسه، قال أيضًا: «تحدّثت للتو مع ولي العهد السعودي الذي أنكر تمامًا أيّ علم له بما حدث في قنصليتهم في تركيا. كان معه وزير الخارجية مايك بومبيو أثناء الاتصال، وأعلمني أنه قد بدأ تحقيقًا كاملًا وشاملًا، وأنه سرعان ما سيتوسّع به».

وأضاف المزيد في 17 تشرين الأول/اكتوبر: «سوف نغوص إلى عمق المسألة. آمل ألا يكون الملك (السعودي) وولي العهد على علم بما حدث. هذا هو العامل الأهم في نظري... لن أغطي الأمر أبدًا. إنهم حلفاء. لدينا حلفاء آخرون جيدون في الشرق الأوسط».

وفي ذلك اليوم بالذات، أعلن البيت الأبيض أنّ السعوديين قد حوّلوا من فورهم 100 مليون دولار أميركي إلى الولايات المتحدة، كجزء من مبلغ غير مسدّد وافقوا على إنفاقه على الأسلحة الأميركية قبل ما يُقارب العام.

وأخيرًا، عندما سئل في 18 تشرين الأول/أكتوبر إن كان يعتقد أن الخاشقجي مات، أجاب ترامب: «هذا ما يبدو لي بالتأكيد. نحن بانتظار التحقيقات... وأعتقد أننا سندلي بتصريح، تصريح قوي جدًا. يجب أن يكون شديد اللهجة. أعني، الأمر سيىء، سيىء فعلًا. لكننا سننتظر لنرى ما سوف يحدث».

في ذلك الأسبوع، تحدّث عن الموضوع بشكل مختلف إلى أحد الذين يتصلون به بعد العشاء: «لقد قتله بالطبع... لا بد أنّ لديه سببًا وجيهًا. ومن يأبه؟».

في هذه الأثناء، وبعيدًا من الإعلام نسبيًّا، حاول كوشنر أن يبقى على تواصل مع محمد بن سلمان. إلّا أن جهوده لم تكن لتثمر مع الأمير الذي بدا عاجزًا، وعلى كل المستويات تقريبًا، أن يفهم أنّ العالم خارج السعودية ودول الخليج قد يطالب بمستوى مختلف من السلوك، عما هو مقبول في عالم أمير إقطاعي مستبد.

اقترح كوشنر على وليّ العهد أن يأمر بإلقاء القبض على خمسة عشر متآمرًا

تورّطوا في اغتيال الخاشقجي وبإعدامهم سريعًا. وأجابه محمد بن سلمان أنه يفكّر في الأمر. ودعا كوشنر محمد بن سلمان إلى إلغاء «مؤتمر دافوس الصحراء»، وهو المؤتمر الاستثماري الذي أعدّت له السعودية إعدادًا دقيقًا، والذي يُفترض أن يبدأ في 23 تشرين الأول/أكتوبر. كان الأمر محرجًا، لاسيما وأن العديد من رؤساء الشركات الأميركيين الكبار والناجحين كانوا قد وافقوا على الحضور، بناءً على طلب كوشنر نفسه. لكن محمد بن سلمان، المصرّ على أهمية عدم إظهار القلق أو الندم، رفض رفضًا قاطعًا. وأبلغ كوشنر أنّ التغطية الإعلامية في المملكة العربية السعودية إيجابية للغاية، ولا أحد يأبه لشأن الخاشقجي!

إنّ الجهود التي بذلها البيت الأبيض، في السرّ والعلن، للسيطرة على تداعيات مقتل الخاشقجي عمّقت الهوّة ووسّعتها. وبعد أيام عديدة من ضغط المستشارين، قرر ستيفن منوشين، وزير الخزانة، إلغاء مشاركته في مؤتمر دافوس في السعودية. واستمر ترامب في نشر التعليقات على الاغتيال بشكل شبه يومي، ولم يكن أيّ من تلك التعليقات مُرضيًا، إلى يوم انطلاق أعمال المؤتمر.

حينذاك، كانت الانتخابات النصفية على بُعد أقلّ من ثلاثة أسابيع.

* * *

وصل جاريد كوشنر إلى البيت البيض معتقدًا أنه يستطيع أن يُطلق جيلًا جديدًا من الدقة الكيسنجيرية الرائعة في السياسة الخارجية، ويمثّله. وهذا الذي سعى كيسنجر ليجعل منه قناعة راسخة لدى كوشنر.

قبل أشهر من مقتل الخاشقجي، شارك كيسنجر في مأدبة غداء أقامتها مجموعة صغيرة من المحامين أصحاب النفوذ في نيويورك. اصطحب كيسنجر روبير مردوخ معه، وساهم الرجلان في بروز جاريد كوشنر ودعيا، رغم معرفتهما الجيّدة لخفايا الأمور، إلى النظر في إدارة ترامب بعقل منفتح. وكان موقف كيسنجر في السنة الأولى من ولاية ترامب، هو الآتي: بغض النظر عن الكلام السيىء والقذر، وحقيقة أنّ ما من شيء إيجابي مميّز قد جرى، لم يحدث أيّ أمر سلبي خطر للدور الأميركي العام خلال إدارة البيت الأبيض هذه. فلنمنح إذن ترامب وفريقه فرصة. لكن، وأثناء الغداء، وفيما جلس مردوخ ثانيًا ذراعيه، مومئًا برأسه موافقاً، راح

كيسنجر المشمئز يمزّق ترامب وكوشنر إربًا بطريقة ممنهجة وعميقة. «تستند السياسة الخارجية برمّتها إلى ردّ فعل شخص واحد غير متّزن على مفهومي الإهانة أو الإطراء لديه. إذا قال أحدهم قولًا طيبًا بشأنه، أصبحا صديقين؛ وإذا قالوا كلامًا غير لطيف، وإذا لم يُعلنوا الولاء، فهم أعداؤنا».

وبعد مقتل الخاشقجي، أخبر كيسنجر الأصدقاء بازدراء واستخفاف، أنّ النقطة الأساسية التي فات كوشنر أن يحسب لها الحساب الدقيق، هي حين أقدم على إقامة علاقة صداقة مع محمد بن سلمان. ويكون بذلك قد ربط البيت الأبيض في عهد ترامب نفسه بمحمد بن سلمان الذي ربط نفسه بنهضة بلاده الاقتصادية. لكن السعودية، التي تواجه تراجعًا في أسعار النفط وتزايدًا في عدد أفراد الأسرة المالكة وبالتالي في الإنفاق، هي شبه مفلسة. فمستقبلها أو مستقبل الأسرة المالكة مرهون بصفقة آرامكو التي تراجعت إمكانية عقدها بشكل متزايد.

قال أحد الخبراء الماليين الأميركيين الذي استُقدم لتقديم المشورة بشأن صفقة آرامكو: «إنّ محمداً هنا أشبه بمادوف». ذلك أن سلطة محمد بن سلمان، فضلًا عن مستقبله، يعتمدان قدرة بيعه شيئاً شيئاً أشبه بمخطّط هرمي أصبح كوشنر طرفًا فيه ومموّلًا له.

منذ انتخاب ترامب، وضع كوشنر سيناريو مفصّلًا ورديًا، يتضمّن دعمًا لآرامكو، وعلاقات اقتصادية مطردة بين السعودية والولايات المتحدة، سيناريو اقترن بوعد. فحواه أن يستخدم السعوديون نفوذهم ليلزموا الفلسطينيين بتوقيع اتفاقية سلام مع إسرائيل. فإذا حدث هذا الإنجاز، فلا بد أنه سيكون بمثابة الإنجاز الأكبر لكوشنر. ولا بدّ أن يسهم مثل هذا النجاح الكبير، بحسب اعتقاد كوشنر، في بقاء حميه في منصبه، فضلًا عن أنه سيدفع بمستقبله السياسي الخاص قُدمًا.

وبدعوة من كوشنر، قام محمد بن سلمان بجولة استثمار وأعمال واسعة النطاق في الولايات المتحدة. وفي تلك الأثناء، وُعِد ديفيد بيكر، صديق ترامب الناشر، بأموال سعودية لشركته AMI؛ وينطبق هذا أيضًا على وكيل المواهب آري إيمانويل، ربيب ترامب، لشركته WME، وعلى رجل الأعمال المفضّل لدى ترامب وكوشنر، أي ستيفن شوارزمان، رئيس شركة بلاكستون، وهي مجموعة مساهمة حصلت من السعوديين على 20 مليار دولار أميركي دعماً لصندوق استثمار جديد.

وبدلًا من أن يرى نفسه معرّضًا للخطر، جرّاء بحث أسرته عن تمويل في الشرق الأوسط، وجرّاء الصفقات التي يتفاوض عليها الأصدقاء والحلفاء، رأى كوشنر نفسه في موقع فريد يسمح له بالفصل في الخلافات. وقد تعوّد أن يشير إلى أوسلو، على أنها مسرحية عن الجهود التي بذلها الدبلوماسيون النروج في العام 19 لجمع إسحق رابين وياسر عرفات معًا. وقد رأى في نفسه أنه الشخص الوحيد الذي يتمتع بالحكمة والفطرة اللازمتين للوصول إلى تسوية بين كل الأطراف في المنطقة.

خلال صيف العام 2018، أعدّ كوشنر ما ظنّ أنه سيكون المبادرة المنشودة، أو بعبارة أخرى، خطوته الأوسلية (نسبة إلى أوسلو) الشخصية. وقضت فكرته ببناء منصة للتنمية الاقتصادية في الشرق الأوسط كله؛ وسوف تفضي هذه المنصة، عبر مشروعات برامج إقراض مشتركة، إلى نقاش سياسي وإطار مفاهيمي لسلام دائم. إنّ الحجم المطلق لما تصوّره سيولّد هيكلية من التعاون والاتكال على الغير. ستكون المنصة المشتركة بحسب وصفه، فريدة من نوعها، لم تشهد المنطقة مثلها من قبل. وفي سعيه لتحقيق هذه الفكرة، عمل كوشنر خارج القنوات الدبلوماسية. وراح يتطلع إلى المستقبل من دون تدخّل كبير من البيت الأبيض نفسه، علمًا أنه وعد حماه بأنّ هذه المبادرة ستكون شيئًا «ضخمًا جدًّا».

ومع تبلور الفكرة، اقترح كوشنر أن يقف البنك الدولي خلف المشروع، مع استثمارات ضخمة من كل دولة من الدول الغنية في المنطقة. وسيدير المشروع شخص اختاره كوشنر، هو مستثمر مصرفي يُدعى مايكل كلاين.

في الواقع، شكك كلاين بالمشروع، وأخبر الناس في المجالس الخاصة أنه يظن أنّ أحد دوافع كوشنر هو تقديم نفسه على أنه الرجل الذي لا يُستغنى عنه في الإدارة، فضلًا عن رغبته الملحّة في إعلان المبادرة في فترة ما قبل الانتخابات النصفية. أضاف كلاين أنّ كوشنر يؤسس شركة علاقات عامة تهدف إلى مواجهة أيّ دعاية سيئة في حال وجّهت إليه التهم وجرت إدانته. لقد أراد كوشنر أن يظهر بمظهر اللاعب الأساسي في تحقيق السلام في الشرق الأوسط.

لعل هذا لم يكن الوجه الوحيد للخطة التي أخفقت في إبصار النور. شكّل كلاين في الواقع اختيارًا غريبًا؛ الأمر الذي يعكس عدم قدرة كوشنر الواضحة على رؤية حتى إشارة وامضة تشير إلى ظهور خلاف. وكلاين مصرفي سابق عمل في

سيتي بنك، وصاحب أعمال متشعبة ومنتشرة، ومكتب كبير يُطلّ على كاتدرائية سان باتريك في وسط المدينة بمانهاتن، وهو عبارة عن مساحة شاسعة يشغلها مع مجموعة من المساعدين فقط. وقد وصفه أحد المصرفيين الذين شاركوا في صفقة معه أنه من أولئك الأشخاص الذين يُحدّدون أغنى عشرة رجال في العالم، ثم يبذلون قصاراهم ليقيموا علاقة شخصية مع واحد منهم على الأقل. بدا أنّ السعوديين هم الزبون الأساسي حاليًّا. قدّم مشورة استثمارية إلى محمد بن سلمان وكان المدافع الاستراتيجي عن خطة تعويم آرامكو علنًا بقيمة تريليونَيْ دولار أميركي، في أكبر عرض اكتتاب عام في العالم. وفي حزيران/يونيو 2017، وصل كلاين إلى الرياض برفقة المجموعة الرئاسية، خلال غزوة ترامب الأولى خارج البلاد.

عكست مبادرة كوشنر ومشاركة كلاين فيها مدى أهمية محمد بن سلمان ومركزية شخصيته في خطط كوشنر ورؤيته للعالم. فكوشنر والمصرفي الخاص بمحمد بن سلمان سيحققان معًا السلام في الشرق الأوسط. لكن خطة كوشنر الطموحة قد انهارت في أواخر صيف العام 2018، بعد انهيار عرض اكتتاب آرامكو السعودية العام بوقت ليس بطويل.

* * *

افتتح دافوس في الصحراء أعماله في 23 تشرين الأول/أكتوبر، بعد مقتل الخاشقجي بثلاثة أسابيع. وقد حثّ كوشنر أصحاب الشركات الأميركيين على المشاركة في الحدث السعودي. وفي الوقت نفسه، أرسل ترامب جينا هاسبل، مديرة وكالة الاستخبارات المركزية إلى تركيا. وقضت مهمتها بأن تراجع الأدلة التي يملكها الأتراك حول مقتل الخاشقجي، بما في ذلك تسجيلات اغتياله.

أكّدت هاسبل ما هو جليّ: مات الخاشقجي بالطريقة التي وصفها الأتراك، تمامًا كما وجدت كل وكالات الاستخبارات الأميركية. كما بدا محسومًا أنّ عملية القتل جرت بعلم من ولي العهد نفسه، ويمكن القول على الأرجح بتوجيه منه.

أما ترامب، الذي سئم من مأزق الخاشقجي، فراح يلقي باللوم في المجالس الخاصة على كوشنر. قال ترامب لأحد المتصلين: «طلبت إليه أن يحقق السلام. لكنه عقد صداقة مع قاتل، بدلًا من ذلك. ماذا يمكنني أن أفعل؟».

ناقش ترامب في العلن، وبشكل صريح، الاستنتاجات التي توصّلت إليها وكالات الاستخبارات بشأن تورّط محمد بن سلمان: «قد يكون ولي العهد مُطّلعاً على هذا الحدث المأساوي... لعله علم به، ولعله لم يعلم!».

حرّك ترامب مجددًا مرمى الهدف من دون داعٍ. فهو لم يفشل فشلًا ذريعًا في التعامل مع تحدٍّ دبلوماسي يقضي بإدارة حليف مؤذٍ فحسب، بل أضعف أيضًا المجتمع الاستخباراتي الأميركي، تمامًا كما فعل بشكل متكرر مع روسيا. وحقيقة الأمر أنّه حمّل الاستخبارات الأميركية وزر هذه الكارثة. فهو لم يلمها على الأخبار المزعجة فحسب، بل شكك أيضًا في صحة الأخبار التي نقلتها.

وعشية الانتخابات النصفية، لم يكن ضعف ترامب وهراءَه، عند مناقشة فضيحة دولية تتضمن جريمة قتل دمويّة مروّعة، ليشكّلا إضافة على المستوى السياسي.لكن وعلى الصعيد العملي، يمكن لمعالجته هذا الحدث أن تلحق ضررًا أكبر بمستقبله. رأى كثيرون أن معظم كبار المسؤولين في وزارة الدفاع، والسلك الدبلوماسي، وفي الاستخبارات، قد وصلوا الآن إلى نقطة التشكيك في كفاءة الرئيس وسلامة قواه العقلية وتوازنها. فضلًا عن ذلك، كانوا قلة أولئك الذين بدوا واثقين أنّ مقاربته المنافية للمنطق وجهوده المضنية لإنكار ما هو جليّ في هذه القضية، لا تعكسان صفقات جانبية أو مصالح أخرى مرتبطة بأُسرَتَيْ ترامب وكوشنر.

برّر جيم ماتيس، على سبيل المثال، موقعه في حكومة ترامب، متذرّعاً بالآتي: مادام من غير الممكن الوثوق بالرئيس نفسه أو تصديقه، فمن الضروري والحيوي أن يكون هناك شخص يتمتع بالصدقية والثبات، ليُحافظ على الإدارة، ويمسك بزمام الأمور. وراح يخبر الأصدقاء أنه أمل وافترض أنّ الديمقراطيين سيفوزون بمجلس النواب في تشرين الثاني/نوفمبر، الأمر الذي سيتيح له أن يترك منصبه أخيراً.

الفصل العشرون
مفاجآت تشرين الأول/أكتوبر

في التاسع من تشرين الأول/أكتوبر، وقبل ثمانية وعشرين يومًا من الانتخابات النصفية، أعلنت نيكي هالي، سفيرة ترامب لدى الأمم المتحدة، وإحدى الشخصيات التي لمع نجمها خلال عملها لمدة طويلة في البيت البيض في عهد ترامب، عن استقالتها من منصبها اعتبارًا من نهاية السنة.

لم يكن ذلك الإعلان ليحدث أي فرق على المستوى العملي لو أنها اختارت إرجاءه إلى السابع من تشرين الثاني/نوفمبر، أي في اليوم الذي يلي الانتخابات النصفية، بدلًا من الآن، لاسيما وأنه لم يكن بإمكانها التصرف في استقالتها على الفور. غير أن الاختلاف الفعلي يكمن في أن إعلانها سيصبح جزءًا من حملة الخطابات السلبية. فخلال موسم انتخابي أثار فيه دونالد ترامب الرعب في نفوس النساء الجامعيات في الأمة، اختارت المرأة الوحيدة البارزة في إدارته، بصرف النظر عن ابنة ترامب، ذلك التوقيت بالتحديد لتعلن رحيلها.

ومما لا شك فيه أن استقالة هالي ستتشكّل أحد الخطوط الفاصلة في الحملة الانتخابية. إذ لم تقدم إلى البيت الأبيض إشعارًا مسبقًا لتمكينه من تسمية بديل منها، وسط قدر كبير من الضجة، بديل يمكن أن يخفف من وطأة رحيلها. ما يعني أن موظفي البيت الأبيض الذين يتخبطون دائمًا في كل الاتجاهات، سيتخبطون الآن أكثر من ذي قبل، لاسيما وأن عليهم أن يتقبّلوا استقالتها، ويخفوا ذهولهم أو شعورهم بالإساءة مما فعلته.

كان الحل الأفضل يقضي بجعلها تعلن استقالتها من المكتب البيضاوي. غير أن هالي رفضت ذلك لتدفع بالتالي البيت الأبيض إلى الإصرار، أو التوسل إليها لتظهر في الجناح الغربي. ولكن الظهور الإعلامي كان في الواقع لمصلحتها وليس لمصلحة البيت الأبيض. فالدور المهم والقيّم الذي كانت تقوم به حال دون ظهور أي تغريدة عن طردها، كما حدث مع العديد من الشخصيات الأخرى (فتغريدة الطرد استهدفت حتى أولئك الذين قدّموا استقالاتهم). عوضًا عن ذلك، كان الرئيس ينظر إليها بإعجاب، رغم استقالتها من منصبها، وهي جالسة في المكتب البيضاوي. إذ لم تجرِ العادة أن يستقيل أحد من منصبه في إدارة هذا الرئيس، بل جرت العادة أن يُطرد الأشخاص. وها هو ترامب الآن يجلس إلى جانبها مذهولًا وعاجزًا، يغدق عليها الثناء وهي تعلن للناس أنها ستتخلى عنه. ثم قال لها بنبرة مفعمة بالأسف: «آمل أن تعودي إلى العمل معنا في وقت لاحق، وأن تختاري المنصب الذي يلائم قدراتك...».

كانت إيفانكا ترامب هي التي استقدمت نيكي هالي، الأميركية ذات الأصول الهندية، والمرأة الأولى التي تشغل منصب حاكم ولاية شاوث كارولينا، والبالغة من العمر ستًا وأربعين سنة، لتنضم إلى إدارة والدها في البيت الأبيض التي يهيمن عليها الطابع الذكوري. فقد كان اندفاع هالي، حتى بالنسبة إلى من يغذي اندفاعها، يوصف بالمعجزة في أوساط الحزب الجمهوري. ويُقال إنها طلبت إلى ترامب تعيينها كوزيرة للخارجية. فخلال اجتماعهما الأساسي، أعلنت بفخر عن نجاحها المنقطع النظير وتجربتها الفريدة في المفاوضات الخارجية: إذ تمكنت من إقناع الألمان بإنشاء مصنع لشركة مرسيدس في ساوث كارولينا. وبدا ترامب، الذي غالبًا ما كان يتململ من الأشخاص الذين يتحدثون عن أنفسهم، مفتونًا بحماستها من دون أن يبدي أي انزعاج من افتقارها إلى الخبرة. وعلى خلاف كثير من الأشخاص الذين تقدموا لمنصب وزير الخارجية، لم تكن هالي تحاول أن تروّضه. فاختارها لتكون سفيرة له في الأمم المتحدة. بعد أن وجد أن منصب وزير الخارجية قد لا يكون مناسبًا لها على اعتبار أنه المنصب الأول الذي تشغله على مستوى السياسة الخارجية.

ولم يتوانَ الخبراء في الموهبة السياسية عن تعداد مهارات هالي: هي قادرة على التعلم بسرعة، والانتباه إلى كل ما يدور من حولها، فضلًا عن كونها سريعة البديهة وتجمع ما بين الكاريزما والصلابة. كذلك كانت هالي أشبه بهبة ديمغرافية مرسلة من الله إلى الحزب الجمهوري، ومن الزعماء القلائل الذين تمكنوا من كسر

القالب الجمهوري.

ومن خلال تعيينها سفيرة للولايات المتحدة في الأمم المتحدة، لم يعزز ترامب مكانتها الوطنية وسياستها الخارجية فحسب، بل ساهم أيضًا مساهمة مفيدة في انتقالها إلى نيويورك، عاصمة الشهرة الإعلامية والمال. ولم يلبث المعنيون بعرقلة سير العمل السياسي أن بدأوا يشبّهون نيكي هالي في نيويورك بريتشارد نيكسون في نيويورك. فبعد هزيمته في انتخابات حاكم ولاية كاليفورنيا سنة 1962، انتقل نيكسون إلى مانهاتن، حيث راح يتزلف لأصحاب النفوذ والمال في سياق الاستعداد لمستقبل لم يكن أحد يتوقعه.

نجحت هالي، التي كانت سريعة التعلم، في إتقان شؤون الأمم المتحدة والأوساط الاجتماعية. وسرعان ما أصبح اسمها الاسم الأساسي الأول في قاعدة الأشخاص المنتقلين للإقامة في وول ستريت، وضمن طبقة النساء اللواتي يتمتعنّ بالنفوذ في المدينة. فاستغلت هالي، على الرغم من كونها تشكّل جزءًا من إدارة حيث كل من يعمل فيها مطبوع بطابع ترامب، البعد الجغرافي عنه وسهولة تكيفها مع مؤسسة الاتجاه السائد، لتكون بذلك الفائز المتباين، ووجه إدارة ترامب في الأمم المتحدة. وعلى الرغم من أن جميع العاملين في البيت الأبيض كانوا يتحدثون بالسوء عن ترامب، في السر وفي العلن، تميّزت هالي بقدرتها على ضبط النفس، أو ربما يصح القول إنها كانت تتجنب الكلام عنه. فمهاراتها السياسية البارزة لوحظت على نطاق واسع: إذ أصبحت هالي، في نظر الحلقة الصغيرة من القادة والجهات المانحة في الحزب الجمهوري الساعية بجدية إلى وضع استراتيجية لمستقبل من دون دونالد ترامب، الاحتمال الأول.

وفي حين نجحت هالي سريعاً في الاستقرار في منصبها الرفيع المستوى ووجدت الطرق المناسبة للارتقاء بمكانتها إلى مستوى أعلى، لم يكن ترامب واثقًا بما ينبغي له أن يفعله بها. أيفترض به أن يشعر بالامتنان أم بالارتياب؟ فقضى في ربيع العام 2018 عطلة أسبوع بكاملها في مار الاجو، يستطلع الآراء حول ما إذا كان ينبغي عليه طردها، في الوقت الذي كان فيه يثني عليها لكونها الشخص الوحيد في إدارته الذي يتمتع بصورة جيدة في وسائل الإعلام. غير أن تلك الصورة تشكّل أيضًا سببًا وجيهًا لطردها، لاسيما وأنها كانت تحظى بالكثير من الاهتمام.

على المستوى الأساسي، لم يكن ترامب يألف التعامل مع النساء في المواقع القيادية. إذ لم يكن يتعامل ضمن محيطه سوى مع الموظفات المقربات منه، مثل هوب هيكس في البيت الأبيض ورونا غراف، أمينة سر مؤسسة ترامب ومساعدته، والنساء المثيرات أمثال زوجته وابنته. ولم يكن بإمكانه أن يقارن هالي سوى بنفسه. فقد كان من أشد المعجبين بتفاصيل خوضها لانتخابات حاكم ولاية ساوث كارولينا سنة 2010، وكيفية تصديها للاتهامات التي وجهها إليها رجلان ادّعيا بأنهما كانا عشيقيها. الأمر الذي دفعه إلى مقارنة صمودها في وجه تلك الاتهامات بصموده أمام فضيحة الأشرطة الجنسية.

* * *

في خريف العام 2017، أخبر ترامب الكثير من مستشاريه أن هالي قد مارست معه أفعالًا قذرة، بحسب التعابير التي استخدمها. والحق يقال إن هذا هو ما قاله: إنها عيّنة من الأحاديث التي كانت تدور في قاعته المغلقة. ولكن المؤكد هو أن ما قاله لم يكن صحيحًا، ولم يصدق كلامه سوى عدد قليل جدًّا من الأشخاص.

ثارت ثائرة هالي لدى معرفتها ما يُشاع عن علاقتها بترامب، وأنكرته بإصرار جملة وتفصيلاً. فمع انتقالها إلى نيويورك، تمكّنت من توطيد صداقتها مع نساء بارزات من الحزب الجمهوري، نساء يعارضْنَ ترامب بشدة. فتركّز الجزء الأكبر من أحاديثهنّ حول كيفية تفادي الضرر الذي ألحقه ترامب بها، ليس بسبب صلتها به فحسب، بل أيضًا بسبب حاجته الانعكاسية إلى كبح كل المحيطين به.

ومع بداية السنة الثانية من ولاية ترامب، كانت هالي قد وضعت الاستراتيجية الملائمة: عليها أن تعلن عن رغبتها في الانسحاب بحذر، ولكن مع إظهار إصرارها الشديد على ذلك. ففي حين أن أعضاء آخرين كُثُراً من الحزب الجمهوري كانوا مرغمين على الإذعان لترامب، أو خاضعين لإرادته، أو عدوانيين في التعامل معه، عقدت هالي العزم على التفكير أبعد مما يمكن أن يفكر فيه.

في نيسان/إبريل 2018، قرّرت هالي التحدث على الملأ فصرحت أن الولايات المتحدة تعدّ عقوبات على روسيا بسبب دورها في الاعتداءات الأخيرة بالأسلحة الكيميائية في سورية. فوقّع الرئيس، نزولًا عند إلحاح إيفانكا وهالي وعدد

من العاملين في إدارته، على الخطة. وتولّت هالي إعلانها أمام الأمة. غير أن الرئيس الذي كان يشكّك في أي خطوة يمكن أن تكون حرجة بخصوص روسيا، عاد وقلب المقاييس، وأصر أن تسحب هالي كلامها. عندما رفضت ذلك، أُرسل لاري كودلو، المستشار الاقتصادي الجديد في البيت الأبيض، بتحريض من الرئيس، لتصحيح الخطأ. وفي تعليق أدلى به أمام المراسلين الصحفيين، ألقى باللائمة على هالي مباشرة، قائلاً: «أظن أن ارتباكاً مؤقّتاً قد حدث في هذا الشأن».

تتمثل القاعدة الأساسية، المعمول بها في البيت الأبيض في عهد ترامب، بعدم السماح لأحد أن يردّ بوقاحة على الرئيس، بأي حال من الأحوال. وإنْ فعلْتَ ذلك، أو بدا له أنك تنوي أن تفعل ذلك، فسوف تتحول إلى عدو أو إلى شخص تافه. فعجْز ترامب عن تقبُّل النقد أو المشاركة في نقاش صريح في السياسة كان شديد الوضوح؛ ذلك أن أحداً لم يكن يتجرأ على القيام بهذه الخطوة (حتى وإن كنت مؤمنًا أن عليك أن ترفض شيئًا يلح ترامب عليه، ينبغي أن توافق على تلبية رغباته وأنت على ثقة بأن القضية ستنطوي في مرحلة معيّنة ضمن نطاق اهتمامه الضيق وانعدام التنظيم في البيت الأبيض). ففي المرحلة الأولى من تولّيه منصبه، لم يتقيّد جون كيلي بهذه القاعدة وذاق الأمرّين جرّاء ذلك. وعمد جيم ماتيس، الذي كان سخطه يزداد يومًا بعد يوم، إلى بذل ما بوسعه ليخفي انفعالاته، في حين أن مايك بومبيو، العضو الأكثر جدارة بالثقة في مجلس الوزراء، قد اختار أن يؤدي دور الشخص الخانع إلى ما لا نهاية.

أدركت هالي، على غرار الجميع في البيت الأبيض، أن كودلو قد تحدث مع الرئيس؛ فسارعت إلى إطلاق تعليق مدوٍ، شدَّدت فيه على موقفها السابق، قائلة: «مع كامل احترامي للجميع، فأنا لا أُصاب عادة بالارتباك». وأصرت بعدها أن يطلب البيت الأبيض من كودلو الاعتذار منها علنًا.

وفي حين أن ترامب كان سريع الغضب، أو التململ من المحيطين به، أو غالبًا ما يستخف بهم، أو يسأم منهم أو يغار منهم، كانت تلك المرة الأولى التي يخشى فيها شخصًا من المحيطين به، إذ كان يسأل أصدقاءه ومستشاريه باستمرار «ما الذي تريده؟». فالحق يقال إن هالي قد استحوذت على تفكيره بدلًا من أن يكون العكس صحيحاً.

وفي الأسابيع الأخيرة من الانتخابات النصفية الأكثر شراسة في التاريخ، وهي انتخابات مريرة ستثبت مدى قدرة النساء في الحزب الجمهوري على الصمود حتى النهاية، استقالت هالي، المتوَّجة ملكة على نساء الحزب الجمهوري، من منصبها، لأسباب غير معروفة، وفي أكثر الأوقات إيذاءً، معلنة بالتالي أنها لم تعد محسوبة على الرئيس. وبدا جليًّا أن هدفها الأساسي، الذي بات ترامب عاجزًا عن مواجهته، هو إلحاق الأذى به. ومن أمعن في خطاب استقالتها، قرأ بين السطور رسالة تقول: «لا تصوّتوا له».

إذا كان نشاطك يتمحور حول المؤسسة الجمهورية، وهدفك يتمثل في العودة إلى الاتجاه السائد بعيدًا من القضية الخاسرة للتيار الترامبي، وطموحك يكمن في أن تترأّس عملية إصلاح الحزب الجمهوري، عليك أن تفعل ذلك بصلابة وكياسة. تلك هي الطريقة المثلى للإعلان عن ترشُّحك لرئاسة الجمهورية. تلك هي الطريقة المثلى لإنقاذ نفسك من الذل الذي عانى منه كل مؤيد سابق لترامب، ولملمة شتات نفسك، وعقد صفقة كتاب بعدة ملايين من الدولارات، ونيل مقاعد في مجالس إدارة الشركات ومهمّات استشارية تدر أموالًا طائلة.

في 18 تشرين الأول/أكتوبر، وبعد مرور تسعة أيام على إعلانها استقالتها، وقبل ثلاثة أسابيع تقريبًا من الانتخابات النصفية، شكّلت هالي موضوع العناوين البارزة في العشاء الخيري لمؤسسة إلفريد سميث في نيويورك. ففي المقدمة التي أدلى بها عرّيف الحفل أمام جمهور يضم كلًّا من أندرو كيومو، حاكم مدينة نيويورك، والمحافظ بيل دو بلازيو، والمحافظ السابق مايكل بلومبرغ، والسيناتور شاك شومير، ووزير الخارجية الأسبق هنري كيسينجر، ورجل الأعمال والمستثمر ستيفن شورزمان، عرّف عنها قائلًا: «أليس مذهلًا أن تتخلى نيكي هالي عن منصبها في الإدارة بكل رفعة وكرامة؟». يعدّ هذا الحفل السنوي مناسبة جيدة لاستعراض المواهب السياسية: إذ يمكن أن تستعرض أمام الجميع حذاقتك، وفطنتك، وسحرك، ودهاءك فضلًا عن الإعجاب الشديد الذي تكنه فئة الجهات المانحة لك. في العام ، جاء دور ترامب ليتصدّر العناوين في العشاء، لكن بشكل كارثي؛ بدا عاجزًا عن أن يطلق النكات عن نفسه فاكتفى بإطلاق قنابل نتنة على هيلاري كلينتون. أما الآن فها هي هالي تطلق النكات على ترامب بحذاقة، وتقدّم نفسها كأميرة من أميرات عالم ديزني الرئاسية: كريمة، متفهمة، لطيفة، فضلًا عن كونها مضحكة وحادة الذهن

بشكل محبَّب.

وفي معرض السخرية من أنّ ترامب قدّم إليها نصيحة عما ينبغي أن تقوله في العشاء، علّقت هالي بأنه قال لها: «تباهي بإنجازاتي، فحسب». بعدئذ، وفي إشارة منها إلى إداء الرئيس الأخير في الأمم المتحدة الذي لاقى انتقادات واسعة، قالت: «عليّ أن أقول إنّ ما جرى في الأمم المتحدة كان قاتلًا». ولفتت باستخفاف إلى أنّ ترامب حين علم بخلفيتها الهندية «سألني إن كنت أنتمي إلى القبيلة نفسها التي تنتمي إليها إليزابيث وارن»، السيناتورة من ماساشوسيتس التي تعوّد أن يسخر من ادعاءاتها بأنّ أسلافها هم من السكان الأصليين. لكن تأنيب هالي الأخير الواضح واللاذع للرئيس أثار عاصفة من التصفيق: «في بيئتنا السياسية السامة، سمعت أشخاصًا من الطرفين يصفون خصومهم بالأعداء أو الشيطان. في أميركا، خصومنا السياسيون ليسوا الشيطان».

بدا الرئيس الذي تابع تغطية أدائها، غير واثق كيف ظهر. وفي اتصالات أجراها مع الأصدقاء، استطلع آراءهم إن كانوا قد وجدوا نكاتها مضحكة؛ وأبدى ملاحظة بشأن «ثوبها البسيط».

* * *

لم يكن بانون مولعًا بأداء هالي. وجد أنها مجرد ناقل موثوق لمعتقدات الحزب الجمهوري حين قال: «ما من فكر فريد ومستقل في ذلك الرأس». لكنه لم يستطع إلا أن يبدي إعجابه بها. قال بانون: «إنها تفهم على ما يبدو أن لا أحد يفهمه. إنّ إمكانية عدم نجاح ترامب كبيرة جدًا. لذا، ينبغي التخطيط وفقًا لذلك».

ورأى بانون أنّ مغادرة هالي المعدّة بدقة لا تشير فقط إلى المشكلات التي سيواجهها الحزب مع النسوة المثقفات في 6 تشرين الثاني/نوفمبر، بل ستشكّل تلك المغادرة نذيرًا بأنّ الحزب سيفقد تقريبًا كل الأشخاص المثقفين والمتعلّمين. إنها أرض مجهولة لحزب سياسي أميركي. لكن ورغم ذلك، وفي انعكاس لمبدأ أساسي في استراتيجية ترامب، ستجازف. قال بانون بنبرة غير سعيدة: «ها نحن ذا حزب الفلاحين».

وأدرك بانون أنّ ترامب يحتاج الآن إلى حدثه الخارجي الخاص كي يُلهب

القاعدة. وها هي قد أتت القافلة.

في 12 تشرين الأول/أكتوبر، انطلقت مجموعة يزيد عدد أفرادها على مئتي مواطن هندوراسي (يبدو أن التقديرات تتراوح ما بين مئتين وألف شخص) من مدينة سان بيدرو سولا، وتوجّهت إلى المكسيك، ثم إلى الولايات المتحدة. ادّعى معظم أفراد المجموعة أنهم هاربون من الفوضى وانعدام سلطة القانون وعنف العصابات؛ وقد أملوا أن ينالوا اللجوء السياسي عند وصولهم إلى الولايات المتحدة.

ومع اتجاه القافلة شمالًا، سافر بانون إلى مدينة مكسيكو ليتحدّث في مؤتمر لمموّلي السياج يجمعهم في كل عام نيال فيرغسون، المؤرخ والكاتب والمعلّق المحافظ البريطاني. ومنحت تلك الرحلة بانون فرصة جمع المعلومات عن الرجل الذي سيصبح قريبًا الرئيس المكسيكي الجديد، أندريس مانويل لوبيز أوبرادور، وهو يساري شعبوي استعدّ لتحدّي ترامب، اليميني الشعبوي. (علّق بانون قائلًا «إنه رجل رزين، غير قابل للإفساد، رئيس بلدية مدينة مكسيكو السابق. لم يتقاضَ فلسًا واحدًا، وهو أول رجل في المكسيك لم يتقاضَ يومًا فلسًا واحدًا، كما أنه يعيش في بيت صغير، ويتمتع بشعبية ساحقة، إنه حقيقي وتقوم حملته كلها على «أنا الرجل الذي سيقف في وجه دونالد ترامب».) وإحدى النواحي النامية لهذه المواجهة المتوقّعة، هي مواجهة محتملة على الحدود. خلال رحلته إلى المكسيك، أُعلِم بانون بخبر تجمّع القافلة، وميل المكسيك إلى تركها تعبر حدودها.

وتحوّل بانون، الذي بقي على تواصل مستمر مع وسائل الاعلام المحافِظة، إلى أول مزوّد بالأخبار عن القافلة ومسار تقدّمها. كانت القصة في نظره مألوفة تمامًا: فهو من المعجبين بالقصة الفرنسية الكلاسيكية لدى اليمين الفرنسي «معسكر القديسين» (the camp of saints) التي صدرت سنة 1973 للكاتب جان راسبيل، وهي رواية معادية للأجانب، تروي نهاية حضارة عن مئات السفن التي تنقل مهاجرين من العالم الثالث إلى فرنسا. ومع وصول السفن إلى مضيق جبل طارق، أرسل الرئيس الفرنسي جنودًا لمنعها، لكن من دون جدوى.

والغاية من السفر ضمن قافلة هو الأمان الذين يوفّره للمهاجرين السفر ضمن مجموعات كبيرة، أمان أكبر مما يشعر به المسافر الوحيد. فعندما تكون وحيدًا أو مع أسرتك فقط، ستشكّل هدفًا سهلًا للعصابات الإجرامية والشرطة. وسوف تضطر غالبًا

إلى الاعتماد على مهربين مجردين من الضمير. لكن الأعداد الكبيرة تؤمّن بعض الحماية والتغطية الإعلامية وبعض القوة أيضًا. أضف إلى ذلك أنها تزوّد الإعلام المحافظ على ما يبدو بمجموعة من الصور المثيرة للقلق عشية الانتخابات النصفية.

في الأيام التالية، تعاظم عدد أفراد القافلة، ليتجاوز الألف مسافر أو لاجئ أو غازٍ وذلك بحسب وجهة نظرك. علم هانيتي وفوكس بأمر القافلة رسميًّا في 13 تشرين الأول/أكتوبر، فيما علم الرئيس بالأمر بعد ثلاثة أيام. غرّد ترامب على تويتر سبع عشرة تغريدة في 16 تشرين الأول/أكتوبر، معظمها رسائل مباشرة، من شتائم استهدفت إليزابيث وارن إلى تحذيرات بشأن القاصرين من دون مرافق على الحدود، إلى دفاع مستمر عن ولي العهد السعودي، إلى صفعة لستورمي دانييلز، إلى مهاجمة مكتب التحقيقات الفيدرالي و«الملف الملفّق». وأضاف الآن القافلة إلى مجموعة أهدافه المألوفة.

> أبلغت الولايات المتحدة الرئيس الهندوراسي إبلاغاً شديد اللهجة، فحواه الآتي: إذا لم يجرِ إيقاف القافلة الكبيرة المتوجّهة إلى الولايات المتحدة وإعادتها إلى هندوراس، فلن تقدّم الولايات المتحدة المزيد من المال أو المساعدة إلى بلاده، بتنفيذ فوري!
>
> أبلغنا اليوم دول هندوراس وغواتيمالا والسلفادور أنها إذا سمحت لمواطنيها أو لغيرهم بعبور حدودها لدخول الولايات المتحدة بصورة غير مشروعة، فسوف يجري وقف كل المساعدات المالية لها (انتهى)!
>
> كل من يدخل الولايات المتحدة بطريقة غير شرعية سنعمد إلى توقيفه واحتجازه، قبل إعادته مجدّدًا إلى بلاده!

أُبلغ بانون هانيتي بقصة القافلة فأطلع الرئيس بدوره.

ثمة مسألة وحيدة جديرة حقًّا باهتمام ترامب وشركائه وحلفائه المخلصين: الهجرة غير المشروعة. وفي تاريخ ترامب السياسي القصير، لم تخفق هذه القضية يومًا في إلهام الناخبين الأساسيين وتحفيزهم.

أصبحت القافلة الشغل الشاغل لترامب وفوكس وبانون، فيما انشغل القسم

الآخر من الجمهوريين بقدرة حفاظ الحزب على المجلس. لكن وجهة نظر حلف ترامب وفوكس وبانون كانت مختلفة. وضاعفت مفاجأة تشرين الأول/اكتوبر التركيز في القضية الأقوى لديهم.

استمرت اللجنة الوطنية التابعة للحزب الجمهوري في الكونغرس، ولجنة صندوق قيادة الكونغرس، في توفير الموارد للمعتدلين في الولايات المترجّحة مثل باربرا كومستوك، المرشحة الرئيسية المفضّلة للحزب في سباق متقارب في فرجينيا. تصرّفتا وكأن ترامب غير موجود، وكأن دورة الانتخابات هذه مجرد عمل مألوف. في تلك الأثناء، كان معسكر ترامب يطرح قضية الهجرة بطريقة من شأنها أن تنفّر حتى العديد من الناخبين الجمهوريين الأساسيين.

لم يُظهر بانون أيّ ندم أو توبة، بقوله: «الحزب الحاكم لديه نيكي هالي، ولدينا دونالد ترامب والقافلة... قد لا يكون الوضع مثاليًّا لكنك تعمل بما هو متوفر بين يديك». بدا جليًّا الآن أنّ الديمقراطيين سيُقبلون بأعداد كبيرة (بدأ التصويت المبكر في بعض الولايات). ورأى بانون أن من الضروري والحيوي دفع المحافظين، أو تحديدًا البائسين، إلى الإقبال على الانتخابات.

قدّمت القافلة رواية ذات وجهين. يمكنك أن تصدّق رواية ترامب: ثمة غزو يتجه نحونا، يكتسب قوة وشغفًا عنيفًا أثناء تقدّمه، ودعم قوى خبيثة من أمثال جورج سوروس. أو يمكنك أن تنظر إلى ترامب على أنه شخص يائس يروّج لقصة تافهة وقحة، ويحاول حتى أن يقنع نفسه بها، شخص يسعى بشكل واضح وجلي إلى التلاعب بمشاعر الناس الأكثر خطورة وأذية، تلك القصة التي يميلون إلى الاعتقاد بأنها صحيحة وحقيقية.

وسرعان ما ضاعف فريق ترامب السياسي الرهان على موضوعه الأخير مع تغطية إعلامية على المستوى الوطني وشحن عنصري وصل إلى حدّ أن فوكس نيوز رفضت تكرار عرض المشهد، بعد بثه مرات عدة. أظهر المشهد لويس براكامونت، وهو قاتل متحمّس إلى حدّ غريب يضحك بشكل شيطاني ويتفاخر بقتل رجال الشرطة؛ وهو شخصية تصلح لفلم أكثر مما هي شخصيّة واقعية وخطيرة. تباهى براد بارسكال بالإنتاج الرخيص لهذه المشهدية؛ وانزعج الرئيس لأنه لم يظهر فيها.

* * *

من حيث الموضوع، بدا هوس الرئيس بالقافلة، وكمّ الكراهية الذي انعكس في التعليقات على الموضوع، جزءًا من مفاجأتين أخريين في تشرين الأول/أكتوبر. ففي 22 منه، بدأت أخبار خطيرة تتسرَّب إلى وسائل إعلام وأشخاص تعوّد ترامب أن يصفهم بالأعداء. وبعد مرور أربعة أيام، أُلقيَ القبض على مواطن من فلوريدا يُدعى سيزار سايوك ويبلغ من العمر ستًّا وخمسين سنة، ووجّهت إليه تهمة إرسال الطرود. وبدا أنّ سايوك وهو من أنصار الرئيس الشديدي الإعجاب به، يؤكد يقين كل معارض لترامب، وخوف كل ناخب متردّد، مما ستكون عليه النهاية المؤسفة. وبمنزله المحجوز، والمُلصقات المعادية لشبكة السي. إن. إن من مثل: السي. إن. إن تغطّي نوافذ الحافلة البيضاء حيث يعيش، وحسابه المناصر لترامب إلى حدّ التطرف على وسائل التواصل الاجتماعي، بدا أنّ سايوك يرسم خطّاً فاصلًا بين الأميركيين العقلانيين من أبناء الطبقة المتوسطة والأميركيين الحاقدين من أنصار شعار الرئيس ترامب «إعادة العظمة إلى أميركا مجدّدًا».

بعدئذ، وفي 27 تشرين الأول/أكتوبر، وقبل أحد عشر يومًا من الانتخابات، فتح مسلّح النار على كنيس تري أوف لايف (شجرة الحياة) في بيتسبرغ، أثناء إقامة الشعائر الدينية صباح السبت، ما أدى إلى مقتل أحد عشر شخصًا وإصابة سبعة. والمسلّح الذي يبلغ من العمر ستًّا وأربعين سنة ويُدعى روبرت باورز، معادٍ للسامية وناشط على وسائل التواصل الاجتماعي. وقد أثارته تصريحات الرئيس بشأن القافلة المتوجّهة إلى الولايات المتحدة. وقُبَيل الهجوم، نشر الآتي «لا يمكنني أن أجلس مكتوف اليدين وأرى شعبي يُقتل. اللعنة على وجهات نظركم، أنا سأنهي الأمر».

وبدت الأسئلة المركزية حول سياسات ترامب الجديدة أشدّ وضوحًا: إلى أيّ مدى يمكنه أن يعزّز الكبرياء الوطنية وينشّط التعصّب الأعمى؟ هل يمكنه أن يجد ما يكفي من المناصرين السريين، وهم ليسوا سريين للغاية، ليتحدّوا الفكرة الليبرالية لعالم حديث يُعاد بناؤه، أم أنّ الشعور الإنساني الحديث، الشعور الإنساني المثقّف، والعالم المتعدّد الثقافات المتأصّل حاليًّا في الثقافة الشعبية، هما الدرع المناسبة للوقاية منه؟

قبل وصول ترامب إلى حلبة السياسة، يمكن القول إن كلاب الجمهوريين

النابحة أصبحت أقلّ تعصّبًا. وركّز عمل الحزب السياسي بدلًا من ذلك في كيفية نشر رسالة راقية فيما هو يرفض أيّ رسالة عنصريّة. لكن ترامب، كمرشّح أولًا وكرئيس من ثم، راح يتصرَّف بطريقة غير مقبولة، وذات نتائج عكسيّة على سياسي أميركي وطني. لقد سعى ليوسم بالعنصري. وواقع الأمر أن السؤال الآتي ظل يلاحقه: هل هو عنصري فعلًا؟

راح الجميع يطرحون هذا السؤال. ولا نتحدث هنا عن أعداء ترامب فقط، بل عن الأشخاص الأقرب إليه. وفي عالم أصبحت العنصرية فيه تخضع لضوابط وسلوكيات، غالبًا ما كان حلفاؤه يجدون له الأعذار. الليبراليون يصفون كل من لا يوافقهم الرأي بالعنصري. لكن، وفي البيت الأبيض نفسه، تجادل العاملون حول ما يخفيه فعلًا في قلبه.

بانون بدوره فكّر مليًّا في الأمر. وتوصّل في النهاية إلى أنّ ترامب، على الأرجح، ليس معادياً للسامية. لكنه بدا أقل ثقة في الرد على مسألة ترامب: هل هو عنصري؟ لم يسمع ترامب يستخدم كلمة زنجي لكنه يستطيع بسهولة أن يتخيّله يفعل ذلك.

وفي حديثه عن اختياره للنساء، أخبر ترامب توكر كارلسون مرة أنه يحب «القليل من الشوكولاتة في نظامه الغذائي».

وأخبر ترامب بنفسه قصة عن أنّ أصدقاءه سخروا منه، لأنه عاشر امرأة سوداء. لكنه نظر إلى المرآة ليرى نفسه في اليوم التالي، واطمأن إلى أنّ شيئًا لم يتغيّر، بقي ترامب نفسه. روى هذه الدعابة ليؤكد أنه ليس عنصريًّا.

ألّا ينكر ترامب علنًا وبصراحة العنصرية والعنصريين، وأن يدع الجدال حول الموضوع مفتوحًا وغير محسوم، وأن تتولى ابنته شخصيًا التأكيد أنه صدقًا ليس عنصريًا، أمور جعلت من ترامب قبل أيام من الانتخابات أحجية بلا جواب. فهل هو كذلك؟

الفصل الحادي والعشرون
6 تشرين الثاني/نوفمبر

بحلول عشية الانتخابات، كان ستيف بانون قد قضى كل ليلة من ليالي الأسابيع الخمسة الأخيرة متنقّلًا. «لم يكن قد خطر لي قط أنني سأقضي ليلةً في بوفالو وليلةً في جزيرة ستاتن و... و...».

عندما وصل إلى بوفالو، قبل أسبوعين من الانتخابات، كان الجمهوريون المحليون قد قرروا أن يتقاضوا 25 دولارًا أميركيًّا من كل مَن يود أن يتصور معه، وهو يصافحه خلال الحملة الانتخابية.

كان تجمُّعًا كئيبًا، حيث كان الرجال يُحشرون في قاعة اجتماعات صغيرة معتمة، ويتحلّقون حول إبريق القهوة. كان هؤلاء من رجال النقابات الكادحين، أو سبق أن كانوا منتسبين إلى النقابة. كانوا من المدخّنين وهم محاربون قدماء. التزموا ارتداء قمصان العمل وانتعال أحذية العمل. قال بانون متعاطفاً مع أولئك الأفراد الذين يُرثى لهم: «لقد مثّلوا أميركا كما كانت سنة 1965».

وأخبر منظّمي الحدث: «لن أقبل أن يدفع كل شخص من هؤلاء خمسةً وعشرين دولارًا من أجل صورتي، لو علم والدايَ بذلك لأُصيبا بالجنون». بدلًا من ذلك قال إنه هو مَن سيدفع 25 دولارًا أميركيًّا لمنظمة الحزب المحلية مقابل كل صورة ومصافحة.

خلال الأسابيع الخمسة السريعة تلك، حاول بانون أن يزور الكثير من الدوائر الرئيسية غير المضمونة النتائج انتخابيًّا. قد لا يكون بانون وترامب يتبادلان الحديث،

لكن بانون لا يزال يعتقد أنّه أفضل جنديّ في جيش ترامب. عمليًّا، كان الأمر على شكل ميم إنترنت: صور لبانون وهو يرتدي بنطلون «كارغو» وسترة نفخ، واقفًا في سلسلة لا تنتهي من الغرف المتفرّقة يخاطب مجموعةً صغيرة من الأشخاص.

لقد أعاد اللعبة إلى مسارها الوجودي. كان هناك ثلاثة وأربعون سباقًا انتخابيًّا رئيسيًّا في مجلس النواب: بينها عشرون سباقًا لا أمل منها؛ وعشرون تنافسًا آخر في وضع حرج. ولم يكن بإمكان الجمهوريين تحمل خسارةٍ تزيدُ على خمسةٍ من هذه السباقات؛ والثلاثة الباقية كان من المرجح أنها ستصبّ في مصلحة الجمهوريين بدلاً من الديمقراطيين. إذا سار كل شيء كما يريد الحزب الجمهوري، فإنه سيخسر اثنين وعشرين مقعدًا ليحافظ بالتالي على الأغلبية بصوتٍ واحد. ذلك الصوت الواحد من شأنه أن يضمن أمان ترامب. لكن إذا فقد الحزب الجمهوري أغلبيته حتى ولو بمقعد واحد، فإن ترامب سيكون في خطرٍ مستمر. غير أن خسارة ثلاثين مقعدًا أو أكثر ستكون بمثابة طوفان. ويرى بانون أن هذه الخسارة ستكون النهاية الفعلية لرئاسة ترامب.

في وقت محدّد من الأسابيع الأخيرة للحملة الانتخابية، زار بانون مدينة نيويورك لكي يرى صديقًا قديمًا مقرّبًا من ترامب، كان يراقب عن كثب حالة ترامب الذهنية. تساءل بانون عمّا كان ليحدث لو جاءت خسارة الجمهوريين حاسمةً حقًّا، وقامت الأكثرية الديمقراطية الجديدة بالهجوم على ترامب مستخدمةً مذكرات استدعاء وتحقيقات عدوانيّة ومراقبة مستمرة وعدائية. هل سيكون ترامب قادرًا على الصمود تحت وطأة كل هذه الضغوط، خصوصًا وأنه قد أقدم بالفعل على طرد غالبية من شكّلوا جهازه الداعم في السابق، أو على إخافتهم؟ أجاب بانون عن تساؤله: «أظن أنه سينتحر».

فأجاب صديق ترامب القديم: «لا، لا، سيدّعي بأنه أُصيب بنوبة قلبية».

نعم، ضحك بانون، هذه بالتأكيد ستكون طريقة ترامب للهرب.

أما رهانات بانون، فقد كانت واضحة: ستدوم رئاسة ترامب سنتين أو أربع سنوات، وسيكون ترامب خلالها إما رجُلاً لا يقهر وإما مهزوماً. في هذه المعركة النهائية، كان بانون يشعر أحيانًا وكأنه يمثّل الحزب الجمهوري، أو حزب ترامب، أو

حزب بانون منفردًا. كانت عملية ترامب السياسية، التي يقودها براد بارسكيل بديل كوشنر، تتجاهل انتخابات التجديد النصفي وتتطلع بأملٍ غير موثوق نحو العام 2020.

وبشكلٍ لافتٍ، لم يبق من حملة العام 2016 الانتخابية في فريق ترامب السياسي إلّا بارسكيل. بارسكيل، الذي كان مصمّم مواقع يعمل لحسابه الخاص من سان أنطونيو في ولاية تكساس، عمل في منظمة ترامب على تصميم مواقع رخيصة التكلفة لجزء كبير من العقد السابق، قبل بداية الحملة الانتخابية. أنشأ موقع الحملة الانتخابية الأول، وجرت ترقيته إلى مدير الإعلام الرقمي، وتحت إدارة كوشنر، مُنِح منصب المشرف على استهداف البيانات واستراتيجية جمع الأموال عبر الإنترنت. (لاحظ بانون أن إحدى مبادرات بارسكيل خلال الفترة التي سبقت انتخابات التجديد النصفي كانت إجراء استطلاعٍ للرأي عمّا إذا كان يجدر بترامب أن يستخدم لغة أكثر شمولية. قال بانون: «سينتج من ذلك مرحٌ صاخب»). ولمّا كان بارسكيل المخطط الاستراتيجي الرئيسي لترامب في واحدةٍ من أكثر اللحظات تحدّيًا في التاريخ السياسي المعاصر، فقد فضّل ترامب مرة أخرى اختيار الأقل خبرة على الأوفر خبرة.

جعل ذلك الأمر البيت الأبيض غير مستعد لحملة انتخابات التجديد النصفي؛ وفي كثير من النواحي، غير مكترثٍ لها، إن لم نقُل عدائيًّا تجاهها. وفي تقدير بانون لم يقدّم البيت الأبيض أي مساهمة تقريبًا في معركة انتخابات التجديد النصفي. قال كيلي أن ليس من مهمّاته المساعدة في هذا الأمر؛ وكان بالكاد يتحدث إلى ترامب. أما بيل شاين، مدير الاتصالات الذي أصبح الآن محطّ التركيز الأساسي لتهكُّم ترامب وشكاواه، فقد حاول أن يتوارى عن الأنظار. كانت بقيّة ورشة البيت الأبيض للإعلام والاتصالات في حالتها الفوضوية المعتادة؛ حتى أن ترامب كان يتجاهل الأمر في كل الأحوال. بيد أن دون جونيور وصديقته كيمبرلي غيلفويل كانا يقومان بجولات انتخابية كثيفة، إلّا أن إيفانكا ترامب، وهي الشخصية الوحيدة التي كان مؤيدو ترامب مقتنعين أن لديها فرصة في الحفاظ على الأصوات الأنثوية، كانت غائبةً أو مشغولةً.

كانت استراتيجية الحزب الجمهوري، وإن كنّا عند الحدّ الأدنى من الاعتقاد بأن لديه استراتيجية، تتمثّل في إنفاق مبالغ هائلة من أموال الإعلام وتجاوز اللعب في الميدان الأكثر تحدّيًا. بدا بانون واثقًا بأن السباقات الانتخابية المتقاربة يكون فيها

العامل الحاسم للنجاح العاطفة الكبرى والإخلاص في جمع البيانات من الناخبين والحصول على أصواتهم، والسير في الدوائر الانتخابية، وقرع أبواب الناخبين. «مَن يعمل بجدٍّ أكبر يفز»، هذه هي قناعة بانون. وفي ذروة الانتخابات هذه كان الديمقراطيّون هم الذي يقومون بالاتصالات والسير وقرع الأبواب.

قال بانون: «لم يكن هناك أي خطة منظُّمة لإنقاذ مجلس النواب. لقد بقيت القوات في مكانها... لم يكن هناك أي معركة، ولا أي انخراط». وعلى مسافة أسبوعين من الانتخابات، كانت أكثر حسابات القيادة الجمهوريّة تفاؤلًا هي خسارة خمسة وثلاثين مقعدًا.

استمر ترامب في جولاته، وتابع ملء مدرجات الملاعب في كل مكان اعتقد البيت الأبيض أن من الممكن ملأه. أما بانون، فقد رأى أن تلك التجمُّعات قد صارت رتيبةً وحنينًا إلى الماضي، ولم تعد حماسيّة كما كانت من قبل. غير أنها مكنّت ترامب من البقاء داخل فقّاعته السعيدة، سعيداً بالجماهير التي كانت تموج بالفرح عندما تراه، حتى مع تجاهله استطلاعات الرأي.

«ليس لديه أي فكرة عما يمكن أن يحدث، ولا أي فكرة لعينة»، قالها بانون. «هو مجنون كلّيًّا. يظن أن نانسي بيلوسي سيدة مسنّة مزعجة بدلًا من أن يرى فيها رصاصة حادّة الرأس موجهة مباشرة إليه».

* * *

ومع اقتراب يوم الانتخابات، بدا بانون كئيبًا، لكنه مع ذلك ظل واثقًا بقدرة الديمقراطيين الطوطمية على تخريب الأمور على أنفسهم. وبالفعل هذا ما حدث تماماً. ففي حين أن الديمقراطيين كانوا يحاولون إنهاء الصفقة، كان ألمع قادتهم يقدّمون مشهدًا لافتًا من الغرور والجشع. سافر كوري بوكر وكامالا هاريس إلى ولاية آيوا للبدء بحملات انتخابية للرئاسة. وكان بيل وهيلاري كلينتون في جولة جمع أموال حول البلاد («جولة ابتزاز»، بكلمات بانون). وحاولت إليزابيث وارين أن تبرهن أنها كانت من الهنود الحمر ولو من جذور بعيدة، عبر خضوعها لتحليل الحمض النووي، لكن النتيجة في النهاية جاءت على عكس توقُّعاتها.

ومع ذلك، كان بانون مندهشًا من لعبة الديمقراطيين التنظيمية الخالية من

العيوب تقريبًا. وعمد النواب الجمهوريون الحاليون والمرشحون لشغل المقاعد المفتوحة من دون استعجال، إلى رفع التكلفة القياسية لحملة انتخابية لمقعد مجلس النواب: حملة ممولة بشكل جيد تكلفتها 1,5 مليون دولار تقريباً. لكن مبالغ طائلة من المال قد انصبّت في سباقات الديمقراطيين إلى الكونغرس. وقد شكَّل ذلك المال الذي مصدره المموّلون الصغار والمموّلون الكبار، نهراً أخضر عظيماً من اليأس والأمل. فقد قام المُتَحَدّون الديمقراطيون بجمع مبالغ تصل إلى أربعة أمثال ما جمعه المرشحون الجمهوريون.

أنتجت انتخابات التجديد النصفي عالمين منفصلين من الإنفاق والمواد. أحدهما كان الوضع المعتاد للجمهوريين، مع قدوم أغلب الأموال من رؤوس الأموال الضخمة المعتادة؛ والعالم الآخر كان انفجارًا في أموال الديمقراطيين، انفجارًا كبيرًا إلى درجة تمكّنه من إزاحة الأشخاص الشاغلين لمناصبهم، والتغلُّب على آثار «الجيريماندرية»[18]، وتقديم طبقة كبيرة وحيوية من السياسيين غير المعروفين من قبل.

لم تكن المسألة أن الجمهوريين الوطنيين لم يكن لديهم ما يكفي من المال؛ فقد كان لديهم الكثير. المشكلة أنهم كانوا ينفقونه على السماء لا على الأرض. كانوا ينفقونه وكأن الانتخابات، إنما هي انتخابات تجديدٍ نصفيّ عادية وليست انتخابات فريدة من نوعها، لأن ترامب هو من يخوضها. بحلول يوم الانتخابات، كانت اللجنة الجمهورية الوطنية ولجان العمل السياسية للكونغرس، بالإضافة إلى مجموعات أخرى، ستنفق حوالى نصف مليار دولار على إعلانات تلفزيونية؛ هي حربٌ خاطفة تدفّقت نتائجها بشكل رئيسي على المستشارين الذين صمّموا الإعلانات. والأكثر من ذلك أنهم كانوا ينفقون جزءًا كبيرًا من ذلك المال على سباقات خاسرة بالفعل.

قال بانون: «كان على شيلدون»، وهو يقصد «شيلدون أديلسون» مالك سلسلة الكازينوهات والفنادق وأكبر مساهم للحزب الجمهوري، «أن يأخذ كل ماله ويقوم بحرقه أمام الفينسي»، الكازينو والمنتجع العملاق الذي يملكه والقائم على لاس فيغاس ستريب القريبة.

* * *

على سطح أحد المباني القريبة من مبنى مكتب قناة فوكس نيوز في واشنطن، ومع قبة مبنى الكابيتول في الخلفية، كان حزب بانون (مع ترامب أو من دونه) الشعبي الوطني يقيم حفلته لليلة الانتخابات، قُدّمت فيها مئات الشطائر من مطعم دين آند ديلوكا - Dean & Deluca، وعدد لا يُحصى من زجاجات الجعة المحلية. «ولم يكن هناك أي علامة تجارية شعبية»، كما لاحظ بانون.

كانت فكرة بانون أن يُستغل هذا الحفل لتلقين درس. ولسوف يكون مناسبةً اجتماعية، فضلاً عن كونه غرفة حرب لليلة الانتخابات، حيث سيقضي بانون وقته في بث فيديو مباشر على وسائل التواصل الاجتماعي، شارحًا الأرقام الانتخابية وآليات التعبئة لكل دائرة انتخابية على حدة، ليحرّك جمهوره المأمول من البائسين. لم يكن بانون يعمل على هذه الأمسية من أجل انتخابات التجديد النصفي فقط، حيث قال: «بعد دونالد ترامب، وسواء كان ذلك غدًا أو بعد عدّة سنين من الآن، يجب على الحركة أن تخرج من التصويت».

حل الظلام، ومع استمرار الحفل، كان بانون يحاول مواجهة كل التحديات التقنية والاجتماعية. أراد تقديم فيديو واضح لقبة مبنى الكابيتول. لكن كان على الكاميرا أن تصوّره عبر الستائر البلاستيكية السميكة التي تقي الحفلة من ليلةٍ عاصفةٍ وماطرة. وفضلاً عن ذلك، تعرَّض بث نقاد الجناح اليميني، والمواقع التي ستساهم في التعليق على مدار الليلة، للانقطاع المتكرر. ثم إن أعضاء الصحافة الفضوليين، ومجموعة بانون من الموالين لليمين البديل والممثّلين الأوروبيين لليمين المتطرّف، والعائلة والأصدقاء وكل الذين أرادوا مقابلة بانون شخصيًّا، قد تعرّضوا جميعًا لخيبة أمل، عندما اكتشفوا أن بانون قد بدأ، عند الساعة 6:30 مساءً، بالبث المباشر على وسائل التواصل الاجتماعي.

للساعات الست التالية، بقي بانون واقفاً، وهو يقوم بما يشبه مونولوجًا دوارًا. جلس سام نانبرغ على كرسي مجاور، وكان يُلقّمه أرقامًا وتعليقات. «أرجوكم، من دون أي آراء»، قالها بانون حين كان نانبرغ يحاول إقحام رأيه. «اقتصر على الأرقام».

فيما بدأت نتائج الانتخابات الأولى ترد تباعًا، تحوّل المزاج مباشرةً إلى التفاؤل. وبات واضحاً، منذ هذه الليلة، أن المنافسة الرئيسية ستكون في مجلس الشيوخ، وأن السباق الانتخابي في ولاية تكساس سيكون بين السيناتور الحالي تيد كروز والصاعد حديثًا بيتو أوروك؛ وأنّ المتحدي سيبقى مستاءً. وربّما كان استياؤه هذا سبب تحطّم الحزب الجمهوري. بدا السباق الانتخابي على منصب حاكم ولاية جورجيا، الذي تنافس عليه كل من ستايسي أبرامز، الديمقراطية التي كانت ستصبح أول امرأة تتولّى منصب حاكم جورجيا وأول من يتولّى هذا المنصب من أصولٍ أفريقية، سباقاً جيّداً. كذلك مثّل خسارةً كانت ستهزّ الحزب وبقوّة. وفي ولاية فلوريدا، أصبح السباق الانتخابي لمنصب الحاكم والسباق لانتخاب سيناتور، اللذان كانا مؤخَّراً يصبّان في مصلحة الديمقراطيين، يصبّان الآن في مصلحة الجمهوريين.

وفي وقت سابق من تلك الليلة، أعلن بانون أن باربرا كومستوك هي «مقياس لليلة». سوف يحدث مع الحزب كما حدث مع كومستوك في الدائرة الانتخابية العاشرة في فيرجينيا. ففيرجينيا 10، التي تمثل عيّنة عظيمة لضواحي العاصمة الجنوبية، هي منطقةٌ تبلغ نسبة السكان البيض فيها 70%، وتميل باعتدال نحو الجمهوريين. ومنذ العام 1980، أرسلت المقاطعة تدفقًا مستمرًا من الجمهوريين إلى مجلس النواب.

كومستوك، وهي خرّيجة جامعة ميدلبري ومركز الدراسات القانونية بجامعة جورج تاون، وتبلغ من العمر تسعة وخمسين عاماً، وهي أم لثلاثة أطفال، كانت نوعًا جمهوريّة مثالية تعيش حياة مترفة، وكانت صديقة للمرأة والأعمال. ولمّا كانت تعيش خارج العاصمة، فقد كانت مثل العديد من ناخبيها، شخصيةً تمثل بشكل كامل داخل العاصمة. كان عملها في الكابيتول هيل، كمساعدة في الكونغرس، وكمحامية، وكمستشارة علاقات عامة، جمهوريًّا بقوّة. ومع ذلك كانت تعرف كيف تتعاون مع الديمقراطيين. الآن، وفيما هي على مشارف نهاية ولايتها الثانية في الكونغرس، ظلّت تحتفظ بمكانتها المميزة في حزبها، على الرغم من اتهامها بأنها لم تكن محافظة كفاية. ولكن في المحصّلة النهائية، اعتبرها الحزب مُرشحّةً قويّةً في مقاطعة غير محسومة انتخابيًّا. وفي بداية الدورة الانتخابية، اعتُبِر مقعدها آمنًا.

ولكن، في منتصف الصيف، حين بدأت الموجة الأولى من استطلاعات الرأي المقلقة في إثارة انتباه الجمهوريين، كانت كومستوك متأخّرة بعشر نقاط. كانت

مُنافستها جينيفر ويكستون مثل كومستوك، محامية وشخصيةً سياسية محلية؛ والفرق الحقيقي الوحيد بينهما هو أنها كانت ديمقراطية معتدلة، وكانت كومستوك جمهورية معتدلة. وطوال الحملة الانتخابية، كان بانون يعتقد أن على الحزب الجمهوري أن يشطب كومستوك من حساباته، وأن يضع موارده في معارك واعدة أكثر. لكنها كانت شخصية ذات شعبية في الحزب، وكان رأي المؤسسة السائد، هو الآتي: إذا كان هناك معركة يجب خوضها للأصوات المترجّحة، فإنّها، كامرأة معتدلة في منصبها الحالي، يجب عليها أن تخوض المعركة، ويجب على الحزب دعمها.

بحلول شهر تشرين الأول/أكتوبر، أصبحت فيرجينيا 10 أحد أكثر السباقات الانتخابية لمجلس النواب الجمهوري في البلاد. لكن، في الأيام التي سبقت الانتخابات، أشارت استطلاعات الرأي الداخلية إلى أن كومستوك متأخّرة بـ 4% فقط. وما بدا من قبل سباقاً خاسراً للجمهوريين، أصبح سباقًا متقاربًا جدًّا. ومع دنوّ يوم 6 تشرين الثاني/نوفمبر، نُقلت أرقام فيرجينيا 10 إلى الرئيس، مع رسالة فحواها أن الحزب يتقدّم بشكلٍ أفضل كثيراً مما كان متوقعًا مع الأصوات المترجّحة. وقيل لترامب إنهم يعودون إلى الصدارة.

«قال بانون متفائلاً، بُعَيد حفل ليلة الانتخابات: سوف نسيطر على مجلس النواب في حالة عجز كومستوك البالغ 4%، أو أدنى. «إنها مسألةٌ محسومة».

لكنَّ صدور نتيجة سباق كومستوك الانتخابي كان من النتائج الأولى الواضحة لمقاعد مجلس النواب في تلك الليلة. فقد أُغلقت صناديق الاقتراع في الدائرة الانتخابية العاشرة عند الساعة 7:00 مساءً؛ وبحلول الساعة 7:40، ومع حساب 56% من الأصوات، والتي تشمل مناطق كومستوك القوية، كانت متأخّرةً بست عشرة نقطة.

عند سماعه لهذه النتيجة المُبكرة، استدار بانون نحو نانبرغ قائلًا: «ما هو ذلك الرقم؟»، وهو لا يزال يتخيّل أن الليلة قد تجلب الغنائم والمجد. وكان متشككًا: «هل يمكن أن يكون ذلك صحيحًا؟».

«يبدو الأمر كذلك».

«تحقَّق منه».

«لقد تحقّقت».

وبينما كان بانون يقف على السطح، وقبة مبنى الكابيتول وراءه، تغيَّر مزاجه، في لحظة واحدة، وانقلب من متفائل إلى يائس.

* * *

بقدر ما سبَّبت أرقام كومستوك الاكتئاب لبانون، كان للتقارير، التي تلقّاها عن حفل آخر يبعُد سبع دقائق، الوقع ذاته.

في الغرفة الشرقية الرسمية للبيت الأبيض، كان طاقم الرئيس قد نظُّم حفل شواء كالّذي نظّموه بمناسبة يوم الانتخابات، وقُدّمت فيه شطائر الهامبرغر والهوت دوغ. لقد كان حدثًا لكبار المانحين. فشيلدون أديلسون، الذي تبلغ ثروته 34 مليار دولار، كان هناك إلى جانب هارولد هام قطب النفط الصخري، والذي تبلغ ثروته 13 مليار دولار؛ وستيف شوارزمان، الرئيس التنفيذي لشركة بلاكستون، الذي تبلغ ثروته 12 مليار دولار، ودان جيلبرت»، مؤسس «كويكين لونز» ومالك العديد من الامتيازات التجاريّة الرياضية، والذي تبلغ ثروته 6 مليارات دولار مايكل ميلكين، المقاول السابق في وول ستريت، وملك سندات الخردة الذي سُجن في مطلع التسعينات لممارسته تداول الأسهم من الداخل، والذي تبلغ ثروته 4 مليارات دولار، ورون كاميرون، قطب دواجن من ولاية أركنساس؛ وطوم باراك، صديق ترامب وقطب تجارة العقارات الذي أدار مراسم تنصيب الرئيس، وتبلغ ثروة كل منهما مليار دولار. كما كان يحضر الحفل فرانكلين غراهام ابن الواعظ الإنجيلي بيلي غراهام، الذي لم يتوانَ قط عن دعم ترامب؛ وبيتسي ديفوس، الوزيرة الوحيدة التي كانت حاضرة (وهي مليارديرة أيضًا). كان نائب الرئيس وزوجته يجولان بين الضيوف، كما كان يفعل براد بارسكيل، ممثّلًا حملة العام 2020 الانتخابية، وعمليات الرئيس السياسية.

اعتبر بانون حفلة البيت الأبيض صفعةً شبه شخصيةً. وقد أعادته الأسابيع التي قضاها مسافرًا إلى بعض الاعتبارات الميتافيزيقية حول روح أميركا. وكما رأى الأمر، كان كل شيء تقريبًا يؤخذ يومًا بعد يوم من الطبقة العاملة في البلاد، أي من بائسيه الذين لا يزالون يشكّلون قلب الأمة الحقيقي إلى حدّ ما. تحدّث بانون عن

«صدقهم الريفي، وحكمتهم الريفية، وولائهم الريفي»، حيث بدا مثل تولستوي في حديثه عن الشعب الروسي. بعد قيادته حملة ترامب الانتخابية نحو الانتصار، أمِل بانون أن يحلّ عهد جاكسوني جديد في البيت الأبيض؛ بدلًا من ذلك كانت حاشية من طبقة المليارديرات المانحين للحزب الجمهوري تأكل شطائر الهامبرغر والهوت دوغ في الغرفة الشرقية.

لقد كانت ازدواجية ترامب المأساوية: كان يحتاج إلى هدير الحشود، وإلى تملّق المليارديرات. بعد الفوز في العام 2016، التقى بانون مع الرئيس المنتخب وصديق ترامب طوم باراك لمناقشة خطة مراسم التنصيب. ناقش بانون مسألة أنهم يجب أن ينفقوا مبلغًا أقل من أقلّ مبلغ جرى إنفاقه في العصر الحديث على مراسم التنصيب حتى ولو كان ذلك بمقدار دولارٍ واحد. لقد كانت هذه رئاسة شعبية، لذا ينبغي أن يكون مظهرها الأول مراسم تنصيب منخفضة التكاليف. لكن باراك تحدَّث عن مدى سهولة جمع مبلغ من المال أكبر من أي مبلغ جُمع من قبل. أعطه أسبوعين ويمكنه جمع 100 مليون دولار. أعطه أربعة أسابيع ويمكنه أن يجمع 400 مليون دولار. كانت الفرصة غير محدودة.

لم يفكّر ترامب كثيرًا في قراره بشأن الطريقة التي سيختارها. ولكن بانون، الذي كان يعرف خفايا الأمور، فهم من أيّ زوايا العالم سيأتي هذا المال.

«هذا اللقاء سيُعاد مرّات عدة»، توقع بانون. «لقد وُضعنا على طريق الهلاك. لا شيء جيد يمكن أن ينتج من ذلك اللقاء. أنت تعتقد أنك لا تعرف ما الذي سيفعله ترامب. سوف تقع مفاجأة تُحدث في الرأس اضطراباً كلّيًا. لكن، في الواقع، لا. هو يفعل ما هو مبرمجٌ على القيام به».

* * *

رأى بانون، في معركة انتخابات التجديد النصفي لمجلس النواب، مسابقة يمكن الفوز بها. وبالدرجة نفسها، رأى، في تلك اللحظة، كل ما كان يجري في البيت الأبيض، حيث يقف كل المانحين جنبًا إلى جنب في الغرفة الشرقية، على أنه جزء آخر من هذه المعركة. كانت هذه أكثر معارك ترامب جوهرية، معركة كان يمكن الفوز بها أيضًا. لكن هذه المعركة في ذلك الوقت، كان يحتمل أن تكون خاسرة.

لكن، في نظر بانون، ظلت الصين هي كلّ شيء. كانت هي المفتاح، والشيطان الكامن في التفاصيل. وترامب فهم الفكرة: «الصين سيّئة».

هُنا، أقصد الصين، دولة ديكتاتورية ذات اقتصاد تتحكَّم به الحكومة. ومن خلال قدرتها على التلاعب بالعملة، والدعم الحكومي للأسعار، أعادت توجيه سلسلة الإمدادات العالمية. وخلال نصف جيل فقط حوّلت مواطنيها البالغ عددهم 1,4 مليار إلى أسرع أسواق العالم نموًّا، لتجعل أسواق رؤوس الأموال والطبقة السياسية الغربية خاضعتين لإرادتها... يبيّن مخطط بانون البياني، أن سيطرة الصين تعني خسارة الولايات المتحدة لقاعدتها الصناعية بصورة دائمة. فالأشخاص الذين لم يتلقّوا تعليمًا جامعيًّا، والذين يعدّ أغلبهم من المصوّتين لترامب، مثّلت لهم وظائف الصناعة البطاقة الوحيدة الأكثر موثوقية لهم لبلوغ الطبقة الوسطى. إن طبقة الصين الوسطى المكتظّة خُلقت على حساب طبقتنا الوسطى، عبر الحط من شأن قاعدة الولايات المتّحدة الصناعية ونقلها، من ثَمَّ.

آمن بانون أن هذا كان المعركة الجوهرية داخل إدارة ترامب. فإذا تمكّن أولئك، الذين يفهمون التهديد الصيني، من الفوز، أو حتى من الصمود في هذه المعركة الملحمية، فإن ذلك سيكون حدثًا مميزًا، يذكره الناس بعد مئة عام من الآن.

لكن، منذ البداية، كانت المعركة الأولى داخل الإدارة حول مسألة تركيز ترامب المحدود والسطحي. فما إن تتحرّك البوصلة من «الصين سيئة» إلى «الصين معقّدة جدًّا»، حتى يصبح ترامب خارج الغرفة. في تلك الأثناء، كانت المعركة من حوله مستمرة؛ فمعركة بانون كانت معركة الشعبويين ضد جمهور وول ستريت؛ كانت معركة أجر يوم جيد ليوم عمل جيد، ضد تراكم رأس المال العالمي. كانت خوض حرب اقتصادية ضد خصم اقتصادي هائل مقابل إدارة التدهور. كان ركوب قطار الصين إلى نظام عالمي جديد نشاطًا مربحًا جدًّا لأسواق رأس المال؛ لكنه كان مُحطِّمًا لمستقبل وظائف العمال والعاملات الأميركيين.

ومع ذلك، كان بانون يرى أنهم قد نجحوا في ميدان المعركة هذا. هنا كان إنجاز السنتين الفائتتين. فقد تحوّلت أمّة وجهاز سياسي من كونهما غير مهتمّين من قَبْلُ بالصين، أو غير راغبين باستضافتها، إلى أمّة وجهاز سياسي انقلبا عليها بشراسة. الآن يتشارك عدد متزايد من أفراد المؤسسة في إيمانهم بالاعتقاد الأساسي

لبانون (وترامب): «الصين سيّئة».

كل يوم سبت، عندما يكون بانون في واشنطن، يكون بيتر نافارو، الخبير الاقتصادي المناهض للصين، الذي جنّده بانون في البيت الأبيض من أجل خوض المعركة ضد أصدقاء كوشنر المؤيدين من وول ستريت، يركب دراجته الهوائية إلى «سفارة» بانون، ويصعد إلى غرفة الطعام في الطابق العلوي. هناك كان الرجلان يقضيان نصف يوم في التخطيط ضد خصومهما في التجارة الحرة العالمية. أثناء جلوسهما إلى طاولة بانون، وضعا خطة لاستخدام تدابير الطوارئ بغية فرض رسوم على الحديد والألومنيوم والتكنولوجيا. وكما توقعا، سرعان ما أصبحت الصين، التي لا تقبل المنافسة، الصين القلقة جدًّا. في وقت قصير نسبيًّا، استطاعا أن يردّا خصمهما على أعقابه.

هذا التغيير الحاسم في وجهة النظر كان هو الذي حقّقه البيت الأبيض بإدارة ترامب. أو بشكل أدق، هذا التغيير حقّقته دائرة صقور الصين الصغيرة في معركتها مع دائرة ترامب من المصرفيين وأصدقاء المصرفيين.

لكن المعركة لم تكن قد انتهت. ذلك أنّ شوارزمان الذي استثمرت مجموعته (بلاكستون) بكثافةٍ في النمو الصيني، كان يعتبره بانون ونافارو عميلًا صينيًا حقيقيًّا، بسبب علاقته بكوشنر وبسبب ملياراته؛ وهو الذي كان له تأثيرٌ هائل في ترامب. فعبر الإقناع والإلهاء، كان يمكنه أن يقلب إصرار ترامب من أنّ «الصين سيئة» إلى شيء يشبه عدم الاهتمام.

«الستيفان الاثنان» قالها ترامب في إحدى المرات شبه ممازح، وكأنه يهدّد كلًّا منهما بالآخر.

عندما وقف بانون على سطح مكتبه الإذاعي في تلك الليلة، وشاهد خريطة الانتخابات تتدهور، عرف أن الاستيلاء الديمقراطي على مجلس النواب لن يدعم قضيته الكبرى. تمثّل الديمقراطيون في حزب جولدمان ساكس، وكان بنك جولدمان ساكس بنك الاستثمار الصيني. وإذا احتاج ترامب إلى إنقاذ نفسه من الكونغرس الديمقراطي، فمن المؤكد أنه سيبرم صفقة مع الصينيين، من شأنها أن ترضي جولدمان ساكس.

قال بانون خلال استراحة من بثّه: «سوف يعقد صفقة ضخمة مع الصين». «سوف تحلّق سوق الأوراق المالية في السماء. سوف يحب شوارزمان ذلك، وستقول وسائل الإعلام إن ترامب قد نجح. لكن الأمر سوف يكون كارثةً في الحرب الحقيقية التي نخوضها».

* * *

كان حفل الشواء في الغرفة الشرقية قد بدأ منذ ساعة ونيّف عندما وصل الرئيس. كانت نتائج الانتخابات المُبكرة لا تزال ترد معلنة ما يكفي لإبقاء جو الغرفة مبتهجًا واحتفاليًّا. لاحظ أحد الضيوف أن ترامب غالبًا ما يتصرّف كرجل مبيعات أكثر من كونه سياسيًّا، فقد بدا وكأنّ لديه القدرة على التركيز في الأخبار الجيدة فقط. كان الرئيس يرى أن النتائج الإيجابية المحدودة في هذه الليلة قادرة على إزاحة السمة المظلمة الواضحة وبشكلٍ كامل.

فقد خاطب أحد الضيوف، قائلاً: «إنها لليلة عظيمة. رائعة. لقد هُزِموا. سُحِقوا. أغلبية كبيرة. كبيرة. موجة؟ أي موجة؟ موجةٌ حمراء. موجةٌ حمراء بالكامل». وجد الضيف نفسه يركض كمن أصابته صاعقة مفاجئة. فقد ظنّ للوهلة الأولى أن الرئيس كان جادًّا، ثم ظن أنه كان يتهكم، وأدرك أخيرًا أن هذا كان استنتاجه الصادق.

في الواقع، لم يظهر ترامب عازمًا على رؤية النتائج بالطريقة التي أراد أن يراها بها. لكن ببساطة لم تكن لديه معلوماتٌ كافية لإجراء تقييمٍ جدي. وبتميزه من جميع المهنيين السياسيين تقريبًا، اتضح أنه لم يكن مهتمًا بالبيانات الفعلية. كالعادة، كانت الأرقام تشعره بالملل.

حتى براد بارسكيل، عين الرئيس السياسية وأذنه، بدا على درجة أكبر من الاطلاع، ممّا أبقى الرئيس متفائلًا. كان لدى البيت الأبيض دائماً بياناتٌ أفضل وأسرع من أي شخصٍ آخر في أي مكان. لكنّه هذه المرة كان بطيئًا في جمع الأرقام ومعالجتها، أو غير مهتم بإجراء ذلك. فقد عبّر أحد ضيوف ترامب قائلًا: لم تكن المسألة أن ترامب كان يمر بيومٍ سيىء في لعبته، بل ظهر وكأنه لم يشارك قط في اللعبة بحدّ ذاتها. يعتمد نجاح الليلة أو إخفاقها على بضع عشرات من السباقات

الانتخابية لبضعة مقاعد في مجلس النواب. لكن ذلك كان مجرد أشياء صغيرة، تتجاوز تركيزه. لقد بدا أن ترامب غير قادر على استيعاب أن هذه الليلة كانت ليلة قد ينجم عنها فوزه بالرئاسة أو خسارته لها.

* * *

في الساعة 9:33 مساءً بالتوقيت الشرقي، قال بانون لسام نانبرغ: «تبًّا، إن هذا مستحيل».

في تلك اللحظة الصاعقة، كانت فوكس نيوز أول شبكة إخبارية تعلن نتيجة المعركة للسيطرة على مجلس النواب. فقد ذكرت أن الديمقراطيين سيفوزون بالأغلبية، مع كل مذكّرات الاستدعاء والمراقبة والسلطة التحقيقية التي ترافق ذلك.

أضاف بانون مصعوقاً بحق: «توقّف، لا بد من أن هذه مزحة... هم يعلنون عن هذا الآن؟».

كانت شبكات الأخبار الأخرى تستقي معلوماتها من شركة بيانات الاستطلاعات «إديسون ريسيرش». وكانت فوكس تعتمد على وكالة الأنباء أسوشيتد بريس. فقد جاءت توقّعات النصر الديمقراطي في وقت كانت فيه الأخبار لا تزال تبدو جيدة نسبيًّا للجمهوريين. كانت الساعة قد جاوزت السادسة والنصف بقليلٍ على الساحل الغربي. وربّما أسهم استمرار الاعتقاد بأن الحزب الجمهوري لا تزال لديه فرصة أن يصارع للفوز في مجلس النواب، في تشجيع الجمهوريين على الإدلاء بأصواتهم في سلسلة من السباقات الانتخابية المتقاربة في الولايات الغربية.

شطب بانون المسابقات الانتخابية في كاليفورنيا والأماكن الأخرى التي لم يحسم أمرها حتى الآن. فمن أصل عشرين سباقاً كان يُرجَّح الفوز فيها، كانت صناديق الاقتراع لا تزال مفتوحة في اثني عشر سباقًا. بتقديره، كانت نتيجة بعض تلك السباقات قابلة للحسم بأقل من ألف صوت.

كان قرار إعلان نتيجة الانتخابات مع بقاء تسعين دقيقة على وقت التصويت في بعض أجزاء البلاد، قد وقع على عاتق لاكلان مردوخ، الرئيس التنفيذي الجديد لفوكس. وافق مردوخ الأصغر، الذي يحاول الآن التحايل على والده الأكثر تحفظًا

وممارسة لسلطته على الشركة، على الإعلان المبكر للنتائج.

كان بانون يقف مذهولاً عند مكتبه الإذاعي المؤقت محاولًا إحصاء الأضرار، ولاسيما التي لحقت بسباقات كاليفورنيا المتقاربة. قال عندئذٍ: إن أسرة مردوخ قد أطلقت من فورها صاروخًا في مؤخّرة ترامب».

رأى بانون أن إعلان فوكس المبكر كان بمثابة تصريح. وهذه ملاحظة تحذيرية أخرى لمستقبل ترامب. لم تكن الشبكة، التي تميّزت بدعمها الشديد لترامب، لتلغي الأصوات المتبقّية، التي جرى الإدلاء بها، بحسب توقيتَيْ منطقة جبال روكي، والمحيط الهادئ، لو لم تكن ترغب في ذلك.

* * *

خلال الساعات الأربع التالية، وأثناء بثهما للفيديو على وسائل التواصل الاجتماعي، قام بانون ونانبرغ بفرز الأرقام وتقارير الدوائر الانتخابية. وعلى مدار المساء، شاهدا معظم سباقات بانون العشرين المترجّحة تسقط لمصلحة الديمقراطيين.

كان موضوع الانتخابات البارز في تلك الليلة غامضاً إلى أقصى حد. فأي سباق لمجلس النواب يمكن أن يخسره الجمهوريون، فهم سيخسرونه. وللحصول على مقعدٍ مُتنافسٍ عليه، احتاجوا إلى ضمان مؤكّد للحصول على الأغلبية الجمهورية. أما الذين لم يحسموا أمرهم، أو الذين هم في منتصف الطريق، أو المترجّحون، وكلّ شخص لم يكن متحمسًا لدونالد ترامب، فقد صوّتوا بأغلبية كبيرة، لمصلحة الديمقراطيين، أو ضد الجمهوريين. كان الأمر سيئًا للغاية إلى درجة أن الأمر متى انتهى، قد يخسر الجمهوريون مجلس النواب بفارق 8% أو 9%. أرسل بانون نانبرغ سريعًا لتقصّي السقف التاريخي الذي قد يُهدَّم هنا.

وكمقياس لمعنويات الناخبين، كان من الصعب أن تكون نتائج مجلس النواب أكثر وضوحًا. فالخريطة الانتخابية قد ترسَّخت. بمعنى ما، لم يتغيّر الأمر عمّا كان عليه عام 2016. كان هناك بلد مع ترامب، وبلد مناهض لترامب. كان الناخبون ذوو اللون الأحمر أكثر تعنتًا، وكذلك كان المتشدّدون من ذوي اللون الأزرق. كان الناخبون البيض الريفيون إلى حدّ بعيد مع الرئيس. وكان ترامب يعزّز مكاسبه وقوته في تلك المناطق. وكان الناخبون في المناطق الحضرية والضواحي، الذين قاموا

بتشكيل هوية فلسفية وسياسية جديدة على أساس معارضتهم الشغوفة لترامب، يطردون حتى الجمهوريين، الذين ظلّوا يسعون للوصول إلى حل وسط، من مناصبهم. بقدر ما كان هناك في يومٍ من الأيام حلٌّ وسط، لم يعد له أي أثر الآن. ولكن هنا مثلَت الحقيقة الرئيسية: كان جانب ترامب، على الرغم من تفانيه، أقل، وبهامش ساحق، من الجانب المناهض لترامب.

بحلول الوقت الذي انتهت فيه ليلة الانتخابات، شعر بانون، بل تأكّد إلى حدّ ما، أن الجمهوريين سيحصلون على مقعدين إضافيين في مجلس الشيوخ، بل ثلاثة. لكن تلك النتيجة لم تبهجه على الإطلاق، لم يكن الأمر إيجابيًّا أمام ترامب. فالحفاظ على مجلس الشيوخ لم يكن انتصارًا، بل كان نتيجة قاتمة. لقد أشار ذلك فقط إلى أن التفاصيل الدقيقة، وتوقيت مصير ترامب التعيس، والجزء الدقيق من القسوة والإذلال الذي سينتج من ذلك، سوف نكون في يد ميتش ماكونيل. لكن مجلس النواب والحفاظ عليه كانا مسألة حياة أو موت. الآن بات بانون متأكدًا من أن فترة الرئاسة ستكون لعامين قادمين.

الفصل الثاني والعشرون
التعطيل

في صبيحة يوم الأربعاء السابع من شهر تشرين الثاني/نوفمبر، أجرى ترامب اتصالات هاتفية عدّة مع أصدقائه. وصف أحدهم محادثته مع الرئيس بأنها: «غريبة... إن كلامه من عالم آخر». بدا ترامب وكأنه غير مدرك أن نتائج انتخابات التجديد النصفي لم تصبّ في مصلحته، وأنه يواجه نكسة سياسية مُقلقة. بدا أنه، بالاستناد إلى محادثاته الأخرى في ذلك الصباح، يعتقد بتقدُّمه من الناحية السياسية، مع مجلس الشيوخ. «يا له من نصر كبير».

لم يجادل الصديق. واستنتج أن أي شخص آخر تحدث إليه الرئيس لم يجادله كذلك. «نصر كبير، نصر كبير، نصر كبير»، ردَّدها ترامب. «هذا ما كنا ننتظره».

تابع الرئيس ليخبر صديقه أن «خطة الانتصار» جاهزة تمامًا. سيشنز الأحمق سوف يُطرد. مولر سوف يُقيّد.

سأله الصديق: «إلى أي مدى يمكن أن تصل؟». وقصد بذلك السؤال الآتي: هل سيحاول الرئيس الآن بإغلاق مكتب المدعي الخاص؟

«إلى نهاية الطريق»، أجابه الرئيس.

كذلك تحدث الرئيس بثقة عن نانسي بيلوسي، الرئيسة الجديدة المرجّحة لمجلس النواب. أخبر صديقه أنه يأمل أن تنجح، وألا «يصوّت المتمرّدون ضدها». لقد كانت على مشارف التاسعة والسبعين، هكذا كرّر مرّات عدّة. وأشار إلى أنها تبدو

جميلة. وعلّق قائلاً: إن الحفاظ على مظهرها لا بُدّ أنه يستغرق زمناً. وفي الوقت نفسه، قال إنهما يتفقان عموماً. يتفقان بشكل جيد. ولطالما فهم أحدهما الآخر.

سيكون أمرًا رائعاً إذا أصبحت متحدّثة رسمية مرة أخرى. هذا ما أرادته. وقال إن الجميع كانوا يحصلون على ما يريدون. وكان يعرف كيفية التعامل مع نانسي. لا مشكلة. كان يعرف ما تريد. إنها تريد أن تبدو جيدة. قال الرئيس: «أنا أعرف كيف أرتب هذا الأمر».

مع انتهاء انتخابات التجديد النصفي، سيكون أخيرًا قادرًا على القيام بكل شيء أراد القيام به. قال ترامب: «اليوم هو اليوم الأخير لابن العاهرة كيلي. إنه مطرود». (في الواقع، سيبقى كيلي في منصبه شهراً آخر).

أصرّ ترامب قائلاً: «إن كل شيء سوف يكون مختلفًا. سوف يُجرى تنظيم جديد كلّيًّا».

مع استمرار المحادثة، اعتقد الصديق أن ترامب كان يشعر بأنه معاقب. في اليوم التالي للانتخابات الكارثية، ربما كان يعد نفسه عقليًّا لما كان ينتظره. لكن الصديق فهم أن الرئيس، الذي لا يزال في نشوة بعد حوالي ثمانية أسابيع متتالية من التجمُّعات اليومية في الاستادات الرياضية، لم يكن لديه، فهم واضح لما حدث، ولم يكن لديه أي شعور على الإطلاق بما ينتظره.

* * *

في صباح اليوم التالي لانتخابات التجديد النصفي، ذكّر بانون كثيرين من أعضاء فريق ترامب الأصلي، أولئك الذين دخلوا البيت الأبيض منذ عامين تقريباً، أي في 20 كانون الثاني/يناير من العام 2017، باجتماع عُقد بعد ثلاثة أيام من مراسم تنصيب الرئيس، وصادف أول يوم عمل لإدارة ترامب الجديدة. كانت تلك مناسبة تقليدية في فترة ما بعد التنصيب، حيث دُعيت قيادة الكونغرس لمقابلة الرئيس وطاقمه.

كان راينس بريبوس وستيف بانون يجلسان إلى يمين الرئيس الجديد. وكانت نانسي بيلوسي تجلس مقابلهم. عندما نظر بانون إلى زعيم الأقلية في مجلس النواب،

شعر برعشة تسري في عموده الفقري. انحنى مقتربًا من بريبوس، وهمس قائلاً: «يمكنها أن ترى من خلالنا».

كانت بيلوسي، المحترفة، تقيّم أكثر فريق غير مطلع، وغير مجهّز، وغير مستعد على الإطلاق لأن يأتي إلى البيت الأبيض. لقد أدرك بانون أنها اضطرت إلى ممارسة أقصى درجات ضبط النفس حتى لا تنهار في صدق وقح. شعر بانون أن ما بدت تشعر به هو شفقة أكثر من كونه ازدراءً. لقد رأت المستقبل.

قد تكون المؤسسة الحاكمة قد تعرّضت لضربة في الصميم جرّاء انتخاب دونالد ترامب. وقد تكون جميع القوى الفعلية تعتزم التفكير في طريقة لمقاومة دونالد ترامب، وإزالة إدارته في نهاية المطاف. لكن بيلوسي، كما شعر بانون، رأت الحقيقة الكبرى، وهي أن إدارة ترامب ستزيل نفسها بنفسها. لم يكن أحد في البيت الأبيض، ولا سيما دونالد ترامب نفسه، قادرًا على النجاح في التمسك بالسلطة، التي هي أشبه برقصة معقدة، وتمثّل تحدّياً أكبر كثيراً من بلوغها.

قال بانون: «كانت تعلم أنّها بأمان، فهي عرفت أنها سوف تملكنا في غضون عامين. لذا، لم تكن هذه مأساة لها، بل كانت متعة». ولم يكد يمر يوم منذ ذلك الحين من دون أن يفكر بانون في الكيفية التي نظرت فيها بيلوسي إليهم من الجهة الأخرى للطاولة.

* * *

كان العمل الأهم للرئيس في 7 تشرين الثاني/ نوفمبر، هو طرد المدّعي العام الفيدرالي أخيرًا. وهو أكثر مَن يكرهه في حكومته. وكان هو، في المقابل، يكره الرئيس، الذي لم يضيّع أي وقت. فبحلول الظهيرة قَبِل استقالة سيشنز، ونشر تغريدة شكر.

أعلن ترامب أيضًا عن الجزء الثاني من «خطة النصر» الخاصة به، المتمثّل بتعيين ماثيو وايتاكر مدّعياً عامًّا فيدراليًّا بالنيابة؛ وهو محام مخلص تنقّل في أرجاء الإدارة ولديه عدد قليل من المؤيدين إلى جانب ترامب. لم يكن وايتاكر، الذي يواجه مجموعة كبيرة من النزاعات، وله سجل قانوني غير مثير للإعجاب، خيارًا ذا شعبية، حتى في مجلس الشيوخ الجمهوري. ولكن، كان واضحاً أنه محاولة ترامب

الأخيرة لتقويض وزارة العدل، وحماية نفسه من تحقيقات المدّعي الخاص. كان أمل الرئيس واضحًا جدًّا في أن يقدّم مولر نتائجه إلى وايتاكر، الذي سيقوم بدوره بحجز التقرير، ومنح ترامب الفرصة لشن هجوم ضده.

كان دور وايتاكر الجديد على رأس وزارة العدل، ينعم بمباركة مكتب المستشار القانوني في وزارة العدل؛ وهو المكتب نفسه الذي أصدر رأياً فحواه أن من غير الممكن توجيه الاتهام إلى الرئيس. لقد أعلن مكتب المستشار القانوني في وزارة العدل بلباقة، أن الرئيس يستطيع أن يعيّن، مؤقتاً، ومن دون مشورة مجلس الشيوخ وموافقته، شخصًا لمنصب المدّعي العام الفيدرالي، ويكون بإمكانه أن يشغل ذلك المنصب لمدة 210 أيام، أو لفترة أطول، إذا كانت عملية تثبيت المدعي العام الفيدرالي في منصبه بشكل دائم جاريةً على قدم وساق. كان هذا الحل الأمثل لترامب: فقد بات لديه أخيراً مدّعٍ عام فيدرالي يعمل لحسابه.

بعد فترة وجيزة من تعيين ويتاكر، عمد جورج، زوج كيليان كونواي، وكذلك محامي شركة واشتيل ليبتون، ونيل كاتيال، الذي خدم في عهد أوباما لمدة عام كمدّعٍ عام فيدرالي بالنيابة، إلى نشر مقال في صحيفة نيويورك تايمز، زعموا فيه أن تعيين وايتاكر لم يكن دستوريًّا. وكان الهدف من ذلك المقال إعطاء دفعة قوية لأي صراع سيأخذ بهذا التعيين إلى المحاكم، كما أنه سيزوّد الكونغرس الجديد بالذخيرة اللازمة لمقاومة أي تحدٍّ مع مولر.

في ذلك اليوم، تكلم ترامب أيضًا إلى شيلدون أديلسون، الملياردير الذي كان ترامب المستفيد الرئيسي منه. فقد طالب أديلسوف، مقابل 113 مليون دولار أنفقها على انتخابات التجديد النصفي، بضمان واحد فقط، هو انتخاب داني تاركانيان، مرشّحه المختار بعناية في دائرة الكونغرس الثالثة بولاية نيفادا. ولكن، من سوء حظه سقط تاركانيان في الموجة الديمقراطية. ورأى أديلسون، أنه لم يتلقَّ أي عائد مقابل استثماراته.

قال ترامب المعني بالموضوع المتّصل به: «يبدو شيلدون غاضبًا جدًا».

* * *

في يوم الجمعة، 9 تشرين الثاني/نوفمبر، سافر ترامب إلى فرنسا للمشاركة

في احتفالات إحياء ذكرى مرور مئة عام على نهاية الحرب العالمية الأولى (كان كتابه المفضَّل، كما كرّر لعدة أشخاص قبل مغادرته، هو رواية الحرب العالمية الأولى «كل شيء هادئ في الميدان الغربي»، التي قرأها في المدرسة الثانوية). خلال الرحلة، اتصلت رئيسة الوزراء البريطانية تيريزا ماي لتهنئته، رغم ما قيل لها مسبقًا من أنه يعتبر انتخابات التجديد النصفي بمثابة انتصار. ولكن ترامب كان قد بدأ يفهم أن التهنئات التي يتلقّاها كانت وسيلة لمسايرته؛ وربما كانت في الواقع، نوعاً من السخرية. فقد انقلب على ماي في نوبة غضب شديدة حول خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، وإيران وقدرة ماي السياسية.

قضى ترامب معظم تلك الرحلة على الهاتف، للتنفيس عن غضبه حول عدد من الموضوعات. وفي الوقت الذي وصل فيه إلى باريس، بدأت موجة ثانوية من المكالمات ترده من أشخاص كثر كان ينفّس عن غضبه معهم. لقد ضغطوا جرس الإنذار: كان بمزاج سيّىء لم يعهده أحد منهم من قبل. الجميع كانوا يقولون إنهم خذلوه جميعاً. لم يستطع التخلص من مولر. شعر بأنه محاصر، ولم يكن هناك من مخرج.

قال أحد المتصلين: «إنه أمر مظلم للغاية... بل الأكثر ظلامًا».

في باريس، وفي صباح اليوم التالي، استيقظ ترامب في وقت مبكر، وراح يغرد على موقع تويتر، ويحاول الدفاع عن ويتاكر. كان مختبئًا في غرفة نومه، عالقًا في مناخ منطقة الخطر، ولم يكن هناك مَن يتحدث معه. في بيته الأبيض الذي خضع لتخفيض دائم، تألّفت مجموعة سفره من أشخاص يعتبرهم مساعدين أو أتباعاً أو حمقى، وأحيانًا الثلاثة معًا. وكان من بينهم مساعده الشخصي جوردن كريم، الذي كان يخطّط بالفعل للاستقالة؛ والمدير السابق لنادي ترامب للغولف، الذي غدا مدير وسائل الإعلام الاجتماعية في البيت الأبيض دان سكافينو؛ ومدير موظفي البيت الأبيض جوني ديستيفانو، الذي كان قد تحوّل، بعد مغادرة الكثيرين، من شخصية هامشية إلى كبار الموظّفين، وكان في طريقه للخروج من البيت الأبيض؛ وكبير مستشاريه والمعارض القوي للهجرة ستيفن ميلر، الذي وصفه ترامب بأنه «مصاب بالتوحُّد»، وبأنه «شديد التعرق».. أما العضوان الأكثر قدمًا في فريقه، فكان ترامب يتحضر لطرد أحدهما، وهو رئيس موظفيه جون كيلي، في حين أن الآخر كان مدير اتصالاته بيل شاين، الذي قلّما تبادل معه الحديث.

وبالنظر إلى غياب أي شخص في حاشيته يتمتع بالبراءة، أو بالجرأة، أو يثق به بما يكفي لإسداء المشورة إليه، قرّر ترامب إلغاء محور رمزي من الرحلة، وهو احتفال في مقبرة أميركية خارج العاصمة الفرنسية تكريمًا للجنود الأميركيين الذين قُتلوا في الحرب العالمية الأولى. وعلى الفور، بدأ رد فعل عنيف على تغيّبه، برّره موظفوه بسوء الأحوال الجوية، الأمر الذي جعله يدور في دوامة أعمق من الاتهام واليأس.

فقّاعة ترامب الصغيرة، التي طاردته في رحلته إلى لندن خلال فصل الصيف، تبعته الآن إلى باريس، ما أثار غضبًا آخر. وفي يوم الأحد، شهد ترامب حفلًا أقيم في قوس النصر، ألقى خلاله الرئيس الفرنسي ماكرون خطابه الذي اعتبره إهانة موجّهة إليه. قال ماكرون في خطابه: «القومية خيانة للوطنية»: مصلحتنا أولًا، مَن يأبه للآخرين؟ نحن نمحو أغلى ما لدى الأمة، ما يعطيها الحياة، ما يجعلها عظيمة وما هو ضروري. نحن نمحو قيمها الأخلاقية».

في إدارة تتميّز أساساً بتقلُّبات ترامب المزاجية صعوداً وهبوطاً، كانت الساعات الثلاث والأربعون التي قضاها في باريس، تُعدّ، في تقدير الأصدقاء الذين يرسمون مساره العاطفي، من أكثر الأوقات اضطرابًا وغضبًا في فترة رئاسته. ولكن، بعد عامين من عدم الاستقرار المستمر، كانت تلك مجرد بداية لحالة ذهنية جديدة لا يمكن التنبؤ بها. ولم تكن ولاية مجلس النواب الذي يسيطر عليه الديمقراطيون قد بدأت حتى الآن.

* * *

كانت تقلُّبات الرئيس المزاجية الشديدة تكاد تقلق الجميع. بات غضبه الآن أكبر وتماسكه موضع شك أكبر. قال شون هانيتي لستيف بانون إن ترامب بدا «مجنونًا تمامًا».

ولكن هذه المرحلة الجديدة كانت مجدية لجاريد وإيفانكا. فمع قضاء ترامب عددًا متزايدًا من الساعات بعيدًا عن الجناح الغربي ومعزولًا عن موظفيه، وهو وقت سُمي «بالوقت التنفيذي» في جدول أعماله - كانت ابنته وصهره هما الموظفان الوحيدان اللذان ظلّا على اتصال دائم وموثوق به.

بمعنى ما، كان هنا انتصار معركتهما السياسية التي لا هوادة فيها. لقد عمدا إلى تهميش قوات ترامب الأصلية، ممثلة ببانون، وبوسي، وليفاندوفسكي، وميدوز. وأبطلا مؤخّرًا تحرُّكًا صعبًا، ليحلّ إما ميدوز وإما بوسي محل جون كيلي كرئيس موظفي البيت الأبيض. مع اقتراب إطاحة كيلي، وبالتالي تفكيك الهيكل التنظيمي الذي حاول فرضه على الجناح الغربي وعلى أسرة ترامب، تطلّع جاريد وإيفانكا إلى وضع اختيارهما المُنتقى بعناية، نيك آيرز، نائب رئيس موظفي البيت الأبيض الحالي.

بدا أن ابنة الرئيس وصهره بطريقة ما، ولدهشة إدارة ترامب برمّتها، وكذلك مؤسسة واشنطن نفسها؛ يتغلّبان على السياسيين المحترفين. كانا حقًّا، كما أرادا أن يكونا، القوة الكامنة وراء العرش. كانت مشاعرهما حيال هذا الصعود حافلة بالمعاناة والنبل. لقد قررا مؤخّرًا مغادرة منزلهما في واشنطن في كالوراما، لأن جيرانهما جعلوهما يشعران بأنهما غير مرحَّب بهما؛ والآن يأملان في العثور على حي جديد، حي أكثر تسامحًا. كان هذا فاتورة باهظة توجّب عليهما تسديدها. بعد كل شيء، ألم يقوما بمفردهما، مرارًا وتكرارًا، بتهدئة الرئيس وضبطه؟

كذلك كان التشريع الرئيسي للإدارة عام 2018 من بنات أفكارهما؛ وهو مشروع من مشروعات قوانين قِلّة، وضعها كلّياً ورعاها، عبر الكونغرس، الجناح الغربي. صدر قانون الخطوة الأولى، وهو مشروع قانون لإصلاح العدالة الجنائية، في مجلسَيِ النواب والشيوخ في الأسابيع التي تلت انتخابات التجديد النصفي. كان هذا الإجراء على تناقض مُبهَم مع أي شيء آخر سعت إدارة ترامب إلى تحقيقه. باعتقادهما شكّل ذلك أكبر دليل على أنهما كانا بطلين مجهولين.

كان جاريد وإيفانكا أيضًا الشخصين الوحيدين اللذين بدا أنهما قادران على التحدث إلى الرئيس بشأن مسؤولياته السياسية والقانونية. وهذا أمر كانا يحبّان تذكير الأصدقاء به. فقد كان ترامب يغضب على أي شخص يحدّثه بخصوص هذا الموضوع. أو يقوم بفصله، أو يخرج ببساطة من الغرفة؛ كان كوشنر يوافقه على وجهة النظر التي يحبّها، معتقداً أن أفضل دفاع هو البقاء في السلطة.

* * *

تحدّث كوشنر إلى أحد أصدقائه عن الرئيس، كما لو كان طفلًا متوترًا ويحتاج إلى دلال وتعامل خاصّين. وقال إن المسائل القانونية والسياسية المتأزّمة بشكل سريع لا يستطيع ترامب استيعابها استيعاباً كاملاً. قال كوشنر: «إنه يحتاج إلى مسائل منفصلة»، بعد ازدادت التهديدات التي يتعرَّض لها ترامب وأسرته بشكل شبه يومي.

بعد أيام من انتخابات التجديد النصفي، سهّلت المحكمة العليا لولاية نيويورك سير دعوى رفعتها المدّعية العامة في نيويورك ضد مؤسسة ترامب، تستهدف أسرة ترامب مباشرة. كانت المدّعية العامة المنتخبة حديثًا في الولاية ليتيتيا جيمس قد أدارت حملتها الانتخابية بصورة شبه كاملة على منصة مخصّصة لمهاجمة ترامب، وسمحت باستخدام مكتبها للإسهام في إسقاطه. أخبر كوشنر الرئيس أن ذلك كان طريقة مباشرة، إلى جانب طرق أخرى، لنيل الجائزة الكبرى، ممثّلة بالإقرارات الضريبية لترامب، بالنظر إلى أن أي إقرار ضريبي في ولاية نيويورك كان مجرد صورة للدخل الفيدرالي للفرد. على الرغم من أن مصلحة الضرائب الفيدرالية قد وضعت حواجز كبيرة للوصول إلى دخل فرد ما، كانت الحواجز أقل كثيراً في نيويورك.

في ذلك الوقت، وبينما كانت الدائرة الجنوبية في نيويورك تقول سرًّا إنها لا تنسق جهودها مع تحقيق مولر، كانت تقول سرًّا أيضًا إن تحقيقها بشأن منظمة ترامب كان إلى حد بعيد متزامناً مع تحقيق مولر، وإنها سوف تدع تقرير مولر يصدر أولًا. كان كوشنر ومحاميه آبي لويل يتابعان هذا التحقيق منذ عام تقريبًا. قيل إن كلًّا من مايكل كوهن وألين فايسلبرغ المدير المالي لمنظمة ترامب، يتعاونان مع التحقيق، وإن فايسلبرغ، المعروف بكونه رخيصًا، قد استعان بمحاميه. كان روبرت خوزمي، المدعي الفيدرالي الذي يتولّى القضية، يبلغ الناس أنه يعتزم مغادرة المنطقة الجنوبية بحلول أواخر الربيع، لكنه يأمل في إنهاء قضية ترامب أولًا.

لم تكن قائمة كوشنر المتعلقة بالأزمة السياسية التي تواجه الرئيس في أعقاب فقدان أغلبيته في مجلس النواب، أقلّ خطورة.

أربعة من الديمقراطيين، سيترأسون قريبًا لجانًا في الكونغرس، باتوا الآن يضعون الرئيس في مرماهم. فجيري نادلر من نيويورك، الذي نعته ترامب خلال

معركة على تطوير عقارات في نيويورك نشبت في التسعينات، باليهودي، الصغير السمين، سوف يرأس اللجنة القضائية، التي ستتعامل مع أي مسألة تتعلق بمحاكمة الرئيس. وسوف تركّز لجنة إيليا كامينغز للإشراف والإصلاح على ما اعتبره الديمقراطيون استغلال إدارة ترامب لمختلف الوكالات الحكومية. وسوف تترأس ماكسين ووترز، التي أهانها الرئيس بشكل متكرر وعلني، اللجنة المصرفية؛ كما ستنظر في القضايا المالية للرئيس، حيث أشارت بالفعل إلى علاقاته المتشابكة مع دويتشه بنك. أما آدم شيف، الذي سيرأس لجنة الاستخبارات في مجلس النواب وربما كان أكثر شخص يعشق الاهتمام الإعلامي في مجلس النواب، فسوف يدير تحقيقًا عن تورّط روسيا في انتخابات العام 2016.

تحاول أربع لجان أخذ قطعة من الكعكة نفسها. هكذا كان يوصف الاقتتال الداخلي والفوضى. لكن نانسي بيلوسي جنّدت باراك أوباما لمساعدتها على حفظ الانضباط بين قواتها. لن يخسروا هذه المعركة من خلال التصرف المتهور. كانت تخبر الناس، أن العالم المثالي، يدفع فيه الجمهوريون نحو التوصل إلى حل سريع لجميع تلك الأمور، ويتباطأ الديمقراطيون في التحقيقات المختلفة.

* * *

خلال ذلك كله، حافظ جاريد وإيفانكا على ثقة خيالية. فمن المؤكد أن حليفهما نيك آيرز، الذي كان، يحسب تقدير الجميع، أفضل ناشط سياسي في البيت الأبيض، يوشك أن يصبح رئيسًا لموظفي البيت الأبيض. ومن وجهة نظر الزوجين، سيكون آيرز وفيًّا لهما على قدر ولائه للرئيس، وبالتالي سيضع البيت الأبيض في النهاية تحت سيطرتهما المباشرة.

بعد أن أصبح رحيل جون كيلي وشيكًا، حيث كان من المقرر الإعلان عن استقالته يوم الأحد الواقع فيه الثامن من شهر كانون الأول/ديسمبر، وكان آخر يوم رسمي له هو الثاني من كانون الثاني/يناير، تولّى آيرز منصبه يوم الأربعاء الواقع فيه الخامس من شهر كانون الأول/ديسمبر. لكن استيلاء آيرز قد انهار سريعًا. ففي يوم الأحد، وبعد أن قضى أربعة أيام في العمل لدى «السيد اللعين الفاقد لعقله والمجنون كليًّا» كما قال لصديق، أخبر آيرز الرئيس أنه لن يتولّى المهمة في النهاية. وفي حلقة مجنونة أخرى بعد مسلسل الجناح الغربي الدرامي، استقال آيرز قبل أن

يبدأ رسميًّا. وبالتالي، لم يعد هناك، بحلول يوم الاثنين لا آيرز ولا كيلي ولا رئيس موظفين للبيت الأبيض.

يوم الأربعاء الواقع فيه الحادي عشر شهر كانون الأول/ديسمبر، ومن دون رئيس موظفين للبيت الأبيض، وبغياب مدير الاتصالات الواضح أثره ومع استمرار ترامب في تجنُّب بيل شاين، دعا الرئيس القيادة الديمقراطية إلى حضور جلسة تلفزيونية في المكتب البيضاوي. خلال الاجتماع، هدّد ترامب، ودعا حتى إلى تعطيل الحكومة بسبب مسألة تمويل الجدار. في غضون دقائق، كانت نانسي بيلوسي، رئيسة مجلس النواب الجديدة، الذي حاول ترامب أن يحطّمها ويدمّرها، قد تحوّلت أمام الجمهور الوطني إلى ندٍّ له، وزعيمة حزب ديمقراطي أُعيد إحياؤه.

بعد ثلاثة أيام، وبناءً على إصرار ابنته، اتخذ الرئيس خطوتين في محاولة لتلافي أضرار الأيام القليلة الماضية. وافق على شروط مدير الميزانية ميك مولفاني غير العادية، ليصبح رئيسًا لموظفي البيت الأبيض: لن يصبح مولفاني رئيسًا دائمًا، بل مجرد «القائم بالأعمال»، ما يعني أنه سيكون جاهزًا، كما جرى تفسيره على نطاق واسع، للانسحاب في أي لحظة. وفي اليوم التالي، تراجع ترامب عن طلبه للجدار وتهديداته بالتعطيل.

* * *

يوم الأربعاء الواقع فيه التاسع عشر من شهر كانون الأول/ديسمبر، أي قُبَيل عيد الميلاد، اتخذ الرئيس قرارين مصيريين. في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم، ومن دون تحضير أو استشارة، وبتجاوز عملية المراجعة العسكرية والمشتركة بين الوكالات المعتادة، أرسل ترامب تغريدة تعلن «أننا هزمنا داعش في سورية»؛ ثم أعلن أنه بدأ بسحب جميع القوات الأميركية منها. استنتجت الأوساط العسكرية والدبلوماسية والمخابراتية منذ فترة طويلة أن آراء ترامب حول السياسة الخارجية تُبنى بشكل عشوائي وخطير على أساس الاندفاعات وتقلُّبات المزاج. ولكن هذه كانت الذروة: إعلانه أن هزيمة داعش كانت «سببي الوحيد للوجود في سورية». وقد عمد الرئيس إلى تغريد إعلانه. وبذلك وفى بوعده لقاعدته الانعزالية.

كان هذا أخيرًا أكثر مما يستطيع وزير الدفاع جيم ماتيس تحمُّله. ففي اليوم

التالي، أعلن ماتيس استقالته في رسالة أوصلت نقدًا مقتضبًا ومدمّرًا لأضرار ترامب بالمجتمع الدولي. كتب ماتيس قائلًا: «يجب علينا أن نبذل قصارى جهدنا لدفع نظام دولي يفضي إلى أمننا وازدهارنا وقيمنا لأبعد حدود، وقد تعزَّز هذا الجهد بتضامن حلفائنا». ورفض أيضًا استخدام اللغة المألوفة بشأن قراره بالاستقالة، حيث كتب: «بالنظر إلى أنك تملك الحق في أن يكون لديك وزير دفاع تتوافق آراؤه بشكل أفضل مع آرائك حول هذه الموضوعات وسواها، أعتقد أن من المناسب لي أن أتنحّى عن منصبي». كان توقّع بانون اللاذع بعد هيلسينكي: «إذا خسر ترامب ماتيس، فسوف يخسر الرئاسة»، على وشك أن يوضع تحت الاختبار.

في يوم الأربعاء نفسه، أرسل الرئيس مايك بينس إلى مأدبة غداء في مبنى الكابيتول هيل، حيث قدّم نائب الرئيس تأكيدات أن ترامب سيوقّع، كما فعل في كل مرة كانت توضع فيه الميزانية على مكتبه، قانون استمرار بالصرف، يُعرف في الكابيتول هيل باسم السي آر (CR). سوف يحافظ قانون السي آر على الاعتمادات عند المستويات نفسها، مقارنة بالسنة المالية السابقة لفترة زمنية إضافية محددة، من دون توفير أي تمويل للجدار.

بدأت كيليان كونواي بإعادة تقديم الجدار علنًا كمصطلح«أمن حدود»، وقولها إن الرئيس سيجد «طرقًا أخرى»، خارج الميزانية، لبناء الجدار.

غير أن القاعدة الجماهيرية، بدا الأمر في نظرها وكأنه «لا يوجد جدار على الإطلاق». أما ستيف بانون، فقد بدا الأمر له وكأنه إنذار حرق من الدرجة الخامسة، وانطلق فورًا للعمل. اتصل بهانيتي، واتصل بليفاندوفسكي؛ وركّز على الاتصال بآن كولتر.

لطالما أُعجب ترامب بفم آن كولتر، بالإضافة إلى «شعرها وساقيها»، وهو ما كان حريصًا دائمًا على ذكره. كانت المُعلقة والمقدمة المحافظة بتعليقاتها اللاذعة غير الصحيحة سياسيًّا، وشعرها الأشقر الأملس، صوت اليمين على المحطّات الفضائية، ومؤلّفة العديد من الكتب الأكثر مبيعًا، لأكثر من عشرين عامًا. (في كيليان كونواي، الشخصية التلفزيونية اليمينية التي كان لها أيضًا شعر أشقر أملس، كان ترامب، كما كان يردد غالبًا، قد حصل على آن كولتر الخاصة بالرجل الفقير). في الواقع، كان تأثير كولتر قد تضاءل بشكل كبير في السنوات الأخيرة. لقد كانت يمينية

جدًّا في نظر السي أن أن والأم أس أن بي سي، ولا يمكن التنبؤ بوضعها بالنسبة إلى محطة فوكس. أصبحت من أنصار ترامب في وقت مبكر. وقرّرت بعد وقت غير طويل على ولايته، أنه كان يخون القضية اليمينية المتطرفة المناهضة للهجرة والمهاجرين والتي تضع أميركا أولًا. دُعيت إلى مبنى ترامب تاور خلال الفترة الانتقالية، وأنبت الرئيس المنتخب بلا رحمة، باستخدام كلمات نابية بشكل متكرر. كانت تنتقد بشدة، ولاسيما «فكرته المعتوهة السخيفة» بتوظيف أسرته. ومع ذلك، أعجب بها ترامب، أعجبه لسانها الحاد. قال عن كولتر بإعجاب شديد: «إنها تدمّر الناس... وبعدها لا ينهضون»، «رائع، تلفزيون رائع». نَسبَ إليها الفضل في وجود نوع من الارتباط الكبير بقاعدته الجماهيرية.

كانت تلك القاعدة الآن تستشيط غضباً، وكانت كولتر على وشك أن تجعلها تنفجر. في يوم الأربعاء ذاته الذي ذهب فيه بينس إلى الكابيتول هيل، قامت كولتر، بناء على تحريض من بانون، بنشر عمود في بريتبارت عنوانه: «الرئيس الجبان في بلد بلا جدار». في وقت لاحق من ذلك اليوم، سجلت بثًّا إذاعيًّا مع ديلي كالر (Daily Caller). وقرب ذروة البث قالت إن رئاسة ترامب كانت نكتة. وفي اليوم التالي أرسلت التغريدة النارية الآتية:

> لم تكن الهتافات «وقّع قانونًا مع وعود تافهة مضمونة الفشل حول ‘أمن الحدود’ في مرحلة ما في المستقبل!» لقد كانت «ابنِ جدارًا!».

فوجئ صديق تحدّث إلى ترامب في ذلك المساء بشدة رد فعل الرئيس. قال الصديق: «بصراحة، كان صوته ينهار. آن حقًّا دمّرته. القاعدة، القاعدة. كان يشعر بالهلع التام».

في يوم الجمعة الواقع فيه الحادي والعشرون من كانون الأول/ديسمبر، وباستجابة مباشرة لتهكُّم كولتر، عكس ترامب مساره فجأة، ورفض أي تسوية على مشروع قانون الميزانية، لأنه لا يحتوي على تمويل للجدار. في منتصف الليل، عُطّلت الحكومة.

* * *

خلال العامين اللذين كان فيهما ترامب رئيسًا، كانت أي لحظة أخرى تقريبًا مؤاتية لتعطيل الحكومة. ففي شهر آب/أغسطس 2017، عندما كان بانون يغادر البيت الأبيض، جادل بأن نهاية الشهر التالي قدمت فرصة مثالية: من خلال تصويت على الميزانية يتزامن مع التصويت على سقف الديون، سيكون لدى ترامب أفضلية قصوى. إن تعطيل الحكومة من شأنه أن يتسبَّب في إفلاس وزارة الخزانة، وهو الوقت المثالي، من وجهة نظر بانون، للوصول إلى حافة الهاوية. وبدلًا من ذلك، تراجع الرئيس، وأجّل الأمر بقانون استمرار بالصرف (سي آر) آخر، ينتهي في شهر كانون الثاني/يناير 2018. وحدث هذا مرة أخرى في شهر شباط/فبراير 2018، ثم مرة أخرى في شهر أيلول/سبتمبر 2018، مع انتهاء ذلك السي آر في شهر كانون الأول/ديسمبر.

مع هجوم كولتر عليه، أصرَّ ترامب أخيرًا على تمويل الجدار. وفي الوقت الذي كان فيه الديمقراطيون على وشك تولّي السلطة، وفي عداوتهم الفريدة تجاهه، عندما كانوا متحدين كما لم يكونوا من قبل، رسم ترامب حدًّا فاصلًا. فضلاً عن ذلك، وفّر لنانسي بيلوسي، الزعيمة الفعلية للحزب الديمقراطي الآن وأكثر خصومه مباشرة، منصة درامية. في الماضي، أظهر ترامب قدرة استثنائية على تقويض خصومه، وتسخيفهم؛ في هذه الحالة، كان يفعل العكس تمامًا. على مدار عشرة أيام، حوّل ترامب بيلوسي إلى عملاق سياسي.

كان قرار ترامب بتعطيل الحكومة غير مفهوم عمليًّا لكلّ من الديمقراطيين الذين بالكاد كانوا يصدّقون أنه منحهم هذه الفرصة المؤاتية، والجمهوريين الذين لم يروا سوى كارثة سياسية للحزب ونتائج سلبية للرئيس. ولا يمكن لأي شخص لديه أي خبرة برلمانية أو فطنة سياسية، أن يرى كيف سيخرج ترامب من هذا المأزق.

أعلن ميتش ماكونيل، زعيم مجلس الشيوخ، الذي اشتُهر بسيطرته الحازمة على كل ما حدث في مجلس الشيوخ، أنه مجرد متفرّج، ومراقب ينتظر التطورات. غادر المدينة إلى منزله في ولاية كنتاكي.

في البيت الأبيض، أعلن الرئيس في مفاجأة للجميع، أنه لن يرافق أسرته إلى مارالاجو خلال العُطَل. كان ذلك منعطفاً مربكاً، ومثيراً للقلق، لأي شخص يعرف كم كان الرئيس يفضّل لعب الغولف، والتمتّع بالطقس الدافئ على أي عمل رئاسي. ولم

يكن لدى ميلانيا أي نية لتبقى وحدها. ومن بين أمور أخرى، اعتبر الأصدقاء أنها لا تزال غاضبة من محادثته عشية عيد الميلاد مع صبي يبلغ من العمر سبع سنوات، سأل ترامب خلال المحادثة الصبي إن كان لا يزال يؤمن بسانتا. وقال أحد المساعدين: «لم تفكّر ميلانيا في أن هذا الأمر مضحك.. من الواضح أنه رجل لم يتعامل مطلقًا مع طفل عمره سبع سنوات».

من جانبه، أصبح الرئيس مهووسًا برجال الخدمة السرية الذين يقومون بدوريات في محيط البيت الأبيض، حيث عثر عليهم جاثمين تحت الأشجار بوجوه مموهة بالأسود، كما أبلغ المتصلين، وبندقياتهم الآلية موجَّهة إليه. حاول لفت انتباههم عبر التلويح من النوافذ، لكنهم تجاهلوه. قال: «إنه شيء مخيف... كأنني سجين».

في بيت أبيض فارغ، أحضرت مساعدة شابة أوراقه وقوائم مكالماته من الجناح الغربي إلى مقرّ إقامته. ووجدته، كما أخبرت أصدقاءها، في ملابسه الداخلية. وهنا فجأة، كانت حبكة فرعية أخرى.

واصل ترامب، الذي لاحظ هذه المرأة أول مرة خلال الفترة الانتقالية، تكرار قوله: «لديها طريقة معيّنة». كان ذلك توقيعه وختم موافقته المخيف على الشابات. الآن بات الرئيس يخبر الأصدقاء أنه لم يكن يقيم في البيت الأبيض بسبب التعطيل، بل كان يقيم لأنه كان «يضاجع» المُساعِدة الشابة من الجناح الغربي.

هل هو استعراض أثناء التعطيل، أم حديث مراحيض، أم كان كل ذلك جزءاً من واقع بديل جديد يبدو أنه هو فقط من يعيشه؟

الفصل الثالث والعشرون
الجدار

سيطر الديمقراطيون على مجلس النواب عقب عطلة الكونغرس، واستمر التعطيل الحكومي. الأمر الذي جعل كلًّا من جاريد وإيفانكا يعتقدان أن بالإمكان، عبر هذا التعطيل، وكجزء من التوازن الجديد في الحكومة، التوصُّل إلى صفقة كبيرة بشأن بناء الجدار وقضية الهجرة، بما في ذلك الاتّفاق على برنامج «الإجراءات المؤجلة للأطفال الوافدين» - -Deferred Action for Childhood Arrivals DACA الذي يمهّد الطريق لإصدار عفو عن المهاجرين غير الشرعيين. وبدا لهما هذا الحل المتصوَّر حجر الأساس اللازم لإيجاد توازن سياسي جديد.

ولكن ستيف بانون لم يصدّق ذلك، واعتبر أن عدم المساومة على برنامج «الإجراءات المؤجلة للأطفال الوافدين» أو العفو عن المهاجرين غير الشرعيين، أكثر أهمية من مسألة الجدار نفسه؛ لا سيما وأنّ محاربة قرار العفو قد مثّل شريان الحياة للحركة كلها. إضافة إلى ذلك، فإن الكونغرس الجديد لن يوافق على خطة ترامب لبناء الجدار، حتّى لو استطاع البيت الأبيض المساومة في مسألة العفو، وهو أمر غير ممكن، إلا إذا أراد الانتحار.

لذا رأى بانون مخرجاً وحيداً لهذه المشكلة، وهو بالطبع ليس الاستسلام. اختبرت التعريفة الجمركية، المفروضة على الصين، سلطات الرئيس الأحادية الجانب غير الشائعة والنادر استخدامها. فأصبح بإمكان الرئيس الآن، أن يخرج من الموقف المهين الذي وضع نفسه فيه، من خلال استخدام المزيد من السلطات الفردية الصارمة: أصبح بإمكانه أن يعلن عن إعادة عمل المؤسسات الحكومية، وأن يأمر

الجيش بالبدء ببناء الجدار، من خلال إعلانه لحالة الطوارئ الوطنية في البلاد. أو يمكنه، في ظل مواجهته لهذه التحديات الحتمية، أن يخوض هذه المعركة في المحاكم، بدلاً من أن يخسر قضيته أمام الكونغرس.

في هذا الصدد، يقول بانون: «ليس هذا حلًّا جذّاباً»، ولكنه يبقى حلاً.

تألفت المجموعة المعنية بإعلان حالة الطوارئ الوطنية، التي تخطّط لسياسة التحرُّك وتمارس الضغط على ترامب، من بانون وليواندوفسكي وبوسي وميدوز، الذين بدأوا بعقد اجتماعاتهم في السفارة خلال الأسبوع الأول من شهر كانون الثاني/ يناير. اعتمدت المجموعة خطة إقناع بسيطة: لا يوجد أي بديل آخر.

صحيح أن إعلان حالة الطوارئ الوطنية أمام المحكمة سيُطعن به، وأنّ من المحتمل أيضاً عدم بناء الجدار أبدًا. لكننا بذلك سنظهر قوتنا بدلاً من إظهار مواطن ضعفنا. يتفق الأفرقاء الأربعة على أنّ الهدف الأساسي لهذه الإستراتيجية لم يكن التوصّل إلى بناء الجدار، بل إيجاد مخرج من حالة التعطيل الحكومي، من تلك الفوضى التي سبّبها ترامب حصراً.

تبنّت ابنة ترامب وصهره حجّةً مضادة، مفادها أن الديمقراطيين سيتفاوضون. كانت هذه الحجة مضحكة في ظاهرها؛ فقوبلت باستخفاف الرجال الأربعة، كما جرت العادة على مدى العامين الماضيين.

عندما عرضت المجموعة إستراتيجيتها على الرئيس، المحاصر والمحتار، استعاد ثقته بنفسه. فقد لاقت فكرة إعلان حالة الطوارئ الوطنية إعجابه فوراً. وبدأ يصف الإعلان بأنه «مصدر قوّتي»، كما لو أنه امتلك عصاً سحرية.

رحب ترامب بالفكرة إلى درجة أنه قرر الإعلان عن حالة الطوارئ الوطنية في خطابه الموجَّه إلى الأمة الذي سيلقيه من المكتب البيضاوي في 8 كانون الثاني/ يناير. إلا أن بانون كان متشككًا، وحذّر من طريقة اختيار الصيغة والمكان. وقال إنّ الحكم على ترامب لن يكون إيجابياً؛ وسوف تجري مقارنته بالرؤساء الأمريكيين الذين ارتبطت ذاكرة الشعب بوقوفهم على منصة المكتب البيضاوي. لكن هذا، طبعًا، كان سبب إصرار ترامب الشديد على إعلانه عن قراره بهذه الطريقة. فقد أراد أن يظهر للجميع أنه واحد من أولئك الرؤساء. فأعلن أن أزمة الحدود مع المكسيك لا تقلّ

أهمية عن أزمة الصواريخ الكوبية، التي واجه الرئيس جون كينيدي فيها الروس، وخاطب الأمة بشأنها من المكتب البيضاوي.

رأى بانون أنّ الرئيس حاول على الأقل اغتنام تلك الفرصة. فحتى لو تصرَّف بغرابة وغطرسة كعادته لدى قراءته جهاز التلقين، وبغض النظر عن عجزه الدائم عن مطابقة كلماته مع لغة جسده في جلساته الرسمية، ورغم تركيز أضواء المسرح على لون شعره البرتقالي، فإن بانون كان يأمل بأن يساعده إعلان حالة الطوارئ الوطنية على الظهور بالمظهر الرئاسي.

أثار خطاب الرئيس، الذي استمر لمدة تسع دقائق، دهشة بانون مثلما أثار دهشة الآخرين. فما حدث في حقيقة الأمر هو أن جاريد وإيفانكا أعادا كتابة الخطاب بالكامل قُبَيل ساعات، أو ربما دقائق من إلقاء الرئيس له. فقد تلاشى إعلان حالة الطوارئ الوطنية، وحلّت محلّه «أزمة إنسانية». وهذا ما غيّر، إلى حد بعيد، المضامين الدستورية والمسوّغ السياسي لإعلان حالة الطوارئ. ومهما تبلغ المزايا السياسية التي عرضها ترامب، الرجل القادر على تحمُّل جميع الضربات، والقوي والمتصدّي الجريء للنظام، فإنّها حقيقة الأمر ليست متوفّرة. كان الخطاب في نظر بانون مجرد نسخة رديئة مقلَّدة لفِلم «طار فوق عش المجانين». فكان واضحًا أن إيفانكا هي التي أدّت دور الممرضة راتشيد بطريقة غير متوقعة، أخضعت من خلالها مريضها لإرادتها.

أمر وحيد كان له معنى، من على ذلك المنبر المهيب والجليل، هو أنه كان خطاب ترامب الأول من المكتب البيضاوي؛ ولم يكن بحسب تعبير بانون أكثر من «خطاب لا أهمية له». ووصف ترامب بأنه قد بدا منحنياً ومقيّداً وصغير الحجم. وبينما كانت الكاميرا تتحرك وتقترب من وجهه، ظهرت عيناه أصغر حجماً. لقد كان ممثّلاً كبيراً في دور وضيع.

لم يعلن ترامب في خطابه عن أي حالة طوارئ وطنية. كذلك لم يقدم حلاً أو عرضًا أو ينجز تقدّماً. وقد ظهر محاصرًا في نظر الأمة كلها.

* * *

لاحظ بانون أن زعيم الأغلبية الجمهورية في مجلس الشيوخ، ميتش ماكونيل،

نأى بنفسه عن مواجهة الرئيس مع الكونغرس. وعندما رأى أن لا نهاية قريبة للتعطيل الحكومي، أخذ ماكونيل يقضي وقته ويستثمر نفوذه في إقناع مايك بومبيو بالترشح لمقعد في مجلس الشيوخ عن ولاية كنساس في انتخابات العام 2020.

ولما كان ماكونيل لاعب الشطرنج الدائم، فقد أراد أن يظلّ بعيدًا عن أزمة التعطيل الحكومي، إلى أن يجري التوصل إلى اتّفاق معين؛ وهدفه تحقيق فائدة كبيرة تصبّ في مصلحته، ألا وهي قيادة ترامب نفسه إلى حبل المشنقة. ولكن بانون يرى أن لدى ماكونيل خطة ثانية، وهي إبعاد بومبيو عن طريق نيكي هالي لتكون هي المرشَّحة الرئاسية عن الحزب الجمهوري، بالتعاون مع قادة جمهوريين ومتبرعين آخرين من مجموعة حماية الديمقراطية معًا، التي تستعد لانتخابات العام 2020. كان بانون أيضاً على دراية بأن عدم ترشح ترامب للانتخابات الرئاسية القادمة، الذي شاع بقوة بين أوساط كبار السياسيين الجمهوريين، أصبح السيناريو المحتمل الأفضل. ولكن ما يدعو إلى القلق هو أن ترامب سيكون، بحلول شتاء العام 2020، قد أصبح شخصية ضعيفة جدًا؛ ولكن لا يوجد من له حضور كاف ليتحدّاه أو يترشّح بدلاً منه. فلا يبدو أن أحدًا يفكّر في نائب الرئيس مايك بنس كخيار معقول للرئاسة، حتى وإن كان سيصبح رئيساً تلقائياً في العام المقبل. فالمرشح العملي الوحيد للحزب الذي أهمل، في عهد ترامب، الضواحي وخرّيجات الجامعات في عموم البلاد، هو نيكي هالي.

في الوقت ذاته، كان بانون منشغلاً بلعبة الشطرنج الخاصة به. فهو، حتى الآن، مثل خمس مرات أمام المستشار الخاص. (تناقل بعض أعدائه أنه أستُدعي في الحقيقة إلى ثماني جلسات) لكنه لم يُستدعَ للمثول أمام هيئة المحلفين الكبرى، ما قد يعني أنه مُتّهم في تحقيقات مولر، أو دليل فيها. فالرسائل البريدية المرسلة منذ خريف العام 2016، تبيّن صلته بروجر ستون، وبتورّط ستون الواضح، الذي على ما يبدو أن حملة ترامب الانتخابية، قد دفعته إليه من أجل ضمان تسريب المادة المسروقة من اللجنة الوطنية للحزب الديمقراطي. وكان بانون قد طرد ستون. لكن ستون كان أحد ملازمي ترامب، وقد جعل الباقين مشتبهاً بهم.

مع ذلك، لم يصدق بانون أن القضية قضية مؤامرة روسية، إذا كانت تتمحور حول ستون، وهو واحد من الأفاكين المتقلبين الكثر الذين يحيطون بترامب. بدأ ستون حياته العملية كواحد من أتباع الرئيس ريتشارد نيكسون قبل أن يتحوّل، في ثمانينات

القرن الماضي، إلى ناشط ومصلح عالمي لمدة لم تدم طويلاً، وذلك بالتشارك مع بول مانافورت؛ فجعلت منه فضيحته الجنسية شخصية هزلية مثيرة للسخرية. أما الآن، فأصبحت شخصيته مزيجاً من التعصب والمصلحة الذاتية، كان دائماً يتاجر ببعض الكتب أو المنتجات، التي تفشّت أكثر في الحياة السياسية العصرية. كان في الحقيقة شخصية ترامبوية. والأكثر من ذلك أنه كان يجبر ترامب أن يصفه بالمزعج والمعتوه. لذلك، قال بانون إننا سنكون أمام نوع من العدالة الغريبة إن ألصقت القضية المرفوعة ضد الرئيس بكل من ستون وجوليان آسانغ وجيروم كورسي المختلين عقليًا والمتآمرين والفنانين الرديئين والممثلين الهامشيين.

كان كورسي، اليميني المزعج الذي أصبح مؤخرًا شخصية بارزة في التحقيقات، والذي ربط بين ويكيليكس وآسانغ، هو الذي نشر الشائعات عن اغتيال مؤسس شبكة بريتبارت نيوز، آندرو بريتبارت، الذي توفي سنة 2012 بسكتة قلبية؛ وعن تورّط بانون في عملية الاغتيال بالتواطؤ مع وكالة المخابرات المركزية السي. آي. إيه. وقد واجهه بانون غاضباً، وهدّده، قائلاً: «سوف أجز رقبتك ما لم تتوقف عن نشر تلك الشائعات. لقد ترك آندرو وراءه أرملة وأربعة أطفال. لا تستمر في القول إنه قُتل، لأنه لم يُقتل». رأى بانون بعد ذلك أن من المضحك الظن بأن كورسي قد أدى دورًا مهمّاً في أي نوع من المؤامرات الفعلية. ومثله استصعب بانون أن يصدّق أن بول مانافورت أصبح فجأة، ومن جديد، محوراً رئيساً في القضية، بوجود دليل قاطع على أنه هو من سرّب إلى الروس بيانات الاقتراع في حملة ترامب الانتخابية؛ وعلى حد تعبير بانون «كان الاقتراع الوحيد الذي أجرته حملة ترامب هو اقتراع تافه».

مع ذلك، لم يغيّر الخداع القصير الأمد، الذي قام به فريق التمثيل، من حقيقة أن ترامب في رأي بانون «كان دائمًا يصدر أوامر مجنونة إلى رجاله المعتوهين، وهي أوامر سرعان ما كان ينساها بعد إصدارها». قد يكون هذا ادعاء تافهًا أكثر من كونه مؤامرة. ولكنه يدين، بطريقة ما، تورُّط الرئيس وغرقه حتى أذنيه في هذا الهراء.

في تحقيقات نيويورك، قد يكون فتح تحقيق حول مؤسسة ترامب الخيرية المفتاح لحل تلك القضية؛ الأمر الذي كان سيفضي إلى إدانه أسرة ترامب بكاملها. فلو حدث ذلك، للجأ ترامب، كأي إنسان عادي، إلى حماية أبنائه. فحتى ترامب سوف

يضطر إلى التنازل عن منصبه من أجل أسرته. فإضافة إلى التحقيق في مؤسسة الأسرة الخيرية، يوجد تحقيق آخر في نيويورك وفقًا للقانون الخاص بالمنظمات الفاسدة والمتأثرة بالابتزاز (ريكو) وهو تحقيق يمكن أن يؤدي بسهولة إلى إنهيار ترامب ماليًّا، بسبب كل طلبات القروض والاحتيال المصرفي المحتمل.

في هذ الصدد، يقول بانون، وهو في قمة امتعاضه: «إن ذلك ليس تحقيقاً لكشف أعماله، حتى أمام اللجنة التي تؤيّده بشدَّة، بل هو نقطة تحوّل ترامب إلى رجل أعمال محتال قيمته خمسون مليون دولار، بدلاً من عشرة بلايين دولار. لن يكون البليونير الذي يدّعيه بعد الآن، بل مجرد وغد آخر».

لذلك يرى بانون أن احتمالات سقوط الرئيس تبقى كبيرة أكثر من أي وقت مضى، سواء كان مولر، أو المقاطعة الجنوبية لمدينة نيويورك، أو الديمقراطيون أو تصرفات ترامب المعتوهة، هم وراء تدميره. وليس صحيحًا «أنه لا يزال في قمة مجده».

* * *

في كل الأحوال، لم يتمحور النقاش الداخلي الأكثر إلحاحًا لدى بانون حول احتمال إسقاط الرئيس، بل حول وقت انشقاقه عن ترامب وكيفية حدوث ذلك، وحول إنقاذه للحركة التي لم يكن ترامب، بنظر بانون، سوى وسيلة فيها وعميل لها. ولطالما أكّد بانون أنه يرى هذه اللحظة آتية. «طبعًا، كان من الواضح منذ البداية أن التحدّي الحقيقي سيكون في جعل هذه الحركة تتخطّى ترامب».

مع ذلك، أخذ بانون في الحسبان قرارَيْ انفصاله عن ترامب وبقائه معه. ولطالما شكّل سوء حظ ترامب فرصة لبانون. وعندما أخفقت حملة ترامب الانتخابية في شهر آب/أغسطس 2016، سلّمها إلى بانون من دون طرح أي أسئلة: «كان مطواعًا بالكامل، وقد فعلت كل ما أردت فعله، ففعلت كل شيء».

وها قد حانت فرصة مماثلة الآن. كان ترامب في الحضيض، لا خيارات أمامه. فأجرى بانون استطلاعاً للرأي: «هل أقبل لو طلبوا إليّ أن أعود؟ هل سيكون هذا جنونًا؟ هل تعتقدون أن بإمكاني أن أنقذه، إذا ما أُعطيتُ الحرية الكاملة؟».

كان بانون قد بدأ بالفعل إعداد خطّته لإنقاذ ترامب. فبُعَيد إلقاء خطابه من المكتب البيضاوي، جلس بانون في مكتبه «بالسفارة» وأخذ يشرح خطته: «هذه هي خطة الخروج من هذا المأزق. إنها واضحة كوضوح الشمس، ستثير، في خطاب الاتحاد الذي ستلقيه، قضية إعلان حالة الطوارئ الوطنية. وستعلن أنك سوف تُبلِغ قيادة القوات المشتركة بنشر الجنود على الحدود غدًا صباحًا. ثم ترحب بعملية الإقالة المقامة ضدك. أثِرِ القضية، فستورمي دانييلز، والروس، فقدوا أهميتهم الآن؛ وكذلك التعطيل الحكومي. ولم يعد بمقدورهم إقالته إلّا للسبب الذي يكرهونه من أجله، وهو محاولة تغيير النظام. أعني هل كنت تفضّل أن تُقال لمحاولتك إطاحة المؤسسات الحكومية، أم لأنك دفعت ستورمي دانييلز إلى القيام بمهمة مشينة؟».

لكن، ما إن أعدّ بانون خطته، حتى عمد إلى تغييرها. ففي 16 كانون الثاني/ يناير، تراجعت نانسي بيلوسي عن دعوة ترامب لإلقاء خطاب الاتحاد أمام مجلس النواب، قائلة بوجوب تأجيل الخطاب إلى أن ينتهي التعطيل الحكومي. وبحماسة شديدة، أزاحت منصة الرئيس من أمام الكونغرس والأمة.

وقال بانون متعجباً بشدة: «حتى اليمينيون يحترمونها الآن. ولمَ لا؟ فقد أطاحت ذلك اللعين».

* * *

على مدى الأيام القليلة اللاحقة، أقنع كل من جاريد وإيفانكا الرئيس أن مجموعة من النواب الديمقراطيين سوف ينضمون إلى الأغلبية الجمهورية، كي يصوتوا لمصلحة مشروع قانون تسوية سيتضمن «دفعة مقدَّمة كبيرة لبناء الجدار». وهذه لغة تغري ترامب على الدوام. أخبراه أيضاً أن كوري بوكر وبوب ميننديز، وحتى شوك شومر، سوف ينضمون للتصويت. ولكن، رغم ذلك، ظل هذا وهماً. فقد بقي صف الديمقراطيين متماسكًا، ولم يشهد أي انشقاق، وكان ما أخبراه به كذبًا.

استمر التعطيل الحكومي، الذي بات الآن التعطيل الأطول في التاريخ الأميركي. ولامت معظم استطلاعات الرأي، التي انطوت على فروق واسعة في الرأي، الرئيس وحزبه، لتسبّبهم بهذه الأزمة. وفي 25 كانون الثاني/يناير، أي بعد مرور 35 يومًا، استسلم ترامب أخيراً في جميع القضايا المنسوبة إليه، ووقّع قانونًا

أنهى التعطيل الحكومي مؤقتًا، زاعمًا أن هذا القانون «لم يكن استسلامًا قط». ووفقًا لهذا الإجراء، سوف يجري تمويل الحكومة في الأيام الأحد والعشرين القادمة. وسوف يحاول المفاوضون في الكونغرس التوصُّل إلى اتفاق يتعلّق بأمن الحدود، إلّا أن الديمقراطيين عمدوا من فورهم إلى رسم الخطّ الأحمر، وإعلان رفضهم لأي اتفاق يتضمن تخصيص أموال لبناء أي جدار.

لقد تطلّبت الزاوية التي حشر ترامب نفسه فيها الإقدام على فعل لا يصدّق، هو توجيه الضربة السياسية القاضية. وهكذا، يكون ترامب قد وقع من جديد في المأزق المألوف. لقد أراد ما أراده، لكنه لم يدرك بوضوح كيفية الحصول عليه. وهكذا أصبحت مسألة بناء الجدار، الذي أقسم على أن يلتزمها متجاهلاً تبعاتها اللوجستية والسياسية، ثم تجاهلها على مدى العامين الماضيين، حبلاً ملتفًّا حول رقبته.

أعلن ترامب أنه سوف يأمر بالتعطيل الحكومي مرة أخرى، ما لم تسفر المفاوضات المتعلقة بالميزانية عن أي نتيجة. وهو خيار لا يعتقد أي يكن أن باقي أعضاء حزبه يمكن أن يقبلوه. لذا، لم يبق لديه سوى اللجوء إلى التهديد عينه الذي تعوّد أن يستخدمه لأكثر من شهر، ثم لا يلبث أن يتراجع عنه، وهو أن يستخدم سلطات إعلان الطوارئ لبناء الجدار. ولكن تقلُّباته هذه قد أدّت إلى التقليل من شأن إعلان حالة الطوارئ. لقد ضحّى بالمنطق وبالتفوُّق على الآخرين.

حذّرت قيادة الحزب الجمهوري من إخفاق أي إعلان لحالة الطوارئ، بسبب معارضة الأغلبية في الكونغرس؛ الأمر الذي سيدعو ترامب إلى رفض أي قانون مدعوم من حزبه. ومهما تكن النتيجة، فإن من المؤكد أنه لن يتقرب بذلك إلى رفاقه الجمهوريين.

سارت الأمور من سيىء إلى أسوأ. وتتابعت التوبيخات اللاذعة واحدًا تلو الآخر. وفي 29 كانون الثاني/يناير، ذهبت مديرة السي.آي. إيه جينا هاسبل، ومدير مكتب التحقيقات الفيدرالي كريستوفر راي، ومدير الاستخبارات الوطنية دان كوتس، الذين عيّنهم ترامب، إلى الكونغرس، وقالوا إن الرئيس لا يملك أدنى فكرة عما كان يتحدّث عنه، في تقديره للتهديدات الموجّهة إلى الولايات المتحدة. ولم يحدث يوماً أن عارض رؤساء الاستخبارات الرئيس بهذه الصورة العلنية. فهم يقولون إن الرئيس

يعيش في عالم آخر.

في مطلع شهر شباط/فبراير، انشق النواب الجمهوريون جماعيًّا عن ترامب، وعارضوا خطّته لسحب القوات الأميركية من سورية. ومنذ سيطرة الديمقراطيين على مجلس النواب، استخدموا الكونغرس كفرع للحكومة موازٍ للبيت الأبيض. والآن، بات الجمهوريون يحذون حذوهم.

في قضية التحقيقات الخاصة بالشركات الفاسدة، سرَّبت مقاطعة جنوب مدينة نيويورك خبرًا مفاده أنها تحقّق مع مديري مؤسسة ترامب. وفجأة، أصدر المدعون العامّون في نيويورك مذكّرات جلب جديدة ومتنوّعة تتعلق بالأموال التي جمعتها لجنة تنصيب ترامب وأنفقتها، الأمر الذي يعني أن المحقّقين الفيدراليين كانوا يسيرون على خطى بانون المؤدّية الى هلاك ترامب المحتَّم.

ظلّ يصغي إلى كوشنر، ويعتقد، إلى حد ما، أن الديمقراطيين سوف يعرضون عليه اتّفاقًا يحفظ ماء وجهه. وظل يردد أن شوك شومر شخص يستطيع التحدث إليه.

وعن ذلك، قال لو دبز، أحد الداعمين الأساسيين لترامب وفلسفته، لبانون إنه لا يصدق كم أصبح الرئيس واهمًا.

* * *

بعد مرور ثلاثة أيام على انتهاء التعطيل الحكومي، دعت نانسي بيلوسي الرئيس لإلقاء خطاب «حالة الاتحاد» في 5 كانون الثاني/يناير. وفي الأيام التي سبقت الخطاب، أخذ حلفاء جاريد وإيفانكا يسرّبون تقارير تقول إن ترامب سوف يلقي خطاب «وحدة». كان هذا التسريب جزءًا من خطة كوشنر لاستغلال الأجواء و«المودة» الجديدة مع الديمقراطيين، بحسب ما قال للمقربين إليه. لم ينتهِ الأمر عند هذا الحد، بل إن كوشنر كان يلمح حتى إلى تملُّص ترامب من الجمهوريين وتوقيعه اتفاقيات مهمّة عدّة مع الديمقراطيين تتعلّق بالبنية التحتية وأسعار الدواء وإصلاح قانون الهجرة، الذي يتبنّاه كوشنر. ومثلما كان ترامب منذ بداية رئاسته، شخصًا مهووسًا بنفسه وغير مبالٍ، كان مستعدًّا للانصياع إلى رغبة ابنته وصهره في الحصول على وضع خاص. في الوقت ذاته، كان، وهو في العادة يفهم هذا، يعتمد

بالكامل على إيمان مؤيّديه المتحمّسين بأنه يدافع عمّن يدافعون عنه. وهو كثيرًا ما يترجَّح بين هذه المحاور المتباعدة ترجّحاً بحسب الوقت.

قبل أيام قليلة من خطاب «حالة الاتحاد»، كان بانون في مدينة نيويورك يتناول طعام الفطور مع أحد أصدقاء ترامب القدماء. ودار الحديث بينهما بإلحاح متزايد عن مصير دونالد ترامب.

قال بانون متوقعًا مدّة خطاب «حالة الأمة» وقوته: «أعتقد أنه سوف يرجع إلينا. إنه ممثل استعراضي ولا يستطيع أن يفقد جمهوره، ويمكنه أن يقرأ عواطف الجميع وأفكارهم». لكن بانون فهم أيضًا أن ترامب يعمل الآن في عالم تتناقص فيه العائدات سريعاً، وأن «النظام كله نفض يده منه».

وبعد عدد التحقيقات الجارية كلها، وتوقُّع النهاية المحتومة، تساءل صديق ترامب القديم قائلًا:

«مَن هذا الذي يتفاوض معه؟ كيف يمكن أن يستقيل؟».

أجاب بانون: «حسنًا، لن يستقيل بطريقة مهذبة وراقية. كان نيكسون راقيًا، مع أنه كان نيكسون الذي نعرفه. كان ذكيًّا. أما ترامب فليس راقيًا ولا ذكيًّا. لو فكّرت في الأمر، لوجدت أن التاريخ الأميركي لم يشهد كثيرًا من اللحظات غير اللائقة، فحتى الأشخاص السيئون يتناولون أدويتهم وهم يتوقعون نهايتهم. ولكن لن تكون الحال كذلك مع ترامب أبداً».

قال الصديق القديم مشيرًا إلى المرشح الرئاسي السابق الذي انتُخب مؤخَّرًا لعضوية مجلس الشيوخ: «ربما كان رومني الشخص الذي يذهب إليه، أم أنه ماكونيل؟».

قال بانون: «رومني.... مكروه. ماذا عن ميتش؟ مكروه أيضًا. لكنّه رجل صفقات. لا يمكنك أن تذهب إلى ترامب وتناقش معه العملية بهدوء.عليك أن تذهب إليه ومعك صفقة. إن الطريقة الوحيدة التي يغادر فيها ترامب هي الكف عن ملاحقته. وزارة العدل، المدّعي العام، وزارة العمل، فريق عمل الشركات الفاسدة جميعهم يلاحقونه، ولم يعد عليه حكمٌ بالسجن. ولا يزال يحتفظ بأمواله كلها. يجب أن يكون

هذا المال نظيفًا».

قال الصديق: «هذا لن يحدث». لا وجود لصفقة نظيفة. وما من شخص يستطيع أن يقدّمها إليه. لذلك، أجل، لا بد أن إيفانكا وجاريد هما اللذان سيقومان بإبلاغه ذلك. وهما، مثل جولي وديفيد إيزنهاور اللذين قصدا نيكسون».

ردّ بانون: «لكن ديفيد كان حفيد إيزنهاور. أما جاريد وإيفانكا فمن جنس مختلف. إنهما محتالان»، وهو وصف يستخدمه بانون منذ الأيام الأولى للإدارة الجديدة؛ وقد أدخله إلى قاموس المفردات السياسية الحديثة.

«إنهما يدركان أن احتيالهما سوف ينتهي في اللحظة التي يغادر فيها الرئاسة. سوف يستمر احتيالهما في لعبته ما دام هو في الساحة. هذا هو الاحتيال، وهذا ما يجعل شركة أبل ترد على مكالماتهما الهاتفية، وهذا ما يفسّر كيفية حصولهما على علاماتها التجارية من الصين. باللّه عليكم، ألا ترون أنهما تافهان؟ لو غادر الرئاسة لانفض الجميع من حولهما. ماذا؟ هل جاريد وإيفانكا هما من سيبقيان كاميلوت حيًا؟».

* * *

رغم مضي عامين على وجود ترامب في البيت الأبيض، لم يكن لديه مَن يكتب له خطاباته. وعند الإعداد لخطاب «حالة الاتحاد»، أوكل مساعدو ترامب معظم مادة الخطاب إلى رئيس مجلس النواب السابق نيوت غينغريش وموظفيه. أما الأجزاء الأخرى من المهمة، فتولاها جاريد وإيفانكا. وعلى الرغم من أنهما لم يشاركا في كتابة الخطاب، فإنهما قد اقترحا بعض الأفكار.

أما مستشار ترامب، ستيفن ميلر، فقد أدى أيضاً دورًا في كتابة الخطاب؛ لكنه لم يكتب سوى عرض بالبوربوينت، ما يعني أن دوره في صوغ المسودة النهائية للخطاب كان محدودًا. كذلك شارك ليفاندوفسكي وبوسي، اللذان ألّفا معاً كتابين؛ لكنّهما، فعليًّا، لم يشاركا في كتابة الخطاب.

كان هذا هو الفريق. وكانت المسوّدات الأولى للخطاب رنانة ومنمَّقة إلى درجة صعب على ترامب معها أن يقرأها. ولم يستطع أن يستوعب الرسائل

التجريدية للخطاب، وتلعثم في قراءة كلماته الرنّانة المثيرة للغثيان.

في ليلة إلقاء الخطاب، كان من اللافت أن أحدًا لم يرافق ترامب في سيارة الليموزين التي أقلّته إلى مبنى الكونغرس. ولوحظ الشيء ذاته لدى دخوله إلى المسرح. وقد جرت العادة أن ينتظر موظّفو البيت الأبيض وراء الكواليس، في الوقت الذي يلقي فيه الرئيس خطابه. لكن جاريد وإيفانكا فضّلا البقاء مع الأسرة، وانضما إلى دون جونيور وإريك وتيفاني وميلانيا في قاعة الجلوس، بينما تغيّب بارون.

قال بانون، وهو يستعد لمشاهدة الخطاب في نيويورك:

- «أنا في العادة أكره مشاهدة مثل هذه الأشياء التي تجعلك تشعر بالخزي». وبدا متفائلًا بحذر.

كانت مقتطفات من الخطاب النهائي قد سُرّبت إليه، فقال برضى بالغ: «لقد غابت الوحدة عن الخطاب».

استمر الخطاب ساعة وعشرين دقيقة. وبدا كما لو أنه واجب مدرسي لطالب في الثانوية عليه أن يكتب خطاب «حالة الاتحاد». وزّع الرئيس وقته بالتساوي تقريبًا بين إلقائه الكلمات المبتذلة عن أهمية تقبُّل وجهات النظر المختلفة، وهجومه العنيف. وعندما بدأ التمهيد للحديث عن موضوعاته المفضَّلة، وجّه انتقادًا لتهديده بالتحقيقات القادمة. ثم كرّر الحديث عن افتراضاته المتعلّقة بالجدار، وعن وعده ببنائه، وقال إن الحشود المهاجرة تسير باتجاهنا من جديد.

قال بانون: «هذا هو، هذا هو العنوان الرئيس. أي مكان آخر ستلجأ إليه، بالله عليك؟ إن كنت ستحشر نفسك في الزاوية، فعليك أن تكون مستعدًا لتنطلق منها مهاجمًا. كم مرة ستعلن أنك لن تقبل أقلّ من جدار كبير وجميل، ثم تقبل أقلّ من ذلك؟».

إن السياسة تفضّل الحركة السريعة. وفي أسوأ الأحوال، سوف تحتاج إلى ورقة أخرى لتلعبها. لكن هنا نرى ترامب خالي الوفاض.

* * *

قال أحد حلفاء ترامب: إذا وضعت ترامب في اجتماع للنواب الجمهوريين وأطفأت الأضواء ثم عددت إلى العشرة، فإنه سيموت». ومثل رئيسه، وجد الحزب الجمهوري، الذي كان يشعر بالأسى والخزي في آن، أنه لا يملك أي أوراق ليلعبها.

كانت المفاوضات التي استمرت 21 يومًا قد أشرفت على الانتهاء. وتحدَّد موعد التعطيل الحكومي الجديد في 15 شباط/فبراير. كان المفاوضون من مجلسَي الشيوخ والنواب يعملون بجد. وأبدوا قليلاً من الشك بخصوص إنجاز مهمتهم. وأظهروا القليل من الاهتمام تجاه ردّ فعل البيت الأبيض: فإمّا يوافق الرئيس وأمّا يصوّت الكونغرس من دون الحصول على دعمه. وسوف يتجاوزه إذا ما حاول نقض نتيجة التصويت. كان جاريد كوشنر يقول لكل من يقابله إن كل شيء تحت السيطرة، وأن ليس هناك ما يدعو إلى القلق؛ فلن تغلق المؤسسات الفيدرالية، ولن يُموَّل بناء الجدار. كل شيء على مايرام، وقد انضم الجميع إليه.

الاستثناء الوحيد كان الرجل الذي قضى حياته في الترويج لفوزه، والذي كان يخسر الآن. ومن أجل لفت مزيد من الأنظار إلى خسارته، حضر ترامب أمام حشد من الناس اجتمعوا على الحدود الأميركية - المكسيكية؛ وأكد أن الجدار سوف يُبنى، بل أصرّ على أنه قيد البناء، قائلاً: انظروا إلى هناك، ألا ترونه؟

لدى عودته إلى واشنطن، واصل كوشنر تأكيده أن حماه سوف يحظى بالصفقة التي يجري التفاوض عليها، وهي صفقة باتت أقلّ فائدة للرئيس، مما كانت على طاولة المفاوضات قبل التعطيل الحكومي.

قال كوشنر: «سوف يعودون الى استخدام اللغة القديمة»؛ ذلك أن القانون الجديد يتضمّن «دفعة مقدمًا» لبناء حاجز على الحدود»، و«سوف يوافق الرئيس على ذلك».

لكن الجيوش المعادية حاصرته. فمن جانب، واجه ترامب أغلبية ناخبين يعتقدون بأنه أساء استغلال سلطاته الرئاسية ودنَّس البلاد، وكانت هذه الأغلبية تتشدد في آرائها بمرور الوقت. ومن جانب آخر، واجه، بعد مرور أيام أو أسابيع قليلة، سيلًا من التحقيقات التي هدفت الى فضح جرائمه والسيطرة على رئاسته. ومن جانب ثالث، واجه تمرُّدًا متزايدًا، بل احتقاراً مكشوفاً من حزبه. ومن جانب رابع، واجه

أغلبية ديمقراطية في مجلس النواب تعهَّدت بتدميره. فهل سينجو هذه المرة أيضًا؟

* * *

في 14 شباط/فبراير، أدّى ويليام بار اليمين بعد تعيينه في منصب المدّعي العامّ. شملت مهماته الإشراف على المحقّقين الاتحاديين وهيئات المحلّفين الكبرى. وقد حل بار محل ماثيو ويتكر المدّعي العام بالإنابة الذي عيّنه ترامب بنفسه.

عقب تعيين ويتكر، أبلغ ميتش ماكونيل الرئيس بأن خطته لتجنُّب موافقة مجلس الشيوخ لن تنجح. كان ترامب بحاجة إلى تعيين شخص مقبول من الأغلبية الجمهورية، وكان عليه أن يفعل ذلك في أسابيع وليس في أشهر.

أمِلت قيادة الحزب الجمهوري أن يكون المدّعي العام وسيطًا بين الرئيس ومحقّقي وزارة العدل، بمن فيهم محقّقو مولر. وبالنظر إلى المدى البعيد، نجد أن المدّعي العام كان شخصًا إداريًّا في المفاوضات المعقّدة والدقيقة مع الرئيس، لتجنّب حدوث أي أزمة دستورية.

كان ماكونيل هو الذي اقترح تعيين بيل بار في هذا المنصب. وكان اختياره موفّقًا. فقد سبق له أن شغل هذا المنصب من العام 1991 إلى العام 1993 في إدارة الرئيس جورج بوش.

وقد تقبّله بات سيولوني، المستشار القانوني للبيت الأبيض ومحامي الرئيس رودي جولياني؛ الأمر الذي ولّد انطباعًا أشار إلى إجماعهم على طريقة سير الأمور إذا ما تدهورت الأوضاع، ودعت الحاجة إلى اتخاذ إجراءات قاسية.

قُدّم بار إلى الرئيس بوصفه شخصًا محترمًا له سجل يبيّن إيمانه بالرئيس القوي. وقد أعرب عن شكوكه علنًا بخصوص تحقيقات مولر، ولاسيما تأكيدها عرقلة العدالة. (في حزيران/يونيو 2018، أعرب بار عن رأيه في مذكّرة غير ملتمسة إلى وزارة العدل، وهي مذكّرة وصفها كثير من المراقبين الحقوقيين بأنها ليست أفضل من كتابة طالب حقوق في السنة الجامعية الأولى، وكان هدفها الوحيد التودُّد إلى الرئيس).

لكن، بالمعنى الأشمل، أخطأ ترامب الهدف. فما مثّله بار كان وجهة نظر المؤسسة. فهو لم يكن تابعًا للحزب الجمهوري ومواليًا لأسرة بوش فحسب، بل سبق له أن عمل لمصلحة وكالة المخابرات المركزية؛ وتجمعه علاقات طويلة مع أجهزة الاستخبارات. وقد جرى التعتيم على تلك التفاصيل عند تقديم أوراق اعتماده إلى الرئيس.

في ذلك الوقت، كان بار يقول لأصدقائه إنه يبحث عن وظيفة مجزية. فإذا ما نجح في عبور هذا الوضع المتأزّم، وحظي بقبول رئيس متقلّب لا يمكن التنبّؤ بتصرّفاته، وبقبول أغلبية ديمقراطية غير متسامحة وقيادة جمهورية كئيبة، وإذا ما نجح في الوقت ذاته في تحقيق بعض المثل الطوباوية للحزب الجمهوري، فسوف يجني ملايين الدولارات مستقبلًا. تمثّل التفويض الممنوح لبار في الحيلولة دون وقوع أزمة دستورية وتدمير الحزب الجمهوري. رأى بار أن النجاح في اجتياز مواجهة مكشوفة مع دونالد ترامب، من شأنه أن يكسبه مرتّباً مجزيًا وهو ما يستحقه.

* * *

قضى ترامب ليلة 14 شباط/فبراير في إجراء المكالمات الهاتفية. وأعاد ترتيب سلسلة الكوارث التي حدثت في الأسابيع القليلة الماضية، كمحاولة منه للخروج من المأزق.

كان يتذمَّر بمرارة، من أن أحداً لا يدافع عنه. وليس ثمة من ينوب عنه. لجأ المحققون الفيدراليون إلى الضغط على ألين ويزلبيرغ، كبير محاسبي شركات أسرة ترامب، ليقول ما لديه. كان محاميه السابق مايكل كوهن دمية في يد أسرة كلينتون، ومنعه جاريد من إعلان موقفه من بناء الجدار. وبالمناسبة، هو الذي قال لنفسه: لقد كانت الصفقة منتهية. وسوف يدان جاريد. هذا ما كان يتناهى إلى مسامعه.

وهكذا، لمعت في رأسه فكرة: ماذا لو عفا عن الجميع؟ أجل. عن الجميع! لمصلحة الوطن! عاد مرة ثانية إلى سحر سلطات العفو التي يتمتّع بها، وقال لنفسه: «يمكنني أن أعفو عن آل شابو» (ملك إمبراطورية المخدّرات في المكسيك).

قال لنفسه بتصميم مفاجئ: إن جميع الديمقراطيين ضعفاء، ويمكنني سحقهم جميعًا. لكن ميتش كان سبب البلاء. لكم كان ماكونيل خبيثاً!

ثم لمعت في ذهنه فكرة جريئة أخرى: ماذا عن نائب جديد للرئيس؟ وهكذا يتنحّى بنس، ويدخل شخص جديد؛ وتقع المفاجأة الكبرى. قال لنفسه بكآبة: «ربما عليّ أن أختار نيكي هالي لهذا المنصب.

أدرك أنه سيُقضى عليه عند إعلانه حالة الطوارئ الوطنية. لكن، ما الذي يمكن أن يفعله؟

عليه أن يفعل ذلك. هل يجب أن يفعل ذلك؟ لا مفر من ذلك. الجدار، الجدار، الجدار، الجدار اللعين.

قال بانون، وهو يشعر بالرضى: «إنه مثل غزال جريح».

في صباح اليوم الثاني، وبينما كان يجلس مذعورًا وهاذياً وعالقًا في دورة تيار وعيه، بدا أنه أراد الانتهاء من هذا الوضع، لأن المتعة قد انتهت الآن. لقد أعلن حالة الطوارئ الوطنية.

كلمة أخيرة
التقرير

مرّ الثالث من يناير/كانون الثاني، واتخذت الأغلبية الديمقراطية مقاعدها في مجلس النواب. واقتربنا أكثر فأكثر من صدور تقرير المستشار الخاص بشأن تحقيقه عن الانتخابات الرئاسية. وعلى الرغم من مرور أسابيع وأيام، لم تظهر أي بادرة أو علامة لهذا التقرير. ولكن، بحلول أواخر شهر فبراير/شباط، لاحت في الأفق نذر ما قد يحمله هذا التقرير من تأثير سلبي ساحق في مسيرة الرئيس ترامب، يفوق إلى حد بعيد كل الأسباب الأخرى. وشعر كثيرون بأن تأخُّر صدور التقرير، يعني أن روبرت مولر قد وجد تلاعبات خفية ومشبوهة، ما اضطره إلى التعمُّق أكثر فأكثر في أغوار دونالد ترامب، وتعاملاته الملتوية.

أما مؤيدو ترامب، فقد ظلت حقيقة عدم تسليم التقرير غصة في حلوقهم. وزاد شعورهم بالخوف والتشاؤم بمرور الوقت. وكان معيار ذلك هو آبي لويل، محامي جاريد كوشنر الذي ظل لشهور يتحدث بثقة تامة أن موكله غير متورط، ولكنه حاليًّا متوارٍ عن الأنظار. وأضحى الصمت مرعبًا؛ وكأنه الهدوء الذي يسبق العاصفة.

في الوقت ذاته، كان كوشنر يضع سيناريو متشائمًا. ففي أفضل الحالات، وحتى لو لم يوجّه الاتهام بالتآمر إلى أي مسؤول بارز في الحملة، أي إلى كوشنر نفسه أو فلين أو مانافورت أو دونالد ترامب الابن، أو حتى شخص الرئيس نفسه، يتوقَّع أن يتعرّضوا لحملة انتقادات لاذعة، بشأن سلوك الحملة واستعدادها، إن لم يكن ترحيبها، لقبول مساعدة روسية. وسوف يكشف تقرير مولر النقاب وبالتفصيل، عن سعي آل ترامب وراء مكاسبهم الشخصية، والانتفاع من وراء الحملة الانتخابية. أما

العراقيل التي واجهته، فكان كوشنر يأمل في الفكاك منها. ولكنه ظن أن شقيق زوجته، دونالد ترامب الابن، لن يفعل ذلك، وأنه على أقل تقدير سيوجه إلى الرئيس تهمة المشاركة في التآمر عن غير قصد. وحتى وإن لم توجه اتهامات إليه، فإن التقرير كفيل بتدشين حملة شرسة تنال من أحقّية دونالد ترامب في منصب الرئيس.

أين كنت عندما جرى تسليم التقرير؟ كان هذا سؤال طرحه ستيف بانون على نفسه، ويعتبره في أهمية السياق التاريخي لسؤال آخر مشابه؛ ألا وهو: أين كنت عندما وقعت أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول؟ نحن أمام مراجعة منهجية لرئاسة ترامب. نحن أمام اختزال لدونالد ترامب في جوهر وجوده ذاته. وبطريقة ما، فإن الحكم الذي تحاشاه دونالد ترامب طوال حياته على وشك أن يصدر في النهاية. ولم يكن أحد، وبالأخص بانون، يعتقد بأن الحكم سيكشف عن شخصية أخرى لترامب، خلاف ما هو عليها بالفعل.

القطار الجامح على وشك أن يصطدم بجدار صلد.

توشك الطائرة المحلقة أن تفقد جناحيها.

* * *

ولكن أين كان التقرير؟

الحقيقة أن جوانب التقرير قد اكتملت بحلول أوائل كانون الثاني/يناير. وكان معظم أعضاء فريق مولر يخطّطون بالفعل لمغادرتهم. إلا أن التعتيم ساد بين المحامين التسعة عشر، الذين عملوا على التحقيق في أجواء زمالة حقيقية. وقلّصت التحقيقات والمناقشات الداخلية التي دامت عامين من صلاحيات المستشار الخاص الواسعة، لتقتصر على مجموعة من القضايا المحدَّدة والمختارة بعناية. هل تآمر الرئيس أو أعضاء من دائرة مقرّبيه، مع عملاء روس بغرض التأثير في الانتخابات الرئاسية الأمريكية عام 2016؟ وإن لم يكن ذلك «الحدث» قد وقع، فهل يمكن توجيه تهمة عرقلة التحقيقات وسير العدالة إلى الرئيس؟

لم يرغب بوب مولر في تقديم تقريره إلى ماثيو ويتاكر، القائم بأعمال المدّعي العام. وقرّر الانتظار حتى يجري تثبيت تنصيب وليم بار، مرشح الرئيس لمنصب

المدعي العام. وبعد وقت قصير من تولّي بار منصبه الجديد في 14 شباط/فبراير، نقل وجهة نظره القائلة بأن البروتوكول يخصّ المدعي العام بطلب التقرير من المستشار الخاص، ولكنه لم يطلبه بعد. ولم يشأ بار تلقّي التقرير قبل أن يعقد الرئيس قمّته مع زعيم كوريا الشمالية في فييتنام نهاية فبراير/شباط. والحقيقة أنه قد لا يطلب التقرير إلا بعد انتهاء القمة المزمع عقدها مع الرئيس الصيني شي في نهاية شهر آذار/مارس.

تمثّل الرهان في هذه المرحلة في رغبة المدّعي العام الجديد في إعطاء الأولوية لشؤون البلاد المهمة. ولكن الواقع يقول إن بار كان أيضًا يحاول تثبيت قدميه في المنصب الجديد، قبل مواجهة عاصفة مولر المتوقعة.

أما في الكابيتول هيل، فقد تحوّل الانتظار والترقُّب إلى إحباط وغضب. وفي 4 آذار/مارس، نفد صبر اللجنة القضائية في مجلس النواب، وقرّرت إصدار طلبات إحاطة إلى واحد وثمانين من الأفراد والمنظمات، وسوف تباشر اللجنة تحقيقاتها الخاصة على الفور، ومن دون أي تأخير.

هكذا وجد بار يده مغلولة في ظل تحرُّكات اللجنة القضائية، التي تعكس رسالة واضحة مفادها أن مجلس النواب ذا الأغلبية الديمقراطية أصبح المتحكّم بالأولويات الآن. وفي 5 آذار/مارس، اجتمع المدّعي العام والمستشار الخاص للتشاور، وعرّفه مولر بفحوى نتائج تقريره.

في 14 آذار/مارس، تأجّلت القمة المرتقبة بين ترامب وشي، والتي كان من المفترض عقدها في مار لاغو. وبالتالي، طلب المدّعي العام التقرير رسميًّا بحلول نهاية الأسبوع التالي: أضحى الموعد النهائي الأخير هو الجمعة 22 آذار/مارس.

وفي اليوم ذاته، أي في الرابع عشر، أعلن أندرو ويسمان، مساعد بوب مولر الرئيسي، عزمه ترك العمل في مكتب المستشار الخاص. وكان ويسمان قد وعد بالاستمرار في التحقيقات حتى النهاية. ولكنه لم يعد يرغب في البقاء، بسبب خيبة أمل مريرة، كما حكى لمقرّبيه، بعد أن تعمّد مولر التركيز في نقاط بعينها في التحقيقات.

* * *

نجح روبرت مولر، ضابط مشاة البحرية السابق ذو الأعصاب الهادئة، خلال عامين من التحقيقات، أن يرسّخ في أذهان زملائه، وكل من هم حوله، صورة الرجل الزائغ الفكر، غير القادر على حسم قراره. أو بمعنى آخر صورة البيروقراطي الحريص على التورُّط في أي قرار. كان حائرًا دومًا بين رغبةٍ في استغلال صلاحياته الكاملة ضد دونالد ترامب، واعتقاد يؤرّقه بأنه يفتقر إلى تلك الصلاحيات. يعرف أنه قد يكون السبب في تقييم رئيس فاسد؛ ولكنه، في ذات الوقت، يسأل نفسه عن ذاك الحق الذي يخوّله تقييم رئيس البلاد الذي حاز الرئاسة بعد انتخابات سليمة؟ فمن ناحية، بوسعك توجيه اتهام إلى الرئيس بأنه يتصرّف وكأنه فوق القانون؛ وقد بقيت مسوّدة الاتهام السرية التي تسرد الانتهاكات التي ارتكبها الرئيس على مكتب مولر قرابة سنة. ومن ناحية أخرى، بمقدور العاقل وبطرق عديدة أن يتبيّن الحالات التي تصرّفت فيها الرئاسة من دون اعتبار للقانون.

كان الجميع أمام نتيجة بديهية لذلك الصمت الغريب من جانب مكتب المستشار الخاص. لقد أراد أن يُبقي الأمر كلّه حبيس عقله وحده. وعندما نأى به عن التداول والنقاش العام، استقر في المحيط الخاص، محيط بوب مولر. ووجد المستشار الخاص أن الإقدام على الخطوة الصواب تعني عدم الإقدام على أي شيء تقريبًا.

أراد مولر أن يعرف الجميع أنه، بقدر اهتمامه بدونالد ترامب، مهتم بكين ستار، المستشار المستقل الذي تولّى التحقيق مع بيل كلينتون. وبرغم حرص مولر على تذكير موظفيه بهذه المقارنة، فإن هناك اختلافات كبيرة بين دور المستشار الخاص ودور المستشار المستقل. ذلك أن مكتب المستشار الخاص ليس مستقلًا: فهو يتبع وزارة العدل مباشرة. وفضلاً عن ذلك، اعتقد مولر أن ستار، الذي عجز عن منع تسريب المعلومات من مكتبه، وتحقيقاته التي كانت تجري وفق أجندة خاصة، وكراهيته العلنية لبيل كلينتون، قد نجح، برغم كل ذلك في النيل من الرئاسة.

أجبر كين ستار الرئيس بيل كلينتون على الإدلاء بشهادته أمام هيئة المحلفين الكبرى. وأصبح البتّ في مسألة استدعاء الرئيس نقطة الضعف الرئيسية في تحقيقات مولر. وعندما قرّر المستشار الخاص عدم استدعاء الرئيس، كان بذلك يتجاهل إرادة كثير من موظفيه. هنا، لم يتعلق جزء من تحليل مولر فقط بالسلطة المحدودة للمستشار الخاص فحسب، بل كان أيضًا اعترافًا من جانبه بأن دفع الرئيس إلى الإدلاء بشهادته لا يعكس معركة عادلة، لأن ترامب بهذا يجرّم نفسه بكل تأكيد.

وبطريقة ما، قبل روبرت مولر جدلية دونالد ترامب؛ ألا وهي أن ترامب يبقى ترامب. من المنطقي استبقاء شخصية الرئيس الأساسية ماثلة أمام الرئيس. وبعبارة أخرى، ترامب ضد ترامب. ومن المثير للدهشة أنه وجد نفسه متفقًا مع البيت الأبيض «الكبير»: دونالد ترامب هو الرئيس، وهو الأمر الواقع الذي فرضته أصوات ناخبي هذه البلاد، سواءً رضينا بذلك أم لم نرضَ.

* * *

لكن الرئيس لا يعرف أي شيء من هذا، حتى الآن. فقد توصّل البعض في البيت الأبيض إلى معلومات عن محتويات التقرير، ولكنهم حرصوا بكل جدية ألّا تصل تلك المعلومات إلى الرئيس الذي لا يمكن لأحد أن يضمن ردود أفعاله أو أن يتوقّع خطواته، خشية أن يحتفل قبل الأوان. لقد بقي، بحسب وصف ثلاثة من حلفائه، «مجنونًا مهووسًا» حتى النهاية. وعكست تغريداته، التي لا تنفك تشطح دومًا، ما يهيمن على عقله من وساوس قهرية خلال عطلة نهاية الأسبوع التي سبقت الموعد النهائي للإفصاح عن التقرير؛ وكان ذهنه مهتاجًا للغاية. ومع ذلك، ظل مقتنعًا بأنه المنتصر، أو أن بوب مولر في كل الأحوال لن يمتلك شجاعة المثول أمامه. ربما رفع أعداؤه مولر فوق أكتافهم بطلًا، ولكن ترامب ما زال يعتبره نكرة.. لا شيء.

اللافت أنه، في الأيام التي سبقت التسليم الرسمي للتقرير، كان أحد الأشخاص الذين يتحدث إليهم الرئيس بصفة متكررة، صديقًا قديمًا ومساهمًا في حملته الانتخابية، هو روبرت كرافت، مالك نادي نيو إنغلاند باتريوت. ففي شباط/فبراير، اتُّهم كرافت بطلب خدمات عاهرة أثناء زيارة صالون تدليك في بالم بيتش بفلوريدا.

يرتاح ترامب في ما يبدو إلى فكرة أنه هو الذي يقدّم المشورة إلى صديقه بشأن ما يواجهه من مخاطر قانونية، حيث أسدى إليه وافر النصيحة، وأكد له أنها أفضل مما يمكن أن يزوّده به أي محام. فهو يعرف ما يجب القيام به. يعرف كيفية التعامل مع مثل تلك المواقف. يريدون منك أن تكون خانعًا، وعليك ألا تسمح لهم بذلك. قال له «أنت بريء»، على الرغم من أن الشرطة تمتلك تسجيل فيديو لكرافت في صالة التدليك.

* * *

شهدت نهاية يوم 22 آذار/مارس تسليم تقرير مولر. ولم تُصدِر هيئة المحلفين الكبرى أي لوائح اتهام في يوم الجمعة. وأكد مكتب المحامي الخاص أن تحقيقه لن يسفر عن أي لوائح اتهام جديدة.

لم تكن تفاصيل التقرير معروفة، وكذلك فحواه ونطاقه. ولم يكن واضحًا مقدار ما وصل إلى المدعي العام نتيجة هذا الجهد المضني الذي دام 22 شهرًا. ولكن بُعيد قبول التقرير، وجه المدّعي العام خطابًا موجّهاً إلى الكونغرس يعرب فيه عن ثقته بقدرته على تقديم موجز سريع بنتائج تقرير المستشار الخاص، ربما في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة.

ارتاحت أعصاب مؤسسة الرئاسة. ربما لم يكن في التقرير ما يشكّل تهديدًا إلى ذاك الحد.

وكان السؤال المحوري: إلى أي مدى حدّ بوب مولر من نطاق تقريره؟ ماذا لو أن جهده الرئيسي خلال العامين لم يكن تجاه تعزيز تحقيقاته، بل تجاه الحرص على تقييدها؟

يوم الأحد، وفي وقت متأخر من ظهيرة يوم ربيعي لم تتجاوز فيه درجة الحرارة ثماني عشرة درجة مئوية في واشنطن، أرسل المدّعي العام ملخصه للتقرير إلى الكونغرس. وفي خطاب من أربع صفحات، ذكر بار أن المستشار الخاص لم يتوصل إلى دليل على وجود مؤامرة للتأثير في مسار انتخابات العام 2016 بين ترامب أو مساعديه وممثلين عن الحكومة الروسية. أضف إلى ذلك أن المستشار الخاص، حين توصّل إلى أدلّة على احتمال تعمّد عرقلة العدالة، ترك الأمر لتقدير المدّعي العام بشأن متابعة تلك القضية. وفي خطابه، قال بار إنه قرّر أن ما توافر من الأدلة لا يستدعي المحاكمة.

وذكرت الرسالة النص الآتي: «أثناء التحقيقات، أحال المستشار الخاص مسائل مختلفة على مكاتب أخرى لاتخاذ مزيد من الإجراءات». وفي الواقع، بات هناك عشرات التحقيقات الفيدرالية والدولية التي تتعلق بالبيت الأبيض في عهد ترامب، ومؤسسة ترامب، وأسرة ترامب، ودونالد ترامب شخصيًّا. وتشمل الجرائم المحتملة قيد التحقيق: تبييض الأموال، الاحتيال في تمويل الحملات الانتخابية، إساءة

استخدام سلطة الرئيس في العفو، الفساد في تمويل حفل تنصيب ترامب، الكذب بشأن إفصاحات مالية، الاحتيال المصرفي.

على أن دونالد ترامب راغ الآن من مطارديه إلى حين. وكما قال ستيف بانون: «لا ترسل برجل بحرية في مهمة لا تليق إلا بقاتل محترف».

وبحلول مساء الأحد، ساد شعور ذكّرنا بذلك الذي ساد في ليلة انتخابات العام 2؛ وهو شعور بالخسارة والارتباك عبر وسائل الإعلام الرئيسية والجماعة الليبرالية، ولدى أولئك الذين كانوا واثقين بأنهم قد حاصروا دونالد ترامب ولم يسمحوا له بأي ثغرة فرار. كانت تلك هزيمة اقتُنصت من براثن النصر، إذا صح التعبير.

* * *

بادر ترامب إلى الإعلان عن «براءة تامة وكاملة». وانشغل بعدها بتلقّي مكالمات التهنئة والمباركة. وأجرى اتصالات أخرى سعيًا إلى سماع التهنئات. ولا نبالغ إذا قلنا إنه كان يبارك لنفسه أيضًا.

قال لأحد محبيه: «مَن الرجل؟ أنا هو. أنا هو». وأخذ يتباهى بجسارته، وضراوته، وفطنته الاستراتيجية. وكرّر وجهة نظره الثابتة: «لا تستسلم أبدًا.. أبدًا. فهم لا ينتظرون منك إلا بادرة ضعف. بادرة خوف. وأنا لا أخاف. هم يعرفون ذلك. وأنا مَن أخافهم بحق».

شنّ هجومه المتوقّع على الديمقراطيين والإعلام. ولم ينسَ، في خضم ذلك، أن يستهزئ بأصحاب الاتهامات الجنسية ضده. ثم توجّه بالنقد الساخر إلى روبرت مولر: «يا له من أحمق».

ربما كانت لدى ترامب وجهة نظر وجيهة هنا. فإذا كانت النتيجة تبرئة من المؤامرة والافتقار إلى أدلّة على عرقلة العدالة، فكيف لك ألا تبادر إلى التعريف بذلك، أو ما هو الأسوأ، كيف تسنّى لك أن تعزّز انطباعًا معاكسًا تمامًا؟ فعلى مدار عامين، زرعت التحقيقات السرية لدى الأمة أملًا في النيل من ترامب. هل بقينا طوال 22 شهرًا نسمع جعجعة ولا نرى طحينًا؟

ألحّ ترامب على شخص اتّصل به: «هل صرت في أمان؟ هل أنا آمن؟»، قبل أن يتطوع هو بالإجابة: «لن يتوقّفوا عن تعقُّبي والسعي ورائي».

هذه واحدة من أشد الانتكاسات زلزلةً للحياة السياسية الأميركية؛ ولكنها بدت لدونالد ترامب نتيجة طبيعية تمامًا. ها هو يروغ مرة أخرى من ضربة قاضية. لكن تبرئته لم تغيّر من الأمر كثيرًا؛ فهو لا يزال مذنبًا، لأنه دونالد ترامب. إن الأمر يتعلق بأن طبيعته وتصرفاته تتعارضان مع طموحات أغلبية الأمة، فضلاً عن كل شخص تعامل معه واحتك به. كما أن تلك الطبيعة وتلك التصرفات تقودانه إلى شفا التدمير الذاتي بلا ريب.

لقد نجا.. إلى حين.

شكر وتقدير

حين نُشر كتاب «نار وغضب»، دبّت قطيعة علنية وغاضبة بين الرئيس وستيفن ك. بانون، الرجل المسؤول، إلى حد بعيد، عن وصوله إلى سدَّة الرئاسة، بسبب التعليقات التي أوردها الكتاب على لسانه. وكان غضب دونالد ترامب سببًا في أن يخسر بانون تأييد مَن كانوا في صفه، مثل الملياردير بوب ميرسر وابنته ريبيكا، وأجبره على مغادرة موقع بريتبارت نيوز الإخباري الذي يمتلكه آل ميرسر.

ويحسب لشخص بانون أنه تمسَّك بكل ما ذكره في «نار وغضب» من دون شكوى أو تذمُّر أو مشاعر جريحة. وقلّة هي المصادر التي عرفتها خلال مسيرتي المهنية، والتي لم تبادر فور الكشف عنها، إلى إلقاء اللوم على من تسبّب في ذلك.

وها هو ستيف بانون، أفضل من فسّر لي خبايا ظاهرة ترامب، وأفضل دليل يمكن لمحظوظ أن يلتقيه قبل الغوص في غياهب عالم ترامب، وهو مَن أعتبره بمثابة الدكتور فرنكشتاين الخبير بالوحش الذي صنعه، يطل علينا من جديد في هذا الكتاب، مع كل شكري وامتناني لما أبداه من ثقة وتعاون.

* * *

أرى أن ستيفن روبن وجون ستيرلنغ، في دار نشر هنري هولت، نموذجان للناشر والمحرّر الذي يحلم به أي كاتب. وكانت حماسة ستيف وثقته سببًا في خروج هذا الكتاب إلى النور. ولرؤية جون الثاقبة ودقّته فضل على كل صفحة من صفحات الكتاب؛ بعد أن نجح بكل سلاسة وبراعة في الوصول بمحتواه إلى الغاية المنشودة، مرة أخرى. كما نجحت ماغي ريتشاردز ومعها بات آيزمان في التعامل مع التدابير

التسويقية بكل شغف وحنكة.

لا ريب في أن الكتابة عن رئيس فريد في تاريخ الولايات المتحدة، بما يتسم به من ميول انتقامية واتخاذ خطوات متقلّبة غير متوقّعة، تنطوي على مخاطر غير مألوفة في عالم النشر. لذا، أتوجه بالشكر إلى كل من جون سارغينت ودون وايزبرغ في ماكميلان، الشركة الأم لدار هولت، لما قدّماه من دعم كامل ومتواصل.

وفضلاً عما قدّمه وكيلي أندرو وايلي، وشريكاه جيفري بوسترناك في نيويورك وجيمس بولن في لندن، من نصائح وخدمات يومية، فقد تعاونوا لإتمام أمور الطباعة والنشر دوليًّا بكل سلاسة، برغم كل التعقيدات.

وبرغم ما واجه إريك رايمان وديانا فروست، المحاميان المعنيان بهذا الكتاب، من تهديدات قانونية من مؤسسة الرئاسة في أعقاب نشر «نار وغضب»، فإنها لم تفت في عضدهما، وتفقدهما ما يتحلّيان به من هدوء وشجاعة وعزيمة، بغية نشر الصورة كاملة.

ولطالما اعتمدت على مشورة الصديقة ليلا دي كريستر. وكذلك أشكر دانيت ليدور الذي حقّق ما ورد في النص من وقائع، وكريس دي كريستر الذي راجع النص بعد ذلك التحقيق، وإدوارد إيلسون وتوماس غودوين، لمساعدتهما في البحث.

وخلال صياغة ذلك القالب الدرامي الذي قدّمت فيه البيت الأبيض في عهد ترامب، ساعدني مايكل جاكسون، وجون ليونز، وجاي روش، وآري إيمانويل، في تصوُّر الجوانب الرئيسية لحبكة القصة السياسية، والتي لا تدور حول الأفكار التقليدية للسلطة والسطوة، بقدر ما تركّز في تصوير معارك الرجل غير العادية مع الجميع تقريبًا؛ ولاسيما مع نفسه.

وكامل تقديري للمصادر المجهولة في هذا الكتاب، وقد استفدت من مشورة الكثير منهم على نحو منتظم، إن لم يكن يوميًّا، خلال وضع هذا الكتاب.

وأخيرًا، كل الحب لزوجتي فيكتوريا، ملهمتي.



صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

سلسلة السّياسة

روبرت فيسك

- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الأول - الحرب الخاطفة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الثاني - الإبادة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الثالث - إلى البرية
- زمن المحارب
- ويلات وطن

د. عصام نعمان

- أميركا والإسلام والسلاح النووي
- حقيقة العصر - عصام نعمان وغالب أبو مصلح
- العرب على مفترق
- على مفترق التحوّلات الكبرى... ما العمل؟
- هل يتغيّر العرب؟

د. محمد حسنين هيكل

- آفاق الثمانينات
- بين الصحافة والسياسة
- حديث المبادرة
- الحل والحرب!
- خريف الغضب
- زيارة جديدة للتاريخ
- السلام المستحيل والديموقراطية الغائبة
- عند مفترق الطرق
- قصّة السويس
- لمصر.. لا لعبد الناصر
- وقائع تحقيق سياسي أمام المدّعي الاشتراكي

د. سليم الحص

- تعالَوا إلى كلمة سَواء
- سلاح الموقف
- صوتٌ بِلا صدى
- عُصارة العمر
- في زمن الشدائد لبنانياً وعربياً
- قِطاف من التجارب
- للحقيقة والتاريخ
- ما قَلّ ودَلّ
- محطّات وطنيّة وقوميّة
- نحن... والطائفيّة
- ومضات في رحاب الأمة

د. وليد رضوان

- تركيا بين العلمانيّة والإسلام في القرن العشرين
- العلاقات العربية التركية
- مشكلة المياه بين سوريا وتركيا

جوزيف أبو خليل

- قصة الموارنة في الحرب
- لبنان وسوريا: مشقّة الأخوّة
- لبنان... لماذا؟

بول فندلي

- أميركا في خطر
- الخداع
- لا سكوت بعد اليوم
- من يجرؤ على الكلام

كريم بقرادوني

- السلام المفقود
- صدمة وصمود
- لعنة وطن

شكري نصرالله

- السنوات العلبية
- مذكرات قبل أوانها

شادي خليل أبو عيسى

- رؤساء الجمهورية اللبنانية
- قيودٌ تتمزّق
- الولايات غير المتحدة اللبنانية

إعداد مريم البسّام

- حقيقة ليكس
- وثائق ويكيليكس الكاملة: لبنان وإسرائيل (الجزء الأول)
- وثائق ويكيليكس الكاملة: لبنان وإسرائيل (الجزء الثاني)
- مصر ثورة العشرين عاماً عبر تلفزيون الجديد

سلسلة السّياسة

غادة عيد

- ...؟! أساس الملك
- الخلوي أكبر الصفقات
- سوكلين وأخواتها: النفايات - ثروة... وثورة

موريال ميراك - فايسباخ

- عبر جدار النار
- مهووسون في السلطة
- السياسة الخارجيّة التركيّة: موريال ميراك - فايسباخ وجمال واكيم

جيمي كارتر

- السلام ممكن في الأراضي المقدسة
- ما وراء البيت الأبيض

إسلام كريموف

- أوزباكستان: على تعميق الإصلاحات الاقتصادية
- أوزباكستان: على عتبة القرن الواحد والعشرين

بيار سالينجر - إريك لوران

- حرب الخليج
- عاصفة الصحراء
- المفكرة المخفية لحرب الخليج

د. جمال واكيم

- جريمة ولا عقاب
- سوريا ومفاوضات السلام في الشرق الأوسط
- السياسة الخارجيّة التركيّة: موريال ميراك - فايسباخ وجمال واكيم
- صراع القوى الكبرى على سوريا

د. علي وهب

- الأخطبوط الصهيوني والإدارة الأميركية
- الصراع الدولي للسيطرة على الشرق الأوسط

ستيفن غرين

- بالسيف: أميركا وإسرائيل في الشرق الأوسط
- مساومات مع الشيطان

نعوم تشومسكي

- احتلّوا
- صناعة المستقبل
- **غزّة في أزمة** نعوم تشومسكي وإيلان بابه

د. سمير التنّير

- أميركا من الداخل
- أوباما.. والسّلام المستحيل
- معمودية النار

جون ك. كولي

- تواطؤ ضدّ بابل
- الحصاد

بنازير بوتو

- ابنة القدر
- المصالحة: الإسلام والديموقراطية والغرب

د. عبد السلام المجالي

- بوّابة الحقيقة
- رحلة العمر: من بيت الشعر إلى سدّة الحكم

إيلان بابه

- **غزّة في أزمة** - نعوم تشومسكي وإيلان بابه
- الفلسطينيّون المنسيّون

بالتعاون مع جامعة كولومبيا

- **الانتقال العسكري** - نارسيس سيرّا
- **أنماط الديمقراطية** - أرند ليبهارت
- **الديمقراطية والإسلام في إندونيسيا** - تحقيق: ميرجام كونكلر وألفريد ستيبان
- **الديمقراطية: أبحاثٌ مختارة** - تحرير: لاري دايموند ومارك ف. بلاتنر
- **ديمقراطيات في خطر!** - تحرير: ألفرد ستيبان
- **شرح أسباب الانتفاضات العربية** - تحرير: مارك لينش
- **عن الديمقراطية** - روبرت أ. دال
- **المقاومة المدنية في الربيع العربي** - تحرير آدم روبرتس ومايكل ج. ويليس وروري مكارثي وتيموثي غارتون آش

د. ياسر عبد الحسين

- الحرب العالمية الثالثة - داعش والعراق وإدارة التوحّش
- السياسة الخارجية الإيرانية

تيم واينر

- الأعداء

- **الرايات السود** – علي صوفان بالاشتراك مع دانيال فريدمان
- **رؤية للمستقبل** – الرئيس أمين الجميل
- **رئيس مجلس الوزراء في لبنان بعد الطائف (١٩٨٩ – ١٩٩٨)** – محمود عثمان
- **السايفربانك** – جوليان أسانج
- **سجن غوانتانامو: شهادات حيّة بألسنة المعتقلين** – مايفيتش رخسانا خان
- **السكرتير السابع والأخير** – ميشيل هيلير
- **سورية: مملكة الأسد** – ديفيد دبليو ليش
- **صراعات الجيل الخامس** – إميل خوري
- **الصراع على السلطة في لبنان: جدل الخاص والعام** – زهوة مجذوب
- **الصهيونية الشرق أوسطية والخطّة المعاكسة** – إنعام رعد
- **صيف من نار في لبنان** – الجنرال ألان بيلليغريني
- **ضريبة الدم** – ت. كريستيان ميلر
- **الضوء الأصفر** – عبدالله بو حبيب
- **الطبقة الخارقة** – دايفيد ج. روثكوبف
- **طريق أوسلو** – محمود عباس (أبو مازن)
- **عدوّ عدوّي** – لورا أيزنبرغ
- **العرب والإسلام في أوزباكستان** – بوريبوي أحمدوف وزاهدالله مندوروف
- **عزيزي الرئيس بوش** – سيندي شيهان
- **العلاقات الأردنية – اللبنانية** – أسعد كاظم جابر الغزّي
- **العلاقات اللبنانية السورية** – د. غسان عيسى
- **العودة إلى الصّفر** – ستيفن كينزر
- **الفرص الضائعة** – أمين هويدي
- **فنّ التجسُّس** – هنري آ. كرامبتون
- **الفهم الثوري للدين والماركسية** – زاهر الخطيب
- **في قلب المملكة: حياتي في السعودية** – كارمن بن لادن
- **قراصنة أميركا الجنوبية: أبطال يتحدّون الهيمنة الأميركية** – طارق علي
- **قصور من الرمل** – أندريه جيرولينياتوس
- **قضيّة ساقة** – يوست ر. هيلترمان
- **قضيّتي ضد إسرائيل** – أنطوني لوينستاين
- **القياصرة الأميركيون** – نايجل هاملتون
- **كل يوم هو إضافة** – جون كيري
- **لبنان بين ردّة وريادة** – أبير منصور
- **اللوبي** – إدوارد تيفنن
- **اللوبي الإسرائيلي والسياسة الخارجية الأميركية** – ستيفن والت وجون ميرشايمر
- **اللوبي الصهيوني في فرنسا** – شاكر نوري
- **الماسونية: دولة في الدولة** – هنري كوستون
- **المال... إن حَكَم** – هنري إده
- **ما بعد القتال** – حسام مطر
- **مبادئ المعارضة اللبنانية** – الرئيس حسين الحسيني
- **نحو العراق** – مايكل أوترمان وريتشارد هيل وبول ويلسون
- **مدن تحت الحصار** – ستيفن غراهام
- **مذكرات نيلسون مانديلا** – نيلسون مانديلا
- **المراقبة الشاملة** – أرماند ماتّلار
- **مزارع شبعا: حقائق ووثائق** – منيف الخطيب
- **مصر على شفير الهاوية** – طارق عثمان
- **مفاتيح السياسة الروسية** – ستيفن وايت
- **منبر الحوار ٢٠٠٨ – لبنان: أزمات الداخل وتدخّلات الخارج** – مركز عصام فارس للشؤون اللبنانية
- **ميادين التدخّل** – جيمس ستوكر
- **نحو دولة حديثة: بعيداً عن ٨ و١٤ آذار** – الشيخ محمد علي الحاج العاملي
- **نظرية الاحتواء** – إيان شابيرو
- **النفط: استراتيجيّاً وأمنيّاً وعسكريّاً وتنمويّاً** – د. هاني حبيب
- **النفط والحرب والمدينة** – د. فيصل حميد
- **هكذا.. وقع التوطين** – نادي شريم الحاج
- **الهياكل المالية للتنظيمات الإرهابية** – صادق علي حسن
- **الواجب** – روبرت م. غايتس
- **الوجه الآخر لإسرائيل** – سوزان نايثن
- **الولايات المتحدة: الصقور الكاسرة في وجه العدالة والديموقراطية** – تحرير: برند هام
- **وهم السلم الأهلي** – حسين يعقوب
- **ويليس من تونس** – ناديا خياري
- **٥٠٠ يوم** – كورت آيكنوالد

Notes

[1←]

ـادر عن شركة المطبوعات (2018).

[2←]

RICO) Racketeer Influenced and Corrupt Organizatio

[3←]

ـد بالبائسين، مؤيّدي ترامب (تعبير استخدمته هيلاري كلينتون وتبنّاه بانون). المترجم.

[4←]

خدم ترامب بالإنكليزية تعبير Chicken shit، وهو بحرفيّته يعني «مخلّفات الدجاج»، في إشارة إلى تفاهة الأمر، علماً أن التعبير يتضمّن بالإنكليزية إشارةً إلى الجُبن وعدم الشجاعة.

[5←]

أيضاً، مع مردافاته في لغات العالم الأخرى، هاشتاغ انتشر بصورة كبيرة وواسعة على وسائل التواصل الاجتماعي حول العالم خلال شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام 2017، لإدانة واستنكار الاعتداء والتحرش الجنسيّين، وذلك على خلفية فضيحة هارفي واينستين الجنسية التي وجهتها عشرات النساء لمنتج أفلام هوليوود البارز هارفي واينستين.

[6←]

ـ بوتمكين يخفي ظاهرها داخلها. وغدت مصطلحاً يستخدم للتعبير عن الخداع. (المترجم)

[7←]

إشارة إلى «المرشح المنشوري»، وهو عنوان رواية للكاتب ريتشارد كوندون، صدرَت سنة 19. تروي قصة جندي أميركي يعود من الحرب الكورية بعد أن جرى تجنيده لمصلحة السوفييت والصينيين إثر عملية غسل دماغ. أي إن ترامب كان مرشحًا خاضعًا لسيطرة دولة أجنبية (المترجم).

[8←]
ـي بذهاب مجموعات من المشاركين والمتطوعين في حزب ترامب حتى أبواب الناخبين والاستماع إليهم والتحدث معهم عن المشكلات التي تهمّهم، وحثّهم على انتخاب ترامب (المترجم).

[9←]
امج تلفزيوني كان يقدمه ترامب (المترجم).

[10←]
Wag the D: أي نظرية تحويل الانتباه.

[11←]
ى شخصيات رواية «تمرد على المدمرة كاين»، للروائي الأميركي هرمان ووك. قبطان مهووس بمخالفات النظم العسكرية التافهة، والأمور الثانوية، بحيث يعرّض سفينته وطاقمه للخطر (المترجم).

[12←]
كة خيالية تقع وسط أوروبا وعاصمتها سترلسا، وفيها تدور أحداث ثلاثة كتب للروائي البريطاني أنتوني هوب (المترجم)

[13←]
إنترنت: هو مصطلح يستخدم لوصف شعار أو فكرة تنتشر بسرعة من شخص إلى آخر عن طريق الإنترنت.

[14←]
ادف عيد العمال في أميركا أول يوم اثنين من شهر أيلول/سبتمبر.

[15←]
Fe، الصادر عن شركة المطبوعات بالعربية بعنوان «خوف: ترامب في البيت الأبيض»، 2018.

[16←]
البروتستانت الأنجلو-ساكسونيّن البيض WASP-White -

Anglo-Saxon Protestant

[17←]
خرج ترامب تعبير «rague Killers»، وهو يعني القاتل الذي يخطّط وحده لعملية القتل، لأسبابٍ غير واضحة، وبطرق غير متوقّعة، وقد قصد ترامب بهذا التعبير بأن القتل لم يتمّ بأمر رسمي، مشيراً إلى أن العائلة المالكة السعودية لا دخل لها بالأمر

[18←]
لية للتلاعب بحدود الدوائر الانتخابية، هدفها مساعدة فريق معيّن على الوصول إلى السلطة. (المترجم)